دار الكتاب

تقدم الى القارىء العربي
مؤلفاً اجتماعياً فريداً شاملاً يبحث في
جميع النواحي الثقافية التي
تقوم عليها المجتمع العربي

العلاقات الاجتماعية
في الشرق العربي

تأليف

الدكتور سيوارت ضود
استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة بيروت الاميركية

الى اين يسير العالم العربي ؟ ان هذا الكتاب يساعد
كل مواطن عربي على الاجابة على هذا السؤال الخطير
فيضع امامه مجال المساهمة في تقرير مستقبل البلدان العربية

العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي

AUB LIBRARY

● يواجه الشرق العربي اليوم، بتقاليده القديمة الراسخة الغرب بعلمه وقوته السياسية. فماذا يجب ان يأخذ العرب عن الغرب وماذا يجب ان ينبذوا؟ بماذا يجب ان يحتفظوا من ثقافتهم وماذا يجب ان يعملوا؟ ان كتاب « العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي » يبحث مبادىء كل مؤسسة اجتماعية او ناحية من نواحي الثقافة ويستشهد من الشرق ومن الغرب، لكي يساعد القارىء اختيار الملائم منها. فهدف الكتاب، اذن، ان ما في الغرب باحسن ما في الشرق العربي.

● لقد اعد كتاب « العلاقات الاجتماعية العربي » لطلاب الجامعات لكي يعرفهم بمختل المواطنة في امة حديثة، ولكي يعرفهم ايضاً بالعلوم وبعبارة اوضح لكي يطلعهم على الطريقة العلمية المشاكل.

اما في طبعته العربية، فقد أُعدّ كل فصل يثير في نفس القارىء التفكير بالامور التي ويتساءل عنها، ويدرس عنها، فيكوّن له رأياً ويمتحنها عملياً كلما استطاع الى ذلك سبيلاً.

● يجب ان يقرأ هذا الكتاب المواطنون الذين يرغبون في تفهم وضع البلدان العربية و العالمي بين مختلف المبادىء الحالية من فاشية وديمقراطية وشيوعية.

يجب ان يقرأه القوميون الذين ينشدون تكوين امة قوية سليمة، لا في حكومتها فحسب، بل في حياتها الاقتصادية والتربوية والصحية والعلمية. ذلك ان هذا الكتاب يشتمل على المبادىء والطرق المتبعة في كل ناحية من نواحي الحياة القومية.

فهل يستطيع المواطن الواعي ان يكون جاهلا المشاكل التي يبحثها هذا الكتاب؟

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

سيوارت ضود

العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي

الناشرون
دار الكتاب

ستيوارت ضود

أستاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة الاميركية بيروت
وحالياً مدير الابحاث الاجتماعية في جامعة وشنطون

CA:AUB
915.6
D63aA
c.1

العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي

نقله الى العربية

فريد جبرائيل نجار

أحد أساتذة العلوم الاجتماعية
في الجامعة الاميركية ببيروت سابقاً

الناشرون
دار الكتاب
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

كان نصيب العلوم الاجتماعية من اللغة العربية اقل جميع العلوم، ذلك لان هذه العلوم كانت تعتبر دائماً بعيدة عن حياتنا الواقعية، وكانت تعد دراستها خسارة في الوقت وضياعاً في المجهود... وحجتهم انها لا تستند الى قاعدة، ولا يمكن قياسها بمقياس مضبوط كما تقاس العلوم الطبيعية... وعلى هذا كانت الكتب العربية التي تعالج علم الاجتماع قليلة جداً، بل مفقودة اذا استثنينا بعض الكتب التي تتناول الموضوع بطريقة ادبية فلسفية، لا تمت الى الطريقة العلمية بصلة، يطالعها القارىء فيخرج منها بنظريات عامة ومعلومات غامضة، لا يرى مجالا لتطبيقها... وكان من جراء هذا النقص تبلبل مصطلحات علم الاجتماع في اللغة العربية وصعوبة انزال المعاني فى عبارة عربية مستقيمة... فلا غرو ان احجم المؤلفون والمترجمون العرب عن الكتابة في هذا الموضوع، لما يتجشمون من المشاق ويلاقون من الصعاب في ايجاد المصطلحات العربية الملائمة لترجمة علم الاجتماع.. ومما يؤسف له ان تسود الفوضى والارتباك هذه المصطلحات رغم ضآلتها؛ وكثيراً مايشعر القارىء بضرورة البحث عن مصادرها الانكليزية او الفرنسية لكي يتمكن من تفهم ما يقرأ في لغته...

وفي الواقع اننا نجد بين مؤلفي العرب ومترجميهم للعلوم الاجتماعية، تباينا كبيراً في استعمال المصطلح الواحد مما ادى الى هذه الفوضى، فانك لتجد من التعابير العربية للمصطلح الواحد مقدار ما تجد من الكتاب والمؤلفين في الموضوع.

ولا ريب ان تاريخ البلاد العربية السياسي، وقد بقيت هذه البلاد سبعة قرون تحت النفوذ الاجنبي، قد اثر تأثيراً بعيداً على تقدمها الثقافي في مختلف الحقول والنواحي، كما ان تعصب رجال اللغة وتمسكهم بالقاموس العربي والقواعد العربية وعدم

سماحهم بادخال المصطلحات الجديدة التي لا تتفق مع ما الفوا في قواميسهم، قد فعل كثيراً في تأخير هذا التطور ايضا... وقد فات هؤلاء ان العالم آخذ بالتطور السريع في جميع نواحيه العلمية والاجتماعية والاقتصادية... وان اللغة يجب ان تتطور لكي تماشي هذا التقدم، والا اصبحت متأخرة عنه عاجزة عن مسايرته، وذلك يعني ان قواعدنا وقواميسنا يجب تنقح وتجدد بين الفينة والفينة فتدخل فيها مشتقات جديدة تعبر عن المعاني الجديدة التي تستحدث في كل علم لكي يتمكن العلماء من التعبير عن علومهم بسهولة وطريقة صحيحة... ونستطيع القول ان مصطلحات علم الاجتماع العربية لم تتبدل تبدلا يذكر منذ عهد ابن خلدون، فهي لا تزال قليلة لا تستوعب جميع المعاني والتطورات الجديدة، كما ينقصها النظام والتوحيد ليصبح المصطلح الواحد يعني امراً واحداً عند جميع الكتاب وجميع القراء.. وقد حاول المترجم في اطروحته - التي نال من اجلها درجة « استاذ علوم » في العلوم الاجتماعية يوم كان استاذا لهذه العلوم في الجامعة الاميركية، - سد بعض هذا النقص، فاوجد بالتعاون مع الدكتور « ضود » ما يقرب من الف مصطلح عربي لالف مصطلح انكليزي في مختلف المواضيع الاجتماعية، وهذه المصطلحات هي نواة لقاموس علمي يعده المترجم والمؤلف لايجاد مصطلحات اجتماعية جديدة وتثبيت معانيها وتوحيدها وتعريفها بطريقة علمية عملية تمكن القارىء من فهم الكاتب كما تمكن الكتاب من استعمال مصطلحات موحدة.. اما الاطروحة، وعنوانها « تعريف المصطلحات الاجتماعية تعريفاً عملياً علمياً وترجمتها الى اللغة العربية »، فيمكن مراجعتها في مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت.

وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب - والمؤلف ثقة عالمية في العلوم الاجتماعية - ان يدرس العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي دراسة علمية، فكانت محاولته هذه هي الاولى من نوعها لا في العالم العربي فحسب بل في العالم قاطبة، لانها اول مرة تدرس فيها العلاقات الاجتماعية في بيئة ما دراسة تراعى فيها الطريقة العلمية على اوسع نطاق... وقد صنف المؤلف الظواهر الاجتماعية على اساس اربعة

قطاعات، فكان تصنيفه هذا فريدا في بابه في العلوم الاجتماعية كافة وفتحاً جديداً وخطوة عملية تجعل هذه العلوم كبقية العلوم الطبيعية، قائمة على اسس علمية تمكن المشتغل بها في المستقبل من استخدام طريقة الملاحظة والقياس والتحقق كما يفعل علماء العلوم الطبيعية اليوم. بيد ان هذه المحاولة لا تزال في مبدأها ولكنها تبشر بمستقبل باهر، يقضي على الفوضى والارتباك السائدين في العلوم الاجتماعية ويركزها على اسس علمية صريحة، فيدخلها في حظيرة العلوم الرياضية والطبيعية. ومما يثبت لنا قيمة هذا الكتاب واهمية الاسلوب الذي نهجه المؤلف، ما ناله من الاعجاب والاستحسان في الولايات المتحدة حيث قالت فيه جمعية العلوم الاجتماعية الاميركية: «انه يصلح لان يكون في اسلوبه وطريقته العلمية المبتكرة، الكتاب القياسي العالمي الذي يمكن النسج على منواله في تأليف كتب العلوم الاجتماعية للجامعات».

وقد اعد هذا الكتاب للمواطنين العرب الذين دخلت بلادهم في جامعة الدول العربية... فقد بدأ هؤلاء يتعلمون حقوق وواجبات المواطنين في البلاد المستقلة ويواجهون مشكلة المزج بين افضل ما يجدونه في ثقافتهم وافضل ما يقررون اقتباسه من الثقافتين الاوروبية والاميركية. وهو، الى ذلك، يستهدف مساعدة العرب على النهوض بامهم الناشئة ومماشاة هذا العالم الحديث المتشابك بعلاقاته ومصالح اهله.

وعلى هذا لا نستطيع ان نعد هذا الكتاب مجرد بيان باحوال الشرق العربي او احوال الغرب فقط، او ان نعده كتاباً يبحث في مبادىء العلوم الاجتماعية، بل انما هو مزيج من جميع ذلك، يستهدف زيادة معلومات القارىء واثاره تفكيره واحيانا اثارة رغبته في العمل على حل مشاكل بلاده. وقد اجمل المؤلف هذه المشاكل بانتظام تحت المؤسسات الاحدى عشرة الرئيسية، التي نجدها في كل مجتمع، ثم جمع هذه المؤسسات في البيئات مبتدئا باصغرها حتى اكبرها، ثم تناول نشأة المجتمع منذ بدايته حتى حاضره ومستقبله. وهكذا نجد انه مجمل نظامي للعلوم الاجتماعية، ودراسة للعلاقات المتبادلة بين الناس — العلاقات المكانية والزمنية —

وتطبيق هذه الدراسة بصورة خاصة على الشرق العربي . . .

وهذا الكتاب – باستثناء بعض الاقسام التي كتبت خصيصا للطبعة العربية – هو ترجمة حرفية للطبعة الانكليزية الثالثة لكتاب « العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي » الذي اعد ليكون درسا في المواطنة او مقدمة لعلم الاجتماع يدرس في السنة الاولى من الجامعة الاميركية في بيروت، حافظ فيها المترجم على الاصل الانكليزية وراعى الامانة في النقل. الا ان « دار الكتاب » التي اخذت على عاتقها نشر هذه الطبعة العربية، قد رأت، بعد الاتفاق مع المؤلف والمترجم، ضرورة حذف بعض الفقرات واجراء بعض التصرف في الترجمة كما حذفت الفصلين الخامس والعشرين والثامن والثلاثين برمتيهما، ذلك لكي تزيل الصبغة المدرسية عن الكتاب وتجعل عامة القراء يستسيغونه ويتوقون الى مطالعته. وهنا لا بد من الاشارة الى الجهود التي بذلها الاستاذ يوسف الخال احد صاحبي «دار الكتاب»، في سبيل تحقيق هذه الغاية وجعل الطبعة العربية خالية من الطابع المدرسي، يتوق الى مطالعتها الطالب العربي كما يتعرف اليها القارىء العادي ايضا .

وها اننا نقدم اليك ايها القارىء الكريم كتابا هو الاول من نوعه في لغتك، كتابا يتناول العلاقات الاجتماعية القائمة بين ابناء البلاد العربية، وبينهم وبين محيطهم، كتاباً يدرس مشاكلهم ومعضلاتهم بطريقة نظامية علمية هي الاولى من نوعها في العالم، فعسى ان تجد في مطالعة هذا الكتاب ما يساعدك على تفهم مشاكل بلادك ويمكنك من المساهمة في حلها ورفع شأن البلاد العربية ومستواها الاجتماعي، كي تتبوأ المكانة اللائقة بها في مختلف نواحي الحياة . . .

فريد جبرائيل نجار

بيروت – آب ١٩٤٧

محتويات الكتاب

	الصفحة
الفصل الاول – قطاعات المجتمع	١
غاية الكتاب	١
حدود الكتاب	٢
خطة الكتاب	٣
القطاع الاول – الشعب	٦
القطاع الثاني – المميزات المترابطة	٦
القطاع الثالث – المكان	١٠
القطاع الرابع – الزمن	١١
الفصل الثاني – تعداد الناس	١٣
ملاحظة مميزات الشعب	١٣
ضبط عدد الناس	٢٢
اهمية حجم السكان	٢٢
تناقص السكان وتكاثفهم في الشرق العربي	٢٤
العوامل التي تغير عدد السكان	٢٤
ضبط عدد السكان	٢٦
الفصل الثالث – العائلة	٢٨
اساس المؤسسة العائلية	٢٨
وظائف العائلة	٢٨
العائلات البشرية والعائلات الحيوانية	٢٩
انواع العائلات البشرية	٣٠

ادوار الحياة العائلية	٣٢
الحياة العائلية في الشرق العربي	٣٣
مشكلة البغاء	٣٤
العوامل التي تؤثر على العائلة	٣٧
اهمية العائلة	٣٨
الفصل الرابع — حالة المرأة	٣٩
لمحة تاريخية	٤٠
فى الشرق العربي	٤٢
الاحتفاظ بالقيم العربية	٤٣
اقتباس التطورات المرغوب فيها	٤٤
اهمال التطورات غير المرغوب فيها	٥٠
الخلاصة	٥١
الفصل الخامس — البيت	٥٣
اهمية البيت	٥٣
مهمة البيت	٥٥
الاخطار التي تهدد البيت	٥٨
سياسة البيت	٦١
تشجيع اللعب	٦٢
المكافأة لا العقاب	٦٢
الصدق	٦٣
التدريب على الاستقلال	٦٣
الفصل السادس — رعاية الطفل	٦٤
الابوة والامومة	٦٤
سيكولوجيا الطفل	٦٦
العناية بالطفل قبل الولادة	٦٦

مدة الطفولة	٦٧
طور الحضانة	٦٧
طور المدرسة	٦٧
تشغيل الاحداث	٦٩
الفصل السابع — اهداف التربية	٧٠
اهداف التربية	٧١
الفصل الثامن — المشاكل التربوية	٨١
تنوع التربية	٨١
اثر هذا التنوع	٨١
نقص التعليم الحرفي او المهني	٨٣
مالية التعليم	٨٥
تعليم البدو	٨٨
الخلاصة	٩٠
الفصل التاسع — الانتاج	٩٢
مبادىء الانتاج	٩٢
عوامل الانتاج	٩٣
انواع ثقافات الانتاج	٩٦
منظمات الانتاج	١٠١
الخلاصة	١٠٤
الفصل العاشر — الزراعة	١٠٥
اليقظة الحاضرة	١٠٦
حجارة الزاوية في التقدم الزراعي	١٠٨
الخلاصة	١١٢
الفصل الحادي عشر — النقد	١١٣
اسباب التبادل	١١٣

مصطلحات التبادل التجاري ١١٤
نشوء النقد والاعتماد ١١٥
نشوء المصارف ١١٧
الاعتماد الزراعي ١١٩
السيطرة على النقد وضبط الاسعار ١٢١
الخلاصة ١٢٢
الفصل الثاني عشر — مستوى المعيشة ١٢٤
معنى مستوى المعيشة ١٢٤
متوسط مستوى المعيشة ١٢٦
توزيع مستويات المعيشة ١٢٩
مشكلة الفقر ١٣٢
الفصل الثالث عشر — التعاونيات ١٣٦
تاريخ التعاونيات ١٣٧
انواع التعاونيات ١٣٩
التعاونيات الزراعية ١٣٩
تعاونيات الاستهلاك ١٤٠
تعاونيات الاعتماد ١٤٠
تأثير التعاونيات ١٤١
مبادىء تنظيم الجمعيات التعاونية ١٤٤
دعم الحركة التعاونية ١٤٥
علاقة الجمعيات التعاونية بغيرها ١٤٧
الفصل الرابع العشر — الحكومة ١٤٩
منشأ الحكومة وهدفها ١٥٠
تشكيلات الحكومة ١٥١
مشاكل الموظفين في الحكومة ١٥٥

مشاكل الميزانية ١٥٧
مشاكل الانتخاب ١٥٩
الفصل الخامس عشر — القانون والاجرام ١٦١
سن القوانين ١٦١
الاجرام — مخالفة القانون ١٦٢
تصنيف الجرائم ١٦٣
اسباب الجرائم ١٦٣
تنفيذ القانون ١٦٥
الفصل السادس عشر — الاصول البرلمانية ١٧٣
كيف تسيّر جمعية نظامية اعمالها ١٧٤
الفصل السابع عشر — اليهودية ١٨١
الديانة الابتدائية ١٨١
التوحيد وتعدد الالهة ١٨٢
تطور الديانة اليهودية ١٨٤
الفصل الثامن عشر — الديانة المسيحية ١٩٢
نشوء المسيحية ١٩٢
انقسام المسيحية الى طوائف ١٩٨
الفصل التاسع عشر — الديانة الاسلامية ٢٠٢
نشوء الاسلام ٢٠٢
رسالة محمد الدينية ٢٠٣
الفروق المذهبية في الاسلام ٢٠٩
الحركة الوهابية
الفصل العشرون — الاديان الاخرى ٢١٢
الزردشتية ٢١٢
الديانة الكونفوشيوسية ٢١٦

الهندوسية	٢١٧
البهائية	٢١٨
وحدة الدين	٢٢٠
فلسفات نصف دينية في الحياة	٢٢١
بعض القيم الاخرى	٢٢٤
الفصل الواحد والعشرون — الصحة العامة	٢٢٥
تمهيد	٢٢٥
الامراض السارية الرئيسية	٢٢٦
مبادىء مكافحة المرض	٢٢٩
الفصل الثاني والعشرون — المصابون بالنقص	٢٣٤
تعريف المشكلة الاجتماعية	٢٣٤
مبادىء حل المشكلة الاجتماعية	٢٣٤
الفصل الثالث والعشرون — التأمين الاجتماعي	٢٤٣
الحاجة الى التأمين	٢٤٣
انواع التأمين	٢٤٤
المبادىء العملية للتأمين	٢٤٦
الفوائد الاجتماعية للتأمين	٢٥٢
كيفية ادارة التأمين	٢٥٤
الفصل الرابع والعشرون — اللعب	٢٥٧
نظريات في اللعب	٢٥٨
فوائد اللعب	٢٥٩
الاستجمام المنظم	٢٦٠
الفصل السادس والعشرون — الفنون الجميلة (١)	٢٦٣

(١) سبق هذا الفصل فصل بعنوان « الخدمة الاجتماعية » هو الفصل الخامس والعشرون رأينا ان نحذفه في هذه الترجمة العربية

الرسم	٢٦٥
النحت	٢٢٦
البناء	٢٦٧
الشعر	٢٦٨
الموسيقى	٢٦٩
الفنون التطبيقية	٢٧١
المسرح	٢٧٢
تشجيع الفنون الجميلة	٢٧٢
الفصل السابع والعشرون — العلم	٢٧٥
تصنيف العلوم	٢٧٧
الطريقة العلمية	٢٧٨
المواقف العلمية	٢٨٥
الوكالات العلمية	٢٨٧
الفصل الثامن والعشرون — اللغة	٢٩٠
تطور اللغة في الماضي	٢٩١
نقص اللغة في الوقت الحاضر	٢٩٦
تطور اللغة في المستقبل	٣٠٠
لغة عالمية مساعدة	٣٠٣
الفصل التاسع والعشرون — الرأي العام	٣٠٨
طبيعة الرأي العام واهميته	٣٠٨
القياس العلمي للرأي العام	٣١٠
وسائل المواصلات ومحتوياتها	٣١١
ما تنقله المواصلات	٣١٣
قوار الجماعة	٣١٤
الفصل الثلاثون — علاقة الانسان ببيئته	٣١٦

علاقة الارض بالانسان	٣١٨
علاقة المياه بالانسان	٣٢٣
علاقة الهواء بالانسان	٣٢٥
علاقة الحرارة بالانسان	٣٢٦
علاقة النبات والحيوانات بالانسان	٣٢٧
خلاصة العلاقات بين الانسان والطبيعة	٣٣٠
الفصل الواحد والثلاثون — البدو	٣٣١
الزواج والطلاق	٣٣١
المرض والموت	٣٣٢
الغزو والحرب	٣٣٣
مجلس البدو	٣٣٤
ضيافة البدو	٣٣٥
التغيرات الحديثة في حياة البدو	٣٣٦
الفصل الثاني والثلاثون — مشاكل الريف	٣٤٠
اهمية القرية	٣٤٠
المشكلة الصحية في الريف	٣٤٣
المشكلة الاقتصادية في الريف	٣٤٣
المشكلة التربوية في الريف	٣٤٤
المشكلة الاستجمامية في الريف	٣٤٨
الفصل الثالث والثلاثون — تصميم المدن	٣٥١
نشوء المدن	٣٥١
اهداف تصميم المدن	٣٥٢
الخلاصة	٣٥٦
الفصل الرابع والثلاثون — الوطنية	٣٥٧
نهوض البيئات القومية	٣٥٧

علاقة المواطنين بالدولة	٣٥٩
المواطنة	٣٦٠
الفصل الخامس والثلاثون — الشرق والغرب	٣٦٢
امتزاج الثقافتين	٣٦٣
الفصل السادس والثلاثون — الامم المتحدة	٣٦٥
نشأة الامم المتحدة	٣٦٥
مشاكل منظمة الامم المتحدة	٣٧٣
الفصل السابع والثلاثون — التاريخ	٣٧٥
الكون يتغير	٣٧٦
بدء الحياة	٣٧٧
نشوء الانسان	٣٧٨
تراكم الثقافة	٣٧٩
نمو الشخصية	٣٨٠
بداية الخلق	٣٨١
الفصل الثامن والثلاثون — التصميم	٣٨٢
امثلة عن التصميم الاجتماعي	٣٨٤
ابعاد التصميم	٣٨٤
تقييم القيم — تعيين الاهداف	٣٨٥
تعيين المناطق	٣٧٦
التوقيت — تعيين جدول الاوقات	٣٨٦
تعيين للميزانية	٣٨٨
التسجيل — حفظ السجلات والتقارير	٣٨٨
النشر والدعاية	٣٨٨
الخلاصة	٣٨٩

الفصل الاول

قطاعات المجتمع

ان الغاية من هذا الفصل هي تعريف القارئ المواطن بتصميم نظامي لدرس المجتمع ، وتشويقه الى دراسة الفصول المقبلة :

غاية الكتاب

يعتبر هذا الكتاب ، بما يقوم به من تعريف الطالب بالعلوم الاجتماعية ، درساً في المواطنة . والغاية الاساسية منه هي اعداد مواطنين اذكياء مندفعين لخدمة وطنهم . وسنعالج فيه المشاكل التي يجب ان يطلع عليها جميع المواطنين ويكوّنوا عنها فكرة صحيحة . ومهما كانت مهمتنا او عملنا ، فجميعنا مواطنون في بيئة ما او امة ما او في العالم اجمع ، ومن واجب كل مواطن ان يفكر في احوال بيئته وامته واحوال الامم الاخرى وان يحاول تحسينها . ويستهدف هذا الكتاب اثارة التفكير في واجباتنا كمواطنين وتعليمنا القيام بها . وبذلك يقوم بتحقيق قسم من الغاية القصوى الشاملة التي نسعى وراءها : وهي تكوين مواطنين مفكرين وزعماء صالحين للمجتمع . ويمكننا ان نلخص موضوع هذا الكتاب بالعبارات الاتية : —

١ — **العلاقات الاجتماعية متبدلة** : ان التبدل هو القاعدة التي يسير عليها العالم الحديث اذا اعتبرنا ان التبدل هو الاختلاف في نسبة السرعة ، كأن يحدث بسرعة فائقة ، اي خلال بضعة اشهر ، او كأن يحدث ببطء ، اي خلال عدة قرون . وانه لمن الصعب ان نتصور علاقة اجتماعية لا تتبدل بسرعة ما ، مهما كانت درجة تلك السرعة .

٢ — **العلاقات الاجتماعية غير كاملة** — ان العلاقات الاجتماعية لا تبلغ المثال الاعلى الذي يرغب فيه الناس ، فهي متبدلة ، وقد يكون تبدّلها باتجاه زيادة

كمالها او بالعكس .

٣ــ اذن يجب درس العلاقات الاجتماعية بغية ضبطها والسيطرة عليها.

ولكي تكون التغيرات صالحة يجب ان يتعلم الناس كيف يوجهونها الى النواحي التي يرونها اكثر كمالا . فيجب ان يطلع القاريء المواطن على العلاقات الاجتماعية حتى يدفعها الى التقدم . ذلك لأن التقدم، ونعرفه بالتغير الذي يرغب فيه الناس، لا يحدث من تلقاء ذاته بل يحدث بنسبة ما يسعى الناس الى بلوغ الاهداف التي يضعونها امامهم .

حدود الكتاب

سنطالع في هذا الكتاب ، عن « الناس وكيف يعيشون معاً » . الا ان موضوعاً كهذا لا يمكن ان يستوعب في فرع واحد من فروع الدراسة . ولذلك كان لزاما علينا ان نضع حدودا لدرسنا . ففي العالم اليوم ما يربو على بليوني (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) شخص ، تختلف حياتهم اختلافاً كبيراً بين قطر وآخر . فهي في السودان غيرها في سيبيريا، وفي الصين غيرها في اوروبا ، وفي الصحراء غيرها في المدينة ، وبين الفقراء غيرها بين الاغنياء الخ . وهكذا فاننا لا نستطيع ان ندرس دفعة واحدة مختلف الشعوب في العالم ومختلف انواع الحياة التي يعيشونها . ولاجل ذلك سنحصر درسنا في محيطنا، أي في شعوب الشرق العربي البالغة اثنين بالمائة من مجموع سكان العالم. واننا في دراستنا هذه ، سنطّلع على المبادىء العامة التي تنطبق على الناس في كل مكان .

وهنالك لهذا الموضوع ثلاثة حدود اخرى ، اولها اننا سندرس — من بين الوف الملايين من الشعوب الذين عاشوا في الشرق العربي ما بين الخرطوم وبغداد ، وما بين مكة وحلب — حياة الاحياء منهم .

اما دراسة ماضي مجتمعنا الحاضر فسنتركها للتاريخ . فالتاريخ يعالج تطور المجتمع حتى الوقت الحاضر ، وعلم الاجتماع يعالج المبادىء التي يسير عليها

سنتناول في هذا البحث التمهيدي لعلم الاجتماع ، الناس كما يعيشون الحاضر . ولا ريب ان احد الاهداف الرئيسية لعلمي التاريخ والاجتماع هو مساعدتنا على تفهم المجتمع العتيد، اي مستقبل المجتمع، وعلى معرفة كيف يعيش الناس معاً في السنين المقبلة .

والحد الثاني هو اننا سندرس علاقات الناس الاجتماعية، لا علاقاتهم المادية، فالذي يهمنا هو علاقة الفرد بالفرد الآخر وعلاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعات بعضها ببعض . اما علاقة الناس بالمناخ وبالتربة وبالنبات وبالحيوان فمن خصائص العلوم الطبيعية كعلم الفلك وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وعلم الحياة وفروعها . اذن فهذا الكتاب ، الذي يعالج العلاقات الاجتماعية اي كيف يعيش الناس معاً ، هو هو مقدمة للعلوم الاجتماعية .

اما الحد الثالث فهو ان هذا الكتاب ليس الا مقدمة للعلوم الاجتماعية، لا درسا مفصلاً لها او لاي منها . انه عرض موجز للموضوعات التي تشتمل عليها مختلف هذه العلوم ، مثل علم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم النفس الاجتماعي وعلم سلالات البشر وعلم الاجتماع .

خطة الكتاب

ان خطة الكتاب هي تحليل المجتمع بواسطة قطاعاته الاربعة التي هي المكان والزمان والشعب ومميزاته . فالقطاع الاول ، المكان ، هو المساحة الارضية الجغرافية المعروفة . والتصميم المكاني لبلدتنا او غرف بيوتنا هو اهم عنصر في محيطنا . لكن البشر يعيشون ايضا في الزمان، فقد عاش قبلنا اجيال من اسلافنا وماتوا . وهكذا تستمر هذه الدورة الحياتية في الحاضر وفي المستقبل، كما اننا نتذكر اختباراتنا السابقة ونشعر باختباراتنا الحاضرة ونحاول ان نتنبأ عن اختباراتنا المقبلة وان نضبطها . وغاية العلم الحديث هي التنبؤ عن المستقبل وضبطه . فحياة الانسان وثيقة الارتباط بالزمان . والحياة نفسها هي فعالية ، هي حادث يجري في الزمان وليست شيئا جامدا عديم الحركة . ولا نستطيع ان نصور حياة الناس الاجتماعية

في لحظة واحدة من الزمن، فذلك يتطلب شريطا سينمائيا يصور حياة الناس خلال تلك المدة من الزمن .

فالناس والزمان والمكان هي ثلاث وحدات اساسية لعلم الاجتماع . ويستخدم الفيزياء ، وهو درس الاشياء لا الناس ، منذ ايام نيوتن ثلاث وحدات اساسية هي المكان والكتلة والزمان، وتقاس هذه بالمتر والسنتمترات والغرامات والثواني . فالمكان والزمان هما رمزان اساسيان لكل العلوم . والناس ، باعتبارهم كتلاً من الشعب لا المادة ، يميزون العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية او الفيزيكية .

ولكن هذه القطاعات الثلاثة ليست كافية لفهم المجتمع ، فهنالك الملايين من المميزات البشرية والمحيطية التي يجب ان نفهمها . وهذه المميزات هي التي تربط الناس بعضهم ببعض وبمحيطهم غير الاجتماعي . ويمكننا ان نعرف هذه المميزات بكونها كل شيء عدا المكان والزمان والناس، فهي تتضمن كل الاشياء الاخرى التي نعرفها عن الناس وعن محيطهم . وهكذا نستطيع بعد هذا التعريف ان نصف كل شيء نعرفه عن الناس وعن محيطهم ، بواسطة هذه القطاعات الاربعة ، المكان والزمان والناس ومميزاتهم .

واننا سنفصل فيما يلي معنى المميزات ونصنفها الى اصنافها المختلفة واصنافها الفرعية . أما لماذا اخترنا هذه القطاعات الاربعة لتحليل المجتمع ، فهو لانها تمكننا من درس المجتمع درساً علميا ، لا ادبياً او فلسفياً .

ونحن نفضل تحليلا علميا للمجتمع لان هذا الدرس هو تمهيد للعلوم الاجتماعية ، ولان فائدة الطرق العلمية للانسان كانت عظيمة في القرون الاخيرة، وترجى الفائدة القصوى من تطبيقها على المجتمع .

ولكن ما معنى « علمي » ؟ هذا ما نعرفه تفصيلياً في دراسة العلوم والفلسفة . اما هنا فاننا سنذكر ثلاث خواص للحقائق العلمية . وهي أن المعرفة تكون علمية ، عندما تكون مضبوطة ومحققة ونظامية . ونعني بالمعرفة المضبوطة ما كانت دقيقة ومستقاة بالقياس ، فاذا كان بالامكان قياس الشيء كانت معرفته مضبوطة ،

وكلما تقدمت العلوم الاجتماعية ازدادت المميزات الخاضعة للقياس. فذكاء الناس وتربيتهم ومواقفهم وعقائدهم وصحتهم وثروتهم وسلوكهم في المواقف الدينية والاستجمامية، وكثير من مظاهر محيطهم يمكن قياسها باختبارات مختلفة وكشوف متعددة. والقطاعات الاربعة التي ذكرناها تمكن تحليل المجتمع تحليلا علميا، لان ثلاثة منها يمكن قياسها ومعرفتها بالضبط، واما الرابع، وان كان نصيبه من الدقة اقل من الباقين، فانه يزداد دقة بالبحث العلمي جيلا بعد جيل.

وبين الطرق الكثيرة للتثبت من المعرفة، هنالك طريقة هامة، وهي وجوب اتفاق تقارير الاشخاص المختلفين الذين يلاحظون هذه الظواهر منفردين، اي كل على حدة. فلا يحقق اكتشاف نجمة ما مثلا، ما لم يلاحظ وجودها اكثر من عالم من علماء الفلك، وما لم يقرر اكثر من طبيب واحد نجاح نوع جديد من اللقاح لمرض من الامراض فلا يكون ذلك العلاج محققا. وما لم تجمع كلمة عدد كاف من العلماء الملاحظين الذين يعملون منفردين، على نبذة من المعرفة، لا تعتبر تلك المعرفة حقيقية. وقد طبقنا هذا الامتحان، اي جمع كلمة الملاحظين الاكفاء على تحليل الظواهر الاجتماعية الى القطاعات الاربعة، فكانت نسبة الاتفاق بينهم في المعادلات التي كتبوها لهذه الوضعيات ٩٧ بالمئة. وهكذا فبالامكان اذن التحقق من هذا التحليل الى القطاعات الاربعة، بواسطة الطرق العلمية، وقد تحقق جزئيا ببعض من هذه التجارب.

والخاصة الثالثة للحقائق العلمية هي ان تكون هذه الحقائق نظامية، اي ان توضع المعلومات في نظام رتيب كما في مجموعة من القوانين العلمية او في تصنيف ما. واننا نعتقد ان هذه القطاعات: المكان والزمان والشعب ومميزاته، تكون نظاما رتيبا للعلوم الاجتماعية. ونستطيع ان نعبر عن هذا النظام بمعادلة جبرية تعد تصنيفا شاملا للظواهر الاجتماعية. ويمكننا البرهان تجريبيا ان هذه المعادلة تصنف اية مجموعة من الحقائق الاجتماعية في صنف ما، على حسب الكمية التي توجد في كل من القطاعات الاربعة في تلك الحقائق الاجتماعية. وان اقسام الكتاب الاربعة وهي: «الشعب» و«الشعب والمميزات المترابطة» و«الشعب والروابط

المكانية » و « الشعب والروابط الزمنية » ، تعتبر تصنيفاً نظامياً للمجتمع .

غير ان للطريقة العلمية خواصاً اخرى غير هذه التي ذكرناها ، ولكن ربما يكفينا في هذه المقدمة للعلوم الاجتماعية ، ان نشير الى ان هذه الخواص الثلاث هي من مميزات كل من القطاعات الاربعة التي وقع اختيارنا عليها لدرس المجتمع درساً علمياً .

القطاع الاول : الشعب . ان القسم الاول من هذا الكتاب يقدم لنا ، في فصله الثاني وعنوانه « الشعب » ، قطاعين : اولهما — الشعب في الشرق العربي في الزمن الحاضر ، وثانيهما — بعض مميزاته التي تأتي في الدرجة الاولى من الاهمية . وسنبين في هذا الفصل كيف يتغير عدد السكان بواسطة الولادات والوفيات والهجرة ، ثم كيف يمكن ضبط هذه العوامل .

ويساعدنا هذا الفصل على اجابة الاسئلة التالية وما كان شبيها بها : هل يزيد الامة ، قوة وعظمة ، ازدياد سكانها ؟ او هل يكون ذلك سببا في تزاحم السكان وزيادة الفقر ؟ وكيف يتضح لنا ذلك ؟

القطاع الثاني: المميزات المترابطة . وفي القسم الثاني من هذا الكتاب سنتناول بعض المميزات . وبما ان المميزات كثيرة ومتعددة فان تصنيفها يساعدنا على تكوين نظام رتيب منها ، قد تظهر بدونه مزيجاً مضطربا مرتبكا .

ويمكننا ان نصنف مميزات الشعب ومحيطه تصنيفاً موجزا لاغراض اجتماعية ، كما يلي :

اولا — المميزات الفيزيكية : (غير العضوية)

ا — التربة والمعادن

ب — الماء

ج — الهواء

د — اشعاعات الطاقة — الحرارة والنور والكهرباء وامواج الراديو .

هـ – احداث طبيعية اخرى مثل الجاذبية والمد والجزر والتفاعل الكيماوي الخ

ثانياً – المميزات البيولوجية (عضوية)

أ – النبات (علم النبات)

ب – الحيوان (علم الحيوان) وهو يتناول :

(١) من الجرثومة الى القردة

(٢) المخلوقات البشرية . وتتناول هذه :

(ا) المميزات التشريحية (التركيب)

(ب) المميزات الفسلجية (الوظيفة)

(١) المميزات الغددية العصبية (علم النفس الفسلجي)

(٢) مميزات فسلجية اخرى مثل الهضم والتنفس .

ثالثاً – المميزات الثقافية (فوق العضوية)

ا – المميزات الثقافية الفيزيكية (الهندسة) ، كالبيوت والمدارس والادوات والآلات وما تصنعه يد الانسان .

ب – المميزات الثقافية البيولوجية (الزراعة) ، كالحيوانات الداجنة والنباتات .

ج – المميزات الثقافية الفردية (علم النفس) . وتتضمن معلومات المرء ومشاعره واعماله (سلوكه) على قدر ما تتأثر هذه بالاخرين .

د – المميزات الثقافية الجماعية (العلوم الاجتماعية)، وتشتمل على امتزاج المميزات المذكورة اعلاه وانتظامها في ما ندعوه « مؤسسات » تسهيلا للضبط الاجتماعي . والمؤسسات الرئيسية هي الاحدى عشرة الاتية :

١ – المؤسسة العائلية : العائلة والبيت .

٢ – المؤسسة التربوية : المدرسة والمكتب الخ .

٣ – المؤسسة الاقتصادية : المزرعة والمعمل والدكان والمكتبة الخ .

٤ — المؤسسة السياسية : الحكومة والاحزاب.

٥ — المؤسسة الدينية الاخلاقية : المعابد والمساجد .

٦ — المؤسسة الصحية : المستشفى والعيادة.

٧ — المؤسسة الخيرية : المنظمات الخيرية ، التأمين والاصلاح الاجتماعي.

٨ — المؤسسة الاستجمامية : القهوة والمسرح والملعب الخ.

٩ — المؤسسة الفنية : المتحف وقاعة الموسيقى والحدائق الخ .

١٠ — المؤسسة العلمية : المختبرات ووكالات البحث العلمي .

١١ — مؤسسة المواصلات : الصحافة والطباعة والراديو الخ.

وهذا التصنيف يقسم المميزات الى العلوم الفيزيكية والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، او الى مميزات المادة ومميزات الحياة ومميزات الانسان . ونعني بالمميزات الثقافية ما كان من صنع يد الانسان اي اية ظاهرة فيزكية او بيولوجية تناولتها يد الانسان . ويعرّف علماء الاجتماع وعلماء السلالات البشرية ، الثقافة بأنها كل المعلومات والعادات والعدة التي انتجتها يد الانسان . وفي القسم الثاني من هذا الكتاب سنبحث فقط المميزات التي تربط البشر بعضهم ببعض في كل من المؤسسات الاحدى عشرة . و هذا البحث يختص، كما اشرنا سابقا، بالعلوم الاجتماعية التي تتناول المؤسسات الاجتماعية المشتملة على المميزات الثقافية الجماعية . والمؤسسة هي قسم من الثقافة ، جزء من مدنية شعب ما ، ويمكننا ان نعرّفها من الوجهة الثقافية بكونها المعرفة والعادات والعدة التي يملكها افراد جماعة ما مشتركون في بلوغ هدف رئيسي في الحياة. فمؤسسة العائلة هي جميع الاختبارات والعادات والعدة التي يشتمل عليها البيت والتي تربط الاباء بابنائهم والتي يستخدمها الاباء في خلق جيل جديد وفي تربية هذا الجيل . وتحتوي المؤسسة التربوية جميع الاختبارات والعادات والعدة التي يستخدمها المعلمون في نقل ثقافة الكبار الى الصغار . وتحتوي المؤسسة الاقتصادية جميع المعلومات وطرق التعامل المألوفة ، والعدة الرمزية والمادية ، التي يستخدمها الناس وتربط بينهم في جمع معيشتهم ، كما تتكون هذه المؤسسة

مما يعرفه الناس ومما يصنعونه لانتاج البضائع وتقديم الخدمات واستبدالها بما يرضي شهواتهم . وتتكون المؤسسة السياسية من جميع المعلومات والعادات والعدد التي يستخدمها المواطنون وموظفو الحكومة في حكم الشعب . كما تتكون المؤسسة الدينية من جميع المعلومات — بما فيها العقائد والسلوك والمواقف الدينية — والعدة الرمزية والمادية التي يختص بها اتباع دين ما والذين يؤمنون بافضلية دينهم في تفهم معنى الحيـاة الحقيقي .

وتتكون المؤسسة الصحية من جميع المعلومات الصحية والطبية ، والعادات المتبعة في علاج المرضى ومنع انتشار الامراض ، ومن العدة ، التي يستخدمها الاطباء وغيرهم لزيادة النشاط الجسمي والعقلي مثل الصيدليـات والمستشفيات والادوات الطبية المتعددة .

اما المؤسسة الخيرية فهي جميع المعلومات والعادات والمعدات التي تستخدم لمعالجة من هم دون الاسوياء ، مثل اليتامى والمجرمين والمجانين وضعفاء العقول والمتسولين والمومسات والمنكوبين والمتشردين بسبب الفيضان او المجاعات .

وتحتوي المؤسسة الاستجمامية كل ما نعرفه ونصنعه لاستجمام قوانا في ساعات الفراغ . كما تحتوى المؤسسة الفنية كل مانعرفه ونقوم به للتمتع بمـا نسميه جمالا .

والمؤسسة العلمية هي جميع مانعرفه ونصنعه او نستخدمه لكي نتنبأ عن الظواهر ونضبطها على اختلاف انواعها ، ونسمي عملنا في هذه المؤسسة البحث او التنقيب العلمي . اي تطبيق الطريقة العلمية اعني الملاحظة والاستقراء .

اما مؤسسة المواصلات فهي معلوماتنا وعاداتنا اللغوية والطرق الحديثة لنقل المعلومات الى الناس بواسطة الطباعة والافلام السينمائية والاذاعة الخ . .

ويجب ان نؤكد على عنصر آخر في تعريف المؤسسة ، وهو ان الميزة الاساسية للمؤسسات هي ترابط افرادها ، فافراد جماعة المؤسسة يتفاعلون بعضهم مع بعض فينبهون بعضهم بعضاً ويرجعون لبعضهم البعض ، واحد يشتري وآخر يبيع ، واحد يُعَلِّم واخر يَتَعَلَّم ، طبيب يجري العملية للمريض ، وافراد فرقة لعب يتفاعلون

عندما يأتي دور كل منهم او عندما تصل الكرة الى احدهم . وهكذا يرتبط افراد كل مؤسسة بعضهم ببعض بطرق معقدة ، ويتخصص بعض افراد المؤسسة بالقيام باعمال تلك المؤسسة وخدمة الافراد الاخرين . فيتخصص المعلمون بتعليم الاطفال فيربحون الاهل منهم اثناء وقت المدرسة ، كما يتخصص الاطباء بالتطبيب ، ورجال الدين بالاعمال الدينية ، وموظفو الحكومة في حكم الشعب . وهكذا فاننا نعتمد على الاخصائيين في كل ما نعرفه وما نستعمله ، كما ان الاخصائيين يعتمدون على زبائنهم للقيام بامور اختصاصهم . والامر الاساسي في كل مؤسسة هو ترابط افرادها واعتماد بعضهم على بعض ، ولذا سمينا القسم الثاني من هذا الكتاب : « الشعب والمميزات التي تربطهم — اي المؤسسات » .

القطاع الثالث : المطاعم وهو موضوع بحث القسم الثالث . وسنبيّن بعد الانتهاء من درس المؤسسات الاحدى عشرة الرئيسية في علم الاجتماع ، تجمُّع هذه المؤسسات في بيئات محلية مثل القرية والمدينة والامة . ويمكننا ان نصنف هذه الانواع المختلفة من البيئات القطرية على حسب العلاقة بين الناس ومساحة المكان حيث يعيشون . فاذا قسمنا عدد الناس على مساحة الارض التي يعيشون عليها كان الحاصل « نسبة السكان الى الارض » ويسمى هذا الحاصل « كثافة السكان » ويرمز اليه بالمعادلة الآتية :

$$\frac{\text{الاشخاص}}{\text{الارض (كيلو مترات مربعة)}} = \text{الكثافة او } \frac{\text{ش}}{\text{ك م}^2} = \text{ك (يعني الكثافة)}$$

وهذه النسبة هي دليل على نوع مدنية القطر ، كأن تكون هذه المدنية ابتدائية جدا او معقدة جداً او ما بين الاثنين . ففي مدنية يعيش اهلها من القنص والرعاية كالبدو الرحل في الصحراء مثلاً ، تكون نسبة السكان بمعدل شخص واحد للكيلو متر المربع الواحد (ك = ١) . وفي محيط زراعي ابتدائي كفلاحي السهول تكون هذه الكثافة ٢ (ك = ٢) . وتزداد في الثقافة التجارية حتى ترتفع الى اكثر من (٢٠٠) شخص للكيلو متر المربع في محيط صناعي . فحجم هذه النسبة اذن

دليل هام على نوع البيئة ونوع مدنيتها . وسنعالج في القسم الثالث من الكتاب بيئة الرحل وبيئة القرية ، وبيئة المدينة ، كلا على حدة . كما نعالج بعد ذلك البيئات القطرية ، حيث يزداد عدد السكان وتتسع مساحة المكان ، فنتناولها اولاً كامم واخيرا كقارات ثم نبحث مسألة امتزاج ثقافة الغرب بالشرق .

القطاع الرابع : الزمن وهو موضوع بحث القسم الرابع . لقد انحصر بحثنا للمجتمع حتى الان — كما حللناه بالقطاعات الثلاثة السابقة — بالمجتمع الحالي اي بالناس كما يعيشون معا في الوقت الحاضر . اما في القسم الرابع من هذا الكتاب فسنبحث المجتمع كما يتبدل ويتطور مع الزمن ، فنتناول ماضي المجتمع وحاضره ومستقبله .

ففي الفصل الثامن والثلاثين (التاريخ) او تطورنا في الماضي — سنبحث تكوين الارض والشمس ونشوء الحياة والانسان والمدنية ، ونطرح الاسئلة التالية باختصار : متى وكيف تكونت الارض ؟ متي وكيف بدأت الحياة عليها ؟ متى وكيف ظهر الانسان ؟ متى وكيف ظهر المجتمع الحديث ؟ ثم نقدم بعض الاقتراحات لكيفية متابعتها في فروع الدراسة المتقدمة .

وسنبحث في الفصل التاسع والثلاثين الحدوثات الاجتماعية والقوى الاجتماعية التي تعمل في المجتمع ، في زمن ما ، كالتنافس والتعاون والتنازع والاتحاد بين الناس في جميع مؤسساتهم وبيئاتهم . وسنشرح معنى «القوى الاجتماعية» و « الضبط الاجتماعي» ، وسنقدم نظرية نظامية مضبوطة ومحققة ، تجعل القوى الاجتماعية قابلة للقياس . وسنحاول في هذا الفصل فهم الحدوثات المتحركة فهما جزئياً على ان يكون ذلك داعيا للتعمق فى فهمها فى الدروس المتقدمة من علم الاجتماع .

وفي الفصل الاربعين وموضوعه « التصميم الاجتماعي »سنبحث قليلا في مستقبل المجتمع ، فننظر فى بعض الآراء عن المجتمع المثالي الذي حلم به الانسان وعمل على تحقيقه . فما هو المجتمع المثالي؟ وما هى الصورة الذهبية التي كونت عن هذا المجتمع والتي نرجو ان يبلغها شعبنا والعالم اجمع ؟ وما هى الوسائل التي بها نبلغ مثلنا

الاجتماعية ؟ هذا التنبؤ عن مستقبل الانسان وضبطه هو هدف العلم والمواطنة ، وغاية هذا الكتاب هي توسيع ادراك القارىء للعلوم الاجتماعية وافهامه معنى المواطنة .

واننا نقترح ان يراجع هذا الفصل التمهيدي في اثناء درس الكتاب ، وان يدرس بعناية بعد نهاية الكتاب . ذلك لان كثيرا مما جاء فيه لا يستطيع القارىء ادراكه الان الا جزئياً ، ولا يتم له فهمه تماما الا بعد انهاء الكتاب . ويعتبر هذا الفصل كمقدمة ومراجعة للكتاب في آن واحد .

الفصل الثاني

تعداد الناس

ان الغاية من هذا الفصل ذات وجوه ثلاثة :
اولا : اظهار كيفية ملاحظة العلوم الاجتماعية لمميزات الشعب .
ثانياً : اظهار ما هي بعض مميزات الشعب في الشرق العربي .
ثالثاً : اظهار كيفية ضبط احدى هذه المميزات وهي عدد الناس في بلادٍ ما .

يستطيع ، عادة ، العالم الاجتماعي ، عند ما يدرس مميزات الشعب ، ان يلاحظها ، فيلاحظ اولا نوعها ، ثم كميتها ، واخيراً التوافق بينها .

اولا : المميزات النوعية . يلاحظ العالم الاجتماعي اولا انواعاً مختلفة من المميزات مثل : الجنس ، والقومية ، والدين ، والمهنة ، والى ما هنالك . ثم يلاحظ كمية كل ميزة : اي النسبة المئوية لكل جنس وكل امة وكل دين وكل مهنة وكمية الدخل وعدد المتعلمين والاميين الخ . ثم يلاحظ اخيراً التوافق بين جميع هذه المميزات ، فيلاحظ مثلا الى اي مدى يتغير المرض بتغير الدخل ؟ وكم يزداد عدد المتعلمين او ينقص بازدياد الدخل ونقصانه ؟ وكيف تتوافق بعض الاديان واللغات والقوميات بعضها مع بعض ؟ وكيف يتوافق الجنس مع الذكاء (اي اذا كان احد الجنسين اكثر ذكاء من الجنس الآخر) ؟ وكيف ترتبط اية ميزة مع اية ميزة اخرى او كيف تعتمد الواحدة على الاخرى ؟ واذا عرف العالم الاجتماعي التوافق بين ميزتين فانه يستطيع ان يتنبأ عن احداهما اذا عرف الاولى . وتتوقف دقة هذا التنبؤ وصحته على « درجة التوافق بين الميزتين » .

لكي نوضح هذه المبادىء الثلاثة — النوع والكمية والتوافق — دعنا نمثل

على كل منها من حياة شعوب الشرق العربي . ونستطيع ان نبدأ ذلك بوضع خريطة امامنا، ثم نلاحظ عليها انواع الجماعات السياسية المختلفة او البلدان ذات الحكومات المختلفة . واننا نجد في اللوحة الاولى جدولاً بالحكومات الرئيسية في الشرق العربي مع بعض من الحكومات المجاورة وغيرها .

واذا عمدنا بعد ذلك الى ملاحظة الجماعات الدينية المختلفة على اللوحة ، نجد منها ثلاثة انواع رئيسية ، بحيث يصبح لدينا جدول نوعي اكثر تفصيلا من ذي قبل :

المجوس	المسلمون السنيون	السريان الكاثوليك	الاشوريون
البهائيون	المسلمون الشيعة	الروم الكاثوليك	النسطوريون
الهندوس	الارمن الارثوذكس	الكاثوليك	البرتستانت
الدروز	الارمن الكاثوليك	الموارنة	النصيرية
اليهود	الكلدان الكاثوليك	الروم الارثوذكس	الاسماعيلية
السوماريون	الاقباط الكاثوليك	السريان الارثوذكس	المتاولة
			اليزيديون

كم مواطنا تعرف، من هذه الخمس وعشرين جماعة دينية، معرفة كافية تتمكن معها ان تقول اين يعيشون ؟ وماذا يعتقدون ؟ وكيف بدأوا كجماعة دينية ؟ . (سنفصل في دراسة هذه الجماعات في الفصول ١٧ حتى ٢٠) .

ويمكننا ان نتابع ملاحظة انواع الجماعات في محيطنا ، ملاحظة نوعية ، بتقسيمهم على حسب اللغات التي ينطقون بها . فبالاضافة الى اللغة العربية — وهي اللغة الرسمية في البلاد العربية — نجد ان اللغة الفرنسية كانت لغة رسمية في الارض التي كانت تقع تحت الانتداب الفرنسي ، وان اللغتين الانكليزية والعبرانية هما لغتان رسميتان في فلسطين ايضا . وهنالك لغات ثانوية اخرى مثل التركية والكردية والارمنية ، والاسبنيولية ، واليونانية ، والعجمية ، والسريانية ، والالمانية ، والايطالية . ولهذه الجماعات اللغوية تقاليد وعادات مختلفة تفرقهم عن مواطنيهم الاخرين الذين يتكلمون لغة اخرى .

ثانيا ـ المميزات الكمية : يتقدم العالم الاجتماعي، بعد ان يميز انواع الشعب ، الى ملاحظة كميات كل نوع، ويقوم بذلك بشتى الطرق . فهنالك الاحصاء الشامل الذي يتناول احصاء جميع افراد الشعب. وهنالك الكشوف التي تتناول ملاحظة نماذج من الشعب. وبتسجيل هذه الحقائق الرقمية بواسطة مكاتب الاحصاء، تصبح المعلومات النوعية اكثر دقة وضبطا . فيمكننا مثلا ان نحصي عدد الاشخاص في كل ديانة ونقسمه على مجموع عدد الشعب لنحصل على نسبة الاشخاص المئوية في كل ديانة . ونستطيع بهذه الطريقة ان نعرف جميع النسب المئوية الاخرى التي نقيس بها المميزات الاجتماعية. فنلاحظ في اللوحة الاولى ان نسبة المتعلمين — وهي دليل جيد على المستوى العلمي لشعب ما — في البلدان العربية ، تتراوح بين ١٠ بالمئة و ٤٠ بالمئة من مجوع السكان . واذا قابلنا هذة النسبة بما في الغرب ، حيث تصل الى ما بين ٨٠ بالمئة و ٩٩ بالمئة ، نجدها منخفضة جدا . اما اذا قابلناها بما في آسيا وافريقيا فنجد انها ارفع منها . وهنالك دليل اخر على درجة التعلم ، وهو نسبة الاطفال المئوية الذين هم في السن المدرسية، اي الذين تتراوح اعمارهم بين الخامسة والخامسة عشر . فقد اظهر الاحصاء في فلسطين عام ١٩٣١ ان اكثر من ٤٠ بالمئة من الاطفال في هذه السن كانوا في المدرسة . ورغم ان هذه النسبة هي اخفض بكثير من المستوى الذي وصلت اليه في الغرب في البلدان الديمقراطية ، حيث التعليم شامل عام، فهي تشير الى التقدم ، لان هذه النسبة قد تضاعفت خلال السنوات العشر التي سبقت عام ١٩٣١ ويظهر في العراق ايضا مثل هذا النمو في نسبة الاطفال الذين يدخلون المدارس .

وهنالك نسب مئوية اخرى تشير الى مستوى المرأة في المؤسسة العائلية : فتعدد الزوجات الذي يبلغ ٥ بالمئة، ونسبة المتعلمات التي تبلغ ٥٠ بالمئة بين البنات والنساء ، وكون ثلثي النساء الراشدات متزوجات في اغلب البيئات الاسلامية والهندية ، ونصفهن متزوج في البيئات المسيحية — جميعها تشير الى انحطاط مستوى المرأة .

وهنالك نسب مئوية اخرى تشير الى ميزة الصحة في بلد ما، فنسبة الوفيات بين

الاطفال الذين يموتون في الاشهر الاثني عشر بعد الولادة، دليل ممتاز على صحة الامة. وفيما يلي بعض النماذج عن النسب المئوية للوفيات :

مصر	١٩ بالمئة	اليابان	١٠ بالمئة
فلسطين	١٥ بالمئة	انكلترا	٦ بالمئة
مسلمون	١٨ بالمئة	الولايات المتحدة	٥ بالمئة
مسيحيون	١٣ بالمئة	النروج	٤ بالمئة
يهود	٦ بالمئة	زيلندا الجديدة	٣ بالمئة

(ولا تتوفر لدينا الارقام المضبوطة لجميع بلدان الشرق العربي)

ويمكننا ان نلاحظ مميزات كثيرة بدرجات مختلفة بواسطة بعض الوحدات مثل وحدات المال لدخل العائلة السنوي ، ودرجات الامتحانات عند اختيار المعلومات والمواقف ، ومثل عدد سنوات عمر الانسان . وعندما يتم ذلك يتمكن العالم ان يلاحظ الاشخاص الذين يتميزون بامتلاك درجة ما من هذه المميزه الكمية فيعدهم. ويدعى هذا «توزع الانتياب» او «توزع التعدد» وهذا التوزع هو وسيلة مهمة جدا للعلوم الاجتماعية فانه يساعدنا على التنبوء عن احوال المستقبل (وسنرى ذلك بوضوح اكثر عند بحث التأمين في الفصل الثالث والعشرين) . وعلى سبيل المثال ادرس اللوحة الرابعة التي تبين توزع التعدد لاحدى المميزات الصحية في قرى شمال سوريا . فتجد على الخط الافقي درجات الاختبار في المعلومات والعادات والادوات الصحية ، وقد ابتدع هذا الاختبار خصيصا لقياس مؤسستهم الصحية . وقد قام الباحثون بزيارة كل قروي واستجوبوه وفحصوا بيته، فحصلوا على الاجوبة لجميع اسئلتهم عن حالة القرية الصحية . وقد تكونت هذه الدرجات بتعيين نقاط لكل من هذه الاجوبة تبدأ من الصفر — درجة العائلة الاقل صحة ، وتنتهي بالمائة — درجة العائلة الاحسن صحة (اي العائلة الاكثر نظافة ، والاكثر اطلاعا على الامور الصحية والاقل مرضا) . ونجد على الخط العمودي عدد العائلات التي تتميز باية كمية من الدرجات الصحية . وهنا نجد ان اكثر الناس يقعون قرب الوسط ، كما هي الحال

في جميع انواع « توزع التعدد » . وتقع الاقلية قرب الاطراف . والمهم في هذه التوزعات هو الفروق الفردية القائمة بين العائلات . فالعائلات متفاوتة لا تملك نفس الكمية من مميزات الصحة . وهذه هي قاعدة اجتماعية اساسية : «الناس يختلفون» فيجب ان نذكر دائما عندما نقارن بين الجماعات ، ان افراد الجماعة ليسوا واحدا . ولذلك يقارن علماء الاجتماع الصفات المتوسطة لجماعة ما بالصفات المتوسطة لجماعة اخرى لاننا اذا قارنا بين الافراد ، كما نصنع عادة في المناقشات العادية ، نشوه الحقيقة . ففي اللوحة الرابعة مثلا ، فانه على الرغم من ان « جماعة الملاحظة » كانت اكثر صحة من « جماعة التجربة » ، فان عددا قليلا من العائلات في « جماعة الملاحظة » ، كان اقل صحة من بعض العائلات في « جماعة التجربة » . ويميل الناس ، عند المناقشة ، الى مقارنة ما هو « افضل » في جماعتهم الخاصة بما هو « احط » في جماعة الآخرين ، فهذا غير منصف وبعيد عن الصواب . فالمقارنة يجب دائما ان تكون بين المتوسط والمتوسط .

فمثلا ، هل ظهر في اللوحة الثانية تحسن في الحالة الصحية في « قرية التجربة »؟ فاذا نظرت الى جدول الاربعين درجة التي بلغت عام ١٩٣٣ اخذتك الحيرة . ولكن عند مقابلة متوسط الدرجات يصبح الجواب جليا . ومن هذه التجربة يتضح لنا ان متوسط الدرجة الصحية في هذه القرى العلوية هو اقل من ٣٩ بالمئة من الدرجة الكاملة . وكان متوسط درجات نموذج راس بيروت المؤلف من عائلات لبنانية من التجار واصحاب المهن ٦٠ بالمئة ، بينما يرجح ان ينال قرويو الداغارك درجة ٩٠ بالمئة في هذا الاختبار ، لان الفلاحين الاسكندينافين يسجلون رقما عاليا في الصحة . واذ لا نستطيع ان نستخلص تعميما صحيحا عن الشرق العربي من النماذج الصغيرة كالتي وردت في هذا الاختبار ، فان هذا التعميم والحقائق الاخرى المسجلة تبين بشيء من التأكيد ان العناية بالصحة في الشرق العربي هي اخفض بكثير مما برهنت بعض البلدان الاخرى على امكانية الوصول اليه .

وتوجد انواع كثيرة من المعدلات ولكن المألوف منها هو المعدل الحسابي الذي نستحصل عليه بجمع درجات كل فرد من الشعب وتقسيم المجموع على عدد الاشخاص

ويستعمل العالم الاجتماعي ، علاوة على المعدل ، فهارس اخرى يتوصل اليها بواسطة « توزع التعدد والانتياب » احد هذه الفهارس هو « الانحراف المقيّس » الذي يقيس مقدار انحراف كل شخص عن المعدل ، اي كم سعة سطح المنحني ، وكم مدى توزعه او كم هو ارتفاعه وتكاثفه في الوسط . فترى مثلاً من اللوحة الرابعة ان منحنى توزع «قرية الملاحظة»، كان عام ١٩٣١ اكثر انبساطاً منه عام ١٩٣٣، اي بعد سنتين من التدريب على شؤون الصحة . وسيعرف القارىء كثيراً عن معاني هذه الرموز والفهارس الاحصائية في درس الاحصاء . انما يجب ان يعرف الان انه يحتاج دائماً الى « توزع والتعدد الانتياب » لقياس المميزات الاجتماعية ، ويتطلب هذا التوزع الامور الاتية :

١ — مميزة يعبر عنها بالدرجات او الكميات .

٢ — شعب يتوزع على حسب ما يناله من تلك المميزة .

٣ — كمية متوسطة (معدل) من تلك المميزة . وهذا المعدل هو افضل ما يعبر عن مجموع الشعب .

٤ — انحراف مقيّس ، يبين كيف ينحرف الافراد على طرفي المعدل ، اي كيف يمثل هذا المعدل كافة الشعب . هل يمثله تمثيلاً جيداً ام تمثيلاً خاطئاً .

ولنأخذ دخل العائلات السنوي كمثال عن « توزع التعدد » لمميزة اقتصادية (ولاجل الاسهاب في البحث راجع الفصل ١٢ « مستوى المعيشة ») . لقد وجد عام ١٩٣١ ان متوسط الدخل السنوي لعائلة الفلاح المصري ، المتكونة من خمسة اشخاص ، قد بلغ ٢٥ ليرة مصرية . وقد جاء على صفحة ١٠٩ من « تقرير الخلاصات الاحصائية الفلسطينية » لسنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، ان النفقات السنوية التي انفقتها العائلة الحضرية الفلسطينية على عشرين سلعة رئيسية ، بلغت ٦٢ ليرة فلسطينية وتكون هذه السلع القسم الاكبر من نفقات العائلة . وقد جاء في تقرير سابق لدائرة حكومية ان متوسط دخل الفلاح الفلسطيني السنوي بلغ ١١ ليرة فلسطينية . فكل من هذه الارقام هو معدل للشعب المذكور مع ما يصحبه من انحرافات كبيرة

للعائلات التي تقع فوق هذا المعدل او تحته ، اي العائلات الكثيرة الثراء والعائلات الشديدة الفقر . وقد كان معدل تكاليف الحكومة في فلسطين من عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٣٧ حوالي ٥ ليرات فلسطينية للشخص الواحد . (الخلاصات الاحصائية صفحة ١١٠) .

وبما أن مستوى الاسعار يتبدل من سنة الى سنة ، فاننا لا نستطيع ان نقارن بالضبط بين هذه الارقام . بيد انها تشير الى ان مستوى المعيشة في هذه البلدان هو اخفض منه بكثير في البلدان الصناعية المتقدّمة . كما انه ارفع بكثير من مستوى المعيشة في الهند والصين وأواسط افريقيا . وبعبارة اوضح يظهر ان اهل العالم العربي يقفون ايضاً في الوسط بين اغنى شعوب العالم وافقرهم .

وهنالك نوع خاصّ من « توزع التعدد » يبيّن كثيراً من مميزات الشعب ويدعى « هرم الشعب » تثبت هذه الاهرام في اللوحة الخامسة ، حيث تقع المميزة التي توزع الشعب (وهي السن مبتدئة من الصفر حتى ١٠٠) على الميزان العمودي ويمثل النصف الواقع الى جهة الشمال توزع التعدد للذكور ، اما النصف الواقع الى اليسار فهو توزع التعدد للاناث . وتظهر هذه المقارنة اية فروق بين الجنسين في اية سن من سني حياتهما . ويبين الميزان الافقي النسبة المئوية من الشعب الواقعة في كل سن لكلا الجنسين . والهرم السويّ هو ما كان متساوي الاضلاع مستقيمها ومتساوي الزوايا (مثل نوع أ) هذا يعني ان الناس يموتون بنسبة ثابتة اي ١ بالمئة كل سنة ، فيكون معدل طول العمر ٥٠ سنة . ثم هنالك نوعان اخران نظريان من هذه الاهرام ، نوع « ب » ويدل على قصر العمل وارتفاع في نسبة الوفيات (١٫٤ بالمئة في السنة) ؛ ونوع (ج) وهو يشير الى ارتفاع غير طبيعي في الاعمار وانخفاض نسبة الوفيات (٩ بالمئة في السنة) . واما النوع (د) فيشير الى شعب غير صحي وهو يشتمل على النوعين (ب ، ج) فان نسبة الوفيات العالية في البداية تقلل عدد الاطفال بيد ان الذين يصلون الى سن الرشد تتكون لهم مناعة تطيل في اعمارهم .

ثالثاً ـ المميزات التوافقية . لقد ذكرنا بعض المميزات النوعية للشعب في الشرق العربي وبعض المميزات الكمية ، والان دعنا نذكر الدرجة الثالثة من الدقة التي يلاحظ بها العالم الاجتماعي مميزات الشعب . وتتكون هذه الدرجة من ملاحظة التوافق بين اية مميزتين كميتين . وعندما يحسب العالم الاجتماعي « مسمى التوافق » بين مميزتين فيمكنه اذ ذاك التنبؤ ، في شيء من الدقة ، عن كيف تتغير كل من هاتين المميزتين عندما يعرف الاخرى ، والتنبؤ عن الظواهر ثم ضبطها هما بلا ريب غاية كل علم .

ولكي نفهم معنى التوافق بوضوح ، علينا بدرس اللوحة السادسة ، فانها تبين التوافق بين نسبة الولادات ونسبة الوفيات في مختلف البلدان ومن بينها بعض بلدان الشرق العربي . وتمثل هذه النسب الاطفال الذين يولدون احياء في كل ١٠٠ شخص من الشعب والاشخاص الذين يموتون في كل ١٠٠ شخص من الشعب في السنة الواحدة . وكل حرف يرمز الى بلاد ما كما يشير الى نسبة الولادات او نسبة الوفيات في تلك البلاد . فاذا قرأت الحرف عمودياً فانه يشير الى نسبة الولادات ، واذا قرأته افقياً فانه يشير الى نسبة الوفيات . وتشير البلدان الواقعة في الجهة اليمنى العليا من اللوحة الى ان الشعب غير صحي وان نسبة الوفيات فيه مرتفعة ولكنها تشير ايضاً الى ان هذا الشعب يحافظ على عدده بارتفاع نسبة ولاداته ، اذ يولد فيه اطفال كثر ولكنهم يموتون بعد مضي بضع سنوات .

وينتشر المرض في كل مكان حيث تكون نسبة الوفيات مرتفعة . اما في البلدان الواقعة في الجهة السفلى اليسرى من الخط البياني فتنخفض نسبتا الولادات والوفيات معاً ، فيقل انتشار المرضى ونسبة الوفيات ويزداد عدد الاطفال الذين يكبرون ويعيشون طويلاً ، كما يقل التفريط في حياة الانسان . وكلما انتشرت المعلومات العلمية من طبية وصحية وغيرها تنتقل البلاد من الجهة اليمنى العليا الى الجهة اليسرى السفلى في الخط البياني ، اي الى الموقع المرغوب اجتماعياً .

ويمكننا ان نستخلص تعميمين من هذا الخط البياني التوافقي : التعميم الاول هو اننا

نلاحظ ان جميع البلدان تقع فوق الخط القطري فسكانها جامدون لا متغيرون اي ان عدد الولادات يتساوى بعدد الوفيات ، واما البلدان الواقعة تحت الخط فتشير الى ان الوفيات فيها اكثر من الولادات وان عدد سكانهـا في تناقص . ان الامر الراهن في جميع هذه البلدان هو ان سكانها آخذون في الازدياد، وهذا الازدياد هو نتيجة العلم والثورة الصناعية اللذين علما الانسان كيف يعيل شعبا كبيرا في مساحة معينة من الارض . وقد كان من نتيجة ذلك أن ازداد فجأة عدد سكان كل البلدان خلال الـ ١٥٠ سنة الاخيرة . الا ان نسبة هذه الزيادة اخذت تتناقص خلال الخمس وعشرين سنة الاخيرة في اغلب البلاد ، ومن بينها مصر . (لم تأخذ احصاءات كافية لمدة طويلة لمعرفة ما هو جار في بقية البلدان العربية)

والتعميم الثاني الذي نستخلصـه من اللوحة السـادسة هو ان بين نسبة الولادات ونسبة الوفيات توافقا عاليا . فالبلدان التي ترتفع فيها نسب الوفيات ترتفع فيها نسب الولادات ايضاً . والبلدان التي تنخفض فيهـا نسب الوفيات تنخفض فيها ايضاً نسب الولادات . ولم نجد في البلاد الواحدة نسبة مرتفعة للولادات ونسبة منخفضة للوفيات او عكس ذلك . وتتوزع معظم البلدان حول الخط القطري مبتدئة قرب جهته اليسرى السفلى ومتجهة الى جهته اليمنى العليا . ويدل هذا الخط عـلى التوافق التام . اما لو توزعت هذه الاحرف التي تشير الى البلدان ، في شكل دائرة مبتعدة عن الخط القطري لاصبح التوافق صفرا . واما اذا توزعت هذه الاحرف في شكل قطع ناقص ، مبتدئة من الجهة العليـا اليسرى ومنحدرة الى الجهة اليمنى السفلى من الخط القطري ، لاصبح التوافق سلبيا . ويمكننا ان نحسب درجة التوافق بدقة بين مميزتين بواسطة مسمى التوافق الذي يكون (— ١) حين يكون التوافق تاما وسلبيا ويكون صفرا حين لا يوجد التوافق ، و (+ ١) حين يكون التوافق ايجابيا وتاما . ونستطيع ان نستدل على هذا التوافق من شكل توزع الحوادث في الخط البياني للتوافق . فـان هذا الشكل يتبدل من خط قطري ، الى قطع ناقص ، الى دائرة ، الى قطع ناقص ، منحرفاً ٩٠ درجة الى الجهة الاخرى على الخط القطري الآخر . وتتمشى المميزات المتوافقة جنبا الى جنب وتعتمد على بعضها البعض

وقد تكون الواحدة سبباً للاخرى او قد لا تكون.

واهمية التوافق هي انه يمكن العالم من التنبؤ عن المستقبل بشيء من الترجيح. فاذا عرفنا مثلا نسبة الولادات في بلد ما نستطيع ان نتنبأ من اللوحة السادسة بشيء من الدقة، عما تكون نسبة الوفيات فيها وان لم نكن قد عرفنا نسبة وفياتها. وبعكس ذلك فاذا عرفنا نسبة وفياتها نستطيع ان نخمن ما هي نسبة ولاداتها دون ان نحصي ذلك. واننا سنجد في الفصل الثالث والعشرين أن هذا التنبؤ يجب ان يتم بعناية تامة وبشيء من التحفظ. انما يجب ان يعلم القارىء، في هذه العجالة عن التوافق، ان منحنيات التوافق تعد للعالم الاجتماعي آلة قوية للتنبؤ عن المستقبل ولاكتشاف العلل والنتائج للمميزات والحوادث الاجتماعية.

ضبط عدد الناس

لقد لاحظنا بطريقة علمية بعض المميزات البارزة لسكان الشرق العربي، وسجلناها في مختلف درجات الدقة. وهي ملاحظة النوع، وملاحظة الكمية، وملاحظة التوافق بين مميزتين كمتين: سنبحث هذه المميزات باسهاب اكثر في الفصول المقبلة عند بحثنا كل مؤسسة على حدة. الا اننا سنتابع في ما تبقى من هذا الفصل معالجة احدى مميزات الناس، وهي عددهم.

اهمية حجم السكان

هنالك قول مأثور بان «الانسان هو قياس كل شيء» اي ان الانسان يعتبر نفسه اهم شيء في العالم، واذن فينبغي ان تقاس بقية القيم بالنسبة اليه. ان جميع الفلاسفة لا يتفقون مع هذا القول، الا ان هذا القول يصف، على الاقل، العقيدة الاساسية التي تتمسك بها اغلب الناس. اذ يعتقد اغلب الناس ان اهمية جماعة من الناس، اذا تساوت الشروط الاخرى، تتناسب مع عدد افراد تلك الجماعات. وتعتبر الامم «كبيرة» و «عظيمة» و «قوية» و «هامة» اذا كان عدد سكانها كبيرا، اي اذا زاد عن ٤٠ مليوناً، وتعتبر «صغيرة» «ضعيفة»

و«ثانوية» و « غير هامة » اذا كان عدد سكانها قليلا . ونعني بعبارة « اذا تساوت الشروط الاخرى » ان تكون الموارد الطبيعية ، والصحة ، والذكاء ، والتربية ، والتنظيم ، والفن وغيرها في الجماعتين المتقاربتين متساوية . فاذا تساوت هذه المميزات النوعية نقول اذ ذاك ان الجماعة ذات العدد الاكبر هي الاهم . ولا ريب في ان الجماعة الصغيرة اذا اختصت بمميزات نوعية فائقة ، تتغلب على جماعة تفوقها عددا ولكنها اختصت بمميزات أحط . ولكننا حين نعتبر الناحية العددية للشعب مجردة عن نواحيها النوعية ، فان الناس في جميع انحاء العالم يعتبرون الجماعة ذات العدد الاكبر اكثر اهمية واكثر قوة ، ومن هنا تأتي الرغبة التقليدية عند الامم في ان يكون عدد سكانها كبيراً . وبعبارة اوضح فان الامم وقادتها يريدون ان يزداد عدد السكان لكي يزداد عدد جنودهم وتزداد قوتهم العسكرية .

وكثيرا ما يسهى عن البال ان الامة قد تصاب بالتخمة في سكانها بحيث اذا اضيف اليهم اناس آخرون يسببون لها ضعفاً بدلا من القوة . فاذا كانت الامة تفتقر الى المواد الطبيعية كالحديد والفحم والزيت لكي تصبح بلدا صناعيا ، وكالارض الكافية لانتاج القوت ، فأن زيادة السكان قد تسبب انخفاضا في مستوى المعيشة ثم يعقب ذلك زيادة في الامراض واهمالاً في التربية والتعليم وفقراً او تعاسةً عامين . فاذا لم تزدد كمية الطعام والبضائع في البلاد اثناء زيادة عدد سكانها يقل نصيب كل فرد من كمية الطعام والبضائع التي تصيبه . واذا زاد السكان بسرعة اكثر من ازدياد الطعام والبضائع الاخرى تنتشر المجاعة والفقر والجرائم والمرض والشرور الاخرى ، ولا يعد الشعب اذ ذاك ، ولو مهما كان كبيرا ، قويا او مرغوبا فيه . ويجب على كل امة ان تدرس العدد الذي يلائمها من السكان بالنسبة الى ما لديها من ارض وموارد معدنية وحيوية . فاذا وجدت ان عدد سكانها الحالي اقل مما تستطيع ان تستوعب عمدت الى تشجيع زيادة السكان ، واما اذا وجدت ان عدد سكانها يفوق قدرتها على استيعابه ، ينبغي ان تعمد الى ايقاف زيادة عدد سكانها والى زيادة تقدمه في الصفات النوعية .

تناقص السكان وتكاثرهم في الشرق العربي

تعتبر بعض بلدان الشرق العربي اليوم ناقصة في عدد سكانها . فالعراق مثلاً بتربته الخصبة ونهريه الكبيرين وزيوته الوافرة يستطيع ان يستغل قسما كبيرا من اراضيه المهملة الان فيزيد بذلك عدد سكانه ويرفع مستوى معيشتهم . ولكن مهما كان الامر ، فما لم يتحسن فن الصناعة ، اي ما لم يتعلم الناس طرق الري الحديثة والزراعة الحديثة وينشئوا الصناعات التي تستخدم المنتوجات الزراعية ، فقد يتزايد عدد السكان دون ان يرفع مستوى المعيشة . وكذلك تستطيع تركيا وايران وشرق الاردن وبعض المناطق في سوريا ان تزيد عدد سكانها اذا استطاعت هذه البلدان ان تستثمر مواردها الطبيعية بطرق علمية جيدة . اما فلسطين فربما كانت في خطر من تكاثر السكان وتزاحمهم في الوقت الحاضر على الرغم مما تحسنه من فنون الصناعة واما مصر فهي مثال واضح على تكاثف السكان . فقد تكاثر عدد سكانها ١٠٠ بالمئة منذ عام ١٨٨٦ بينما كانت ثروتها في تأخر . لقد زادت مصر ثروتها كامة ، زيادة كبيرة خلال الخمسين سنة الاخيرة بواسطة الري وزراعة القطن ، لكن عدد سكانها ازداد بسرعة اكثر بحيث يعد معدل ثروة كل مصري الان اقل مما كان قبل خمسين سنة . فالفلاحون هم افقر من اجدادهم رغم ان الامة اغنى بكثير . فهنالك النقص في التغذية وانتشار الشقاء والامراض مثل البلهرزيا والتركوما والامراض الاخرى المنتشرة بوفرة في مصر اليوم والتي تكثر بصورة خاصة بين الفلاحين ذوي الدخل القليل اولئك الذين لا يتمكنون من ان يدفعوا ثمن طعام جيد واجور الاطباء واجور بيوت نظيفة صحية واجور المدارس لتعليم ابنائهم . وان مصر لفي حاجة شديدة الى انقاص عدد سكانها لكي تتحسن صحة ابنائها وتزيد كفاءتهم وانتاجهم وتزداد قوة البلاد عامة .

العوامل التي تغير عدد السكان

ولما كانت زيادة عدد بعض السكان وانقاص عدد البعض الاخر مرغوباً فيهما

من جهة اجتماعية ، فيجدر بنا ان نعرف كيف يتم ذلك .

ان تغير عدد الناس (ش) في مدة من الزمن (ز) في قطر ما ، يساوي الجمع الجبري لاربعة عوامل فقط . وهذه العوامل هي الولادات والوفيات والمهاجرون الى القطر ثم النازحون عنه . ولا توجد طريقة اخرى لتغير عدد السكان بين تاريخين مختلفين اذا احصي السكان بدقة وبطريقة واحدة في كلا التاريخين ، ويمكننا ان نعبر عن هذا بالمعادلة الاتية :

ش = و − م + مه − ن

وعند درس سكان العالم يصبح اثر عاملي المهاجرة والنزوح عن البلاد صفرا ويبقى الاثر لعاملي الولادات والوفيات فقط في تغير عدد السكان .

ان اللوحة السادسة تبين نسبتي الولادات والوفيات في الشرق العربي . ويظهر الفرق بينهما من المسافة التي تقع بين حرف كل بلد وبين الخط القطري . فالبلدان الواقعة بالقرب من هذا الخط هي البلدان التي يقرب سكانها من الجمود ، والبلدان الواقعة فوق الخط وبعيدة عنه تنمو بسرعة فائقة .

لقد اثرت الهجرة قليلا جدا على مصر وايران والعراق ، الا أن المهاجرة من سوريا وفلسطين وخاصة لبنان كانت آخذة في الانتشار قبل الحرب العالمية . ويرجح ان اكثر من سدس سكان لبنان قد هاجروا من لبنان على ان لا يرجعوا اليه . وقد كانت اكبر هجرة هي تلك التي قام بها اليهود بعد الحرب الى فلسطين ، ثم تليها في الاهمية هجرة (١٣٠،٠٠٠) ارمني من تركيا الى سوريا عام ١٩٢٢ ، وهجرة الاشوريين من ايران واللجوء الى العراق ، ثم هجرة بعضهم فيما بعد الى شمالي شرقي سوريا .

وعلاوة على الهجرة القطرية اعلاه ، هنالك هجرة داخلية ، ثم سفر الرحل الموسمي والوقتي في الصحراء ، وهجرة السياح الاجانب ، وكذلك لدينا هجرة القرويين الى المدن وهذه منتشرة في كل العالم ، وبها يحافظ على سكان المدن الذين لا يتكاثرون بحيث يستعيضون عمن يفقدون بالوفاة ، فتنمو المدن على نفقة القرى واهل الريف . ففي فلسطين مثلا نقص سكان الريف ما بين احصاء عامي ١٩٢٢ و ١٩٣٣ ، من ٦٥ بالمئة الى ٦٣ بالمئة من مجموع السكان بينما ارتفعت نسبة سكان

المدن من ٣٥ بالمئة الى ٣٧ بالمئة .

ضبط عدد السكان

والان بعد ان عرفنا العوامل الاربعة التي تغير عدد السكان، وعرفنا وجود هذه العوامل في البلدان المجاورة اصبح في مقدورنا ان نجيب على السؤال الاتي « هل بالامكان ضبط السكان ؟ » اننا نستطيع ، اذا شئنا ، ان نزيد وان ننقص عدد الولادات والوفيات والمهاجرين والنازحين الى البلاد ، ضمن شيء من الحدود ، بواسطة الجهود الفردية او المنظمة لتحقيق ذلك .

فنحن نستطيع ان نقلل نسبة الولادات بترغيب الشعب في رفع مستوى معيشته ، ولاجل الوصول الى ذلك ، نعمد الى تمديد عدد مواليدهم ، وقد لوحظت هذه النزعة في كثير من البلدان حيث تنشر المعلومات عن وسائل منع الحمل ويزداد بيعها بكثرة مما يحمل على انقاص نسبة الولادات . كما ان رفع سن زواج المرأة يقلل مدة خصبها . وتستطيع ايضا ان ترفع نسبة الولادات كما فعلت المانيا منذ عام ١٩٣٣ ، باخراج المرأة من الاستخدام وارجاعها الى بيتها ، وبحمل الناس على الاعتقاد بأن الحمل والولادة واجب وطني ، وبفرض غرامة على العازبين ، وبمكافأة العائلات الكبيرة باعفائها من الضرائب ، وبتعليم ابنائها مجاناً ، وبتعميم الزواج الباكر وبتسهيله اقتصاديا ، وما اشبه ذلك .

ويمكن ان تخفض نسبة الوفيّات بنشر التعليم الصحي ، وانشاء دوائر حكومية جيدة للصحة العامة ، واكثار الاطباء والممرضات والصيادلة والاخصائين الصحيين الاخرين . وقد خفضت هذه الترتيبات نسبة الوفيات بين الاطفال في الولايات المتحدة في الثلث الاول من هذا القرن حتى ارتفع معدل العمر من ٤٩ سنة الى ٦٠ سنة .

ويمكن ان ترفع نسبة الوفيات باهمال الخطوات المذكورة اعلاه وبترك المرض ينتشر دون ان يعيقه عائق . وكذلك عن طريق الحروب التي من شأنها أن تزيد نسبة الوفيات ليس فقط بين الجنود الذين يقتلون في ساحة الوغى ، بل بين المدنيين الذين يصابون بالغارات الجوية والجوع والمرض بسبب نقص التغذية . وقد سببت

وافدة الانفلونزا عام ١٩١٨ ، خلال اربعة اشهر من الوفيات ، ما لم تسببه الحرب العالمية الاولى ، خلال سنواتها الاربع .

اما النزوح الى البلاد ، فيمكن انقاصه بواسطة القوانين التي تمنع الهجرة . كما يمكن حمل النازحين قبلاً على مغادرة البلاد باللجوء الى مضايقتهم بشتى الوسائل القانونية كالحرمان من الامتيازات ، ومضايقة الشرطة ، وفرض الضرائب .

ومن جهة فان النزوح الى بلاد ما ، يمكن تشجيعه ببث الدعاوة واتقان طرق الاغراء والتشويق .

وكذلك بتخفيض نفقات السفر ، ومنح الارض مجانا للسكنى والاستثمار والتوظف وما اشبه ذلك من المغريات .

وهكذا نجد ان عدد السكان قد يزداد او يتناقص على حسب رغبة الشعب وسياسة الحكومة .

هذا فيما يتعلق بتغيير عدد السكان ، اما ما يتعلق بتغيير نوعه ، فسنتناوله في فصول مقبلة .

الفصل الثالث

العـــائـــلة

يقدم لنا هذا الفصل ، والفصل الذي يليه ، درساً عن المؤسسة العائلية المتبدلة في الشرق العربي مؤكداً على العلاقات بين الرجل والمرأة . والغاية من هذا الفصل هي الاشارة الى بعض التغيرات التي حدثت للعائلة في الشرق العربي ، والى العناصر المحيطة بها والتي تتضمنها هذه التغيرات .

اساس المؤسسة العائلية

الانسان اجتماعي بغريزته ، فمنذ البداية كان نزوعاً الى العيش مع الاخرين والى السعي بالاشتراك معهم للحصول على معيشته . وقد شعر الانسان منذ عهد الكهف حين كان صراعه مع العناصر الطبيعية على اشده ، انه في صالحه ان يعيش مع الجماعات . وهذه حقيقة راهنة لا تزال حاسمة حتى الان ، وان لم تشكل الا سبباً واحدا من الاسباب التي لا تحصى والتي من اجلها ينزع الانسان الى العيش في جماعات . لقد اجتمع البشر الان باالايين في مدن العالم الكبيرة ، ومع ذلك فلا تزال العائلة هي الوحدة الابتدائية لهذه الجماعات الكبيرة : الرجل والمرأة ، أي الزوج والزوجة ، يعيشان معاً تربطهم رابطة واحدة من الحب والمصالح المتبادلة . ومن هذا الاتحاد البسيط ينشأ البيت والعائلة حيث يولد الاطفال ، وتصبح هذه العائلة عاملاً نامياً يمتد ويتطور فيكون حياة البيئة المعقدة . والعائلة هي اقدم جماعة بشرية واعمها ، حافظت على كيانها واثبتت شخصيتها خلال تقلبات التاريخ .

وظائف العـــائلة

ولكي تتمكن العائلة من المحافظة على كيانها جيلاً بعد جيل ، بصرف النظر

عن المجاعات والحروب والفيضانات والمصائب المختلفة التي مرت بها ، كان عليها ان تقوم بوظيفة اساسية هامة ، وان تسد حاجة اساسية لكلا الجنسين . فالغريزة الجنسية ، وهي من اقوى الغرائز البشرية ، يجب ان تشبع . وليس ثمة كالعلاقة العائلية القائمة بين الرجل والمرأة ما يرضي رغباتهما الجنسية ارضاء طبيعيا . وبارضاء هذه الغريزة القوية في الانسان بواسطة العائلة ، استطاع الجنس البشري ان يستمر في النمو خلال العصور الطويلة .

ولئن كانت الغريزة الجنسية من اهم الاسباب للمحافظة على العلاقات العائلية واستمرارها ، ومن اهم الوظائف البيولوجية للجنس البشري ، فان هنالك وظائف اخرى هامة تقوم بها العائلة من جملتها انها تغذي شخصية الاب والام والاولاد وتنقل الثقافة من جيل الى جيل . واذا نظرنا الى العائلة كشراكة اقتصادية فانها تسهل الحياة بما توجده من التعاون على حل مشاكلها التي تنشأ في الحياة العائلية . ومن الناحية الاخلاقية ، فالعائلة تساعد الجنسين على تنمية عواطف الحب والشرف والاخلاص والتضحية واحترام الاخرين . وعندما يشاهد الاطفال هذه الخلال الشريفة في اهلهم ، ينسجون على منوالها لتزداد بذلك قوة وتراكماً مع مرور الزمن . ومن هنا ، كانت العائلة هي الوحدة الاساسية للتمدن ومصدر جميع المؤسسات الاخرى .

العائلات البشرية والعائلات الحيوانية

هنالك عدة فروق بين العائلات البشرية والعائلات الحيوانية ، اهمها :

أولا : إن التوالد في العائلة البشرية اقل منه عند معظم العائلات الحيوانية .

ثانيا : ان الانسان في استطاعته ، اذا شاء ، ان يضبط عدد مواليده وان يحدد السنوات الواقعة بين ولادة واخرى ، بينما الحيوان ليس في استطاعته الا الخضوع الى غرائزه الجنسية دون ماضبط .

ثالثاً : ان انثى الحيوان تنفرد بالعناية بالصغار ، فتضطر احياناً الى حمايتهم حتى من

الذكر خوفاً من ان يأكلهم ، بينما يتعاون الاب والام معاً في العائلة البشرية على العناية باطفالهم .

رابعاً : ان مدة تعلم الطفل البشري تمتد كثيرا بحيث تصل الى حوالي ٢٠ سنة فيسفر ذلك عن انه يتعلم اكثر بكثير مما يستطيع ان يتعلم الحيوان اذ يكتمل نموه خلال اشهر قليلة .

خامساً : ان الشباب في العائلة البشرية يعنون باهلهم الكبار اكثر مما يفعل الحيوان ، اذ كثيرا ما يقتل صغار الحيوانات اهلهم عندما تتقدم بهم السن ويوهنهم الضعف ويشذ عن ذلك الاسكيمو وبعض القبائل الابتدائية .

انواع العائلات البشرية

لا نعرف الشيء الكثير عن العائلات البشرية الاولى التي يكتنفها الابهام والغموض . بيد اننا نعرف انه عند نشوء حقوق التملك الفردي ، اصبحت عادات الزواج واضحة مقررة ، فاصبح هنالك انواع متعددة من الزواج اهمها : تعدد الازواج ، وتعدد الزوجات ، وزواج الجماعة ، والزواج الفردي . ويعني تعدد الازواج ، زواج رجال عدة من امرأة واحدة ، وهـذا نادر الا في بعض جزر البحر الجنوبي حيث يزيد عدد الرجال على عدد النساء . ويعني تعدد الزوجات زواج رجل واحد من عدة نساء ، وهذا متبع حتى الان ، خاصة في آسيا وافريقيا . ويعني زواج الجماعة ان يتزوج جماعة من الرجال جماعة من النساء . ويكون هؤلاء عادة جماعة من اخوان يتزوجون بجماعة مـن الاخوات أما الاولاد في زواج كهذا فيكونون ملك الجماعة بكاملها . ويتبع هذا النوع من الزواج اليوم في بعض اقسام (هاواي Hawaii) . ويعني الزواج الفردي زواج رجل واحد بامرأة واحدة ، وقد زاد هذا النوع من الزواج خلال التاريخ اذ كان الزواج بزوجات او ازواج متعددين منتشراً قبله . وقد برهن الزواج الفردي انه في صالح تقدم المدنية اكثر من الانواع الاخرى ، ولذلـك اصبح اكثر شيوعاً من سواه . وقد منعت تركيا حديثاً تعدد الزوجات بين شعبها واجبرتهم على الزواج الفردي . وقـد ثبت ان

الزواج الفردي يبعث على المساواة في القوى العقلية والشخصية بين الجنسين ومن شأنه ايضاً ان يرفع مستوى المعيشة ويعمل على تقدم المدنية . ومن الحجج في جانب الزواج الفردي ان الطبيعة توجد الجنسين في عدد متساوي . وعلى الرغم من انه يولد في جميع انحاء العالم ٥ بالمئة من الصبيان اكثر من البنات ، بيد ان نسبة الوفيات بين الصبيان ارفع منها بين البنات . وهكذا ، فلا يكاد يصل الجنسين الى سن البلوغ حتى يتساويا في العدد . اذن فان تعدد الزوجات يكون مجحفاً بحق بعض الذكور الذين يحرمهم رفاقهم ، اذا ما تزوجوا اكثر من واحدة ، من نصيبهم من الاناث .

وقد سار الى جانب هذا الزواج الفردي ارتفاع مركز المرأة ، الآخذ بالتساوي مع مركز الرجل . وامثلة هذه النزعة كثيرة ، منها قوانين العمل التي تساوي بين الرجل والمرأة ، وسفور المرأة في تركيا والسماح للنساء بدخول الكليات والحصول على دراسة عالية كما في كثير من بلدان الشرق العربي . ولكن الى الآن لم يساوِ بلد ما مركز المرأة بمركز الرجل في جميع الاعتبارات .

ويمكننا ان نصنف العائلات من حيث سيادة الاب او سيادة الام الى الاصناف الاتية : ١ — سيادة أبوية ، ٢ — سيادة أمية ، ٣ — التساوي بين الاثنين . فالصنف الاول يعتبر الرجل مؤسس العائلة أو ربها . فهو يسيطر عليها سيطرة الحاكم المطلق . وهذا هو الصنف السائد في الشرق العربي منذ مئات القرون . والصنف الثاني يعتبر أن الام هي اساس العائلة ، وهي أذن المسيطرة عليها . وقد كانت الام ، في احدى الازمنة التاريخية ، تسيطر على العائلة والقبيلة معاً . ولم يكن للرجال آنذاك صفة الازواج كما نفهمها الان ، بل كانت النساء تختارهم على حسب اهوائهن ورغباتهن . وقد تمشى هذا الصنف من العائلة مع تعدد الازواج ، وكان شائعاً في ايام الاشوريين حوالي ستة قرون قبل المسيح . أما الصنف الثالث فهو نتيجة الزواج الفردي الذي يحتم على الزوج ان يتخذ زوجة واحدة فقط ، وهذا من شأنه ان يساوي بين الجنسين كما بينا اعلاه ، ويوزع السلطة وتحمل المسؤولية بين الابوين . وقد برهنت العائلات التي تتساوى فيها السيادة في العصور الحديثة ، ان هذا الصنف هو اكثر فائدة للعائلة نفسها وللمجتمع قاطبة ، اذ يفسح فيها المجال للحب المتبادل والشرف

والتفاهم اكثر من اي صنف آخر من اصناف العائلة .

ادوار الحياة العائلية

تبدأ العلاقات العائلية بالخطبة وتكتمل بالزواج والبنين والطلاق والتزوج مرة ثانية ، او موت احد الزوجين ثم التزوج ثانية ، والاعتماد على الاقارب ، والارث والتأمين على الحياة ، واليتامى ، وتشغيل الارامل والاطفال الخ . . وهكذا نجد ان العلاقات العائلية تولد كل انواع المشاكل الاجتماعية وما ينشأ عنها من تعقد وارتباك . وقد تبدلت اثناء التاريخ كثير من العادات والشعائر والطقوس والعقائد المتعلقة بالخطبة والزواج والاعتبارات الاخرى في الحياة العائلية . وكما ان التطورات المتعلقة بانواع العائلات البشرية ، والتي بحثناها في الفقرة السابقة ، قد تناولت مركز المرأة ، كذلك تناولته ادوار الحياة العائلية في كل ادوار التاريخ . وقد قال الدكتور فيليب حتي بهذا الخصوص في كتابه ، « تاريخ العرب » مايلي :

« لقد تمتعت المرأة في اول عهد الدولة العباسية بنفس الحرية التي تمتعت بها اختها الاموية . ولكن في اواخر القرن العاشر تحت حكم البويهيين ، اصبح تطبيق نظام العزلة الصارمة والفصل التام ، بين الجنسين ، عاماً شاملا . وفي ذلك الدور نجد أنّ المرأة كثيراً ما كانت تقوم في الاوساط العليا ، باعظم الاعمال وتتمتع بنفوذ في شؤون الدولة ، كالخيزران ، امرأة المهدي وام الرشيد ، وعليا ابنة المهدي وزبيدة زوجة الرشيد وام الامين . وليس هذا فحسب ، بل أن المرأة العربية كانت تذهب الى الحروب ، وتقود الجيوش ، وتنظم الشعر ، وتنير المجتمع بذكائها ، وتنافس الرجل بما لديها من المواهب الموسيقية والغنائية ، في حقول الآداب » .

ومن ذلك نلاحظ ان المرأة العربية لم تكن دائما مستعبدة جاهلة ، بل كانت في احد العصور عاملا هاماً في الحياة العائلية والحياة الاجتماعية اكثر مما هي الان . كما نلاحظ ايضاً ان حرية المرأة والمساواة بين الجنسين ، كانتا شائعتين في الادوار التي كانت فيها ثقافة العرب وتاريخهم في اوج مجدهما . ويقول الاستاذ حتي ايضا في تتمة بحثه :

«في دور الانحطاط، وقد كثرت فيه المحظيات والجواري، والاستهتار الجنسي وانحطاط الاخلاق، وانغماس الناس في الترف، انخفض مركز المرأة الى الدركة التي نلمسها في حوادث الف ليلة وليلة. اذ اصبحت المرأة رمزا للاحتيال والمكائد، ومستودعاً لجميع العواطف السافلة والافكار المنحطة»!.

وقد اعتبر الزواج واجباً ايجابياً في كل تاريخ الاسلام وخاصة في تلك العصور التي كانت فيها الاحوال الاجتماعية في اوج مجدها. وكان من لا يقوم به يعرض نفسه للاهانة وعدم تحييذ المجتمع له. وقد اعتبر الاسلام، الاولاد، وخاصة الصبيان، هبة من الله. وكان واجب المرأة الاول ان تخدم زوجها، وان تعتني باولادها وبتدبير شؤون بيتها. ولا يسمح لنا الوقت ولا المكان لشرح العادات والتقاليد المتبعة في الزواج والموت والطلاق، في مختلف ادوار الحياة العائلية في الشرق العربي، ليس بين العرب فقط، بل بين مختلف السلالات الاخرى من قديمة وحديثة.

الحياة العائلية في الشرق العربي

لقد جرت، خلال مدة تتجاوز الخمس وسبعين سنة، تغيرات كثيرة، ولكن بصورة تدريجية جدا، في الحياة العائلية في الشرق العربي. وجرت هذه التغيرات، على الاخص، خلال الخمس وعشرين سنة الاخيرة التي عقبت الحرب العالمية الاولى. ففي هذه الحقبة اصبحت المؤثرات الاوروبية والاميركية فعالة جدا. ويمكننا ان نقسم هذه التغيرات الى قسمين: التغيرات النافعة، والتغيرات الضارة.

فمن التغيرات النافعة، ارتفاع مركز المرأة، وتحسن مهنة الطبابة والصحة، وارتفاع مستوى المعيشة، وادخال القوانين المدنية الشرعية. اما مركز المرأة فاخذ بالارتفاع بسبب زيادة تعلمها وسبب سفورها التدريجي وتغيير آراء الرجل فيها. واما الطبابة والصحة فآخذتان بالتحسن بسبب المؤثرات الاجنبية التي تجلب الى البلاد مستشفيات جديدة واطباء مدربين، وممرضات ماهرات، وبسبب نمو الجمعيات المنظمة العاملة في الحقل الاجتماعي، ورقي الاحوال البيتية وسن الانظمة الصحية،

التي من شأنها منع تشغيل الاحداث وتحسين احوال العمال ، وزيادة التعليم في القرى والمدن ، وسوى ذلك من العوامل الاجتماعية التي تعمل على رفع مستوى المعيشة .

ولا ريب في ان هنالك مؤثرات تعمل على ادخال تغيرات غير مستحبة الى العائلة في الشرق العربي . بعض هـذه المؤثرات : هجرة الاب ، والفروق الكبيرة بين الزوجين ، والزواج الذي يعقده الاهل لابنائهم لاسباب مالية ، والبغاء . أما مشكلة الهجرة فليست الان بذي خطر كما كانت في اول القرن الحالي عندما هاجر الوف اللبنـانيين والسوريين والفلسطينيين الى الاميركيتين بسبب تاخر الاحوال الاقتصادية في بلادهم ، تاركين عائلاتهم بلا معيل ، الا اذا ساعدهم الحظ فاستطاعوا ان يرسلوا اليها بعض المال .

وترجع الفروق الكبيرة بين الزوجين الى فرض زواجها مـن قبل اهلها ، بصرف النظر عما قد لا يكون بينهما من حب او انسجام بالاذواق والطباع والميول .

مشكلة البغاء

ان البغاء بلا ريب هو أشدّ المؤثرات ضرراً في الحياة العائلية الحاضرة في الشرق العربي . والسبب الرئيسي للبغاء هو عدم اشباع الغرائز الجنسية في الحياة الزوجية او خارجها ، وعدم الزواج القائم على الحب والحنان والتفاهم والانسجام . أن كيفية معالجة هـذه المشكلة ، مشكلة البغاء ، امر عسير . ويظهر ان الموقف العام تجاه ذلك هو موقف اللامبالاة ، بيد ان هنالك عدة طرق ، قد يكون من أهمها ان تصدر الحكومة رخصاً الى بيوت البغـاء بحيث تفحص المومسات فحصاً طبياً دورياً يمنع تسرّب الامراض الزهرية . على أن ذلك قلما يكون نظامياً او دقيقاً . ومن جهة ثانية فان هذه الطريقة التي ابتدعها نابوليون ثم انتشرت في اكثر البلدان الاوروبية وبعض بلدان الشرق العربي ، لم يثبت صلاحهـا بالاختبار الطويل . بل بالعكس ، فقد اثبت الاختبار انها تشجع الرزيلة والانحطاط الاخلاقي اكثر مما تقضي عليهما .

ولذلك فاننا نرى ان ثلاثة ارباع الامم التي ادخلت هـذه الطريقة قد اهملتها في الخمسين سنة الاخيرة . فالمانيا مثلاً التي يتوفر فيها الفحص الطبي بكثرة ودقـة

اكثر بكثير من اية بلاد من البلاد الاسيوية ، قد اهملت نظام البغاء الشرعي عملاً بتقرير لجنة من الاخصائيين التي اشبعت الموضوع درساً وتمحيصاً . وقد كانت الاسباب التي استندوا اليها في قرارهم هي :

اولاً — تستطيع المومس ان تخفي مرضها ، وهذا ما تفعله غالباً ، لكي لا تقطع رزقها .

ثانياً — يمكن ان يزور المومس ما بين ٢٠ او ٥٠ رجلاً في الفترة التي تقع بين فحصين طبيين . فتنتشر بذلك الامراض الزهرية الى الكثيرين .

ثالثاً — لا تستطيع وسائل منع الحمل او ادوية ما ان تحمي المرء من الامراض الزهرية حماية تامة .

رابعاً — ان البغاء يضعف الروابط الزوجية ويعرض الامانة والاخلاص في البيت والعائلة للاختلال ، فتضعف بذلك الامة .

ان احتجاب المرأة وانعزالها عن الرجل كي لا يراها او يجالسها ، عادة متبعة منذ قديم العصور ، خاصة في بلاد الهندوس والمسلمين ، لكنها لم تكن ناجحة في بلوغ الغاية التي اوجدت من اجلها . وما ذلك الا لانها تسبب شذوذاً وفساداً في حياة الرجل الجنسية وتجعل المرأة في عزلة تؤدي الى انحطاط مركزها في البيت وفي المجتمع .

وهنالك طريقة اخرى هي منع البغاء منعاً باتاً كما هي الحال مثلاً في انكلترا والولايات المتحدة . ان هذه الطريقة قد تنجح في تخفيف البغاء ولكنها لا تستطيع منعه تماماً ، ذلك لان القائمين على بيوت البغاء يرشون رجال الشرطة فيتغاضون عنها .

وعندي ان افضل طريقة لتقليل الامراض الزهرية هي :

اولا — اطلاع الرأي العام على اخطار هذه الامراض وعلى طرق تجنب عدواها

ثانياً — اعداد مستوصفات حكومية مجانية لمعالجة المصابين بالامراض الزهرية

من النساء والرجال فان في ذلك تخفيفاً لاخطار هذه الامراض المخيفة ، وعلى الاخص مرض السفلس وما ينتج عنه من الشلل والجنون . ويجب ان تحافظ هذه المستوصفات على كتم اسماء المرضى الذين يأتون للمعالجة كي لا يخجل هؤلاء من المجيء الى المستوصف والمعالجة به . اما في الوقت الحاضر فان كثيرين من المصابين بهذه الامراض يمتنعون خجلاً عن زيارة المستوصف والحصول على المعالجة الصحيحة ، فينتج عن ذلك ازدياد انتشار الامراض في المجتمع .

والواقع ، ان تحريم البغاء هو وسيلة سلبية ، أما المستوصفات العامة المجانية فهي وسائل ايجابية لمعالجة الامراض الزهرية . بيد اننا لا نزال نفتقر الى وسائل ايجابية تنوب عن البغاء وتحل محله . وها انني اقترح على البيئة القائمة على المثل العليا ، ان تعد الوسائل التالية :

اولا — العفة وضبط النفس .

ثانياً — تسامي القوى الجنسية وتوجيهها الى نواح مثمرة .

ان الامة التي يتصف شعبها بالعفة تكون قوية وفعالة وغنية في مدنيتها . اما الامة التي تنحط مثل شعبها العليا فتدور حول المسائل الجنسية فينفرط افرادها في الاعمال الجنسية ، تصبح كسولة ضعيفة مريضة . ولاجل تسامي القوى الجنسية وتوجيهها التوجيه الحسن ، ينبغي اعداد ساحات للعب على اختلاف انواعها ، وتنظيم فرق الكشافة للصبيان وفرق المرشدات للبنات والفنون المدرسية ومؤسسات الخدمة الاجتماعية ، وهذه جميعها تعمل لتوجيه قوى المرء توجيهاً صالحاً بحيث يستعيض بها عن اللجوء الى الافراط في الامور الجنسية . وكذلك فان هذه القوى المتجهة الى الرسم ، والموسيقى ، والكتابة ، والشعر ، والرياضة ، والخدمة الاجتماعية ، والاختراع ، والتنقيب ، والبحث ، لهي عوامل فعالة جداً في بناء الامة واثراء مدنيتها .

ثم ان هنالك طريقة فضلى لمعالجة البغاء ، هي القضاء على مسبباته . فالزواج الباكر القائم على الحب المتبادل والاحترام والتقدير يشبع الشهوات الجنسية ويزيل

السبب الرئيسي للبغاء . على ان هذا النوع من الزواج يطبق في البيئات الزراعية كثر من البيئات التجارية والصناعية حيث لا يستطيع المرء عادة ان يعيل عائلته لا بعد ان يكبر ويجمع المال الكافي .

وهنالك طريقة التعقيم . والتعقيم عملية تمنع المرء من التناسل . وقداستخدمت قديماً لاعداد الخصيان لخدمة الحريم . اما اليوم فتطبق طريقة التعقيم على المجانين وضعفاء العقول وبعض المجرمين . ولا تستعمل طريقة الخصي بل يتم التعقيم بطريقة علمية ، إما بواسطة اشعة اكس ، او بواسطة اخرى . والتعقيم من شأنه ان يبقى المرء قادراً على القيام بالعمل الجنسي ، بيد انه يمنع التناسل . واذا كان التعقيم لا يشكل ضمانة تامة لمنع البغاء والامراض الزهرية ، الا انه طريقة فعالة لمنع ضعفاء العقول وذوي الامراض الوراثية من التناسل والتكاثر .

العوامل التي تؤثر على العائلة

لقد اثرت حركة تحضير العائلة ، اي الانتقال من الريف الى المدينة ، في الشرق العربي ، كثيراً في القرن العشرين ، كما اثرت في الولايات المتحدة في القسم الاخير من القرن التاسع عشر . ومن العوامل التي ساعدت هذه الحركة ، تأخر المواسم الزراعية وانخفاض مستوى المعيشة ومظاهر المدنية المغرية والامل بالتوظيف بمعاشات ارفع . ويصدق هذا بصورة خاصة على الشبان في القرى الجبلية . وقد كان لهذه الحركة آثار حسنة وآثار سيئة على الفرد وعلى القرية والمدينة معاً . فقد سببت ازدحاماً في المدن ، وجعلت ظروف الحياة غير صحية ، واكثرت حوادث الاصطدام ، وانتقال الامراض ، والجرائم ، وعدد العاطلين عن العمل . كما انها اضعفت عرى الارتباطات العائلية . ولكنها من الناحية الثانية افسحت للفرد مجالاً اوسع للمعالجة الطبية والتعلم ، واحاطته بظروف ملائمة لتحسين حالته الاقتصادية ، واعدت له كثيراً من وسائل الاستجمام التي لا تتوفر في القرية .

ان الصناعة تؤثر على البيت تأثيراً هاماً لانها تفسح المجال امام المرأة والاولاد

للاشتغال في المعامل. وهذا يعني الخروج من البيت والاستخدام خارجه ، وبذلك تضطرب الحياة العائلية اضطرابا خطيرا . ولكن مما لا ريب فيه ان الثورة الصناعية جلبت معها ، بالاضافة الى هذه الشرور الاجتماعية ، تقدماً عظيماً في معدات البيت والعائلة ، كالمصابيح والادوات الكهربائية ، واجهزة المراحيض والمطابخ ، وما اشبه ذلك من الامور التي تجعل العمل البيتي اسهل وابهج . وقد ادى ذلك الى تحسين الحياة البيتية والحياة العائلية تحسناً كبيراً . ومن جهة اخرى ، فان العائلة قد تأثرت بعوامل ثقافية متناقضة ، كطاعة الاولاد للوالدين ، ونزعتهم الى الحرية والاستقلال ، وقيام العائلة من جهة والحكومة من جهة اخرى على تحمل مسؤولية القاصرين ، والزواج القائم على الحب . ان كلا من هذه العوامل يصح ان يكون موضوع درس وتفكير عميقين .

اهمية العائلة

ان العائلة هي الوحدة العامة المنتشرة في كل المجتمعات البشرية . وقد اجتازت هذه الوحدة جميع العصور والازمنة . وفي الواقع ان كل المخلوقات البشرية ترتبط برباط عائلي ، اما مباشرة او مداورة . والعائلة هي مصدر جميع المؤسسات الاخرى ، كالمدرسة والكنيسة ، او غيرها من الجماعات الدينية ، والحكومة ، والمخزن ، والمعمل ، والمستشفى ، والمسرح . فعندما يسقط في يد احدى هذه المؤسسات وتعجز عن القيام بعملها تقوم العائلة به عوضاً عنها . فالعائلة اذن ، هي الوسيلة الاساسية للمحافظة على استمرار الجنس البشري وتربيته . وان الامة التي تشتمل على افضل البيوت وارقى العائلات ، تكون اقوى الامم وابرزها .

الفصل الرابع

حالة المرأة

ان الغرض من هذا الفصل هو اطلاع القارىء على حالة المرأة المتبدلة في الشرق العربي واثارة تفكيره حول ذلك ، ففي اية اعتبارات تُحبّذ المساواة بين الجنسين ؟ كيف يمكن احداث التبدل ؟ وكم يجب ان تكون سرعته ؟

ان موضوعنا هو حالة المرأة المتبدلة في الشرق العربي ، والاسئلة التي تنشأ بصدده هي الاتية :

لماذا ندخل موضوعاً كهذا في بحث كبحث هذا الكتاب ؟ ما هو مركز المرأة في بحث العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي ؟

« لا تستطيع الامة ان تنهض بدون نسائها » هذه حقيقة مشهورة قد اثبت التاريخ صحتها خلال مختلف العصور والازمنة . فالمرأة هي جزء هام من الامة لا بعددها فقط بل بقوتها الكامنة وتأثيرها . فاذا افسح لها المجال استطاعت ان تأتي بالعجائب في بناء الامة . لقد بحثنا في الفصل السابق عن « العائلة » ، ولا ريب في ان القارىء قد ادرك ان العائلة هي وحدة الامة الاكثر اهمية . ونقول الان ان الام هي الجزء الاساسي في تلك الوحدة . فهي اذن عامل هام في تقرير مستقبل الامة . وقد اظهر قاسم بك امين زعيم النهضة النسائية في العالم العربي ، هذه الحقيقة في كتابه : « تحرير المرأة » اذ قال :

« ان العائلة هي اساس الامة ، ولما كانت المرأة هي اساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية اول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها » .

لا يستطيع الرجل وحده ان يرفع امته كثيراً في سلم الرقي والمدنية ، مهما

كان متجدداً ومتحمساً . « فاليد الواحدة لا تستطيع ان تصفق لوحدها » هكذا يقول المثل العربي ، وكذلك اذا كان نصف المجتمع — الرجل — يندفع الى الامام بينما النصف الاخر — المرأة — يكون ضعيفاً معدما ، فيقف كالمتفرج او ربما يجر ، جهلاً منه ، الى الوراء فيهدم ما يبنيه الاول وتبقى الامة واقفة خاملة .

يجب ان تكون المرأة بركة للامة لا عبئا ثقيلاً عليها ، فبدلا من ان تحمل مسؤوليتها لابيها او اخيها او زوجها يجب ان تصبح سنداً لهم ومساعداً فعالا في اعمالهم لاجل الخير الاجتماعي .

فلذلك كان درس حالة المرأة العربية المتبدلة جزءاً اساسياً من هذا البحث الذي يوجه اهتمامه الى درس العلاقات الاجتماعية والتقدم الاجتماعي في الشرق العربي .

لمحة تاريخية

دعنا ننظر باختصار الى تاريخ نهضة المرأة في الغرب . انه جدير بنا ان نعرف بان المصطلحات الآتية كمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، وإفساح الفرص المتساوية لهما ، والتساوي بينهما في الحقوق والمسؤوليات ، والمساواة في الاجور . . الخ هي حديثة نسبيا . إنها من انتاج القرنين التاسع عشر والعشرين . وفي الحقيقة ، اننا قلما نجد اثراً للحركة النسائية في اية ناحية من العالم المتمدن قبل منتصف القرن الماضي ، حتى في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية .

كان الاعتقاد السائد في ارقى بلدان العالم ، قبل القرن التاسع عشر ، ان المرأة أضعف عقلا من الرجل ، الى ان اثبتت التجارب العلمية حديثاً جداً ، انها تتساوى مع الرجل على الاقل في القوى العقلية ، على شرط ان تتساوى ظروفها التعليمية . وقد عجزت اختبارات الذكاء ، التي اعطيت حديثاً الى جماعات من الجنسين ، عن اظهار اي فرق في معدل القابلية بينهما .

اما اذا كانت المرأة قد اظهرت ضعفاً وتأخراً في الماضي ، فذلك لعدم اعطائها الفرص المناسبة . فقد حرمت من التعليم الذي خص به الذكور ، فكان من الطبيعي

ان تتأخر في نموها ، بينما يتقدم هو ويتطور .

ومن الخير ان نذكر بهذه المناسبة انه بينما يظهر رجال المدينة تفوقاً عقلياً عاماً على المرأة ، فان رجال الريف ونسائه يتشابهون كثيراً في هذه الناحية ، ذلك لان رجال الريف ونساءه يصادفون فرصاً واحدة لنموهم . فهم يعملون في الحقول ، جنباً الى جنب ، ويترافقون الى السوق ، ولهم اتصالات اجتماعية واحدة .

ومنذ القرن التاسع عشر ، طرأ تغير عظيم على حالة المرأة في الغرب . فقد زادت حقوقها وامتيازاتها ، وتساوت حقوقها الزوجية بحقوق الرجل في مملكتها الصغيرة « البيت » ، وسمح لها بالدخول الى المعاهد التعليمية حيث تحصل على التعليم الحر والمهني على ذات المستوى كالرجل ، كما سمح لها بالدخول في حقل الاستخدام خارج البيت . وهي تنال في بعض الاحيان اجوراً كاجور الرجل اذا تساوت اعمالها . وقد نالت حقوقها الاجتماعية بحيث تستطيع ان تدخل معترك الحياة على قدم المساواة بالرجل . ونالت ايضا درجة كبيرة في الحرية الدينية حيث تستطيع احيانا ان تصبح قسيسا ، كما نالت حقوقها السياسية اذ تستطيع في بعض البلدان ، كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة مثلا ، ان تنتخب وتنتخب .

ان اهم العوامل التي بعثت النهضة النسائية في الغرب وسببت تحريرها هي الاتية :

(١) الثورة الصناعية التي نقلت الصناعة من البيت الى المعمل فاجبرت المرأة على ترك بيتها الضيق والخروج الى المحيط الاوسع ، فبدأت بذلك عملية تحريرها التدريجي .

(٢) الثورة الفرنسية التي قامت لتحقيق « حقوق الرجل » فحققت ايضا « حقوق المرأة » إذ ساعدت الحركة النسائية للحصول على حق المرأة في الانتخاب في العظم انحاء العالم .

(٣) الحرب العالمية الاولى التي ابرزت قابليات المرأة واثبتت جدارتها في الحلول محل الرجل في الاعمال المدنية .

في الشرق العربي

لقد جرت جميع هذه التطورات في حالة المرأة في الغرب ، لكن الشرق وخاصة الشرق العربي لم يكن غير شاعر بالحركة . فحركة تحرير المرأة كانت تتسرب بسرعة الى بلدان الشرق مثل العجم وتركيا والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر . وقد نشطت نساء الشرق العربي منذ الحرب العالمية الاولى ، فتأسست المنظمات النسائية بكثرة في مختلف الانحاء ، ففي بيروت وحدها مثلا تجد ما لا يقل عن ٢٢ جمعية نسائية .

وقد انضمت اربع عشرة جمعية من هذه الجمعيات فكونت الاتحاد النسائي عام ١٩٢١ لكي يوحد جهود الجمعيات المنفردة . وقد عقد هذا الاتحاد مؤتمرين في بيروت ، واحد في عام ١٩٢٢ ، وآخر في عام ١٩٢٧ . وعقد في عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٠ مؤتمرين دعا اليهما الجمعيات النسائية في مختلف الاقطار العربية ، كما اوفد الاتحاد من يمثله في مؤتمر عصبة النساء الدولية وفي مؤتمر جمعيات النساء العرب المنعقدين في الاستانة والقاهرة عام ١٩٣٩ . وتأسس في فلسطين منذ عشر سنوات « مجلس للنساء » انتخب اعضاءه ممثلات من خمسين جمعية نسائية من مختلف الاديان والقوميات في كافة انحاء فلسطين ، وهذا المجلس هو فرع من المجلس النسائي الدولي في جنيف ، ويتمثل في مؤتمراته السنوية ، ويقدم المقترحات الى حكومة فلسطين حول القوانين المتعلقة بالنساء والاطفال .

لقد كان الشرق العربي دائما في مختلف الازمنة والتواريخ ، صلة الوصل بين الغرب والشرق الاقصى ، وكان مصيره مرتبطا اكثر من اي قسم من الشرق بمصير اوروبا الغربية . فهو يوجه وجهه شطر اوروبا لا شطر الشرق الاقصى ، لذلك كان عرضة للمؤثرات الغربية اكثر من اية مؤثرات اخرى . فلا غرو اذن اذا تسربت النهضة النسائية الاوروبية الى الشرق كما تسرب كثير من النهضات قبلها ، واذا وجدنا انفسنا نواجه مسألة كيفية مجابهة هذه التطورات .

وعندما نجابه هذه الآراء الجديدة فاننا نتزع بادىء الامر الى اعتبارها جميعها جيدة ، فنقبلها دفعة واحدة ؛ واننا نفعل ذلك لسببين اساسيين ، اولا : يظهر انه تكوّن فينا ، خلال بضعة القرون الماضية ، شعور بالضعة يجعلنا نقلل من قيمة الصفات

والقيم التي نملكها وتزيد في قيمة اي شيء يأتي الينا من الغرب لانه اجنبي ويحمل طابع المدنية الغربية . ثانيا : يظهر ان لكل جديد طلاوة ، فالآراء الجديدة التي تأتي من الغرب مهما كانت قيمتها تجذب الشبان اليها . والمؤثرات الغربية لا مهرب منهـا ، وستحدث التطورات في المجتمع شئنا ام ابينا ، فاذا وقفنا في وجه التغير والتطور فذلك علامة الجمود والموت . فماذا يجب ان يكون موقفنـا تجاه هذه المشكلة اذن ، بصفتنا رجال ونساء متعلمين ؟

هنالك والحالة هذه حقيقتان هامتان يجب ان نتذكرهما دائماً :

١ – توجد بعض الصفات والقيم في الشرق العربي التي يجب ان نحرص بالمحافظة عليها اثناء حدوث التغير والتطور .

٢ – ليس كل ما يأتي من الغرب جيداً ، فبعضه مرغوب فيه وبعضه غير مرغوب فيه ، فيجب ان نمتحن الجميع ثم نقتبس المفيد منه ونهمل المضر .

الاحتفاظ بالقيم العربية

وعلى الرغم من كل عيوبنا ونواقصنا التي لا يجوز ان نتعامى او نتغاضى عنها ، فاننا نملك بعض الصفات التي يحسدنا عليها الكثيرون والتي يجب ان نحتفظ بها . ليس من الحكمة ان نمدح انفسنا بانفسنا ، لذلك نقتبس بعض الفقرات من تقرير عن « الحالة الاجتماعية في سوريا » وضع تحت اشراف جمعية « اسعاف الشرق الادنى » :

ا – « عزة النفس » تلـك الصفة التي يحترمها العربي ويجلها فوق كل شيء ، وهي تتضمن الشرف واحترام النفس .

ب – الامانة والاخلاص للصديق او للجماعة .

ج – « كرم الضيافة » التي اشتهر بها العرب . ويقول المثل العربي « ان لم تسعكم بيوتنا فاننا نضعكم في قلوبنا » .

د – ان العربي من طبيعته متدين في مواقفه تجاه الحياة ، فهو يرى يد الله

في كل حادث من حوادث حياته وحياة امته .

هـ — لقد اشتهر العرب بمؤاساتهم للمحزونين والمتعبين وبغيرتهم على المرأة والمحافظة على شرفها.

وتعم هذه الصفات جميع البلاد العربية ، لا بلادا واحدة فقط . ولما كان الاجانب يعجبون بهذه الصفات فينا ويقدرونها ، فجدير بنا ان نزداد تمسكا بها وان نحتفظ بها بشدة وعناية ، فلا نقبل ابدالها بغيرها لمجرد ان غيرها اتى من الغرب ، ومطبوع بطابع المدنية الغربية العصرية .

اقتباس التطورات المرغوب فيها

ان النقطة الاساسية الاولى هي ان نحتفظ بخصالنا الجيدة . والنقطة الثانية هي ان نقتبس التطورات المرغوب فيها التي تأتي من الغرب وان نهمل ما كان عكس ذلك . واليك بعض التطورات التي حدثت في الغرب ، والتي يجدر بنا اقتباسها :

١ — **سفور المرأة** : ليس الحجاب بدعة اسلامية ولا هو خاص بالاسلام فقط كما قد يظن البعض منا . وفي الواقع ان الحجاب يسجل مرحلة معينة في تقدم المرأة في العالم اجمع ، فمرّ في تطورات كثيرة واتخذ اشكالا مختلفة على حسب قوانين التقدم الاجتماعي .

ولقد استعمل الحجاب في مختلف العصور والازمنة ، من قدماء اليونان ، الى الرومانيون ، الى والبيزنطيون ، والى قدماء المسيحيين ايضاً وخاصة في الشرق .

فاين هو مركز الاسلام في الحجاب اذن ؟

اما الاسلام فقد اقتبس الحجاب من الشعوب التي قهرها وطبعها بطابع الشريعة الاسلامية . وبينما يفسر احد الثقاة في الشريعة الاسلامية ان سفور الوجه واليدين جائز ، فان تفسيره هذا لم يؤخذ بعين الاعتبار . ولما كان الجنسان جاهلين فقد أخذا يتمسكان بالحجاب تمسكاً شديداً كما نراهما الان . والغريب في الامر ان معظم نساء القرى المسلمات لم يتحجبن حتى الان .

ولم يكن الحجاب مقتصراً على المسلمين فقط، فقد استخدمه نصارى الشرق العربي كما استخدمه المسلمون وتمسكوا به . وقد عرف المؤلف رجلاً مسيحياً عربياً من اعيان شرق الاردن ، يفاخر بان زوجته لم تستعمل حجابها البتة في حياتها، ذلك لانها منذ دخلت بيته قد خرجت منه مرة واحدة، وذلك كان في اليوم الذي حملت فيه الى مقرها الاخير .

بيد ان استعمال الحجاب قد تطور كثيراً خلال ربع القرن الاخير ، وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى . فبينما كانت جميع نساء النصارى متحجبات في اوائل القرن العشرين ، نرى معظمهن سافرات الان ، الا في بعض المدن المتعصبة في الداخل . ففي القدس اليوم لا تجد إلا امرأة مسيحية واحدة محتفظة بحجابها ، رغم ان النساء المسيحيات في تلك البلدة لم ترفع الحجاب الا في اواخر الحرب العالمية الاولى . وانه لمنظر شيق ان ترى هذه العجوز الشمطاء تسير في الشوارع وقد التفت بازار ابيض كأنها اثر من آثار الماضي .

وبينما لم تحلم المرأة البيروتية المسلمة قبل الحرب العالمية الاولى بالسفور الا قليلا، فاننا نرى اليوم ان كثيرات من نساء بيروت ، يستعملن الحجاب الحديث الذي اوصت به الشريعة الاسلامية على حسب رأي قاسم بك امين وغيره من الكتاب، فتخرج النساء وهن مرتديات هذا الحجاب . كما ان عدد الشابات المتعلمات اللواتي يخرجن الى تسوق حاجاتهن يزداد سنة بعد سنة .

٢ ــ **تعليم المرأة**: اما الاصلاح الآخر الذي اتانا من الغرب فهو تعليم المرأة ، رغم ان بعض البلدان التي تأتي في الطليعة من حيث المدنية كبريطانيا العظمى واميركا لم تهتم بهذ الامر بصورة جدية حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر، ذلك لان الرجال كانوا يستنكفون ان ينفقوا المال على تعليم المرأة . وكانت البنات يجلسن في بعض البلدان على درج غرف الصف ليستمعن الى الصبيان يسمّعون دروسهم داخل الغرفة .

ويقال ان اول درجة ب . ع . منحت الى امرأة كان عام ١٨٤١ . وكانت « الزابت بلاكوال » اول امرأة نالت شهادة الطب في اميركا وربما في العالم كله ، حيث منحت الشهادة عام ١٨٤٩ في جامعة جنيف بولاية نيويورك . وقد طلبت

الدخول قبلًا الى اثنتي عشره مدرسة في الطب ، ولكنها رفضت لانها امرأة . واخيراً اقترع طلاب جامعة جنيف على قبولها ، فحازت على الاكثرية . الا ان النساء الاخريات تجنبنها ورفضن الاعتراف بها . وقد ماتت اليزابت بلاكوال سنة ١٩١٠ .

وفي الوقت الذي كانت اليزايت بلاكوال تجاهد في سبيل التعليم المهني ، كانت اخواتها في انكلترا تشن حربا مثل حربها ضد التعصب القديم . وكانت النساء اللواتي سمح لهن بدخول جامعة « ادنبره » بين جماعتين من الطلاب ، جماعة تهزء بهن ، وجماعة تحميهن وتدافع عنهن . واخيرا اضطررن الى الخروج من الجامعة لان وجودهن بها كان يتنافى مع رقة شعور الطلاب ...

لا ريب في ان ذلك اصبح في زوايا التاريخ الان ، وانما ذكرناه ، رغم عدم صلته المباشرة في موضوعنا ، لكي نعرف القارىء بان الاصلاح الاجتماعي هو فعل تدريجي في كل بلاد وفي كل زمان . لقد كسبت المرأة معركة التعليم في الغرب ، وتعد الكليات النسائية وكليات التعليم المختلط بالمئات اليوم .

الا ان الحركة التي بدأت في الغرب قد تسربت الى الشرق العربي ، وهي آخذة بالنجاح السريع .

ومن اقدم مدارس البنات التي اسست في هذه البلاد هي مدرسة البنات الاميركية في بيروت ، عام ١٨٣٥ ، اي في السنة التي تأسست فيها اول كلية للبنات في اميركا وانكلترا .

ولقد كان التعليم في الماضي مجاناً ، وكانت الاجور التي تتقاضى عن القسم الداخلي بسيطة جداً ، ومع ذلك كان الاهل يرفضون ان يرسلوا اولادهم الى المدارس . اما اليوم فان الاجور عالية ولكن الاهل يرغبون في ان يعلموا بناتهم ، ويسمحون لهن بالسفر اليوم من بلاد الى أخرى طلباً للعلم ، فصحّ فيهنّ المثل القديم المشهور « اطلب العلم ولو في الصين » . هذه هي الحال اليوم في معظم بلدان الشرق العربي .

اما من حيث التعليم العالي فان اول مؤسسة للتعليم العالي للمرأة في الشرق الاوسط ، هي كلية النساء في القسطنطينية ، التي صودق على ميثاقها عام ١٨٩٠ .

(وكانت قد اسست عام ١٨٧١ كمدرسة بسيطة). وكانت جامعة القسطنطينية الرسمية التي تأسست عام ١٩٠٠ . قد افردت قبل الحرب العالمية الاولى صفوفاً خاصة للنساء المتحجبات الى ان جاء عام ١٩١٩ فادمج قسم النساء بقسم الرجال واصبح التعليم مختلطا .

اما الجامعة الاميركية في بيروت فقد سمحت عام ١٩٢٤ للطالبات بالدخول اليها بالشروط ذاتها التي تطلب من الطلاب . وفي السنوات الثلاث الاول لم يتجاوز عددهن اربع او خمس طالبات، اما عام ١٩٢٩ فقد بلغ عددهن الخمسين . وقد تخرج في الجامعة حتى عام ١٩٣٨ تسع وتسعون طالبة، يحملن شهادات في مختلف فروع الدراسات العليا .

وفوق ذلك، فان مدرسة الممرضات قد الحقت بكلية الطب في الجامعة الاميركية منذ عام ١٩٠٥ . وهذه تعتبر من اقدم المدارس المهنية في الشرق العربي ان لم تكن اقدمها . فقد تخرج فيها خلال الخمس وعشرين سنة الاولى ١٤٠ ممرضة، واصبح عدد المتسجلات في هذه المدرسة ستين، بينما كان بادىء الامر لا يزيد على خمس او ست .

واخيرا تأسست في بيروت عام ١٩٢٦ كلية البنات بصفين : الصف العلمي الاول والصف العلمي الثاني . وهي تخول خريجاتها حق الدخول في السنة العلمية الثالثة في الجامعة دون امتحان . وقد ارتفع عدد طالباتها من ١٥ في السنة الاولى بعد افتتاحها الى ما يربو على المائة عام ١٩٣٩ .

وتُدرب بناتنا اليوم على مختلف المهن كالتعليم والتمريض والتوليد والمحاماة والطب والصيدلة وطب الاسنان . ونجدهن مشتغلات في المعامل ودوائر الحكومة والمحلات التجارية والمدارس والصيدليات والعيادات الطبية والمستشفيات وحتى البارات، بينما كان اشتغال المرأة في السابق خارج البيت يعتبر عاراً .

وهكذا نجد ان تعليم المرأة في الشرق العربي قد تقدم بخطوات واسعة جداً كما نلاحظ ان رغبة الاهل في تعليم بناتهم لا تحد ولا توصف في بعض الاماكن، وقد جاء في تقرير مفتش المعارف العام في فلسطين ان الطلب على تعليم البنات كثير جداً في

بعض القرى . ولما لم تتوفر المدارس للبنات اخذ الاهل يرسلون بناتهم الى مدارس الصبيان الرسمية . وعندما رفض قبولهن في هـذه المدارس رفع الامر الى دائرة المعارف التي سمحت لهن بالقبول على شرط ان لا يكون ذلك سبباً في مضايقة الصبيان والحلول محلهم . وتنطبق هذه الحالة من حيث اقبال المرأة على المدارس ، والتعلم على العراق ايضاً ومعظم البلدان العربية .

٣ ـ **المساواة في الحقوق الزوجية بين الرجل والمرأة :** والاصلاح الاجتماعي الثالث الجيد الذي اتانا به الغرب ، هـو المسـاواة في الحقوق الزوجيـة بين الرجل والمرأة . فالنساء المتعلمـات في الغرب يرفضن ان تعتبر الزوجيـة مهنة ، وان تكون وظيفتهن الوحيدة في الحيـاة الحمل والولادة وتربية الاطفال . وقد تسربت هذه الفكرة الى النساء الشرقيات المتعلمات كمـا ان ازواجهن يشـاركونهن هذه الفكرة . وهكذا تحسن مركز المرأة في كثير من البيوت ، فتساوت بالرجل واصبحت تعتبر شريكته في تأسيس البيت .

ان عادة الزواج القائم على اختيار الاهل دون اشراك الخطيبين في الرأي ، اخذة بالانقراض تدريجياً بين الطبقات المتعلمة رغم انها لا تزال سائدة بين طبقات المتعصبين من نصارى ومسلمين . وما هو جدير بالذكر ان الشريعة الاسلامية تسمح للخطيب ان يرى خطيبته : « يجوز للخاطب ان يبصر المخطوبة وينظر الى وجهها وكفيها ويجلس معها ويأكل معها » ، كما جاء في « الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية » لمحمد زيد الابناني (المادة ٣) .

وكم من الامهات يخبرننا اليوم انهن حين كن مخطوبات وكان الخطيب يأتي لزيارة اهلهن ، كن يؤمرن بالخروج الى غرفة اخرى . واذ كان مسكنهن مكوناً من غرفة واحدة ، كنّ يجلسن في زاوية ويحتجبن وراء ستار او خزانة .

انه من الخير ان يرى الخطيبان بعضهما بعضاً ، وان يتحادثا قبل الزواج ما دام ذلك يجري ضمن حدود الآداب والاصول الدينية . اما سبب طلب عدد كبير

من الرجال الزواج بنساء من بيئة غير بيئتهم ، فهو راجع الى عدم السماح لهم برؤية بنات بيئتهم ومخالطتهن وقد نتج عن ذلك كثير من الفشل في الزواج .

وقد كانت العادة في الشرق العربي ان تتزوج البنات في سن مبكرة واحيانا كثيرة في اوائل دور المراهقة . فالكثير من امهاتنا تزوجن في السن الرابعة عشرة . ان زواجاً كهذا لا يثمر، عادة ، حياة زوجية سعيدة ومساواة في الحقوق الزوجية . ومن حسن الحظ ان معدل سن الزواج قد ارتفع في الجيل الماضي خاصة بعد الحرب العالمية الاولى ارتفاعاً محسوساحتى اننا قلما نجد الان متزوجات في السن الرابعة عشرة والخامسة عشرة . وهكذا فاننا بارتفاع سن زواج المرأة ، وبزيادة تعلمها والقضاء على الزواج الذي يفرضه الاهل دون اخذ رأي العريسين ، نأمل ان تزداد المساواة في الحقوق الزوجية بين الجنسين في عائلاتنا العربية.

هذه هي بعض التغيرات او التطورات المستحبة والتي يمكننا ان نقتبسها . ولكننا عند اقتباسها والقيام بالاصلاح ، يخشى علينا دائماً من خطر الاسراع ، لان التقدم الاجتماعي يجب ان يأتي بالتدريج لا بالطفرة . وما لم يأت الاصلاح تدريجياً فانه قد يسفر عن رد فعل لا تحمد عقباه .

خذ مثلاً الرقص الغربي . لقد انتشر هذا الرقص في بعض الاوساط العربية ، منذ الحرب العالمية الاولى، كانتشار النار. هذا الانتشار كان سريعاً جداً ، اذ ان الرقص الغربي يتطلب علاقات بين الجنسين تختلف عن العلاقات السائدة في الشرق اليوم . فالاناث والذكور ينشأون في الشرق منفصلين متباعدين ، بينما ينشأون في الغرب مختلطين في المدرسة والبيت والمجتمع . انه من الخير ان نجمع بين الجنسين ، ولكن في جو ملائم صحيح كجو المدرسة أو البيت ، وليس في جو الملاهي العامة .

والمثال الآخر على الخطر من السرعة هو السفور الفجائي . فقد تعود رجالنا ونساؤنا على الحجاب منذ قرون بعيدة ، فاذا سفرت نساؤنا فجأة ودفعة واحدة ، دون تهييء ما يتطلبه ذلك عند الجنسين من معرفة ونور ، فانه يخشى ان تكون النتائج وخيمة .

أذكر ان احدى المتخرجات المسلمات وقفت منذ ثلاث سنوات في حفلة توزيع الشهادات في احدى مدارس بيروت الاهلية، والقت خطابا عن « الحجاب »، فسجل ظهورها سافرة امام الحفل بدء عهد جديد في تحرير المرأة. وقد قالت في خطابها جملة لا تنسى بسهولة، فقد لمست طرف حجابها ثم قالت : « لا تلحوا علينا برفع هذا الحجاب فجأة، فقد الفته عيوننا، ويخشى ان رفعناه فجأة ان يبهر نور العالم الخارجي عيوننا فلا يعد بامكاننا ان نبصر جيداً » ان تركيا الجديدة تعرض نفسها الان لمثل هذا الخطر. فدعنا نأخذ اذن عبرة من جارتنا .

اهمال النظورات غير المرغوب فيها

هذا من حيث الاصلاحات المرغوب فيها والتي تفيدنا اذا ما اقتبسناها . اما التغيرات غير المرغوب فيها فيجب ان نتجنبها . وهي كثيرة نذكر منها واحدة او اثنتين فقط :

اولا — البغاء المنظم . ان هذا العيب دخيل على البلاد . فالبغاء لم يكن معروفاً في هذه البلدان قبل الحرب العالمية الاولى .

ثانياً — الادمان على المسكرات . وهو احد العناصر الضارة التي اتتنا من المدنية الغربية ، ونعني به الادمان على المشروبات الكحولية . فهذه المشروبات لم تكن معروفة قبل الحرب العالمية الاولى في الشرق العربي ، وكان المشروب الوحيد هو العرق والنبيذ اللذان كانا يشربان في البيوت فقط ولا تستهلك منهما الا كميات قليلة . اما اليوم فان المشروبات الاجنبية، خاصة البيرة، اكثر شيوعاً من العرق والنبيذ . وفي الواقع ان شرب البيرة اصبح عادة شائعة في كثير من المناسبات، بحيث ان الكثيرين لا يعتبرونها مشروباً روحياً .

اما تقدير تأثير هذه المشروبات على العائلة بصورة عامة والمرأة بصورة خاصة فاننا نتركه للقارىء الذي سمع بلا ريب ببعض الحوادث التي كانت فيها السعادة العائلية ضحية ادمان الاب على الشرب .

وهنا يجدر بنا ان نتساءل كيف يمكن لنا ضبط ما يجب ان نأخذه من المدنية الغربية، وما يجب ان نتركه . وعندي ان ذلك يمكن ان يتم بواسطة ثلاث طرق رئيسية :

اولا – الرأي العام . وهو رأي الاكثرية، فاذا آمن اكثر افراد الشعب بضرورة المساواة بين الرجل والمرأة تحققت المساواة . دع اغلبية الناس، مثلاً، يؤمنون بان مستوى المرأة يجب ان يرتفع لكي تتقدم الامة، فتجد عندئذ ان تحسين حال المرأة وتحريرها يسيران بخطوطات واسعة .

ثانياً – المؤسسات . اننا نستطيع بواسطتها ان نضبط اختلاط الجنسين . ويجب علينا ان نشجع هذا الاختلاط في سن مبكرة من العمر ولكن تحت ظروف صحيحة ملائمة، وذلك في البيت والمدرسة والاجتماعات العامة المتعددة .

ثالثاً – القانون . لقد رفعت مصر مثلا سن زواج البنات الى السادسة عشرة، كما ان النساء اللواتي يرغبن في السفور في تركيا وايران يجدن من القانون حامياً لهن . وقد حتم قانون تركيا الحديثة الزواج بواحدة فقط والغى تعدد الزوجات . وعام ١٩٢٣ اصدر شاه ايران قانونا يحمي العاملات من النساء والاطفال ويحدد ساعات عملهم وشروط العمل .

اما في فلسطين فقد حدث عن طريق القانون كثير من التطورات الاجتماعية المتعلقة بالمرأة . فقد رفعت المحاكم الشرعية مثلا سن زواج البنات الى السادسة عشرة، كما وضعت المحاكم المدنية نظاما جديدا جعل شهادة المرأة معتبرة كشهادة الرجل بينما كانت شهادة المرأة تعتبر سابقاً نصف شهادة الرجل . وكذلك مبدأ المساواة في الاجور بين الرجل والمرأة، فقد طبق في الوظائف الحكومية منذ عام ١٩٢٩، وفي الوظائف التعليمية منذ عام ١٩٣٠ . وقد الغى القانون الفلسطيني البغاء المنظم وفرض المراقبة على الافلام السينمائية قبل عرضها على الجمهور .

الخلاصة

والخلاصة ان نجاح الحركة النسائية يتوقف كثيرا على موقف الرجال المتعلمين

منها ، اذ لا ريب ان لموقف كل منا واعماله تأثيرا كبيراً على الامر ، ولكن مهمتنا ليست بالسهلة فهي تتطلب كثيرا من الحكمة والحنكة والدراية في معالجتها .

يجب اولا ان نتمسك تمسكاً شديداً بالقيم الجيـدة التي نجدها في بيئاتنا . واذا ما شعرنا بضرورة ادخال تطورات مرغوب فيها كمنح كل من الجنسين فرصاً متساوية ، فيجدر بنا ان نقف موقف المجددين لا المحافظين ويجدربنا ايضاً ان نحذر الطفرة، ذلك لان الزعيم الذي يسرع في خطاه اكثر مما يستطيـع اتباعه ان يفعلوا ، يصبح اخيرا بلا اتباع ، في موقف حرج جدا .

ينبغي علينا ان نتذكر دائماً ان افضل مكان لبداية التطور هو بيوتنا اولا .

الفصل الخامس

البيت

نطالع في هذا الفصل والفصول الاربعة الاتية مؤسسة اخرى ، هي المؤسسة التربوية في الشرق العربي ، اي العلاقات بين الكبار والصغار .
اما الغرض من هـذا الفصل فهو ان يبين وظائف البيت والاخطار التي تهدده وبعض المبادىء لتحسينه »

اهمية البيت

لا نستطيع ان نقيس اجمل الاشياء في الحياة بمقياس او نزنها بميزان . فليس بمقدور عالم ما ان يعرف كم تضيف رائحة وردة زكية الى سعادة الانسان ، او ان يقيس جمال منظر غروب الشمس او سحر النجوم . وقد اجهد الشعراء والفنانون مواهبهم العقلية عبثاً في تصوير معنى « البيت » فلم يفلحوا ، ذلك لان العناصر التي تكونه هي من نوع تلك التي تكوّن الاحلام . فالبيت هو مسألة شعور ، لا مسألة تفكير وهو المكان الذي يخصك والذي يلائمك ، وحيث يحق لك ان تكون لانه ملكك الخاص . ويشعر جميع الوطنيين المخلصين بهذا الشعور نحو بلادهم ، خاصة عندما يهدد البلاد خطر او عندما يقيم هؤلاء في بلاد اجنبية .

فالبيت قد يعني اذن البلاد التي ولدنا فيها . الا ان المعاني المألوفة الرقيقة التي ترتبط بكلمة بيت تتعلق بالعائلة . والحقيقة ان منبعها الاصيل هو الحلقة العائلية ؛ فحول هذه الحلقة تنشأ ذكرياتنا الاولى ومنها تنمو أعز صداقاتنا واقربها ، وفيها تتكون ارق عواطفنا .

ولكن هنالك لسوء الطالع ، عائلات تسودها الناحية البغيضة من الطبيعة البشرية

فيتميز افرادها بالانانية وحب الخصام بدلا من كرم الخلق والمحبة ؛ وبذلك يتشرد افرادها احياناً سعياً وراء محيط اسعد وابهج . ولكن حتى في هذه الحالات يمحي اثر الذكريات المؤلمة ولا تبقى الا الذكريات المفعمة بالمحبة للبيت . فاذا كان هذا هوحب البيت في ظروف غير ملائمة كهذه فكم تكون قوته حين تسود الحياةَ العائليةَ المحبةُ والسعادة ؟ ان البيت المثالي هو الذي تسود المحبة والرقة بين جميع افراده ، فيشترك الاهل مع اولادهم في مرحهم وفرحهم ، كما يشترك الاولاد في اعمال اهلهم ويسرون بها . ويشعر الاخوان والاخوات ، مما توحيه اليهم الصداقة والوئام القائمان بين آبائهم وامهاتهم .

فاذا ربطت المحبة والصداقة افراد العائلة بهذا الرباط ،شعر افراد العائلة ان بيتهم هو ابهج واسعد مكان في العالم .

ويعتقد الناس احيانا انه ، لكي يتوفر لديك البيت الامثل ، يجب ان تملك مسكنا جميلًا . الا ان كلمة « مسكن » وكلمة « بيت » ، لا تعنيان شيئا واحدا رغم انهما يستعملان احيانا بمعنى واحد . ولا ريب في ان اغلب الناس يتعلقون ،في دور من ادوار حياتهم ، باماكن واشياء مختلفة نظراً لما يرتبط بهذه الاماكن والاشياء من اشخاص او حوادث . وينطبق هذا بصورة خاصة على مسكن المرء ، حيث تنشأ فيه ، في كثير من الاحيان ، محبة حقيقية لكل زاوية من زواياه . على انه بالرغم من هذه الارتباطات ، فان « المسكن » و « البيت » هما في الحقيقة مختلفان كثيرا . فاذا اضطرت العائلة ان تنتقل من مكان الى مكان آخر « فالبيت » ينتقل معها ايضا ، رغم تعلقها تعلقاً شديداً بالمسكن السابق .

وليس لنوع المسكن ، سواء كان قصرا ام كوخا ، الا الاثر القليل في جعله «بيتا» . فهنالك اناس يعيشون في قصور شاحبة ، ولكنهم لا يفهمون ما معنى كلمة «بيت» . بينما أناس آخرون يعيشون في اكواخ حقيرة فيجعلون منها مركزا للسلام والمحبة .

ان عناية الاهل بالصغار اكثر ضرورة عند البشر منها عند المخلوقات الاخرى . وهذه العناية هي على اتم ما تكون في العائلة البشرية . لان مدة طفولة

الانسان اطول من مدة طفولة الحيوان . فالفراشة مثلا تكون ، حالما تخرج من شرنقتها كاملة التكوين ، وتستطيع ان تهيء طعامها ومسكنها ، وتعرف اين تضع بيضها ، وكيف تعد العدة لصغارها . وتكون اغلب الزحافات كاملة التكوين منذ البداية ولا تختلف في شيء عن اهلها الا في الحجم . اما الضفادع وامثالها من الحيوانات فيكتمل نمو صغارها خلال مدة تتراوح بين الثلاثة والتسعة اشهر ، وتحتاج بعض الطيور الى ثلاث او اربع سنوات لاكتمال نموها ، اما الاسود والنمورة فتحتاج الى ما بين ثلاث او خمس سنوات لتبلغ النمو الكامل .

واذا قارنا طفل الانسان بالحيوانات الدنيا وجدناه عند الولادة عاجزا يحتاج الى مساعدة الغير ، وعقله يعوزه الذكاء وجسمه تعوزه القوة . وقد قال احد الاخصائيين بتربية الاطفال ما يلي : « الطفل هو اصعب حيوان تعهد الينا تربيته » فهو يعتمد اشهرا طويلة على امه لتقوم له بكل شيء . وتنقضي سنة وبعض السنة قبل ان يتمكن من النطق او المشي ، وينقضي زمن اطول من ذلك قبل ان يتمكن من ارتداء ملابسه بنفسه ، كما انه لا يستطيع بادىء الامران يدرك الخطر وان ادركه فلا يستطيع ان يتخلص منه . وقد تنقضي سنوات طويلة قبل ان يتمكن من تجهيز نفسه بالطعام والمسكن والملبس والحماية من الخطر . ويظل الطفل الى ان يبلغ الخامسة عشرة او العشرين معتمدا جزئيا او كليا على اهله او اناس آخرين لتحقيق معظم رغباته . فهذه المدة الطويلة من الاتكال في حياة الطفل البشري عظيمة الاهمية لا تجاريها عائلة اخرى بالفرص التي تتاح لها .

مرحلة البيت

أ ــ اللغة . ان العائلة هي اول من يعلمنا النطق الا اننا لانقدر اهمية اللغة ، لان اغلبنا لا يستطيع ان يتذكر عهدا لم يتمكن فيه من النطق ، فنحسب ان اللغة امر طبيعي . ولكننا عندما نحاول تعلم لغة جديدة او عندما نطالع قصة هلن كلر التي كانت عمياء صماء وكيف تغلبت على مشكلة اللغة والنطق ، تظهر لنا اذ ذاك الاهمية الحقيقية للغة .

وفي الواقع ان قياس اهمية اللغة او اية وسيلة اخرى لتبادل الافكار هو فوق مستطاعنا . لنتصوّر عالماً لا يملك سكانه وسيلة للتفاهم فيما بينهم ، فهل تراهم يستطيعون ان يشتغلوا او يلعبوا او يعملوا مشتركين في اي حال من الاحوال ؟ ولو افترضنا وجود عالم كهذا وافترضنا ايضاً استمرار الحياة فيه ، لكان هذا العالم فاقد النجاح او التقدم اذ على كل جيل من اجياله ان يشق طرقه في الحياة دون ان يستفيد من اختبارات اسلافه التي لا سبيل الى الوصول اليها . ولو عدم الانسان القدرة على تبادل الافكار واستطاع ان يعيش ، لعاش كل انسان في عالم منفرد بذاته ، ولعدمت حياة الجماعة لانه بدون تبادل الافكار يستحيل التعاون بين الناس ، وهو اساس حياة الجماعة .

ان العائلة البشرية هي التي تعلم اللغة ، الا في حالات نادرة جداً . فالطفل الحديث الولادة لا يستطيع ان يطلب ما يريد او ان يفهم كلمة مما تقوله امه . وقبل ان يكتشف بالاختبار ان البكاء ينيله رغباته كالاكل او الوفع من المهد لا يكون لبكائه غاية او غرض . وهكذا يختبر ببطء وتدريجياً ان الاصوات تأتي بنتائج مرضية ، فبهذه الطريقة يتم عمل العائلة التربوي العظيم الاول — وهو تعليم اللغة .

والبيوت التي ينطق اهلها بلغات متعددة مثل العربية والانكليزية والافرنسية والارمنية والتركية والعبرية ، تجهز ابناءها في سن مبكرة بالقدرة على العيش في الشرق العربي المتعدد اللغات .

ب — الاراء والاذواق . تتكون اغلب آرائنا واذواقنا في العائلة . ويندر ان تجد في عائلة ما ، يرغب ربها وربتها في القراءة والكتب ، طفلاً لا يحب ان يقرأ . فالابناء ، على العموم ، يحبون الاشياء التي يحبها اهلهم مع مراعاة الخلاف الذي تستدعيه الفروق في السن ، كما ان مواقف الآباء تجاه المسائل المختلفة كالسياسة والدين والرياضة ، تقرر مواقف الابناء الا في بعض حالات شاذة . ويقبل الابناء والبنات كثيراً من الاراء والاذواق التي يختبرها اهلهم ، وهذا امر طبيعي نظراً لاعجابهم الشديد

ومحبتهم القوية لابائهم وامهاتهم، ونظراً لكونهم محاطين بتأثير اهلهم في السنوات الاولى من حياتهم حيث يسهل الانطباع عليهم .

ج ـ **عادات العمل** . وتتكون في العائلة ايضاً عادات الاجتهاد او الكسل . فالطفل الذي يشعر انه عليه القيام بقسم من الاعمال البيتية، يكوّن عادة الاجتهاد وبالنادر ان ينساها ، اما الطفل الذي لا يطلب منه ان يعمل اي عمل في البيت او الذي يكلف بالعمل دون انتظام فمن المحتمل ان يكسب عادات الكسل التي يصعب عليه التغلب عليها فيما بعد . ويمكننا القضاء على الفكرة الشائعة في الشرق العربي بان العمل يحط امن شأن الانسان، فيما إذا عمل الآباء وشجعوا أبناءهم منذ الصغر على العمل .

د ـ **الآراء الصحيحة عن الحكومة** . وكذلك تتكون الافكار الاولى عن الحكومة في العائلة ، فالولد الذي يتعلم ان يطيع اباه وامه قلما يخالف قوانين مدرسته وانظمتها او قوانين مجتمعه وانظمته، ولا يجد مشقة في تجنب السجون عندما يصبح شاباً . وربما كان احد الاسباب لعدم وجود الجرائم في مدن الشرق بقدر ما توجد في مدن الغرب كشيكاغو مثلاً، هو الطاعة التي يكنها الابناء لاهلهم، خاصة آباؤهم، اكثر مما هي الحال في الغرب .

هـ ـ **المثل الاخلاقية والدينية** . اننا نكتسب الكثير من عقائدنا في الصواب والخطأ من العائلة، فالطفل لا يتعلم صفة الغيرية والامانة والشجاعة والنقاوة والاخلاص وغيرها من الصفات إلاّ في البيت حيث تُغرس فيه، هي او متناقضاتها من الانطباعات اليومية، التي تتركها فيه حياة امه وابيه واخواته وإخوانه الكبار .

وكذلك تكوّن في العائلة اول انطباعاتنا الدينية واشدها عمقاً . وبالنادر ان ينشأ في العائلة غير المتدينة ابناء متدينون . وان شرد الابن او الابنة فيما بعد عن التعاليم الدينية التي تلقوها في ايام الطفولة، فان اكثر تلك التعاليم يظل دائماً في اعماقهم ويهديهم مرة ثانية الى الايمان الصحيح .

الاخطار التي تهدد البيت

ماذا نعني « بالاخطار التي تهدد البيت » ؟ ما هي هذه الاخطار؟وما هي افضل الطرق لمجابهتها؟ يعتبر كل ما يعيق العائلة او يمنعها من القيام بعملها، خطرا على البيت وشرا للمجتمع . نعم ليس ضروريا ان يهدم هذا الخطر البيت، ولكن اي تدخل في عمل العائلة يصبح خطرا على مصالحها ويكون سببا خطيرا يثير اهتمام جميع الذين يعنون بمصلحة المجتمع . واليك بعض هذه الاخطار :

١ ــ المرض. ان الخطر الاول الذي يهدد البيت هو مرض الام او الاب مرضاً طويلا او موت احدهما . ففي حال كهذه لاتتوفر للطفل العناية الابوية الكافية التي يحتاج اليها . فموت الاب مثلا كثيرا ما يترك العائلة بدون معيل فتضطر الام ان تترك البيت وتخرج للعمل في المعمل او المخزن او الدكان او في خدمة بيوت اخرى . وهكذا يُترك الابناء غالباً دون ما رقيب فيتشردون في الازقة والشوارع ويتعلمون العادات البذيئة ويتعرضون الى الاخطار والتجارب . اما موت الام فهو خسارة للبيت لايقل اثرها عن موت الاب . ومهما بلغت العناية التي يقدمها الاخرون للاطفال فقد ثبت للجميع انه « لا يستطيع احد ان يحل محل الام » .

ليس بالامكان دائماً تجنب المرض والموت، انما العناية بالصحة تمنع المرض في كثير من الاحوال وتؤخر الموت . ويستطيع اغلب الاباء ان يؤمنوا على حياتهم لكي يكفلوا لعائلاتهم عدم العوز بعد مماتهم . ولكي لا تضطر الامهات للاشتغال خارج بيوتهن بعد موت ازواجهن، اعدت بعض الولايات في الولايات المتحدة قوانين لتقاعد الامهات . وتنص هذه القوانين على ان الام التي تحتاج الى المال تستطيع ان تنال كمية معينة منه اسبوعياً تعيل بها عائلتها وتستعين بها في آخرتهـا . وهكذا بتطبيق قوانين الصحة ، وبالتأمين ضد حوادث المعامل والمرض، وبتحسين ظروف العمل ، نستطيع ان نحمي البيت من اخطـار كثيرة تهدده عن طريق المرض والمـوت .

ب ـ عدم ملكية المسكن . والخطر الاخر الذي يهدد البيت هو ان قليلا من سكان المدن يملكون البيوت التي يسكنونها . ولا شك في ان حل هذه المشكلة صعب . وفي الواقع، ان ضرورة امتلاك المسكن امر مشكوك فيه حتى ولو كان ذلك في مقدور العائلة، اذ ان كثيراً من العمال يجدون ان امتلاك بيت قد يقف حجر عثرة في سبيلهم، اذا ما شاؤوا الانتقال من مدينة الى مدينة اخرى بسبب تأخر احوال الشغل في المدينة الاولى وتحسينها في المدينة الثانية . ومن ناحية ثانية، اذا لم تملك العائلة المسكن الذي تسكن فيه، فانها تفقد احدى الروابط التي تمسك افرادها وتقربهم بعضاً الى بعض، لان الناس يرتبطون بالبيت الذي ولدوا فيه والذي عاش فيه اهلهم فيصبح جزءا من العائلة .

ج ـ الاستخدام خارج البيت . لايكفي ان معظم سكان المدن لا يتملكون البيوت التي يسكنونها بل انهم لا يشتغلون فيها ايضا . لقد كان البيت لمائة وخمسين سنة خلت مركز الصناعة، فكان دولاب الغزل منتشرا في كل بيت انتشار المهد فيه . فاذا طال شغل الرجل وكلّ عن العمل، كان حر التصرف في وقته بحيث يستطيع ان يترك العمل في دكانه او منوله ويلجأ للعمل في بيته او حديقته . وبذلك كان الآباء دائماً قريبين من الابناء لارشادهم ونصحهم وتعليمهم .

اما الحال في المدن اليوم فليست كذلك، فقد انتقل صنع البضائع، اثناء الثورة الصناعية وبعدها، من البيت الى بناء كبير يدعى المعمل، حيث يستخدم فيه مئات من العمال . ونتيجة ذلك انه بدلا من ان يعمل الاب وابناؤه الكبار في البيت كما كانت الحال قديما، يترك هؤلاء البيت بعد تناول طعام الفطور بسرعة، ويذهبون الى المعمل او المكتب ثم لا يعودون حتى نهاية النهار . حتى النساء في زمننا الحاضر لا يجدن لديهن متسعاً من الوقت للاعمال البيتية، لان الام وبناتها الكبيرات، لسوء الحظ، يشتغلن عادة خارج البيت .

ويظهر اثر ذلك على البيت بسرعة، فان لم ترع الام اطفالها بعينيها، وإن لم يخصهم الاب بمراقبته، فسيقضون اوقاتهم بعد انصرافهم من المدرسة في الازقة

والطرقات . وهكذا نجد ان الاباء لا يملكون ، في كثير من الاحيان، الوقت الكافي للعناية ببيوتهم وجعلها كما يجب ان تكون. وبعبارة اوضح ان العمل خارج البيت خطر على كيان العائلة، وما لم تقم بعض المؤسسات مثل المدرسة او الكنيسة والمعاهد الدينية الاخرى ، بما كانت تقوم به العائلة سابقاً ، فان كيان المجتمع بكامله في خطر .

د ــ **الفقر** . والخطر الرابع الذي يهدد البيت هو الفقر. فالاجور الواطئة، ونقص كمية المواد الغذائية ، والطوارىء ، والمرض والكسل ، هذه جميعها من الاسباب التي تمنع الاهل من توفير الاشياء الضرورية لاولادهم. وان لم يتوفر الدخل الكافي لدى الآباء، فانهم لا يستطيعون ان يضمنوا لاولادهم الطعام الضروري والمسكن والتربية اللازمين ، وهكذا يعيق الفقر العائلة عن القيام بعملها .

هـ ــ **النسبة التجارية**. لقد كان البيت في السابق مصدر المرح والتسلية، فكانت تعقد فيه سهرات الانس واجتماعات الطرب، فيطرب الشبان والشابات وهم لا يزالون في حضن العائلة وتحت اشرافها . اما اليوم فبعد ان يتناول افراد العائلة طعام المساء يلجأون الى فراشهم اذا كانوا متعبين والا فيذهبون الى السينما او المقاهي المختلفة .

و ــ **الطلاق**. والخطر الاخر الذي يداهم العائلة هو الطلاق، ويختلف عن الاخطار التي سبق ذكرها بكونه في الغالب نتيجة اخطار اخرى . انما هو خطر حقيقي لانه يهدم البيت ويحطم العائلة . بيد ان شرّه يخف حين لا يكون للزوجين اولاد . وقد يكون الطلاق في بعض العائلات لصالح العائلة، ولكن عندما تكون البواعث التي تبعثه انانية الزوج او الزوجة فيصبح اذ ذاك بالامكان تجنبه بشيء من التساهل من قبل الطرفين .

ز ــ **الاصطدام بين القديم والجديد**. كثيراً ما يحصل اصطدام بين الاهل والابناء بعد دراسة الاخرين خاصة في المدارس الاجنبية واكتسابهم الاراء والعادات التي تختلف عن آراء اهلهم وعاداتهم القديمة .

وعندما يعود الابن او الابنة الى البيت في العطل المدرسية او بعد انتهاء الدراسة يشعرون بخجل من جهل اهلهم ومن ملابسهم القديمة الطراز، ويتزعجون من عدم حريتهم في ارتياد الاماكن التي يرغبون والخروج للسهرات حيث يشاؤون. ويفخر الاهل عادة بابنائهم، انما يتخوفون من عاداتهم الجديدة وآرائهم المستحدثة خاصة ما يتعلق منها بالنشوء والتقاليد الدينية. وما لم يحاول الاهل والابناء ان يفهم بعضهم البعض وان يكيفوا انفسهم لبعضهم بعضا، فتكون النتيجة ضعف وحدة العائلة ان لم تكن انقسامها الكامل.

وان تكن الاخطار التي تهدد البيت كثيرة فيجب ان نتذكر اننا مهما ضحينا في سبيل التخلص منها فنحن الرابحون. لان المجتمع يرتكز الى اساس العائلة والعائلة ترتكز الى البيت في المحافظة على كيانها.

علم البيت

لقد ساعدنا العلم من نواح مختلفة على تحسين ظروف معيشتنا، فتعلمنا العلوم الاجتماعية كيف يقدر الناس ان يعيشوا معاً متعاونين وكيف نستطيع نحن ان نكون هكذا. اما البيت فيحتاج الى العلم بصورة خاصة، اذ فيه يجب ان يتعلم الرجال والنساء والكبار والصغار كيف يعيشون معاً بسعادة وتعاون. ان الكثير من البيوت لا تستفيد من هذا العلم، والبيوت التي تستفيد منه فندعوها «بيوتاً علمية».

ففي هذه البيوت يعتنون بالطفل اكثر من سواها. ان الطفل مخلوق عاجز، ويتوقف مستقبله على نوع العناية التي تخصص له. والامهات يحببن ابناءهن حباً غريزياً، ولكنهن لا يستطعن ان يعرفن بالغريزة ما هي الاصول العلمية للعناية بالطفل، بل يجب ان يتعلمن هذه من الذين درسوا صحة الطفل ونموه بالطريقة العلمية. فلا يكفي مثلا ان يتناول الطفل الحليب من امه كيفما كان، فان صحته تتوقف على نوع الحليب الذي ينتجه جسم الام وعلى كمية الارضاع وتعدده. ولما كان المواطنون يشأون من الاطفال فكان واجب البيت العلمي ان يعنى بهم جيدا.

تشجيع اللعب . يشجع اللعب في البيت العلمي، وانه لمن الطبيعي ان يلعب الطفل المتعافي ، كما ان الطفل الصغير يحرك ذراعيه ورجليه اذا لم تشد بالملابس . ويقول العلماء ان هذه الحركة هي رياضة الطفل، فيها يجري الدم في عروقه ويخرج تنفسه غاز ثاني اوكسيد الكربون السام ويستبدله بالاوكسجين النقي . وعندما يكبر الطفل يتمرن بواسطة لعبه على الاعمال التي سيقوم بها فيما بعد ، فتلعب الابنة بالدمى الصغيرة وتتمرن على ادارة البيت ،ويلعب الولد بالادوات والآلات فيعد بذلك نفسه الى تعلم المهن . فاللعب اذن نافع ونافع جدا .

الحكمة في العقاب . في البيت العلمي لا يعاقب الطفل بالضرب الانادراً، اما في البيت غير العلمي فربما كان العقاب الوحيد هو الضرب . ويعاقب الاهل عادة بالضرب حين يكونون غاضبين، فلا يتمعنون بدرس سبب مشاكسة الطفل ودرس العقاب الملائم الذي يساعده على تجنب الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة ثانية . خذ المثال الاتي : كانت الطفلة تبكي كل ليلة فيضربها ابوها عقابا لبكائها، وبعد مدة ظهر خراج في اذنها . وعندما فحصها الطبيب قال ان الطفلة كانت تتألم من اذنها منذ زمن طويل ، فهل كان من الحكمة ان يضرب الاب ابنته بهذا الشكل وهي طفلة صغيرة لا تعرف ان تعبر عن آلمها ؟ العلم يدرس الاسباب ، فاذا اساء الطفل التصرف درس اهله ، اذا كانو علميين ، سبب هذا السلوك السيء .

الحذر من افساد الطفل . من الاخطار الشائعة في معاملة الطفل ان نمتدحه ونضحك في وجهه لمهارته وبراعته . فاذا قام الطفل الصغير امامنا بعمل يدل على المهارة وقال قولا فيه خفة او نكتة ، ضحكنا له وصفقنا بايدينا قائلين « ما ابرعه» فيسمع الطفل ذلك ويتصور نفسه ذكياً بارعاً، فيحاول القيام بشيء آخر يضحك الضيوف ويكسبه لقب ماهر، وربما نجح او ربما فشل . ثم يحاول بعد ذلك القيام باي عمل يجعل الناس يقولون عنه ماهرا ويضحكون في وجهه . فيصبح عند ذاك مصدرا لازعاجهم وقلق راحتهم ، فيتمنون بعده عنهم، لانه يحاول دائماً استلفات انتباههم، وهو انما تهمه نفسه فقط ولا يهتم بالاخرين .

الصدق . الصدق هو هدف «العالم»، لاحظ كم نكون احيانا غير علميين في بيوتنا، بعدم اهتمامنا بالصدق . فاذا شاكسنا الطفل وقلنا له سندعو لك الشرطي ما لم تكف عن هذا، فاننا نحن نكذب لاننا متأكدون اننا سوف لا ندعو الشرطي . وقد يسأل الاطفال امهاتهم احيانا كيف تولد الصغار، فتجيب الامهات اجابات غير صحيحة . فاذا نشأ الطفل في جو غير صادق فما هو نصيبه من الصدق ؟ فالبيت العلمي يؤمن بالصدق، ويتعلم الطفل فيه الصدق، ويقول اهله الصدق امامه، كما يفعل ذلك ايضاً اخواته وإخوانه الكبار .

التدريب على الاستقلال . يدرك البيت العلمي ان الطفل سيترك البيت يوما ويذهب الى المدرسة او العمل في الحياة، ويتوقف سلوكه في المدرسة او العمل لدرجة كبيرة، على نوع المعاملة والتدريب اللذين نالهما في البيت . ان الغد ينشأ من اليوم، والمستقبل ينشأ من الحاضر، فيجب ان نستعد للمستقبل اذن، فاذا لم يتعلم الطفل في بيته ان ينظم مثلاً سجلا بدراهمه فانه لن يتعلم ذلك في المدرسة . فالبيت العلمي يخصص كمية معينة من الدراهم لمصروف الطفل الاسبوعي، ثم يعطيه دفتراً صغيراً يسجل فيه مصاريفه، ثم يتفقد الاهل هذا الدفتر للاطلاع على كيفية انفاق الطفل لهذه الدراهم، وينتقدونه بلطف ومحبة، فيتعلم الطفل بذلك الترتيب والدقة في حفظ سجل بمصاريفه، وعندما يترك البيت قد تكون في عهدته اموال اكثر فيعرف كيف يتعهدها، ويكون الاهل بذلك قد اعدوا اولادهم للمستقبل .

«الابوة هي مهنة»، كما ان المحاماة والطب مثلاً مهنة . لا شيء تتساوى اهميته باهمية ابناء الامة الذين ينشأون فيها، ولا اثر يتساوى باثر البيت على هؤلاء الاطفال . فالاذكياء من هؤلاء الآباء يدرسون مهنتهم . وكم هو من الضروري ان تنشر المجلات وتؤلف الجمعيات لتعليم الاهل وتنويرهم في مهنتهم هذه . وهكذا يدخل العلم باستمرار الى البيت . فليس هدف القرن العشرين اكثار عدد البيوت بل تحسينها .

الفصل السادس

رعاية الطفل

ان الغرض من هذا الفصل هو التأكيد على اهمية الاطفال الصغار وتربيتهم منذ الصغر ليكونوا مواطنين صالحين في المستقبل

الابوة والامومة

تقوم مشكلة العناية بالطفل على اساس مهنة الابوة والامومة، التي تتطلب اكثر من اطعام الاطفال واكسائهم . فهي مهنة يجب ان يدرسها الانسان ويستعد لها كما يستعد لمهنة الطب او المحاماة . ان هنالك مدارس خاصة بهذه المهنة ، كما ان هنالك ايضاً دروساً ومحاضرات وكتباً في الموضوع يستطيع كل رجل متعلم او امرأة متعلمة ان يستفيد منها استعداداً لمسؤولية تربية الاطفال . ان خير الاطفال في البيت يتوقف على عناية الاهل بهم وحسن معاملتهم لهم . فيجب اذن ان ندرس مهنة الابوة والامومة بنفس الوقت الذي ندرس فيه المواطنة . ذلك لان الاثنين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً .

ليست الغرائز الطبيعية، غريزة الابوة والامومة، وسائل موثوق بها لتربية النسل خاصة في هذا العالم المتغير . هذه حقيقة جلية يقيم عليها الدليل الاحصاء الذي يثبت بان مايقرب من نصف الاطفال الذين يولدون في الشرق يموتون قبل ان يصلوا الى سن البلوغ . وهكذا فان خير الاطفال يتوقف على تدرب الوالدين على الوسائل العلمية الفضلى للعناية باطفالهم ، بالاضافة الى ما توحيه اليهم الغرائز الطبيعية . وبهذه الطريقة ، لا تتحسن العناية بالاطفال فحسب ، بل تتحسن ايضاً طفولة كل فرد بمفرده ، وتكون النتيجة ان كل جيل يتحسن عن الجيل الذي سبقه ، مما يسفر عن ارتفاع

مستوى المعيشة تدريجيا .

ان العناصر الاساسية التي تتكون منها الابوة والامومة المثلى هي الاتية : حسن اختيار الزوج والزوجة، وضبط الحياة الجنسية، وحسن الفصل الزمني بين الانسال اي عدم تراكم الاطفال واحد بعد الآخر . اما من حيث العلاقة الجنسية في الحياة الزوجية فالمهم ان يتخلص الزوجان من الامراض الزهرية وان يكون الاتصال الجنسي بين الزوجين معتدلا . واما اختيار الرفيق او الرفيقة فقد بحثناه في غير هذا المكان من الكتاب . والمهم في هذا الباب ان لا يشجع الزواج بين أبناء الاديان المختلفة كما يُجتنب تزاوج من كان بينهم تفاوت عظيم في التربية والذوق والثقافة والميول . ويشتمل هذا البحث على المشكلة الكبرى التي لا تزال مسيطرة في الشرق العربي، وهي الزواج القائم على المصلحة والذي يرتبه الاهل، بدلا من الزواج القائم على الحب والتفاهم بين الزوجين . ان الزواج القائم على المصلحة، وخاصة المصلحة المادية، لا يُعد جوا ملائما للابوة والامومة الجيدة بل يعرض الاطفال الى الخطر حتى قبل ان يولدوا احيانا . واما من حيث ضبط عدد الاولاد والفاصلة الزمنية بينهم، فان مسؤولية الابوين هنا كبيرة جدا . فالبشر ليسوا بحيوانات، فهم لا يستطيعون ان يتناسلوا كالحيونات فيلدون كل سنة دون ما نظر الى احوالهم الاقتصادية او الاجتماعية او المعنوية او التربوية . ان هذا التناسل السريع خليق بالامة المنحطة، والقضاء عليه واجب على الامة التي لما تتمكن بعد من رفع مستواها . اما اسباب الفصل بين الانسال وجعله سنتين او ثلاث او اكثر من ذلك، فهي الاتية : صحة الام والاولاد، وتحسين حالة العائلة الاقتصادية، وزيادة الفرص الاجتماعية والتربوية للعائلة . انه لمن الجهل والغباوة ان نستسلم الى مشكلة الاطفال ونتخذ موقف القائل « من الله » . . . فالله لا يريد عبيده ان يعيشوا كما تعيش الحيوانات . ان هنالك وسائل من شأنها ان تمنع الحمل فتساعد على تعيين الفواصل الزمنية بين الانسال . وقد بحثنا هذه الوسائل في الفصل الثاني « العائلة » .

وصحة الطفل هي عامل آخر هام في مهنة الابوة والامومة والعناية بالطفل .

ماذا يجب ان يأكل الاطفال ومتى يجب ان يأكلوا ؟ ما هي الفيتامينات اللازمة واية الاطعمة تحتوي اكبر عدد منها؟ ان الغرائز الطبيعية لا تجيب على هذه الاسئلة التي يجب ان يعرفها جميع الاباء والامهات. وهكذا قل عن النظافة؛ فالاستحمام اليومي مثلاً، والتغوط الصحي، والنوم، والهواء النقي، وسواها تؤثر كثيرا على صحة الطفل. ان الاهل الذين يجهلون هذه الامور الجوهرية لا يستطيعون ان يقوموا بواجب الابوة والامومة خير قيام. ولكي يتسنى لهم معرفة هذه الامور، هنالك كتب كثيرة ونشرات متعددة يجدر بهم مطالعتها بامعان، نذكر منها كتب « ماري ستوبس »، و « اولفر بترفيلد » و « شروود ادي »

سيكولوجيا الطفل

من الوسائل الفعالة في رفع شأن العناية بالطفل في ايـة بلاد، هي درس سيكولوجيا الطفل. لذلك تعطى الدروس العديدة عن هذا الموضوع في كثير من الكليات والجامعات. هذا عدا عن الدروس المدرسية الرسمية والعيادات المجانية التي تنظمها هذه الجامعات، والمجلات العديدة الجيدة « كمجلة الابوين ». وهاك فيما يلي تشبيهين جيدين لمبادىء الابوة والامومة ورعاية الطفل :

(١) يشبه الطفل بمجرى المياه، فلا يجوز ان نضغط عليه بل يجب ان نرشده الى الاتجاهات الصالحة بالضبط الايجابي لا السلبي. يجب ان نرشده بالمحبة واللطف في المعاملة لا بالقوة او التخويف.

(٢) يشبه الطفل ببرعم الزهرة، يفتح تدريجيا من الداخل الى الخارج متأثرا بالمؤثرات الخارجية الملائمة.

العناية بالطفل قبل الولادة

لقد ظل الاهل، حتى مؤخراً، في ظلام دامس من الجهل حول ما يتعلق باحوال ما قبل الولادة. فكانت العادة مثلاً ان تعزل المرأة بعد الشهر الرابع او الخامس من الحمل حين يصبح حملها ظاهراً، كما ان النساء الحاملات لم يستشرن الطبيب خلال مدة الحمل الا عند اقتراب زمن الولادة. وقـد كان هذ الحجل الخاطىء

سبباً لكثير من ولادة الاجنة الميتة ، والاطفال المشوهة، كما كان احياناً سبباً لموت الامهات . اما اليوم فقد اصبح من الحقائق المسلم بها ان العناية بالطفل قبل الولادة ضرورية جداً في كل الحالات . وهنالك عيادات مجانية للفقراء ، يستطيعون بها اليوم ان يحصلوا على الفحص الطبي طيلة مدة الحمل . وكثيراً ما تساعد هذه العيادات على تخفيف نسبة الوفيات الحالية التي تبلغ ٢٠٠ او ٥٠٠ في كل الف طفل، بينما تبلغ في البلدان المتمدنة حوالي ٥٠ طفلا في كل الف طفل خلال السنة الاولى من العمر . وهكذا نجد ان العيادات المجانية ووسائل منع الحمل والاحوال الصحية جميعها تساعد على تقليل نسبة الوفيات بين الاطفال وتزيد العناية بالطفل . ويجب ان نذكر ان وسائل منع الحمل غير شرعية في سوريا ولبنان.

مدة الطفولة

تعتبر مدة الطفولة منذ الولادة حتى الشهر الثاني عشر. وفي هذه المرحلة من العمر يموت اكبر عدد من الاطفال ، كما ذكرنا سابقاً . ويعود سبب الكثير من هذه الوفيات الى جهل الامهات كيفية العناية بالطفل، والى طرق التوليد القديمة التي لاتزال تستعمل في جميع انحاء العالم خاصة في البلدان التي لم ينتشر فيها الطب العملي ؛ فيجب منعاً لذلك ان تطلب كل حكومة من قابلاتها ان تحمل شهادة نظامية بالتوليد قبل ان يسمح لهن بممارسة هذه المهنة. انه بذلك يقضي على كثير من الطرق والادوات غير الصحية المستعملة الآن والتي كثيرا ما تكون سبب وفاة الام والطفل معاً .

طور الحضانة

نعتبر طور الحضانة من السن الواقعة بين السنة الاولى والسنة السادسة من العمر . وفي هذا الدور ينشأ في الاطفال شوق عظيم الى الالعاب . وقد كان الاهل ، حتى زمن قريب لا يهتمون بالاطفال في هذا الدور بل كانوا يعتبرونه دور السخافة وضياع الوقت . اما اليوم فانه يعتبر بمنتهى الاهمية في نشوء الطفل، لانه الدور الذي تتكون فيه العادات التي ترافق الانسان مدى العمر . فالتخيل

والتعاون واحترام الاخرين والتنافس وغير ذلك من الخصال الجيدة، تتكون او تتشوه في دور الحضانة . ولكي نوفر هذه الفضائل للطفل ابان ترعرعه ونشوئه، يتوجب علينا ان نعد دوراً للحضانة ورياضاً للاطفال، لكي يتعلم فيها الطفل كيف يلعب مع الاخرين ، وكيف يختلط بهم ، وكيف يفهم ويتغلب على المشاكل المتبادلة بينهم ، وكيف يسلم بالسلطة ويحترمها، وكيف يخضع رغباته الانانية ويضحيها لأجل مصلحة الجماعة .

وكذلك فان دراسة سيكولوجيا الطفل، ومطالعة الكتب، والمجلات وسماع المحاضرات وما سوى ذلك، تساعد على نشر فكرة تنشئة الطفل في دور الحضانة . وانه لمن سوء الحظ، ان عدد الكتب والمجلات التي تصدر بالعربية حول هذا الموضوع قليلة جداً، ان لم تكن معدومة بالنسبة الى ما يصدر منها باللغات الاجنبية . لذلك لا تستطيع الام العربية التي تود ان تربي طفلها على افضل الطرق، ان تجد المعلومات الكافية حول الموضوع . وهنا يتسع المجال امام العرب المثقفين، نساء ورجالاً، لسد هذا الفراغ في نشر المعلومات الضرورية حول هذا الموضوع، فيساعدوا على تهذيب المؤثرات المحيطية التي تكتنف الاطفال في طور الحضانة .

طور المدرسة

ومن مشاكل العناية بالطفل في الشرق العربي، عدم وجود المدارس الكافية لاستيعاب جميع الاطفال حين بلوغهم طور الدخول الى المدرسة . فاذا وجدت هذه المدارس ، تكون ناقصة في معداتها وتنظيمها بحيث لا يستفيد منها الاطفال كما يجب . وهنا يتسع المجال ايضاً امام رجال الشرق العربي ونسائه المتعلمين للعمل في هذه الناحية . ونحن عندما نعرف ان حوالي ٨٠ بالمائة من فلاحي فلسطين مثلا هم اميون ، نتحقق عندئذ من مقدار الجهل المتفشي بينهم . اننا لا نحتاج لحل هذه المشكلة الى الكليات والجامعات بقدر ما نحتاج الى المدارس الابتدائية والثانوية الجيدة . فالمدارس الحاضرة، في معظمها، عديمة الفائدة، لانها لا تزال تتمشى في تربيتها للاطفال على الاساليب العتيقة .

وما يقال عن المدارس، يقال ايضاً عن ادب الاطفال في اللغة العربية، واود ان اكرر هنا ما المحت اليه آنفاً من فقر هذا الادب. فليس هنالك مجلات كافية للاطفال، وقصص، وكتب للالعاب، وكتب للتاريخ تلائم الطفل العربي وتنمي خياله وذكاءه.

ويجدر بنا هنا ان ننوه بما لتنظيم فرق الكشافة من الفائدة في تنشئة الطفل وتنمية قواه العقلية والجسدية. ولقد تأسست فرق الكشافة في بعض بلدان الشرق العربي منذ عام ١٩١١ وساهمت كثيراً في اثارة اهتمام الشبان في كثير من الاعمال القيمة. وتستطيع فرق المرشدات ان تقوم بمثل ذلك للبنات، اما في الوقت الحاضر فاننا لا نعرف الكثير عنها، مع أنها واسعة الانتشار في اوروبا واميركا.

تشغيل الاحداث

ان الثورة الصناعية التي عمت اوروبا واميركا وصلت الى الشرق العربي في اوائل هذا القرن وجلبت معها بذور تشغيل الاحداث. نعم لقد كان الاحداث في الشرق العربي يشتغلون في المناطق الزراعية حيث يساعدون اهلهم في الزراعة واشغالهم البيتية، لذلك لم يروا هنالك ما يمنع ارسال الاحداث والنساء الى المعامل ليشتغلوا فيها. بيد ان الفرق عظيم بين الاشتغال في الفضاء والهواء الطلق والطبيعة الجميلة تحت رقابة الاهل، وبين الاشتغال في المعامل، حيث رداءة التنوير والتهوئة والعمل الشاق وانعدام الوسائل الصحية، وحيث الاجور زهيدة جدا والرقابة هي من قبل اناس قلما يهتمون بصالح الحدث. ان مساوىء تشغيل الحدث في اية بلاد كانت لا سبيل لنكرانها، بيد ان الذين يهتمون، لسوء الطالع، بمحاربة هذه المساوىء قليلون جداً.

ان الاحداث الذين يشتغلون في المعامل يشكلون شراً اجتماعياً يعترض عليه الاطباء والمربون والخدام الاجتماعيون اعتراضاً شديداً. ان صالح الطفل هو صالح الامة، وبقدر ما تسيء الامة معاملة اطفالها وتفشل في المحافظة على صالحهم تتألم في المستقبل. فبتطبيق القوانين القليلة الموجودة ضد تشغيل الاحداث، وبوضع قوانين جديدة، وتنوير الرأي العام عن الظروف القاسية الحاضرة التي تكتنف هذا التشغيل، يرتفع مستوى العناية بالطفل الى الدرجة التي ينبغي ان تكون في امة حديثة متمدنة.

الفصل السابع

اهداف التربية

ان غرضنا من هذا الفصل هو ان نقترح اهدافا للتربية نستطيع بواسطتها ان نحكم على صلاح اي نظام تربوي او منهج مدرسي .

ما هي غاية التربية؟ وماذا يجب ان تستهدف الامة في مدارسها ؟ من السهل ان نجيب على السؤال الاول بقولنا ان غاية التربية هي تدريب الصغار على العيش الجيد في بيئتهم . ولكننا اذا دققنا في تحليل هذا الجواب فماذا يكون معناه ؟ ما معنى ان « يعيش جيدا » ، وكيف يجب ان ندرب الصغار على ذلك ؟

قبل ذكر اهداف التربية وقبل تلخيص العناصر التي يتكون منها العيش الجيد، علينا ان نبين شرطاً اساسياً، هو ضرورة تكييف المدارس على حسب حاجات الحياة العصرية، حتى ولو ادى ذلك الى القضاء على كثير من المنهج التقليدي . ان المدارس التقليدية، بمناهجها المحدودة وطرقها القديمة وخريجيها الرجعيين، لا تستطيع ان تدرب الصغار على ما ينبغي ان يكون العيش الجيد في المجتمع العصري . ان ذلك يتطلب اجراء تغيرات اساسية في مناهج التعليم وفي طرقه . وقبل ان نتمكن من البت في امر هذه التغيرات او البحث فيها، علينا ان نتفق على اهداف التربية . ومتى اتفقنا على هذه الاهداف جعلناها المحك الذي نمتحن به كل تغير في المنهاج او الطريقة قبل تقرير اجرائه . فقد يحتدم الجدال ويطول بين مدرسين حول ضرورة ادخال التربية البدنية في المنهاج او عدم ادخالها، ولكنهما اذا اتفقا على ان الصحة هي هدف هام من اهداف التربيـة تنحصر اذ ذاك مشكلتهما في السؤال الاتي : هل تحسّن التربية البدنية الصحة اكثر من سواها ؟ وهنا يتسنى لهما الاتفـاق اكثر من الحالة الاولى . فالعقلاء اذن يبحثون المبادىء والاهداف ويتفقون عليها او لا ، ثم

يبحثون الاصلاحات التي ينوون انشاءها واحدة واحدة، فيقررون ما اذا كانت تساعدهم على بلوغ اهدافهم .

اهداف التربية

١ ـ الصحة . يجب ان يكون هدف التربية الاول الصحة، وقد يستهجن قولنا هذا اولئك الذين تعودوا ان يفكروا بان هدف التربية الاول هو تعليم الطلاب القراءة والكتابة . ولكن اذا كانت غايتنا ان نمكنهم من « العيش الجيد » اليس من الاهم لهم ان يكونوا اصحاء متعافين من الامراض وما ينتج عنها من موت باكر، قبل ان يتعلموا القراءة والكتابة؟ بل ما نفع الكتابة والقراءة اذا كانت الامراض تفتك بنا فنموت بسبب جهلنا قوانين الصحة ؟ ان نسبة الوفيات بين الاطفال في الشرق العربي مرتفعة جداً، فلو كانت الصحة ، باعتبارها احد اهداف التربية ، معترفاً بها في المدارس اكثر مما هي الحال اليوم لانخفضت هذه النسبة كثيرا .

(ا) تستطيع المدارس ان تعلم اصول علم حفظ الصحة ، ودرس الفسلجة والقوانين الصحية في اي من صفوفها مبتدئة من ادناها حتى اعلاها . ويجب ان يعرف جميع الاطفال المبادىء الصحية الاولية كتلك التي تنص على ان الجراثيم تتكاثر في الاقذار وان النظافة شرط من شروط الصحة . ان بعض المعلمين يفحصون اجسام طلابهم وآذانهم وأظافرهم كل يوم فاذا وجدوا انهم قذرون ، حملوهم على غسلها في المدرسة ، لكي يكونوا فيهم عادة تطبيق هذه القوانين تطبيقاً عملياً فلا يكتفون بحفظها فقط .

(ب) يجب ان تخصص المدرسة مكاناً في منهاجها للرياضة والالعاب، كما يجب ان يكون في كل مدرسة ساحة لعب كبيرة وان تتوفر فيها بعض الالعاب وبعض انواع الرياضة وان تخصص المدرسة حصصاً نظامية اسبوعية لهذه الالعاب تحت اشراف المدرس المختص . ومن الضروري ايضاً ان تشجع المدرسة الرياضة والالعاب الممتعة بعد انتهاء الدروس والاعمال المدرسية ، وذلك بتنظيم المسابقات والمباريات الرياضية المختلفة .

(ج) يجب على المدرسة ان تسهل الفحص والعلاج الطبيين لطلابها، فالجامعة الاميركية في بيروت مثلاً تعد فحصاً طبياً ضافياً، مرة في كل سنة، لجميع طلابها لتتأكد من حسن صحتهم ولتمنع المرض من التملك فيهم. ولدى مدراء المدارس القروية في فلسطين قنينة من محلول « سلفات النحاس » يضع منها المدراء نقطة في عيني كل طالب لمنع استفحال مرض التراكوما الذي يكاد يكون كل طفل في ذلك القطر مصاباً به والذي ينتهي بالعمى اذا لم يعالج. الا تتساوى اهمية محافظة المدارس على عيون طلابها وسلامة نظرهم، باهمية تعليمهم كيفية استعمالها في القراءة ؟ اما في العراق فقد اوجدت وزارة المعارف دائرة خاصة بطبابة المدارس لها فروع في كل من مراكز معارف العراق وتحرص كل الحرص على صحة طلابها.

٢ ــ اتقان الاعمال الاساسية. ان هدف التربية الثاني، وقد اعطي المقام الاول في الماضي، هو تمكين الطفل من اتقان الاعمال الاساسية : النطق والقراءة والكتابة والحساب. ان اهمية هذه الاعمال في حياة الراشدين الاجتماعية واضحة بحيث لا نحتاج الى الدفاع عنها لنبرر وضعها في المنهاج. وفي الواقع ان الكل مجمعون على ان يكون هذا الهدف احد اهداف التربية، ولكن تحقيق هذا الهدف لا يخلو من بعض المشاكل، فاية لغة نعلم الطفل ؟ هل تكفيه لغة واحدة ام يحتاج الى لغتين ام اكثر ؟ فبعض المدارس في سوريا ولبنان مثلا تعلم طلابها خمس لغات بحيث لا يبقى لدى الطالب وقت لتعلم العلوم الاخرى. ولو افترضنا ان الطلاب لا يتعلمون الا العربية فكم يجب ان يخصصوا من وقتهم لدرس اللغة الفصحى التي قلما يستعملونها في القرى، وكم يجب ان يخصصوا للغة العامية، التي وان لم تكن ذات اهمية كالفصحى، الا انها اكثر استعمالا واكبر فائدة في الحياة القروية.

وكثيراً ما تنشأ مشاكل هامة جدا. فلو افترضنا ان كمية المال المخصصة للمدارس في بيئة ما محدودة، فايهما افضل : ان ينفق هذا المال على تعليم عشر ابناء تلك البيئة وبناتها الذين هم في سن الدراسة، مدة عشرة سنوات كاملة، ام ان ينفق على تعليم جميع من هم في سن الدراسة في تلك البيئة مدة سنة واحدة فقط ؟ اذ كثيرا ما نقع في مثل ذلك فلا يتوفر لدينا المال الكافي لتعليم جميع الاطفال تعليماً

كافياً فنضطر ان نختار بين تعليم عام شامل او تعليم خاص متعمق . هل من الافضل ان يكون جميع افراد الشعب متعلمين تعليماً قليلا او ان يتعلم بعضهم فقط ولكن تعليماً وافياً ؟ وهل يستخدم هؤلاء الاقلية علمهم في المستقبل لخدمة المجتمع او انهم يتذمرون من حياة القرية فينتقلون الى المدينة ويستخدمون علمهم لنفعهم الخاص فقط ؟ ولنفترض ان البيئة قررت ان تختار بعض ابنائها لتعلمهم على نفقتها الخاصة فايهم تختار ؟ هل تختارهم من ابنـاء الاثرياء الذين يستطيعون ان يدفعوا نفقات تعليمهم ام من الطبقة الاخرى ؟ واذا كانت البيئة ديمقراطية يتساوى فيها الغني والفقير ولكن مدارسها لا تتسع لجميع اطفالها ، فهل يجوز ان يفسح المجال لبعضهم ويغلق في وجه البعض الآخر ؟

ربما كان بامكان اختبارات الذكاء ان تعرفنا إلى الطلاب الاذكياء ذوي القابليات الذين يستطيعون ان يستفيدوا من التربية اكثر من سواهم ؛ او ربما افسحنا المجال لتجربة جميع الاطفال ثم نختار منهم اولئك الذين يبرزون ، كي يكملوا تحصيلهم . وكل بيئة لا تطبق نظام التعليم الالزامي العام تضطر ان تعمد الى اختيار كهذا ، وفي النادر جدا ان يقع هذا الاختيار بنباهة وان يكون في صالح المجموع بدلا من ان يكون في مصلحة المدرسة ونجاحها من وجهة تجارية .

وربما كانت الحكمة المثلى في هذا الباب ما يلي :

(ا) نظرا لكون ٨٠ بالمئة هم اميّون .

(ب) نظرا لكون اربع سنوات هي ضرورية لجعل الطفل قادرا دوما على القراءة (اما اذا كانت المدة اقل من ذلـك فانه يتعلم القراءة ولكنه ينساها بعد مدة وجيزة) .

(ج) يجب ان ينال كل طفل اربع سنوات من الدراسة على الاقل .

(د) اما الدراسة بعد ذلك فتخصص فقط للطلاب المقتدرين الذين يُنتظر ان يصبحوا قادة المستقبل عـلى ان يزداد عدد هؤلاء بازدياد استطاعة الامة على تحمل نفقاتهم .

٣ . الصنعة . يجب ان يكون هدف التربية الثالث تعليم الصغار صنعة او مهنة يستطيعون ان يضمنوا معيشتهم بواسطتها . قد تفيد الاعمال الاساسية : القراءة والكتابة والنطق ، في جميع المهن ولكنها ليست كافية لوحدها . يجب ان يتعلم ابن الفلاح شيئا عن طرق الزراعة الحديثة ، ويجب ان تتوفر لابن الصانع في المدينة مدارس صناعية يتعلم فيها النجارة والخياطة وصنع الاحذية والكهرباء وغير ذلك كما يجب ان يتوفر التعليم العالي الجامعي والمهني لمن كانوا اكثر ذكاء ورغبة في التخصص باحدى المهن كالطب والقانون والتربية والسياسة وغيرها . اما المدارس الاعتيادية في الشرق العربي ، اجنبية كانت ام وطنية ، خاصة ام حكومية ، فانها توجه معظم اهتمامها الى الاعمال الرئيسية باضافة شيء من التاريخ والجغرافية والعلوم وقلما تقدم للطالب شيئاً من التربية المهنية .

وسنصف فيما يلي بدعتين جديدتين ادخلتا في بعض مدارس البلاد العربية تبينان كيف يمكن تحقيق هدف التعليم المهني :

اولا : تحاول دائرة المعارف في فلسطين ان تدخل بعض التعليم الزراعي في منهاج المدارس القروية حيث يحرث تسعة اعشار خريجيها الارض ويزرعونها . وهي تحاول ذلك بتكليف كل قرية ان تخصص ارضا لحديقة المدرسة ، ثم تعين دائرة المعارف مراقباً خاصاً لحدائق المدارس وتكلفه ان يجعل طلاب المدارس القروية يدرسون الامور الزراعية الاساسية الملائمة لمحيطهم ويتمرنون على تطبيقها عمليا ، وقد تكون هذه الاعمال الزراعية في منطقة ما ، تربية دودة الحرير بينما تكون في منطقة اخرى زراعة الخضر وفي منطقة ثالثة التحريج ... الا ان هنالك بعض المبادىء الزراعية العامة مثل اختيار البذور والتسميد والري وتناوب المواسم ، قد تنطبق على كل منطقة وفي كل مكان . ويدرس معلمو المدارس القروية هذه الامور في مدرسة طول كرم الزراعية كي يتمكنوا ، عندما يرجعون الى قراهم ، من مساعدة طلابهم على تحسين حياتهم الزراعية ورفع مستوى معيشتهم في المستقبل .

ثانياً : والمحاولة الثانية لبلوغ الهدف المهني بواسطة التربية هي ما تقوم به

مدرسة البنات الاميركية في صيدا التي تشرف على ادارتها الارسالية الاميركية . فقد تحققت معلمات هذا المعهد ان طالباتهن سوف لا يستخدمن في حياتهن، بعد التخرج من المدرسة، الفيزياء والهندسة والجبر وكثيرا من مواد الدراسة المعدة في منهاج مدارس الصبيان الذين يستعدون لدخول الكلية، ذلك لأن اغلب طالباتهن سيتزوجن ويقضين حياتهن كزوجات وامهات فتكون مهنتهن تدبير المنزل . وعلى هذا الاساس وضعت المعلمات منهاج هذه المدرسة . فجمعت الطالبات في بيوت، اثنتا عشرة طالبة في كل بيت، وفي هذه البيوت يقمن باعمالهن من طبخ وتنظيف وخياطة وتشترك كل منهن بنصيبها من الاعمال. وتدرس الطالبات في صفوفهن، علاوة على الاعمال الاساسية، فن الطهي وانواع المأكولات، وكيفية صنع الميزانية العائلية ومسك حسابات العائلة، وخياطة الملابس وكيفية تجميل البيت، والبستنة والفسلجة والصحة — خاصة ما يتعلق منها بالطفل — وسيكولوجيا الطفل. ان هذه محاولة ممهدة لتكييف تربية البنات تكييفاً حقيقياً على حسب حاجات المرأة الاساسية في البلاد .

بيد ان ذلك لا يعني ان التأكيد على المهنة يهمل الاشياء الاخرى، فقد وجدت مدرسة صيدا انه بامكانها ان تدرس طالباتها الموضوعات المدرسية، حتى الجبر والهندسة، بحيث تعدهن للدخول الى الكلية، كما انها تعطيهن قسطا وافرا من الدروس الثقافية كالفنون والموسيقى .

٤ — **استخدام عضوية البيت** . البيت هو وحدة الامة والمجتمع، ويجب ان تساعد المدرسة البيت في تدريب الطفل على الحياة الجيدة في العائلة، فكيف تستطيع المدرسة القيام بذلك ؟

(أ) تستطيع المدرسة ان تفتح اعين طلابها بواسطة الادب، فيرون صورة للبيت الامثل؛ ويستطيع الطلاب بقراءة الكتب في دروس اللغة والادب وفي ساعات فراغهم في المكتبة، ان يكونوا فكرة عن البيوت التي تفضل على بيوتهم . وقد تنشأ فيهم من جراء ذلك رغبة لجعل بيوتهم شبيهة بهذه الفكرة .

(ب) ان تشجيع الاطفال على مشاركة اهلهم ما يتعلمونه في المدرسة، يجعلهم ينقلون الى اهلهم بعض ما تعلموا، فيستفيد منهم اهلهم اشياء لم تفسح لهم ظروفهم مجالا لتعلمها حين كانوا صغارا. فقد علمت مدارس مصر مثلا طلابها ان شرب مياه الاخاديد والحفر مضر بالصحة وان شرب مياه الابار افضل واصح، بينما كانت الفكرة السائدة في مصر ان مياه الابار تضعف النشاط الجنسي فيتجنب شربها الاهلون. فعندما تعلم الاطفال حقيقة الامر في المدرسة استطاعوا ان يتغلبوا على هذه العقيدة المغلوطة. وكذلك يتعلم الاطفال في المدرسة ايضا ان البعوض ينشر الملاريا فيساعدون عائلاتهم على التخلص من المياه الآسنة حول بيوتهم التي ينمو فيها البعوض.

(ج) لا يتعلم الطلاب في المدرسة ان يحسنوا بيوتهم في الوقت الحاضر فحسب بل يتعلمون ايضا ان يحسنوا بيوتهم في المستقبل حين يصبحون آباء بدورهم؛ فيجب ان يُهيّأوا لمهنة الابوة، ويجب في التعليم العالي — ربما في الكلية — ان يعد فرع في سيكولوجيا الطفل يتعلمون فيه مبادىء تربية الاطفال، كضبطهم بالمحبة والوسائل الايجابية اكثر من الضرب والتخويف.

وبالاضافة الى هذه المبادىء حول تأسيس البيت يجب ان يتقن تعليم المسائل الجنسية التي لا يجوز بعد الان ان تُجتنب او تبحث بخوف ووجل وتعصب، بل يجب ان يتعلم الطفل كل شيء عن المسائل الجنسية بحرية وصراحة كما يتعلم عن الطعام والتغذية ووسائل حفظ الصحة الجسمية والعقلية.

٥ — **المواطنة** يجب ان يكون هدف كل مدرسة غرس محبة الوطن والاخلاص له في صدور طلابها، وغرس الشعور بالمسؤولية المدنية نحوه. فكيف يبلغ هذا الهدف ؟!

اولا: يجب ان تكون اللغة واحدة عامة في جميع المدارس وان يسود البلاد نظام تعليمي واحد اما النظام التعليمي الذي يقوم على جماعات اجنبية مختلفة تعلم الصغار بلغات اجنبية كما تعلمهم احترام ثقافات اجنبية متعددة، لايمكن ان يثمر غير

الشقاق والانقسام في حب البلاد والاخلاص لها . ومن العوامل التي تغرس الحب والاخلاص للبلاد في قلوب الطلاب إنشادهم النشيد الوطني القومي معاً ، ودراسة تاريخ بلادهم وسير ابطالها وعظمائها .

ولكي يتكون في الطفل وعي بالمسؤولية المدنية، يجب ان يتعلم كيف تقوم حكومة بلاده بعملها، وما هي مشاكلها . أجل، ان درس المعلومات المدنية يساعد على رفع مستوى المواطنين وجعلهم فاهمين واعين، ولكن مجرد المعلومات المدنية ومعرفة كيفية اجراء الانتخابات ودفع الضرائب ومـا هي واجبات موظفي الحكومة وسوى ذلك، لا يكفي لجعل المرء مواطناً صالحاً . ينبغي ان يتبع هذا كله خطوة ثانية تقوم على العاطفة ، هي بعث الرغبة بان يقوم كل بقسطه في جعل بلاده وحكومته ناجحة . ان المواطنين الذين يجيش هذا الشعور في صدورهم لا ينتظرون حتى تقوم حكومتهم بكل شيء مـن اجلهم . فهم ينظمون فرق الكشافة لاولاد الشوارع كي يساعدوا الشرطة والمحاكم على منعهم من ارتكاب الجرائم وجزهم في اعماق السجون . وهم يجمعون المال لبناء المدارس والمستشفيات ومختلف الموسسات العامة ويديرون هذه المشاريع بانفسهم عوضاً عن ان يجلسوا مكتوفي الايدي ينحون باللائمة على الحكومة .

٦ ــ **التفاهم الدولي**. اما هدف التربية السادس فيجب ان يكون زيادة التفاهم الدولي بين الطلاب وبث روح المحبة والاخوة فيما بينهم . ولما كانت جميع دول العالم تعتمد بعضها على بعض الى حد ما ولها علاقات متبادلة كثيرة، فكل منها تستفيد وتزدهر اذا اقامت علاقاتها المتبادلة عـلى حسن التفاهم . وتحاول كليات العالم بلوغ هذا الهدف بتدريس الحقوق الدولية، كما تدرس المدارس الثانوية التاريخ بدون تحيز لتاريخ بلاد دون الاخرى ، بـل تدرسه بشيء من الانصاف لجميع البلدان .

وهذا مجال للخدمة الوطنية مفتوح امام كل مواطن، لان الوطنية الحقة ليست في الهيجان السياسي ، كما يظن الكثيرون ، بل بالخدمة المثمرة والسعي لتحسين التربية والصحة العامة وزيادة الخير والرفاه لجميع المواطنين .

ومن العوامل التي تزيد التفاهم الدولي ، السفر وتبادل الزيارات بين الاقطار والبلدان المختلفة . فان الجامعة التي يأمها طلاب من بلدان مختلفة والتي يرتبط طلابها بروابط الصداقة الدائمة بعد ترك الجامعة ، تحقق هذا الهدف وتزيد التفاهم الدولي.

٧ــ **الاستجمام او الاستفادة من وقت الفراغ** . بما ان العلم يسخر للانسان عبيداً من الآلات ليعملوا له ، فان ساعات عمل الانسان اليومية تقل جيلًا بعد جيل . فقد اختصرت ايام العمل التي كانت طويلة في عهد اجدادنا ، الى ست ساعات في اليوم الواحد في المعمل ، فنتج عن ذلك فراغ كبير في الوقت . ومن طبيعة البشر ان يلجأوا الى الشر ان لم يجدوا ما يفعلونه او انهم يشعرون بكآبة بالغة ان لم يجدوا ما يصنعونه . وبما ان الشرق العربي يقتفي اثر الغرب في زيادة ساعات فراغه فان مشكلة الاستفادة من وقت الفراغ تزداد خطورة . فيجب ان تدرب المدارس طلابها على الاستجمام الصحيح . اما وسائل الاستجمام في الشرق العربي في الوقت الحاضر فهي : المقاهي والسهرات والتدخين والمحادثة والتنزه . فالمدارس تستطيع ان تنشىء في طلابها الولع بالرياضة والالعاب ، فتجعل وقت فراغ طلابها اخصب وافيد في مستقبل حياتهم بعد تركهم المدرسة . كما تستطيع هذه المدارس ان تنشىء فيهم انواع الولع المختلفة بتشجيعهم عليها في اثناء الدراسة . ان امثال هذه كثيرة ، منها جمع الطوابع البريدية ، والعزف على آلة موسيقية ، والتمثيل ، والنحت ، وغير ذلك . ولا ننس فضل الاعمال الخارجة عن منهاج الدروس ، التي تساعد الطالب على تكوين عادات جيدة للاستفادة من اوقات الفراغ . وربما كان افضل ما تستطيع المدرسة القيام به هو تعويد طلابها على القراءة والمطالعة ، فالمرء الذي يتعرف بعالم الكتب يفتح امامه ابواب لا حدود لها ، فينمي عقله ، ويلاقي مورداً للمتعة واللذة لا ينضب طيلة حياته ، وربما امتلك بذلك اشرف انواع الاستجمام في العالم.

٨ــ **الاخلاق والاداب** . لا يكفي ان تنمي المدرسة عقل طلابها بل يجب

ان تنمي اخلاقهم ايضاً . ان الشرق العربي لا يحتاج الى رجال متعلمين لقيادته فحسب، بل الى رجال ذوي اخلاق طيبة ايضا ، يتمسكون بأهداب الامانة والاخلاص والاستقامة والاثرة. فكيف تستطيع المدرسة التي تؤمن بهذه السجايا بلوغ هذا الهدف الاخلاقي ؟

(أ) تحاول بعض المدارس بلوغ ذلك باعطاء دروس خاصة فى الاخلاق او الدين ، فتدرس في هذه الدروس المبادىء الاخلاقية وتعطي الامثلة الصالحة عن زعماء الدين وقادة الاخلاق . ولكن ما لم تكن شخصية المعلم فائقة جدا فيخشى ان تصبح هذه الدروس غير شيقة وان لا تتمكن من اثارة الاخلاق الجيدة في الطلاب .

(ب) والطريقة الثانية لبلوغ هذا الهدف هي بالخطب والاحاديث في الاجتماعات المدرسية والصباحية او اية جمعية اخرى ، فيؤكد الخطباء والمحدثون في خطبهم واحاديثهم على الحياة الاخلاقية المثلى .

(ج) تعتمد بعض المدارس لدرجة كبيرة على تربية العادات الطيبة في طلابها، خاصة اذا كانت مدارس داخلية ترافق طلابها ٢٤ ساعة في اليوم فتؤكد على آداب المائدة وصالات الاستقبال واحترام الاخرين والعادات الاخلاقية الاخرى .

(د) والمؤثر الفعال هو شخصية المعلم ، ان شخصية المعلم او المدير قد تؤثر على الطالب اكثر من اي مؤثر اخر وتحرك فيه الميل الى رفع مستوى حياته ، لكنه من الصعب في الواقع الحصول على معلمين من هذا الطراز .

(هـ) وربما كان من اقوى العوامل الفعالة في تربية الاخلاق وانمائها في المدارس الثانوية هي حركة الكشافة، فهي تجذب طلاب المدارس اكثر من اي عمل منظم آخر لتربية الاخلاق ، ويثبت هذه الحقيقة انتشارها خلال الثلاثين سنة التي انقضت على تأسيسها ، في كل انحاء العالم وانتماء ملايين الطلاب اليها . فهي تحتوي اموراً تثير الشوق في الطالب ، وتؤكد بواسطة قسمها وقانونها واعمالها اليومية على انماء الاخلاق والمثل العليا التي تتطلبها حياة الكشاف . وقد اعترفت الحكومة الفلسطينية

بالحركة الكشفية رسميا الى درجة انها تشجع المعلمين على ان يصبحوا قادة كشافين، كما انها تزيد رواتبهم في بعض الاحيان اذا استطاعوا ان يقودوا حركة كشفية بين طلابهم . هذا في فلسطين، اما في العراق ومصر وبقية الاقطار العربية فلا تقل حركة الكشافة اهمية عنها في فلسطين .

ليست هذه الاهداف الثانية التي ذكرناها هي الاهداف الوحيدة او افضل الاهداف التربوية التي يمكن بلوغها، فما هي الا نموذجاً ذكرناه لكي نحرك القارىء ونبعثه على التفكير بسواها . وربما كانت رفيعة جدا او كانت فوق مستوى اية بلاد في الشرق العربي . ولكن مما لا ريب فيه، ان نظام تربية البلاد الذي يزدهر ويسير بالبلاد الى الامام، يجب ان يتناسب مع سعيه الى تعليم المثل العليا التي هي ارفع من اية مثل بلغت من قبل .

ان النقطة الاساسية التي نرمي اليها من هذا البحث كله هي انه : قبل امكانية تعديل اي منهاج تربوي يجب تقرير الاهداف التربوية والإتفاق عليها .

الفصل الثامن

المشاكل التربوية

ان الغرض من هذا الفصل هو ذكر المشاكل التربوية في الشرق العربي مع ذكر تنوع المدارس واهداف التربية كما تبينها مختلف المؤثرات، كالمنظمات الدينية وجماعات الدعاية السياسية والمؤسسات الخيرية الاجنبية .

تنوع التربية

قليلة هي بلدان العالم التي نجد فيها تنوعاً مدهشاً في نظم معارفها ومناهجها كما نجد في البلاد العربية. يعود سبب ذلك في الدرجة الاولى الى عدم وجود نظام معارف موحد توحيداً تاما وضعت تصاميمه بعد الدرس والتمحيص، في اي من هذه البلدان. ويعود في الدرجة الثانية الى تعدد اجناس الشعوب المقيمة في الشرق العربي والتفاوت بينها في الثقافة والعقائد الدينية. بيد ان هذا ليس بشيء اذا قيس بما في الولايات المتحدة مثلاً من وفرة في السكان وتعدد في الاجناس والعقائد والثقافات، ورغم كل ذلك فقد توحدت نظم المعارف فيها ووضع تصميم منظم لكل من ولاياتها، وجميع هذه الولايات تخضع الان لدرجة ما الى مجلس المعارف الوطني، مما يثبت انه بالرغم من تعدد الاجناس والطوائف فبالامكان ايجاد نظام تربوي عملي موحد. وبما انه يتعذر علينا درس المشاكل التربوية في جميع البلدان العربية في فصل صغير كهذا فاننا سنقصر بحثنا على سوريا ولبنان فقط.

اثر هذا التنوع

غني عن البيان ان كثيرا من المدارس في هذه البلدان هي اجنبية، تعلم بلغات

وتنشر ثقافات اجنبية، وليس ثمة بينها وحدة، فكيف نتوقع اذن وحدة في النظم التربوية في البلاد العربية؟ إن تعليل ذلك بسيط؛ فانه عندما يسقط شعب عظيم مثل الشعب العربي ويخضع قرونا طويلة الى سلطات اجنبية متنقلًا من سلطة الى اخرى، لا نتوقع ان ينشيء هذا الشعب بسرعة معارف منظمة قائمة على شيء من الوحدة. وكان من تأثير هذا التنوع في التربية على الشرق العربي انه زاده تشتتاً وتفرقا وشجع المنظمات الاجنبية التي تعلم لغات اجنبية وتبث ثقافات ودعايات اجنبية. ودليلنا على صحة ذلك اننا نجد في مدينة بيروت كثيرا من العائلات العربية العريقة في العروبة يتكلم افرادها اللغة الافرنسية في بيوتهم ويجيدونها اكثر مما يجيدون التكلم بلغة آبائهم واجدادهم.

يجب، من الناحية الثانية، ان نعترف بان هذه المؤسسات الاجنبية كالمدارس الافرنسية الكاثوليكية والمدارس الانكليزية والمدارس الاميركية وفي مقدمتها الجامعة في بيروت، قد قامت ولا تزال تقوم بخدمات جلى للشرق العربي. فلولا هذه المؤسسات لما توفر لدى العرب وغيرهم من شبان الشرق الاوسط جميعاً، معاهد كافية للتعليم العالي، ولكانت حال المدارس الابتدائية والثانوية احط بكثير مما هي عليه الان. وينحصر حل هذه الوضعية المتناقضة بجعل شبان العرب يكتسبون من هذه المؤسسات الاجنبية قدر ما يستطيعون من المعلومات والمعرفة ثم ينقلون هذه المعلومات الى شعبهم ويستخدمونها لكي يشيدوا مؤسساتهم الخاصة.

ان هذا الاقتراح: «دخول شبان العرب المدارس الاجنبية في بلادهم ونقل العلم منها الى شعبهم»، امر يتحمل الدرس والمناقشة، فكيف يجب ان يتم تنفيذ هذا الاقتراح؟ وفي الحقيقة ان هذه النظرية الغامضة لا يمكن تطبيقها عمليا ما لم تتوفر الوسائل اللازمة لتحقيقها. فتعليم العرب مثلًا يجب ان يتم باللغة العربية. اذن يجب ان يؤسس شبان العرب الاذكياء الذين تعلموا في المعاهد الاجنبية العالية، مدارس عربية حديثة لهذه الغاية. ان عنصر اللغة العربية، لغة الشرق العربي، عامل هام يجب ان تبنى عليه تربية العرب. فيجب ان تضاعف الحكومات العربية

جهودها لنجاح تعليم ابنائها بلغتهم الخاصة وثقافتهم العربية . وتحاول كثير من الحكومات العربية تحقيق ذلك بارسال البعثات العلمية على نفقاتها الخاصة، الى اوروبا واميركا لتكميل التحصيل الجامعي، على شرط ان يعود هؤلاء الشبان والشابات الى بلادهم ويخدموا المعارف او الدوائر الحكومية الاخرى مدة معينة مقابل تعليمهم . وهكذا ينقل هؤلاء الشبان والشابات، بهذه الطريقة، العلم والفن والادب من الغرب الى الشرق ويعلمون ابناء جلدتهم ويرفعون مستواهم . هذه الطريقة من افضل الحلول للمشكلة .

وهنالك حل آخر تقوم به بعض المؤسسات مثل مؤسسة « مشروع انعاش القرى » حيث يذهب الشبان الى القرى اثناء العطل الصيفية فيضربون فيها خيامهم ويعلمون الفلاحين الفقراء الجاهلين اموراً كثيرة ضرورية . وهذه طريقة فعالة جدا لحل المشكلة دون نفقات كثيرة . فاذا اشترك عدد كبير من الشبان المتعلمين بهذا المشروع ساعدوا كثيرا على رفع هؤلاء الفلاحين المتأخرين الذين لا سبيل لاصلاح حالهم بغير هذه الطريقة . فقد كان شبان الصين المثقفون المتبرعون لمثل هذه الخدمة، عاملا قويا في انعاش النشاط القومي في الصين خلال العشرين سنة الاخيرة .

نقص التعليم الحرفي او المهني

ان الحاجة ماسة الى التعليم الحرفي او المهني، فالطلاب يتعلمون عادة في معاهد التعليم العالي مهنة كالحقوق او الطب او الهندسة . هؤلاء لا يمثلون الا جزءا ضئيلاً جدا من شبان العرب بينما الباقون، وهم الاكثرية الساحقة، لا يستطيعون ان يتحملوا نفقات التعليم العالي الجامعي، كما انهم لا يملكون القابليات الموروثة للاقبال عليه؛ هؤلاء هم المشكلة، فماذا يجب ان نصنع لهم ؟ والجواب على ذلك هو بالتعليم الحرفي . فالبلاد تحتاج مثلاً الى بنائين ونجارين وكهربائيين وحدادين متعلمين ومتقنين اكثر مما هم الان . أجل، ان بعض المؤسسات في البلاد تقدم تعليما حرفياً كهذا، ولكنها غير كافية . ثم هي لا تجذب اليها الا جزءا ضئيلاً من الطلاب الذين

يجب ان تجذبهم اليها . ولعل السبب يعود الى الفكرة السائدة في الشرق العربي اكثر من اي مكان اخر، وهي ان العمل اليدوي منحط .

التعليم الصناعي . ان اول ما يخطر على البال من انواع التعليم الحرفي المذكور هو ما يتناول الصناعة والزراعة. فالطلب على الصناعيين، كالحدادين وصانعي الاحذية وغيرهم، كبير جدا، بينما الطلب على الصناعيين الفنيين الماهرين قليل جدا، وما ذلك الا لان معظمنا لا يرغبون في دفع الاجور التي تتطلبها المهارة في العمل . وهكذا يقل عدد الصناعيين الماهرين ويكثر عدد الصناعيين غير الماهرين الذين لا يزالون يقومون باعمالهم بطريقة ابتدائية .

ولعلّ وقوف الناس موقف اللامبالاة الذي يتمثل بـ « ما عليش » و « مايهم » و « هذا نصيبنا » و « الله بيدبر » يساعد على ذلك ايضا . لكن الله لا يمنحنا عمالا حاذقين ما لم نطلبهم ونسعى لايجادهم . ولما كنا لا نلوم العامل على اعماله غير الفنية ولا نحترم العامل الماهر لمهارته فكيف نتوقع ان يهتم العامل بتحسين نفسه؟ او بالاحرى لماذا نفتح المدارس المهنية ؟ الا ان المؤثرات الاجنبية التي تدخل الى الشرق العربي تعلم الشرقي كيف يتطلب العمل الفني ولماذا يتطلبه . لذا نجد ان الطلب يزداد تدريجياً على المدارس الصناعية، كمدرسة الصنائع في بيروت .

وهكذا رأينا الحكومات العربية تخطو خطوات واسعة نحو التعليم الصناعي خلال السنوات الاخيرة . فقد شيدت وزارة معارف مصر ووزارة معارف العراق مدارس مهنية، كما ان لحكومة فلسطين مدرسة صناعية ممتازة في حيفا . اما قانون المعارف السورية الصادر عام ١٩٤٥ فقد نص على ايجاد ثلاث مراحل من التعليم الصناعي .

التعليم الزراعي . ان الامر نفسه يصدق على التعليم الزراعي، فالطقس في الشرق العربي معتدل وحاجات اغلبية الناس قليلة، بحيث ان طرق الزراعة التي استخدمت منذ ألفين او ثلاثة الاف سنة لا تزال تستخدم حتى الان وتنتج الشيء القليل الذي يحتاج اليه السكان، فلماذا يضيع التلميذ وقته وماله ليتعلم الطرق

الزراعية الجديدة؟ ان فكرة ايجاد فلاح متعلم نبيه كما هي الحال في اوروبا واميركا لم تخطر ببال شعوب الشرق العربي بعد، حتى انها لم تدخل اللغة العربية الى الان، هذه اللغة التي لا نجد فيها على سعتها سوى لفظة «فلاح» و « صاحب مزرعة ». فان تكن صاحب مزرعة فانت كثير الاحترام وان تكن فلاحا فانت احط ما يمكن ان يكون، لذلك يتهرب الناس من هذا اللقب تهرباً عظيماً . على انه بالرغم من كل هذه المواقف السلبية والاوضاع الشاذة السائدة في الشرق العربي، فان المسؤولين يتخذون التدابير اللازمة في مختلف الانحاء لجعل الزراعة علمية وحديثة ومحترمة؛ وقد فعلت فلسطين الكثير في هذا الباب، كما ادخلت جامعة بيروت الاميركية في منهاجها درسا جديدا في الزراعة كي يساعد على رفع مهنة الزراعة الى مستوى رفيع فيتغير موقف الناس تجاهها .

التدريب على تدبير المنزل . ان المنزلة المتأخرة التي تحتلها المرأة في الشرق العربي تجعل امر تعليمها واستخدامها في وظائف محترمة صعباً . اما المرأة في بيوت الطبقة الغنية فلا تقوم بالاعمال الشاقة لان اجرة الخادمات قليلة، ولان بنات هذه الطبقة تتوقع ان يكون لها يوم تتزوج خدم يقومون بالاعمال المنزلية الشاقة كالطهي والغسل وغيرهما . ولذلك فان هؤلاء البنات يفتخرن وامهاتهن ايضاً بانهن لايعرفن القيام بالاعمال المنزلية، ويعتبرن ان العمل البيتي محطٌ من شأنهنّ ولا يليق بغير الخادمات. على ان هنالك بعض الامهات اللواتي يرغبن في ان تتعلم بناتهن فنّ تدبير المنزل في المدارس، لكنهن ما زلن مع الأسف اقلية ضئيلة جداً .

اما ما يجتذب الفتيات اكثر من سواه، فهو الوظائف الكتابية والعمل في المكاتب. ولذلك نرى ان الاقبال شديد على المدارس التي تدرّب طالباتها على مثل هذه الاعمال .

مالية التعليم

من المشاكل الاساسية التي ترافق التعليم في الشرق العربي، هي المسألة المالية .

فمن اين يأتي المال الضروري لتنظيم المدارس وادارتها وتوسيعها، ابتدائية كانت ام ثانوية ام مهنية ام كلية ام جامعية ؟ ان المدارس الاجنبية تعتمد على الاموال الاجنبية اذ ان الاجور التي تفرض على الطلاب في هذه المدارس لا تسد نفقاتهم . ففي الجامعة الاميركية مثلاً يدفع كل طالب ثلث ما تنفقه عليه الجامعة، اما الثلثان الباقيان فيأتيان من الهبات والمنحات التي يهبها الى الجامعة افراد من الولايات المتحدة. ويصدق هذا ايضاً على جميع المدارس التي تنفق عليها الارساليات من الاعانات والمساعدات التي تجمع من بلادهم وليس من الشعب الذي تعلمه هذه المدارس .

اننا لا نحتاج الى القول بان نظاماً للمعارف يقوم على المؤسسات الخيرية الاجنبية ليس بنظام صحيح يساعد الامة على الاستقلال ويسهل توحيد التربية في الشرق العربي . ولكن ما العمل، ونحن نعلم بأن اغلبية شعوب الشرق العربي فقيرة يستحيل عليها ان تدفع الضرائب الكافية لجعل التعليم عاماً . اجل، ان هناك مدارس وطنية خاصة، بيد ان هذه المدارس لا تخول، بسبب أجورها العالية، إلاّ الطلاب الاغنياء والقليلين من الطلاب الفقراء، الدخول اليها . وهكذا نجد ان الفقر المالي يعيق نمو المعارف والتعليم في الشرق العربي، وهذا يعيق بدوره النمو الاقتصادي . فنحن إذن أمام عاملين يتفاعلان كما تتفاعل جميع المؤسسات الاجتماعية، ويؤثر الواحد في الاخر، اما الحل فهو في تحسين الاثنين معا .

ان حصة المعارف من ميزانية الدولة يجب ان تزداد تدريجاً لكي تتمكن البلاد من ايجاد نظام معارف يكفل التعليم الابتدائي المجاني العام . ويمكن الحصول على هذه الزيادة في ميزانية المعارف بانقاص نصيب الجيش والمفوضيات في البلاد الاجنبية من الميزانية، لان الاخيرين لا يتساويان بالمعارف من حيث الاهمية في تقدم البلاد . ومن الجهة الثانية تتخذ الاجراءات لتحسين احوال البلاد الاقتصادية كي تزداد الضرائب ويزداد نصيب المعارف منها .

لقد واجهت الصين ولا تزال تواجه المشكلة المالية نفسها التي ذكرناها، في تعليم مجموع شعوبها، بيد انها قد اتبعت طريقة فريدة في بابها، فعلمت فئة قليلة من

شعبها، القراءة والكتابة — ولنفترض ان عدد هذه الفئة كان خمسة — وقد شعر كل من هؤلاء الخمسة بمسؤولية تعليم خمسة اشخاص آخرين ففعلوا فاصبح مجموع من علموهم خمسة وعشرين شخصاً، ثم علم كل من هؤلاء خمسة آخرين. وبهذه الطريقة تعلم الوف من الصينيين القراءة والكتابة بدون نفقات تذكر وفي وقت قصير جداً. ويشترط في هذا النظام على الطالب ان يعلم الدرس الاول الذي تلقاه الى اميّ آخر قبل ان يقدم معلمه على تعليمه الدرس الثاني. ان تطبيق هذا النظام في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق اواي بلدٍ من البلدان العربية ممكن كل الامكان، فهو ليس بحلم بل خطة عملية، تستطيع ان تنفذها اية جماعة من الطلاب الذين ملأت الحمية الوطنية صدورهم واشعلت قلوبهم الغيرة على تحسين حال ابناء بلادهم.

ولاجل انجاح هذا المشروع نحتاج الى متطوعين كالذين يتطوعون لخدمة مشروع انعاش القرى في سوريا ولبنان ومصر خلال العطل الصيفية. وان لهؤلاء المتطوعين الذين يضربون خيامهم في القرى او قربها مجالا واسعاً لخدمة الفلاحين الاميين المتعطشين الى العلم، فيستعاض بذلك ولو جزئياً عن النقص في المدارس والادوات المدرسية.

ويمكن نشر التعليم بواسطة الراديو ايضاً رغم ان لذلك عوائق كثيرة. ولكن لسوء الحظ ان معظم ما يذاع من الراديو ليس تربوياً وليس مرغوباً فيه. فالدعاية السياسية ووسائل التسلية المبتذلة لها المكان الاكبر في مناهج الاذاعة. وقد كان بالامكان استخدامها لاذاعة دروس عملية في مختلف المواضيع التي تهم الشعب. ان بعض الحكومات تذيع معلومات عن الزراعة والاحوال الزراعية، كالتقارير عن الطقس، وكيفية العناية باشجار الفاكهة ومختلف الحاصلات وهذا مفيد جدا لان جهازا لاسلكياً واحدا في قرية ينور جميع اهل القرية عن هذه المواضيع الحيوية الهامة على الرغم من انهم اميون. وانه لمن الخير ان يعطى هذا المنهج قبل اذاعته الى معلم القرية، ليعلن عنه، كما يعطى له ايضاً خلاصة ما سيذاع كي يفسر لاهل القرية ما يشكل عليهم فهمه من الراديو وكي يفتح امامهم باب الاستفهام والاستجواب ويثير تفكيرهم في المشاكل المتعلقة بحياتهم اليومية، كالمشاكل الآتية: ما هي فائدة القراءة؟

وكيف نستطيع ان نحارب الامراض الصحية والامراض التي تنزل بالمزروعات؟ أنُعلّم بناتنا؟ . . . ان هذه الموضوعات وغيرها اذا عولجت في الاذاعة، ثم تناقش فيها القرويون تكونت فيهم الرغبة في التقدم والنجاح. وبدون هذه الرغبة تذهب اتعاب الحكومة او المؤسسات الاخرى سدى، فبامكان الراديو ان يخلق تعطشاً في الشعب الى تحسين حيـاتهم .

وهنالك ايضاً المكتبات النقالة التي يكثر استعمالها في البلدان التي على نسبة منخفضة من الامية كالولايات المتحدة واوروبا . على انه يمكن استعمالها في بلدان الشرق العربي، اذ انها لا تخلو من الفائدة؛ فهي تثير في القرويين الشوق الى التعلم والمطالعة .

تعليم البدو

يكوّن البدو الرّحل مشكلة خطيرة للتربية في الشرق العربي؛ وعددهم لا يمكن ضبطه تماماً نظراً لتنقلهم من مكان الى آخر بطبيعة حياتهم؛ الا انهم، على وجه التقدير، يشكلون ٥٦٪ من سكان العراق، ويبلغ عددهم في سوريا (٣٦٠،٠٠٠) وفي فلسطين (٧٠،٠٠٠) وفي مصر (١٠٠،٠٠٠) .

وسيجد القارىء في الفصل الواحد والثلاثين من هذا الكتاب وصفاً لحياة البدو الرّحل وعاداتهم . وقد اشرنا في اخر ذلك الفصل الى التغيرات التي اثرت على حياة البدو والتي لا تزال تؤثر في حياتهم وان هذا التغير بادرة من التغير العالمي العام الناشىء عن انتشار الاختراعات الجديدة، فاننا لا نستغرب ان نرى اليوم شيخ القبيلة او احد ابنائه يقود سيارته الخاصة بيديه ويصلح آلتها بنفسه . واليك ما جاء في تقرير لحكومة صاحب الجلالة البريطانية الى مجلس عصبة الامم عن ادارة العراق منذ سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٠ :

« انه لممتع حقاً ان نرى المصفحات في هذه البقعة وفي الاماكن الاخرى من الصحراء الجنوبية على حدود نجد، يقودها البدو العرب . ولقد انتظم هؤلاء حديثاً

في سلك الجندية وتعلموا استعمال المدافع الرشاشة. اما الاستعداد الذي يظهرونه في تعلم استعمال السيارات والاسلحة الحديثة السريعة الانطلاق، والذكاء والابداع اللذين اظهروهما اثناء العمل، كانت اكتشافاً مرضياً ممتعاً».

وحيث ان القبائل الرحل تكون اكثر من نصف سكان العراق، وحيث ان مشروع تحضير هؤلاء القبائل قائم اليوم على قدم وساق، فان حكومة العراق تنوي وضع منهج تعليمي يحل المشاكل المتعددة التي تجابه البدو، وبعض هذه المشاكل هي ملكية الارض، ودفع الضرائب، وتوزيع الثروة، والصحة، ومركز المرأة، واطاعة الحكومة المركزية.

مبادىء تعليم البدو. نثبت فيما يلي المبادىء التربوية لتعليم البدو التي وضعتها لجنة الكشف التهذيبي الاميركية، التي ترأسها الدكتور بول مونرو. وقد زارت هذه اللجنة العراق عام ١٩٣٢ بناء على طلب وزارة المعارف العراقية. ان هذه المبادىء شاملة جامعة بحيث لا تنطبق على العراق فقط بل على تعليم البدو في كل الشرق العربي:

١ — ان اي منهاج تربوي للقبائل يجب ان يكون قريبا من حياتهم اليومية على قدر المستطاع، ويجب ان نتحاشى جعل التعليم رسميا جهد مستطاعنا، ولا ريب ان الفشل نصيب كل محاولة ترمي الى جعل المدارس والتعليم بين القبائل كما هو في الحواضر والمدن الان، فتأسيس مدارس للقبائل كالمدارس الموجودة في المناطق المتحضرة لا تفشل في جذب القبائل فحسب، بل هي عبء مالي واجتماعي ثقيل على كاهل البلاد.

٢ — يجب ان يتم تعليم المسائل الاجتماعية والاخلاقية، على قدر الامكان، بطريقة غير مباشرة، ولا فائدة من اثارة البدوي بمجابهته بالمسائل الجدلية المتعلقة بمؤسساته الاجتماعية وعقائده الخرافية، لان ذلك يثير عواطفه ويحمله على عدم التعاون في اي عمل تعليمي، بل يجب ان يحمل على معالجة هذه المسائل بنفسه بطريقة

غير مباشرة، وذلك بمجابهته بوضعيات تحمله على التفكير لنفسه، فاذا ما بلغ هذه المرحلة يتدخل المربي في الامر لمساعدته .

٣ — يجب استخدام الطرق والوسائل المحلية وتشجيعها اذا كانت مما يستحق الاحتفاظ به؛ ولا حاجة لتغيير البدوي لمجرد التغيير، فقضايا اللباس وحلق اللحى امثلة هامة على ذلك، فمن يرتدي الملابس الغربية او يحلق لحيته يجب الا يعتقد انه اصبح بذلك ارفع من الآخرين .

٤ — ان التعاون مع القبائل في اي منهاج تربوي شرط اساسي لنجاحه . يجب ان يرمي مثل هذا المنهاج الى الاستمرار والنمو، ولا يمكن ضمان ذلك الا بتأييد القبائل تأييدا كاملا له، ونحن نعتقد ان المنهاج كلما لامس حياتهم اليومية، ازدادت مناصرتهم له .

٥ — ومن المهم ان يقوم بالتعليم بين القبائل على قدر المستطاع اناس من القبائل انفسهم . واننا نرى، في فصل تعليم القبائل عن محيطهم واوضاعهم، خطرا كبيرا . ولا ريب ان ابناء القبائل الذين يلتحقون بمدارس المدن لا يبتهجون بالعودة للعيش بين القبائل مع اهلهم . وفوق ذلك يجب الا يؤتى بمعلمي القبائل من المدن والحواضر، لان القبائل لا تسر باستقبالهم من جهة، ومن جهة ثانية لا يستطيع اهل المدن ان يعيشوا براحة ولمدة طويلة بين القبائل، فالمشكلة العملية اذن هي في كيفية تدريب مربين من القبائل وللقبائل .

٦ — يجب الا يفرد لتعليم ابناء الشيوخ نظام خاص يفضلهم عن سواهم من ابناء القبيلة، ويعد لهم تربية تختلف عن تربية باقي ابناء القبيلة، لان مثل هذا التفريق يولد في النتيجة مشاكل اجتماعية خطرة للبلاد . يجب ان تكون الزعامة بين القبائل طبيعية لا تفرض فرضاً . هكذا كانت تقاليد الصحراء وهي الافضل، فاذا اراد ابناء الشيوخ الزعامة عليهم ان ينالوها عن جدارة واستحقاق، وليس عن طريق التغرض والتحيز، وعليهم ان يعيشوا ويترعرعوا بين ابناء افراد القبيلة فتنمو معهم مقدرتهم على الزعامة . اننا نضع هذا المبدأ لنثبت ما اقره بعض رجال المعارف فيما

مضى لتأسيس مدارس داخلية لابناء الشيوخ .

الخلاصة

ان عدم وجود نظام معارف واحد في سوريا او فلسطين او بقية الاقطار العربية يضم جميع المدارس في كل من هذه الاقطار، يبعث مشاكل تربوية كثيرة . اما انظمة المعارف الموجودة في هذه البلدان فخاضعة، مباشرة او غير مباشرة، الى سلطات سياسية ودينية، لكل منها نفوذ شديد في شؤون التربية كما لها في شؤون الحياة الاخرى . ولكل من هذه السلطات نظامها الخاص الذي يختلف في امور جوهرية كثيرة عن نظم سواها . وقلما تحاول هذه النظم التوفيق بين الاعمال التعليمية في البلاد كي تكوّن منها وحدة منظمة . فكانت النتيجة ان مناهج التعليم وطرق ادارته والروح التي تسوده واهدافه وطرقه تختلف عن بعضها البعض اختلافا بينا . ولذلك يستحيل ان ننشىء جيلاً موحداً في ثقافته وروحه وآرائه . وقد اسفرت هذه الحالة عن مشاكل اجتماعية متعددة، ذلك لان رجال المستقبل، وهم طلاب المدارس اليوم، لا يفكرون في ان يتعلموا او ان ينشئوا وسيلة تمكنهم من خلق مستوى مشترك للاخلاق العالية، والاعمال التعاونية في سبيل التقدم الاجتماعي، او خلق جو للتفكير الصحيح يمثل عليا واحدة مشتركة بين الجميع .

الفصل التاسع

الانتاج

نعالج في الفصول الخمسة الآتية مؤسسة ثالثة، هي المؤسسة الاقتصادية في الشرق العربي، اي العلاقة بين الشاري والبائع او الزبائن والمنتجين. اما الغرض من هذا الفصل فهو ان يبين لنا كيف يمكن الحصول على الثروة بواسطة جهود البشر المنظمة، وما هي بعض النزعات لتغيير شكل النظام الاقتصادي بواسطة تقسيم العمل والصناعة وتراكم رأس المال في الشركات المساهمة الكبيرة.

مبادئ الانتاج

لماذا هو ضروري ان نشتغل؟ ان الجواب الصريح على ذلك هو لكي نسد حاجاتنا. واذا كانت الطبيعة تسد بعض هذه الحاجات مجانا كالهواء والنور فهي لا تسد حاجتنا للطعام واللباس والكتب والسيارات. وحيث ان كمية هذه الاشياء محدودة، توجب علينا ان نشتغل لكي نتمكن من زيادتها والحصول عليها. وهذه الاشياء التي تسد حاجاتنا البشرية والتي تتطلب جهوداً او عملاً للحصول عليها تسمى الثروة.

هنالك نوعان من الحاجات: الحاجات الاساسية الضرورية للحياة والحاجات الكمالية، وكلاهما مهم في التطور الاقتصادي. ان الحاجات الضرورية للحياة تتكون من الطعام واللباس والمأوى، اما الحاجات الكمالية فهي تلك التي تجعل الحياة مريحة ومسرة وراقية.

ومن هنا حق لنا ان نعتبر الحاجات الكمالية حاجات ثقافية، وكان من اهم الاسباب الرئيسية لعدم تقدم الشعوب المتأخرة في العالم جعل معظم حاجاتهم منحصرة في الحاجات الجسدية. لقد حاول الزعيم الهندي الاميركي المشهور بوكر واشنطن جهده لكي يحمل افراد جنسه على عدم الاكتفاء بمسكنهم ذي الغرفة الواحدة، ولكي يدفعهم الى الاقلاع عن عادتهم بالتنقل فيصبحون مواطنين مجتهدين. فاذا كان مستوى المعيشة، اي حاجات الشعب وقابليتهم لتحقيقها، لا يزال في منزلة المحافظة على البقاء، كانت الحياة خاملة حقيرة.

واذا كانت افضل طريقة لكسب الثروة هي توزيع العمل، تبين لنا من ذلك وجود ما نسميه تبادل القيم. اذن، فان الثروة الحقيقية لا تكمن في الشيء نفسه، بل في القيم الاقتصادية التي ترتبط به. فالماء مثلاً ليست له قيمة اقتصادية لانه مجاني يستطيع اي كان ان يحصل عليه من الطبيعة التي توفره لكل من يرغب فيه. ولكن حالما تمد الانابيب، وتبنى الخزانات، وتؤلف الشركات لتنظيم جر المياه وتوزيعها على المستهلكين، اصبح علينا ان ندفع ثمنه، لأن الحصول عليه يتطلب عملاً؛ وبعبارة اخرى قد اصبح للماء قيمة. ونستطيع من هذا المثال ان نوضح الحقيقة الآتية، وهي ان الثروة لا تتكوّن من الاشياء بل من القيم الاقتصادية المتعلقة بها؛ ونعني بالثروة في درس الاقتصاد، تبادل القيم فقط، اي القيم التي يمكننا ان نتبادلها مقابل قيم اخرى. فلكي يصبح الشيء ثروة يجب ان يكون مفيداً ونادراً، وقابلاً للنقل، وان يكون مادة.

عوامل الانتاج

يغير الانسان باستمرار الاشياء من حالة الى حالة اخرى تصبح فيها اكثر نفعا وفائدة. فهو يغير السلع، ارضاء لشهواته، من شكل الى شكل آخر او من مكان الى مكان آخر ليزيد فائدتها، وبعبارة اوضح: هو ينتج. فان تغيير خشب الاشجار الى كراسي ومناضد، وخزن الثلج في الجبال لاستعماله اثناء الصيف، وتصدير التفاح الى الاستهلاك، وغرس كروم الزيتون، وطهي الطعام، وجمع الدقيق والملح

والبطاطا والعطورات في دكان عطار، جميع هذه انما هي امثلة على الانتاج.

قد يسد طن من الحديد الخام مثلا بعض حاجاتنا، ولكنه عندما يتحول الى حديد مسكوب تزداد فائدته، اي تزداد قابليته لسد حاجاتنا. فاذا ما تحول الى قضبان ازدادت فائدته ايضاً، وتضاعفت قيمته كثيراً فيما لو تحول مثلاً الى «زمبرك» للساعات.

فعمال المناجم وساكبو الحديد وصانعو الساعات جميعهم منتجون، لانهم بتغييرهم مكان الحديد وشكله يضيف كل منهم الى قابلية الحديد لسد حاجاتنا. وعندما نقول ان الانسان يولد الثروة فانما نعني ما ذكرناه. فالانسان لا يستطيع ان يخلق شيئاً من لا شيء، لكنه يستطيع ان يزيد نفع سلعة ما بتغيير شكلها او بتغيير مكانها وزمانها، وعندما يقوم بخلق هذه المنافع، او بالخدمات التي تسد حاجات الانسان، فهو انما يعمل عملا مثمرا. اما عوامل الانتاج فهي :

١ ــ **الارض**. اننا نعتمد لاجل الانتاج على الموارد الطبيعية في الارض، وهذه الموارد هي قوى طبيعية نستفيد منها ولا نستطيع ان نعيش بدونها. وتشتمل هذه الموارد على كل ما تجهزنا به الطبيعة، من ماء وتراب واشجار ومعادن بالاضافة الى القوى الفعالة التي تقدمها لنا الطبيعة والتي تساعدنا في انجاز اعمالنا. ويتوقف استهلاك هذه الموارد او زيادتها على ذكاء مستهلكيها ومصلحتهم، وتتوقف مصلحتهم على نظام الارض، فالزارع الذي يعمل في ارضه الخاصة يحتفظ بمواردها الطبيعية اكثر من الزارع الذي يعمل في ارض غيره مدة معينة من الزمن.

٢ ــ **العمل**. ان امتلاكنا للقوى الطبيعية، ومعرفتنا كيف تعمل، وقدرتنا على جمعها ليست كافية لتوليد الثروة. فالانسان يستخدم الطبيعة ورأس المال لكي ينتج الاشياء التي تسد حاجاته. فهما قد وجدا من اجله لا هو من اجلهما، والعمل هو مجهود الانسان، العقلي والجسدي، الذي يبذله لكي يسد به حاجاته. فيمكننا اذن ان نعرف العمل بكونه: استخدام الطاقة البشرية لمعالجة القوى الطبيعية.

اننا غالبا ما نقسم عامل العمل الى كميته ونوعه، اي عدد الذين يعملون

ومهارتهم الفنية. وتسمى مهارة الشعب او مهارته الفنية: « التكنولوجيا »، ونعني بها تطبيق المبادىء العلمية على المسائل العملية. ومن اهم العوامل التي جعلت الغرب يحصل على الثروة التي بين يديه وتجعله يتمتع بارفع مستوى للمعيشة في العالم اليوم، هي التكنولوجيا.

٣ ــ راس المال. قد يتراءى لنا بادىء الامر ان الارض والعمل هما كل ما نحتاج اليه لاجل الانتاج. ولكن نظرة دقيقة تبين لنا ان هذين العنصرين ليسا كافيين لانتاج الثروة بكميات تذكر. فعندما يبدأ الانسان ان ينتج الثروة باية كمية، يظهر عامل ثالث لا يقل اهمية عن الاثنين الآخرين، نعني به رأس المال.

يتأتى رأس المال في الدرجة الاولى من التوفير، فالتوفير هو انجح طريقة للحصول على رأس المال. وقد يجد معظمنا صعوبة في انتظار رغباتنا حتى تتحقق. فنحن مثلا نفضل الحصول على قطعة الحلوى اليوم لا غداً، وعلى مضرب التنس هذا الربيع لا الصيف المقبل، وعلى البدلة الجديدة هذه السنة لا السنة المقبلة، وسبب ذلك جلي واضح، فاليوم حاصل اما الغد فقد لا يأتي، والحاضر ملكنا اما المستقبل فغامض، اذن فلماذا الانتظار لابتياع الشيء، اذا كان المال متوفراً لدينا الآن؟.

وهكذا نجد انفسنا امام موضوع آخر، هو الفائدة. فشعورنا بان اليوم اهم من الغد هو السبب الذي يحتم علينا دفع الفائدة على رأس المال. ثم اننا يجب ان ندفع للناس ثمن انتظارهم، وثمن انكار ذواتهم في الحاضر وحرمانها بعض الملذات كي ينالوا في المستقبل ملذات اكثر.

واذا كانت الفائدة ضرورية لانها تدفع المرء الى التوفير، فهي ضرورية كتعويض للدائن لقاء ما يتحمله من اعباء المجازفة بماله. وهكذا جاز ان ترتفع نسبة الفائدة بارتفاع نسبة هذه المجازفة، كما جاز لها ان ترتفع بالنسبة الى مقدار المال المجازف به.

اما في الماضي القديم فقد كانت الظروف غير ما هي اليوم؛ فكانوا يعتبرون

دفع الفائدة او الربا خطيئة. وكان لا يعمد الى الاستدانة الا الفقراء، فيجبرهم الدائنون على دفع الدين مع الربا الفاحش. وفي يومنا هذا ايضاً نجد ان الدائنين يرهقون الفلاح المسكين بدفع فائدة تبلغ ٢٠ او ٥٠ بالمئة واحيانا اكثر من ذلك على كميات زهيدة يستدينونها حين تكون حاصلات زرعهم عاطلة، فمنعاً لمثل هذه المظالم رأينا ان الأديان السامية الثلاثة قد حرمت الربا.

ولكن بتقدم التجارة والصناعة اخذ الاغنياء يستدينون كميات كبيرة من المال لكي يزيدوا ثروتهم. وهم، اذ لا يفعلون ذلك عن حاجة بل عن مصلحة، توجب عليهم ان يدفعوا ثمنها الى الدائن.

وبسبب تغير هذه الظروف، اي الاستدانة لاجل الربح عوضاً عن الحاجة، تساهلت الاديان الثلاثة فسمحت بالربا. الا ان المسلمين في مصر يفرقون بين الاستدانة الشخصية، ويفرضون عليها فائدة قانونية تبلغ ٩ بالمئة، وبين القروض التجارية حيث لا يضعون لها قيدا.

انواع ثقافات الانتاج

لنتحول الان من عوامل الانتاج: الارض والعمل ورأس المال، الى درس انواع ثقافات الانتاج الرئيسية التي نجدها في العالم. ينتج الانسان الثروة باربع طرق، تجتاز في مراحل تاريخية تبدأ من اقدم الطرق وابسطها الى احدثها وادقها في استثمار المحيط المادي. اما هذه المراحل فهي الآتية:

١ ــ **ثقافة الرعاة**. ويمثل هذه الثقافة البدو الذين يعيشون بقطعانهم ومواشيهم وجمالهم متنقلين من مرعى الى مرعى كلما اضطرتهم الحاجة.

٢ ــ **الثقافة الزراعية**. ويمثلها الفلاحون المقيمون الذين يعيشون من حاصلات ارضهم كالحنطة. وفي هذه المرحلة يحرث الانسان الارض، ويرويها، ويزرعها، ويستثمرها، فتزداد ثروته ويزداد عدد الذين يستطيعون ان يعيشوا في الكيلومتر المربع من الارض

٣ــ الثقافة التجارية . ان معظم اهل المدن تجـار وصناعيون يعملون باليد، كالحدادين والنجارين والبنائين و الحياكين، كما يسكنها الملاكون والمستخدمون في المكاتب والاعمال التجارية.

٤ــ الثقافة الصناعية . ان عمال المصانع والمهندسين والصرافين و كثيراً من الاخصائيين في الصناعة الحديثة يمثلون المرحلة الرابعة لاستثمار المحيط اتم استثمار. ويستخدم في هذه المرحلة الحديد والفحم والزيت و كثير من المعادن الاخرى، كما تستخدم المحركات والالآت لتمكن العامل من انتاج مائة ضعف من الثروة التي كان ينتجها في مرحلتي الصناعة اليدوية والزراعة. فكل كيلو متر مربع من الارض يستطيع، في مرحلة الثقافة الصناعيـة هذه، ان يعيل عدة مئات من الاشخاص بدلا من شخص واحد كما كانت الحال في مرحلة الرعاة الاولى. ان هذه المرحلة الصناعية التي اخذت حديثاً تتسرب الى الشرق العربي مهمة في العالم الحديث بحيث تستدعي ان نبحثها بتفصيل هنا.

اننا، لكي نفهم طرق الصناعة المستعملة اليوم، يجب ان نفهم شيئاً عن الماضي. فمما لا شك فيـه ان السبعة عشر قرناً الميلادية الاولى لم تشهد الا القليل جدا من التطورات الهامة التي طرأت على الوسائل الصناعية والزراعية. فالفلاحون في الشرق العربي لا يزالون يحرثون الارض بمحراث خشبي، يجره ثوران بطيئـان، ويدرسون القمح بمورج خشبي، وينقلون منتجاتهم الى الاسواق في عربات تجرها الثيران، كما نرى صانعي الاحذية يعملون بايديهم، والى ما هنالك. حتى انه لو قيض الله لاحد الذين عاشوا زمن الميلاد ان يعودوا الى الحياة عام ١٧٥٠ لما وجد نفسه من هذه الناحية غريباً، بيد انه لو عاد الى الحياة اليوم احد الذين عاشوا في سنة ١٧٥٠، لوجد الفرق شاسعاً، ولاقى نفسه غريباً في عالم غريب. وما ذلك الا بسبب الاثر الذي اوجدته الثورة الصناعية في القرنين الآخرين.

ففي عام ١٧٨٠، عاش حائك فقير في انكلترا، اسمه جيمس هاركريفز. وبينما

كان هذا العامل يدخل الى بيته مرة، قلب عرضا دولاب الغزل العائد لزوجته، فاصبح مغزله متجهـا الى فوق ويدور فى الهواء. فخطر له فجأة ان يخترع آلة تغزل عدة خيطان في وقت واحد بدلا من خيط واحد فيتوفر بذلك وقت كثير ومجهود كبير، وقد نجح في اختراع ما اراد، وسمى الآلة « جني » تخليدا لاسم زوجته التي كان اسمها « جني ». وكانت هذه الآلة بسيطة بحيث يستطيع طفل صغير ان يديرها، وكانت تغزل ثمانيـة خيطان في وقت واحد، ولكن قبل ان يموت هاركريفز استطاع ان يدخل عليها بعض التحسينات بحيث اصبحت تغزل ١٢٠ خيطا دفعة واحدة. اما اليوم فان احدى هذه الالآت الحديثة تغزل في اليوم الواحد بقدر ما ينتج الف عامل في اليوم الواحد اذا استعملوا دواليب الغزل القديمة. وقد اخذت الاحوال الاقتصادية في العالم تتغير منذ اخترع مغزل « جني » فاصبح لرأس المـال دور هام في الانتاج.

ثم تبع اختراع « هاركريفز » اختراعات اخرى توفر الوقت والمجهود ايضاً، فحلت الانوال الثقيلة القوية محل الانوال اليدويـة البطيئة التي كانت تنصب في البيت او في الدكان، كما سخر الهواء والماء واخيرا البخار لتسيير الآلات التي تولد القوة. وقد كان لهذا الازدياد في استعمال راس المال وادخال نظام الاجور على نطاق واسع، اثر في جعل مسألة راس المال ومسألة العمل في مقدمة المسائل المهمة.

ومن الناحية الثانية فقد اخترعت في مختلف انواع الصناعات آلات متعددة، واحدة بعد الاخرى، لتصنع مختلف القطع المقصود صنعها. وتشترك الان ١٨ آلة لصنع الدبوس، ومائة آلة لصنع زوج من الاحذية، وثلاثمائة آلة لصنع الساعة. وكانت نتيجة ذلك انه بدلا من ان يقوم شخص واحد بصنع الساعة او الحذاء او الابرة، قُسِّم العمل بحيث اصبح يشترك بصنع الاول ثلاثمائـة شخص، ومائة في الثاني، و ١٨ في الثالثة. وهكذا اصبح التخصص بالعمل من اهم نتائج الثورة الصناعية.

ومن الناحية الثالثة فان مجيء الصناعة ومـا رافقها من الآلات والتخصص في العمل، قد زاد انتاج البضائع زيادة كبيرة جداً. فلقـد كان العامل الماهر في

النظام القديم يصنع خمسين دبوساً في اليوم، امـا الآن فتستطيع ابنة ان تصنع، بمساعدة الآلات، نصف مليون دبوس في اليوم الواحد. ويستطيع عامـل السجاير الذي يشتغل بيديه ان يصنع سيجارة واحدة في الدقيقة، اما الآلات الحديثة فانها تستطيع ان تخرج ٢٠٠٠ سيجارة في الدقيقة الواحدة. ويستطيع صانع الاحذيـة القديم ان يخرج زوجين من الاحذية في اليوم، اما العامل الحديث فيستطيع بما لديه من الالات ان يصنع ٥٠٠ زوج في اليوم الواحد. وقـد قدر احد الكتاب كمية الاقمشة التي تصنعها معامل الاقمشة سنوياً بما يعادل انتاج ٥٠ بليون عبد يعملون من الشروق حتى الغروب بلا انقطاع حتى اثناء فترات الراحة، لمدة سنة كاملة.

ومن الناحية الرابعة، فان الثورة الصناعية قد احدثت انقلاباً عظيما في نظام التجارة. فقد كان المألوف قبل عهـد الآلة والمعمل ان يملك كل عامل المواد والادوات ورأس المال وغير ذلـك من الوسائل التي يعمل بها، وكانت عضلاته ودماغه كل مـا يحتاج اليه من قوة وذكاء لتسيير اعماله. ولكن عندما اجتمعت مئات من الآلات الضخمة تحت سقف واحد وكميـات كبيرة من المواد الخام والوف من العمال، لم يعد بامكان نظام التجارة البسيط القديم ان يدير هذه الاعمال الكبيرة المعقدة. فكان ان ولدت الحاجة الماسة الى امكانيات مادية اعظم من تلك التي في مقدور فرد واحد ان يملكها. وهكذا تأسست تدريجاً الشركات، ثم الشركات المساهمة المعقدة المختلفة لادارة الاعمال التجارية والصناعية.

وكانت النتيجة الخامسة للثورة الصناعيـة، استثمار العمل، اي خلق ظروف غير عادلة يشتغل العمال تحت تأثيرها. فحين كان الانسان يصنع الاحذية او يحيك الملابس في بيته او دكانه الخاص، كان يشتغل تحت ظروف عادية مـن النور والتهوئة والسرعة، كمـا كان يشتغل في الساعات التي تروق له. لكنه في عصر الآلة اصبح بالامكان جمع العـمال في معمل واحد. ولاجل التوفير كانت هذه المعامل في كثير من الاحيـان سيئة التهوئة قليلة النور شديدة البرودة او الحرارة قذرة ومزدحمة. وكم من حادثة بسبب العجلات الطائشة اودت بحيـاة العمال او اصابتهم باضرار بالغة. وقد اجبرت النساء والاطفال على الاشتغال في مناجم الفحم

المظلمة اربع عشرة ساعة في اليوم طيلة ايام الاسبوع السبعة.

وقد جمع اصحاب المعامل الثروات الطائلة بدفعهم الاجور الواطئة للعمال الذين لم يكن في وسعهم طلب زيادة. وقد كان هذا الاستثمار، الذي جعل العامل عبدا لاجرته، احد نتائج انشاء الآلات والمعامل بصورة عامة.

بيد انه بالامكان التغلب على هذا الاستثمار بوسائل عدة اهمها تنظيم نقابات العمال، وتنوير الرأي العام واثارته ضد الظلم اللاحق بالعمال، ووضع التشريع الاجتماعي الذي من شأنه تحديد شروط العمل بحيث يضمن حقوق العمال من الناحية الشخصية والمادية والصحية.

ولقد شرع الشرق العربي بادخال النظام الصناعي في بعض صناعاته، كصناعة الحرير والقطن والسجاير والمنتفعات العامة والسمنتو، على الرغم من ان نقصه في الفحم والحديد سيجعله دائماً منطقة زراعية في الدرجة الاولى. وسيصحب هذا النظام الصناعي حسناته كما يصحب سيئاته معه ايضا ما لم تتعلم بلدان الشرق العربي من اخطاء الغرب، وتحاول ان تتجنبها وتسيطر عليها منذ البداية بواسطة القوانين والانظمة. فلو اخذنا سوريا مثلا لوجودنا فيها تشريعاً بسيطاً جدا لحماية العمال، اما ايران فقد وضعت قانوناً بذلك عام ١٩٢٣، ولكنه لا ينفذ لعدم وجود المفتشين الذين يسهرون عليه. اما فلسطين فلها نظام ممتاز لحماية العمال خاصة النساء والاطفال ولها دائرة حكومية تسهر على تنفيذه.

وكانت النتيجة السادسة للثورة الصناعية، انتشار البطالة على نطاق واسع؛ فقد كان في الولايات المتحدة مثلا، قبل مدة ليست ببعيدة، ما يزيد على عشر ملايين عامل عاطلين عن العمل؛ فتصور شعبا يبلغ عدده قدر سكان سوريا وفلسطين والعراق، يريد ان يعمل ويستطع ان يعمل ولكنه لا يجد عملا. فيأخذ هؤلاء ببيع اثاثاتهم وممتلكاتهم تدريجاً ثم يرزحون تحت عبء الدين فينتحر الكثيرون منهم ويمرض الكثيرون ثم يموتون بعد اشهر قليلة بسبب قلة التغذية. ولا تقع مسؤولية هذا الشقاء وهذه الآلام على خطأ ارتكبه العامل، كلا بل تقع على

النظام الصناعي. وقد لوحظ أن هذه الازمات تأتي في ادوار متكررة كتلك التي خبرتها اوروبا والامم الصناعية في العالم من عام ١٩٣٠ الى عام ١٩٣٣. وهنالك في العالم معامل كافية لانتاج بضائع تكفي جميع افراد الشعب، ولكن لاسباب عديدة، يختل النظام الصناعي مدة وجيزة فيتألم الملايين بسبب ذلك.

ومن حسن الحظ ان الشرق العربي لم يختبر بعد هذا الشر الاجتماعي المخيف — شر البطالة — كما اختبره سواه من الشعوب المتقدمة صناعياً. بيد انه سيزداد اختباره، ولا بد، بنسبة انتشار الثورة الصناعية فيه.

ان مشكلة البطالة لاتزال حتى الان بدون حل نهائي، رغم المحاولات العديدة. فالتأمين ضد البطالة، وخلق الاشغال العامة، وتنظيم الصناعات، وسيطرة الحكومة على وسائل الانتاج كما في روسيا، جميعها تدابير يحاول العالم حل المشكلة بواسطتها.

منظمات الانتاج

لقد اوجد النظام الصناعي عدة منظمات للانتاج، نحاول تعريفها بواسطة الامثلة لكي يسهل علينا فهمها، ولنأخذ اولا الشراكة. ولنفترض ان كل من جونز وسمث يعمل منفردا في صنع الطحين، ولنفترض ان كلا منهما لا يملك المال الكافي لتأثيث معمله بالادوات الحديثة، فقررا ان يكونا شراكة، فيتعاقدان بالطريقة القانونية مبينين كمية رأس المال التي يتحتم على كل منهما تقديمها وكيفية توزيع الارباح والخسارة والعمل الخ. ان هذا النوع من الشركات فى الاعمال التجارية يمكن الانسان من الحصول على المال الكافي للقيام بتجارة لا يتمكن من القيام بها منفرداً، كما يعمل على نجاح التجارة اذ يتمكن كل من المتشاركين ان يتخصص بالناحية التي تهمه اكثر من سواها.

ولكن اذا لم يتمكن جونز وسمث من دفع ديونهما فان الدائنين قد يقيمون الدعوى على كل منهما ويحصلون دينهم، واذا مات احدهم فيجب ان يعاد تنظيم الشراكة والا انحلت. فشراكة من هذا النوع اذن تجبر المتشاركين ان يعرضوا جميع ممتلكاتهم الى الخطر وتجعل حياة العمل موقوفة على حياة الانسان.

هذا فيما يتعلق بالشراكات، أما فيما يتعلق بالشركات المساهمة، فلنفترض الان ان جونز وسمث قد ادركا هذه العيوب، وانهما في سبيل تجنبها والحصول على مال اوفر للقيام باعمالهما الاخذة بالنمو السريع، قد قررا تحويل شراكتهما الى «شركة مساهمة» تحمل اسم «شركة جونز وسمث». فيوضع لهذه الشركة نظام قانوني يعين فيه رأس المال ونوع العمل والضروريات الاخرى. ويكون رأس المال او اسهم الشركة عبارة عن حصص ذات قيمة اسمية قل مثلاً مائة ريال الحصة، فبعد ان يأخذ جونز وسمث من هذه الحصص ما يستطيعان دفع ثمنه يعرضان الحصص الباقية الى البيع لكافة الشعب. ولنفترض ايضاً ان الحصص بيعت بسهولة اولا: لان لجونز وسمث شهرة تجارية طيبة، وثانيا: لان ثمن كل حصة هو مائة دولار فقط، وثالثاً: لان المساهمين لا يعرضون الى الخطر الا المال الذي يساهمون فيه بشراء الحصص. ثم يجتمع اصحاب الحصص فينتخبون مجلس الادارة وموظفي الشركة الذين يناط بهم ادارة اعمال الشركة، وينال كل مساهم نصيبه من الارباح بنسبة الاسهم التي يملكها. فتجمع بهذه الطريقة كميات كبيرة من المال وتوضع التجارة على اسس ثابتة اقوى من تلك التي تقوم عليها الشركات عادة، اذ لا تعد حياة الشركة المساهمة موقوفة على حياة رجل فرد. اما الكفاءة والمصالح الشخصية التي توجد عادة في الشركات، فقد لا تكون ظاهرة بجلاء في الشركات المساهمة.

ولقد برهنت هذه الشركات المساهمة على انها تلائم حاجاتنا في التجارة الحديثة كل الملائمة. ومما يثبت ذلك اقبال العالم التجاري عليها واقتباس اكثريته لها. فمن الموجح ان تسعة اعشار السكك الحديدية في العالم ومعامل الفولاذ، والمناجم والبواخر، وسواها، تديرها شركات مساهمة. وبما ان كل من يملك المال يستطيع ان يشتري حصصا في هذه الشركات بواسطة السماسرة او المصارف، كان عدد اصحاب هذه الشركات يعد بالالوف؛ وبما ان تأثير هذه الشركات يزداد كثيراً على الحياة العامة، فقد شعرت الحكومات بضرورة السيطرة عليها إما بتأميمها أو بفرض انظمتها. بيد ان هذه المسألة لا تزال من المشاكل التي تجابهها معظم البلدان الغربية.

اما في الشرق العربي فان قلة وجود الشركات المساهمة الوطنية يشكل اكبر مشاكله الاقتصادية. ذلك لأن في هذا الشرق مواردطبيعية عظيمة يجب استثمارها. فلدينا زيت الموصل، وشركات النقل بالسكك الحديدية، والبواخر، وما اشبه ذلك من الموارد التي لا يمكننا ان نجمع لها، بطريقة العمل التجاري المنفرد او العائلي كما هو الحال في الشرق العربي، رأس المال الكافي لا ستثمارها . وهكذا انفسح المجال لتدفق الشركات المساهمة الاجنبية الى هذه البلاد تدفق السيل . ولا يخفى ما لذلك من الخطر على استقلال هذه البلدان وحريتها، اذ ان الاستعمار الاجنبي لبلد من البلدان قبل كل شيء استعمار اقتصادي . فليست الناحية السياسية منه، في الواقع، الاّ مسألة جزئية . وإذن، فما لم يصبح بامكان شعوب الشرق العربي ان تثق بعضها ببعض فتساهم في شراء الاسهم والحصص في الشركات المساهمة الوطنية، وما لم تكتسب هذه الشركات الخبرة فتصبح جديرة بالاعتماد عليها، فسيظل الاجنبي مسيطراً على اقتصاديات هذه البلاد وثروة اهلها . ولاجل زيادة سيطرة الوطنيين الاقتصادية على ثروة بلادهم، يجب ان تدرس الطرق الحديثة لتأليف الشركات المساهمة . وان هذه احدى « العلاقات الاجتماعية المتبدلة » التي تحتاج الى دراسة والتي هي من منهاج هذا الكتاب .

وهنالك ايضاً الشركات المساهمة الحكومية التي يمكن اعتبارها من منظمات الانتاج. لقد تكونت بضعة انواع من هذه الشركات، «وتم» تجريبها في بلدان مختلفة. واحد هذه الانواع ما نسميه « الرأسمالية الحكومية» وقد اتبعته الحكومة التركية الجمهورية . فبموجب هذا النظام تقدم الحكومة رأس المال الضروري لادارة الصناعات التي تحتاج اليها البلاد . والنوع الثاني هو ما نسميه « الاشتراكية » وقد اتبعته الحكومة الروسية . وبموجب هذا النظام تحاول الحكومة ان تملك وتدير كل وسائل الانتاج في البلاد، من مزارع ومصانع ومخازن ووكالات للنقل . وهكذا تصبح الامة شركة مساهمة كبيرة ذات شعب متعددة .

وسنتبسّط في الكلام عن هذه الانواع في مكان آخر من هذا الكتاب.

الخلاصة

اننا نعني بالانتاج تغيير شكل الشيء او مكانه لكي تزداد قدرته على ارضاء حاجات البشر . ويستخدم الانسان ثلاثة وسائل في الانتاج : الارض والعمل ورأس المال .

ويستثمر الانسان محيطه، باقل درجات الاستثمار، حين تكون ثقافته لا تزال في درجة الترحال . ويزداد استثماره له في الثقافة الزراعية، ثم يتزايد في الثقافة التجارية، الى ان يبلغ اعلى درجاته في الثقافة الصناعية .

ولقد كانت الثورة الصناعية تطوراً في الانتاج؛ فنقلت الانتاج من الصناعة اليدوية الى الصناعة الآلية، ومن البيت الى نظام المعمل والمصنع . وقد كانت اهم نتائج هذه الثورة ما يلي :

١ — زيادة استخدام رأس المال،
٢ — التخصص في الصناعة،
٣ — زيادة هائلة في كمية انتاج البضائع،
٤ — توسع نظام الشراكات والشركات المساهمة،
٥ — مشكلة استثمار العمل والعمال بنظام الاجور،
٦ — ازمات البطالة .

ان حسنات الشركات المساهمة جعلتها النظام المحبذ في عالم التجارة اليوم . وقد اصبحت الشركات المساهمة الكبيرة قوية بحيث تضطر الحكومة الى ان تسيطر على اعمالها . وهي تشكل في الوقت الحاضر مشكلة من اعقد مشاكلنا الاجتماعية .

الفصل العاشر

الزراعة

ان غرضنا من هذا الفصل هو ان نؤكد على اهمية الزراعة في حياة الشرق العربي، وان نبين ان تحسينها يتطلب اصلاحها من اربع نواح: التعليم، وتحسين المنتوجات، وايجاد الاسواق لها، والسيطرة على الحشرات والامراض.

من عادة خطبائنا ان يتغنوا بتاريخنا الماضي ويؤكدوا كل التأكيد عليه مهملين حالتنا الحاضرة. فنتغنى بعظمائنا في الماضي وبزراعتنا الزاهرة وبارض اللمن والعسل، ناسين او متناسين حالتنا الحاضرة التعسة. يقول المثل: «اننا ندرس التاريخ لكي نعرف الحاضر ونتنبأ عن المستقبل»؛ هذا ما يفعله غيرنا اما نحن فندرس التاريخ لكي نبحث فيه عن شيء نفتخر به، اذ ليس في حاضرنا ما نفتخر به حقيقة. ونحن، كذلك، ندرس التاريخ لكي نجد فيه ما نستند اليه او نلقي عليه التبعة في عدم بلوغنا شيئاً يذكر في حاضرنا.

واذا ما رجعنا في تاريخنا الزراعي الى الحين الذي نشأفيه، نجد دائماً ان سوريا لا بل الشرق العربي بكامله يكون الهلال الخصيب المشهور الذي اعال كثيرا من الشعوب في الماضي اكثر مما يعول اليوم. ولكن ما فائدة ذلك لنا؟ لقد ورث فلاحونا بعض الادوات والطرق الزراعية القديمة التي لم تعد ملائمة لمقتضيات الحياة اليوم، ولكن تمسكهم او تعصبهم لما ورثوه، يمنعهم من تركها وتبديلها بطرق وادوات زراعية حديثة. ينبغي لنا ان ننسى الماضي ونقلب صفحة جديدة، ونبدأ من جديد فنبني على اساس متين راسخ.

اليقظة الحاضرة

نجد في الصحف اليوم كما نسمع من على المنابر، ضجة كبيرة حول وضعية الزراعة في البلاد. ولكن معظم ما نقرأه او نسمعه لا يخرج عن حيز الكلام والتأكيد على اهمية الزراعة. لقد عرف الناس اننا لا نستطيع ان نستمر في رفع مستوى معيشتنا بمجرد انفاق المال واستيراد مختلف انواع الكماليات، بينما لا نورد شيئاً الى الخارج من منتوجاتنا. وقد عرف هؤلاء ايضاً ان البلاد ستصبح في حالة افلاس سريع، وان الازمة الاقتصادية الحاضرة ليست سوى البادرة الاولى لذلك. ولكن ما هي الحيطة التي فكرنا بأن نتخذها بعد كل هذا التحذر والتخوف؟ من البديهي اننا لا نستطيع ان نعتمد كثيرا على الصناعة، لان مواردنا الطبيعية محدودة من هذه الناحية. ولما كانت الزراعية هي مورد ثروتنا الاساسي يجب الرجوع اليها وتنميتها الى اقصى حد. ولكن ماذا صنع المتحمسون للزراعة؟ انهم يدعون الى استخدام الطرق الزراعية الحديثة ويقدمون اقتراحات شتى؛ بيد ان التجارب العديدة دلت الى الآن على فشل هذه الاقتراحات. فعلى من يقع اللوم؟ أعلى الحكومة؟ لقد تعودنا أن نضع اللوم دائماً على الحكومة غير مدركين انها لا تستطيع ان تقوم وحدها بكل شيء. فليس فشل هذه المقترحات الاصلاحية ناتجاً عن خطأ هذه المقترحات بل عن خطأ تشخيصنا للمشكلة الاساسية. هذا الخطأ الذي حدا بنا الى تطبيق هذه الاقتراحات دون ان نعمد الى تكييفها حسبما تقتضيه حاجاتنا الخاصة.

اننا نطلب من الفلاح ان يبتاع الآلات الزراعية الكبيرة لكي يقوم باعماله الزراعية بكفاءة، ولكننا ننسى ان يده قاصرة وانه يكاد لا يستطيع ان يحصل على المال الكافي لقوته وحاجاته الضرورية. ونطلب من مهندس زراعي أن يذهب الى الريف ويزرع اراضي والده متبعا الطرق الزراعية العلمية الحديثة التي تعلمها، ولكنه يرفض تلبية طلبنا، بينما كان اثناء دراسته الزراعة في المدرسة متحمسا للزراعة والحياة الريفية، ونراه يفضل ان يستخدم في الحكومة او في اي مؤسسة

اخرى في المدينة على ان يرجع الى املاك ابيه ويعمل فيها فلماذا؟ لماذا يهجر الفلاحون الارياف ويهاجرون الى المدينة او الى اميركا؟ ولماذا، يرفض المهندسون الزراعيون العودة الى المزارع وممارسة مهنهم ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة التي تطرح حول مشكلتنا الزراعية الاساسية، لانجده الا فيما انطبعنا عليه من عدم الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين ومن عدم استعدادنا، عامةً، الى تضحية ملذاتنا الخاصة في سبيل خدمة المجتمع الانساني. فنحن لا نجد الا نادراً طبيباً يمارس مهنته لمجرد الخدمة، او زارعاً يمتهن مهنة الزراعة لاسباب وطنية محضة. اننا نسعى فقط وراء التجارة والربح. ولذلك نعمد الى اختيار مهنتنا على ضوء ما تقدمه لنا من ربح. وحيث ان الزراعة لا تدر الربح الطائل في الوقت الحاضر نجد انها لا تجذب العمال الاذكياء والافراد المتعلمين اليها.

لا شك في ان تعليم الفلاح في المدينة استعمال الوسائل الزراعية الحديثة، هو اهم ما يمكننا ان نقدمه له. بيد اننا يجب ان نرفق هذا التعليم بتعليم آخر يقي الفلاح من خطر الانسياق وراء الرغبة في حياة المدينة والصدوف عن حياة القرية. فانه في هذا الانسياق والصدوف تنشأ مشكلة على غاية من الخطورة، هي هجر الفلاحين المتعلمين الاذكياء الارض، وتركها للاميين الجهلة.

وليست هذه المشكلة وقفاً على الشرق العربي فحسب، بل لقد اشتركت فيها جميع الشعوب والبلدان تقريباً. فهل تم لهؤلاء حلها؟ وكيف ؟

أولا — ببث الدعاية للحياة الريفية وتصويرها باجمل مظاهرها. وهذا يجب ان يدعمه تحسين اساسي لحالة الريف الاجتماعية والمادية.

ثانياً — بزيادة دخل الفلاح. ان الحياة الزراعية جذابة بطبيعتها في نواحي متعددة، فكلنا يحب الهواء الحر الطلق ومعظمنا يجد لذة بالعمل في الحديقة وبالعناية بالاشجار والخضر وباطعام الحيوانات والطيور. وفي حياة الفلاح اشياء سحرية شعرية، لكن هذه الحياة تصبح متعبة ومملة اذا لم تكسب اصحابها المال

الكافي لضروريات الحياة . فالفلاح لا يستطيع ان يسد حاجاته الطبيعية اذا لم ينل المال الكافي، واذا ما وجد نفسه في آخر السنة غير قادر على تحمل نفقات ابسط وسائل الرفاه او ابسط وسائل الراحة . فلكي نجعل الحياة الزراعية جذابة ترضي المتعلمين والمثقفين يجب ان نفكر اولا بالوسائل التي تزيد دخل الفلاح الى درجة تمكنه من ان يعيش مثلما يعيش اخوه في المدينة .

حجارة الزاوية في التقدم الزراعي

ان زراعتنا متأخرة جداً في جميع الاعتبارات وينبغي لكل منهاج يوضع لتحسينها ان يبدأ من الاساس فيغير كل شيء . وبعبارة اوضح ان زراعتنا تحتاج الى اصلاح عام شامل . ولما كان ذلك مستحيلاً، توجب علينا ان نبحث عن حل عملي ممكن، يكون من شأنه وضع حجارة الزاوية الاربعة لبناء التقدم الزراعي . أما ما يتبقى فانه يصلح نفسه بنفسه، وهذه الحجارة الاربعة هي :

اولا ــ التعليم . ان التعليم عامل اساسي في تطور المدنية ، فمن البديهي ان الشعب الامي لا يستطيع ان يتعلم الطرق الزراعية الحديثة بسهولة . فاذا كان الفلاحون لا يستطيعون القراءة والكتابة كيف يتسنى لنا ان ننقل المعلومات الزراعية الحديثة اليهم عن افضل طريق وهي الكتب الزراعية والكراريس والمنشورات الزراعية التي تعد خصيصاً لهم .

لاجل ذلك تحتاج القرى الى مدارس ابتدائية ومدارس لتعليم الاميين . اما الكليات الزراعية او الدوائر الجامعية التي تدرب عددا قليلا من ابناء البلاد وتكسبهم الاختصاص الراقي في المعلومات الزراعية، فهذه لا تحل مشكلتنا، ذلك لان خريجي هذه الكليات والجامعات ارقى علما من ان يعودوا الى حياة المزرعة، فهم يفضلون السعي وراء الوظائف الحكومية . اما حاجة البلاد الحقيقية فهي الى فلاحين متعلمين ماهرين يدفعون المحراث وآلة الحصاد بعرق جبينهم .

ان فلاحين من هذا النوع لا يحتاجون الا الى بضع سنوات من الدراسة الزراعية

في مدرسة القرية الابتدائية . فاذا تم ذلك، انحصرت المشكلة بنشر افضل طرق الزراعة واصلحها بين الفلاحين .

وعندي ان افضل هذه الطرق الملائمة لتربية الشعب وتعليمه هي : اولاً – تعميم نتائج التجارب الزراعية بواسطة محطات تجريبية تبحث وتنقب عن أصلح الوسائل الزراعية ثم تقدم نتائج بحثها وتنقيبها الى جميع الفلاحين في انحاء البلاد . ثانياً – توزيع المنشورات الزراعية من كراريس وكتيبات وسواها مجاناً بلغة سهلة . ثالثاً – إلقاء المحاضرات من قبل محاضرين متجولين مجهزين باحدث الادوات اللازمة . ورابعاً – اقامة المؤتمرات الدورية التي يدعى اليها الفلاحون لسماع ومناقشة احدث التطورات التي جرت في الزراعة . ومن الضروري ان تساهم الحكومة أو اية مؤسسة شبيهة بها في هذا الشأن .

ثانياً – تنظيم اسواق المنتجات الزراعية. لقد كان التسوق ولايزال مشكلة في البلاد الزراعية على حلها يتوقف نجاح الفلاحين . فالفلاح يتكلف نفقات باهظة ومتاعب جمة في انتاج فاكهته ثم يشحنها الى المدينة كي يربح كمية قليلة جدا . وكثيرا ما يكون العرض اكثر من الطلب فيزدحم السوق بالمنتجات فتتدنى الاسعار بحيث لا تعود كافية لتغطي نفقات النقل . وهكذا تنشأ الحاجة الملحة الى تنظيم التسوق، وفتح اسواق جديدة في الخارج .

ان تنظيم التسوق وفتح اسواق جديدة خارجية لا يتمان ما لم نعمد الى تحسين طريقة جمع الفاكهة وسواها من المنتوجات وتوضيبها وتعبئتها على حسب الطرق العلمية؛ وما لم يصبح السماسرة في المدينة متعلمين امناء صادقين؛ وما لم نعنى، اخيراً، بنوع منتوجاتنا فنجعلها في حالة مرغوب فيها تمكننا من مزاحمة المنتوجات الاخرى في الاسواق الداخلية والخارجية . إنه بذلك فقط ترتفع اثمانها وتنجو من خطر الكساد .

ثالثاً – تحسين نوع المنتوجات . لقد ذكرنا ان تحسين نوع المنتوجات الزراعية يؤدي حتماً الى ارتفاع اثمانها، فكيف نقوم بهذا التحسين وفي الوقت

نفسه تزيد في كمية الانتاج ؟ ان الجواب على ذلك يتضمن خمسة مبادىء رئيسية : اولا – اختيار البذور. ثانيا – الري . ثالثاً – التخصيب. رابعاً – تحسين الآلات والطرق الزراعية . وخامساً – انشاء محطات التجارب .

ان مبدأ «اختيار البذور» يعني اختيار احسن البذور لزرعها في الموسم المقبل؛ وبذلك يستطيع الفلاح ان يحصل على المميزات التي يرغب فيها في حاصلاته الزراعية. فالنباتات كالحيوانات تتطور باختيار الاصلح للحياة ونقل صفاته الوراثية الى الانسال، وهكذا يستطيع الانسان ان يسيطر على هذا الحدوث باختياره افضل البذور بدلا من ترك عملية الانتقاء الى الطبيعة او الى الصدفة .

اما المبدأ الثاني : الري، فامره معروف. ان معظم النباتات تنمو بالنسبة الى كمية المياه التي تحصل عليها والتي تحتاج اليها؛ وفي الشرق العربي تجري مياه كثيرة دون ما فائدة. فبامكاننا استخدام مياه دجلة والفرات، والليطاني، والعاصي، والاردن، والنيل، وغيرها من الانهر الصغيرة الى ري كثير من الاراضي الجافة اكثر مما نفعل الان. بيد ان ذلك يتطلب مشاريع هندسية حكومية، كما يتطلب استخدام المضخات الحديثة لجر المياه كالمضخة المركزية التي تسيرها الحيوانات او الهواء والتي اخترعها الاستاذ ربنسكي احد اساتذة الهندسة في الجامعة الاميركية في بيروت.

والمبدأ الثالث : التخصيب، فهو يعنى ان النباتات يجب ان تأكل كما يجب ان تشرب؛ وهي تأكل المواد الكيماوية الموجودة في التربة فتتركها اقل خصباً للتي تأتي بعدها في الموسم المقبل. وهكذا تصح التربة بحاجة الى تسميد لاطعام النباتات في الارض. ومما لاشك فيه ان احسن الاسمدة هي فضلات الحيوانات «الزبل» . وكثيراً ما نجد هذه الفضلات في بعض القرى مكومة في الفضاء تحرقها الشمس وتذهب سدى وتكون مركزاً لتوليد الحشرات والذباب والجراثيم.

والمبدأ الرابع : الآلات الزراعية الحديثة كالمحراث الحديث والخلايا العلمية لتربية النحل، فهي ضرورية لانها تزيد الانتاج كثيرا. فان خلية من خلايا النحل الحالية مثلاً تنتج كيلوين من العسل، بينما تنتج الخلية الحديثة خمسة عشر كيلو .

اما المبدأ الخامس والاخير : محطات التجارب الزراعية، فقد أتينا على ذكره آنفاً . اننا بواسطة هذه المحطات نختبر البذور الجديدة، واجناس الحيوانات، والاسمدة الجديدة، والآلات والطرق الجديدة، مع مراعاة الظروف المحلية. ذلك لان كثيراً من التحسينات الزراعية التي تأتي بنتائج حسنة في بلاد ما قد لا تأتي بمثل تلك النتائج في بلاد اخرى تختلف عن الاولى. لذلك كانت التجربة المحلية، بواسطة محطات التجارب، ضرورية قبل نشر اية مقترحات جديدة بين الفلاحين.

٤ ــ **السيطرة على الحشرات والامراض**: يجهل فلاحونا جهلاً تاماً امراض النباتات والحيوانات الداجنة. بيد انهم يعرفون تمام المعرفة ما تسببه هذه الامراض من الخسائر الفادحة في منتوجاتهم السنوية... فاذا ما هاجمتهم حشرة مضرة، نجدهم عاجزين عن مكافحتها على الرغم مما نقله لهم اولئك الذين شاهدوا عملية مكافحة الحشرات في اميركا او اوستراليا.

ان الحشرات تكلف البلاد ملايين الليرات سنويا. فحشرة الفاكهة التي تبعث الديدان في الدراق، قد اتلفت اشجار الدراق في سوريا وقضت على موسم كبير الاهمية. وهكذا قل عن الحشرة التي تهاجم شجر البرتقال، فانها في طرابلس مثلا قد انزلت من قيمة موسم البرتقال في هذه البلاد ما يقرب من ٧٥ بالمئة، وقد اضطر الفلاحون بجوار بيروت ان يقطعوا اشجار بساتينهم لكي يقتلوا هذه الحشرة.

اما حشرة الحنطة فهي تفتك فتكا ذريعا في موسم الحنطة في داخل سوريا كما ان الاهتراء الذي يصيب العنب قد اتلف ٥٠ بالمئة من حاصل عام ١٩٢٩. ونستطيع ان نعدد اكثر من اثنتي عشرة حشرة من هذه الحشرات الفتاكة والامراض التي تهدد مزارعنا باستمرار. وغني عن القول انه ما دامت هذه الآفات مسيطرة على حاصلاتنا، يستحيل علينا ان نحسن مواردنا الزراعية. ولذلك فان اول ما يجب صنعه هو القضاء عليها قضاء مبرماً.

ولعل طريقة مكافحة الجراد هي من اهم الطرق المتبعة لمكافحة الحشرات. وتكون هذه الطريقة عادة بحصر الجراد في مكان واحد وحرقه بعد ان يرش

عليه رجال المكافحة سائلاً سريع الاحتراق. فاذا كان قد القى الجراد بيوضه، عمد الفلاحون الى شق الارض بمحاريثهم بحيث تتعرض هـذه البيوض لحرارة الشمس فتموت. وكثيراً مـا يتلكأ الفلاحون عن شق الارض خوفاً من اتلاف البذور المزروعة. وهنالـك طريقة اخرى لمكافحة الجراد، هي تشييد حائط من التنك يعلو ثلاثين سنتمتراً ويبلغ طوله كيلو متراً واحـداً. فمن شأن هذا الحائط ان يشكل سداً يصد الجراد الزاحف، فيتساقط عنده. وعنـد ذلك يدفع الى حفرة عميقة تكون قد اعدت سابقاً، فيتساقط فيهـا فيحرق او يدفن حياً. ولعل هذه الطريقة انجح الطرق لمكافحة هذه الآفة.

قد يقول اغلبنا ان هذا من واجب الحكومة. أجل ان الحكومة تستطيع ان تقوم ببعض التحريات والبحوث في هذا البـاب، وان تسن بعض القوانين، ولكن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق الفلاح، فعليه ان يتعلم كيف يحمي نفسه من هذا الخطر المداهم، كما عليه ان يدخل في ميزانيته السنوية بابا لنفقات مكافحة الحشرات كما يفرد بابا للتسميد والري مثلاً. وفي الحقيقة ان مشكلة الحشرات هي شديـدة الخطورة على الزراعة في الشرق العربي. وانه من الواجب مكافحتها منذ البداية، فيما اذا كنا نرغب في ان نبني زراعتنا على اسس حديثة.

الخلاصة

نلخص فيما يلي النقـاط الرئيسية او حجارة الزاوية الاربعة التي يجب ان تقوم عليها الزراعة الحديثة في سوريا، بما يلي:

اولا — تعليم زراعي عام،

ثانيا — اسواق المنتوجات الزراعية،

ثالثا — تحسين انواع المنتوجات الزراعية،

رابعاً — السيطرة على الحشرات والامراض التي تفتك بالمزروعات.

ان جميع جهودنا يجب ان تبذل لاجل تحسين هذه العوامل الاربعة، وحالما يتم لنـا ذلك، هان على التحسينات الباقية ان تتبعها.

الفصل الحادي عشر

النقد

ان الغرض من هذا الفصل هو شرح كيفية تبادل البضائع بين المنتجين والمستهلكين باستخدام المال والاكثار من استخدام الاعتمادات المالية والصيرفة وغير ذلك من الامور الحديثة التي تدخل تدريجاً الى الشرق العربي.

اسباب التبادل

كانت كل عائلة، قبل عصر الآلة، قادرة على ان تجهز نفسها بضروريات الحياة، فكان بامكانها ان تزرع في بقعة من الارض حول البيت، الحبوب والخضر الضرورية، كما تربي الطيور والمواشي اللازمة لمعيشتها.

ولكن عندما أنشئت المصانع وكبرت المدن تبدل الامر تبدلا كلياً، فاصبح من المستحيل على العامل ان يملك في المدينة بضعة فدادين من الارض ولذلك كان لزاما عليه ان يعتمد على الآخرين في الحصول على ضروريات الحياة التي ينتجها هو سابقاً. وكان من الضروري ايضاً ان تجد هذه البضائع التي تنتجها المعامل اسواقاً لها في الخارج، ذلك لان كمية هذه البضائع تزيد على الحاجة المحلية.

وهكذا نشأ التخصص في العمل، واصبح من اهم الاسباب التي جعلت الانسان يحتاج الى تبادل البضائع؛ فمن شأن التخصص أن يزيد مهارة العامل كما يزيد كمية انتاجه اكثر مما لو بعثر جهوده في نواحي مختلفة.

والسبب الثاني الذي يستوجب تبادل البضائع، هو الفرق في الاحوال الطبيعية كالحرارة وتساقط المطر والموارد الطبيعية في مختلف انحاء الارض. ففي سوريا

ومصر مثلًا ينمو البرتقال والموز بنجاح عظيم بينما لا ينمو التفاح والكتان بمثل ذلك النجاح. ونجد من الجهة الثانية ان الحنطة والكتان والتفاح ينمو بسهولة في اميركا وكندا بينما يستحيل ان تنمو فيها الفواكه القطبية. ففي حالات كهذه يصبح التبادل نافعا للطرفين، لكي تتمكن كل بلاد من الاستفادة من خيرات البلدان الاخرى. وفي الواقع ان هذا النوع من التبادل كان متبعا حتى قبل مجيء الآلة وعصر المعمل. فقد كان العامل الانكليزي منذ القدم مضطرا الى استيراد بعض الضروريات من الهند النائية.

اما السبب الثالث الذي يستوجب تبادل البضائع فهو الاختلاف في الاذواق والحاجات بين الافراد والبيئات والامم. فالهندي الاحمر مثلا يتوق الى بنادق التجار البيض، بينما يتوق البيض الى الفرو والجلود التي يمتلكها الهندي. وقد كان الشرقيون في ايام كولمبوس بحاجة الى كتان اوروبا بينما كان الاوروبيون بحاجة الى حرير الشرقيين وسجادهم. ومن شأن هذا التبادل التجاري ان يزيد مقدرة السلع المتبادلة على ارضاء الناس وسد حاجاتهم فتتم الفائدة للجميع. فلأجل هذه الاسباب الثلاثة اذن: التخصص في الصناعة، والفروق الطبيعية في المحيط، والتنوع في الاذواق والحاجات، يتبادل الناس السلع والبضائع.

مصطلحات التبادل التجاري

١ — القيمة والثمن. من الضروري عند تبادل اية بضائع ان نعين قيمها النسبية قبل الشروع بالتبادل.

و« القيمة » كما نستعملها في هذا الفصل هي قابلية البضاعة على التبادل مع البضائع الاخرى. فالرطل من الحنطة مثلًا قد يتبدل برطلين من الشعير او ثلاثة ارطال من الشوفان او كمية معينة من المال؛ فتكون قيمته اذن رطلين من الشعير او ثلاثة ارطال من الشوفان وكمية كذا من المال. اما « ثمن » البضاعة فهو قيمتها بعد ان نعبر عنها بالمال، فثمن رطل الحنطة الذي اشرنا اليه اعلاه هو الكمية المعينة من المال التي تدفع بدلا عنه.

والان ما الذي يقرر قيمة البضائع ؟ لا نستطيع ان نقول ان نفع البضائع او مقدرتها على ارضاء حاجاتنا هو العامل الوحيد الذي يقرر قيمتها، رغم ان لذلك دخلاً كبيرا في الامر، اذ لا قيمة للبضائع ما لم تلب حاجات البشر . فالشمس مثلاً، وهي تلبي حاجة عظيمة، لاقيمة تجارية لها البتة . وهكذا فان قيمة البضائع لا تقرر بما يتأتى عنها من فوائد فقط . وبعبارة اوضح، تتوقف قيمة البضائع على نفعها مضافاً الى الكميات المتوفرة منها والطلب عليها .

٢ — العرض والطلب والاسعار . ونعني بالعرض هنا كمية البضائع المعروضة في السوق لاجل التبادل في وقت معين . ونعني بالطلب رغبة النـاس في الحصول على البضائع في وقت معين على ان يكون لهم الاستعداد لشرائها والتضحية في سبيل الحصول عليها .

واذا ما ارتفعت الاثمان المعروضة للبضائع فان الكمية المتوفرة منها تزداد؛ واما اذا زاد عرض البضائع زيادة كبيرة فان ثمنها ينخفض .

وهكذا نجد ان العرض والطلب، بموجب انظمتنا التجارية، يعين الثمن ويقرر قيمة البضائع من هذه الناحية .

نشوء النقد والاعتماد

لقد كان التبادل في القدم، ولا يزال حتى الان بين الشعوب الابتدائية، يجري عن طريق المقايضة . فقد تعود الزنوج في اواسط افريقيا مثلا ان يبدلوا العـاج والذهب بالمرايات والاشرطة . فتبادل كهذا في البضائع يسمّى المقايضة .

على ان تقدم المدنية وازدياد التبادل ، جعل الحاجة ماسة الى ايجـاد وسائل لتقدير كمية البضائع وتعيين قيمتها بدقة . فالجلود مثلاً يجب ان تحصى، والملابس يجب ان تقاس، والحبوب يجب ان توزن، لكي يتم تبادلها ببضائع اخرى، مما أدى الى نشوء انظمة العد والوزن والقياس المستعملة اليوم .

وقد استخدم الانسان اولا اعضاء جسمه المختلفة ليعبر بها عن مختلف الاطوال . فاذا تكلموا عن علو الحصان قالوا انه علو عدد معين من الايدي، او اذا تكلموا

عن رمح قالوا طوله كذا عدداً من الاقدام، او اذا تكلموا عن بناء قالوا عرضه كذا عدداً من الأذرع، والى ما هنالك. بيد ان الايدي والاقدام والاذرع تختلف مقاييسها بين شخص وآخر، مما افقدها الدقة. وقد كانت صعوبة تعيين الاوزان اكثر من ذلك لان الحجارة — وقد استعملت لتلك الغاية — ليست متساوية بالوزن.

واخيراً، بعد تجارب مختلفة، بدأت الحكومات تضع انظمة الوزن والقياس لكي تمنع استعمال الموازين والمقاييس الخاطئة.

فصنعت الولايات المتحدة مثلا موازينها من البلاتينيوم وحفظتها بعناية في مكتب المقاييس في واشنطن، ثم صنعت نسخا عنها تستخدم في جميع انحاء الولايات المتحدة. ولكي تحمي الحكومة شعبها من الغش والتلاعب، فقد خصصت مفتشين حكوميين يفحصون الموازين والمقاييس المستعملة من وقت لاخر، وفرضت غرامات كبيرة على الذين يخالفون المقاييس التي وضعتها.

وقد ادت متاعب استخدام المقايضة، الى استخدام النقد منذ القدم؛ ذلك لان النقد يسهل اجراء عملية التبادل اكثر من المقايضة بكثير. فالفلاح مثلاً يجد صعوبة في ابدال ما لديه من البطاطا بجواد، ولكنه لا يجد اية صعوبة في تبديله بالمال ثم يشتري الجواد بذلك المال. وقد يجوز ان لا يقبل صاحب الجواد المقايضة عليه بالبطاطا لان لديه حاجته منها، ولكنه لا يرفض بيعه بالمال لانه يستطيع ان يبتاع بذلك المال الادوات والحاجات المتعددة الضرورية له.

ثم ان النقد يساعدنا على قياس القيم، فعندما نقوم بفحص سلعة نريد شراءها، فان النقد يسهل لنا تعيين القيمة، كما يسهل المتر مثلاً قياس طول الغرفة او عرضها. ولقد حاول الانسان في الماضي استخدام السلع بدلاً من النقد؛ فاستخدم الرومانيون القدماء المواشي، ومستعمرو نيوانكلاند الجلود في تجارتهم مع الهنود الحمر، وزارعو فرجينيا التبغ، واهل سبارتا القدماء الحديد والتنك، والروس الشاي، واهل ايسلاندا السمك المجفف، والهنود الاميركيون الخرز والصدف وعظم الاسماك؛

بيد ان الذهب والفضة اقاما الدليل على انهما اصلح ما يكون كأساس لتعيين القيم.

إن للذهب والفضة ميزات جمة جعلتهما فيما هما عليه من المكانة في عالم التجارة. ومن اهم هذه الميزات: اولاً — الجمال. فهما يملكان قيمة بحد ذاتهما من حيث الرغبة في تجميل الجسم وتزيين البيت. ثانياً — البقاء. انهما يعمران طويلاً ولايتضرران اذا تعرضتا للهواء او المطر او الرطوبة او اذا دفنا في التراب او اعماق البحر. ثالثاً — لغلاء ثمنهما وخفة وزنهما. وهذا جعل نقلهما من مكان الى اخر سهلاً. رابعاً — سهولة تقسيمهما. وبذلك يصلحان لأن يكونا مقاييس دقيقة حتى للقيم الصغيرة. وخامساً — الاستقرار. وهذا ناتج عن ان الكمية التي تستخرج من المناجم سنوياً لا تختلف كثيراً بين سنة واخرى بحيث تتبدل قيمتها فجأة. فلاجل هذه الميزات وهي الجمال، والبقاء، وسهولة النقل، وسهولة التقسيم، والاستقرار، استطاع الذهب والفضة ان يحلا محل جميع المواد الاخرى التي كانت مرشّحة لتعيين القيم.

ثم ان هناك وسيلة اخرى للتبادل غير وسيلة النقد، هي ما نسميها بالاعتماد. ولسنا نبالغ إذا قلنا ان تسعة اعشار تجارة العالم اليوم تتم بواسطة الاعتماد لا بواسطة الدفع نقداً. ونعني بالاعتماد تسلم البضائع في موعد ثم دفع ثمنها في موعد آخر. وهذا يتطلب ثقة البائع او الدائن ورغبة الشاري في الدفع وقدرته عليه بعد تسلمه البضائع، ويجري ذلك عادة بواسطة «السند» و «الشيك».

وقد تستخدم السندات والشاكات، على الرغم من انها اوراق اعتماد، كأوراق مالية؛ ذلك لأنها تصلح لما نسميه «التجيير». ويتم التجيير بامضاء «الشيك» مثلاً لأمر شخص آخر. على ان هذا الشخص يحسم عليها فائدة مئوية معينة، كما انه يملك الحرية بعدم قبولها إذا شاء. ومن هنا كانت أوراق الاعتماد تختلف عن اوراق النقد القانونية.

نشوء المصارف. ان اهم واسطة حديثة للتعامل بالاعتماد هي المصارف. واذا ما درسنا تاريخ نشأتها تسنى لنا ان نفهم سير اعمالها بسهولة. لقد كانت الصناديق الحديدية القوية في القرون الوسطى وقفاً على الحدادين، فاعتاد التجار ان يخزنوا

ما عندهم من مال لا يحتاجون اليه في تعاملهم اليومي، عند هؤلاء الحدادين مقابل وصل يعطى لهم . وقد برهنت هذه الطريقة على انها ناجحة بحيث جذبت اليها كثيراً من التجار ، فترا كمت كميات كبيرة من المال لدى الحدادين. ولما وجد الحدادون ان ما يدفعونه من المال المؤمن لديهم هو اقل بكثير مما يبقى معهم، وان كميات كبيرة من المال تتراكم في صناديقهم ، بدأوا يقرضون المال الى الذين يطلبونه شرط ان يكونوا قادرين على الدفع وراغبين فيه عندما يستحق. وبعبارة اوضح، لقد بدأوا يقرضون المال الى اولئك الذين يثقون بهم، والذين يستطيعون ان يقدموا تأمينا على المال الذي يقترضونه .

اما التجار فلم يعترضوا على هذا الترتيب ما دام بامكانهم ان يسحبوا مالهم متى شاؤوا. بل انهم، في الواقع، رحبوا بالفكرة لان الحدادين كفوا عن مطالبتهم بدفع اجرة لقاء خزن اموالهم، واصبحوا على عكس ذلك يدفعون لهم فائدة عنها. وكثيراً ما كانوا يقرضونهم المال الذي قد يحتاجون اليه في تجارتهم . وقد وجد التجار ايضا انه بدلا من ان يدفعوا ديونهم نقدا بالذهب او الفضة، صار بامكانهم ان يبعثوا امراً خطياً الى الحداد يطلبون به منه ان يدفع الى شخص معين مبلغاً معيناً. وهذا الشخص كان بامكانه ايضاً تحيير الامر إلى أمر شخص آخر . وهكذا اصبحت قيمة هذا الامر توازي قيمة النقد تماماً. فكان ان نشأت طريقة الشيكات. ثم ان الحدادين عندما وجدوا أن في تسلم المال وتدبينه ربحاً يفوق ربحهم من صناعة الحدادة ، فضلوا الانصراف عن مهنتهم القديمة الى هذه المهنة الجديدة. وهكذا أيضاً نشأت طريقة المصارف في العالم .

وقد تعلم الناس من اختبارهم مع الصيارفة غير الامناء ان التعامل الصيرفي يتطلب حذراً وتأمينات اكثر مما تتطلب التجارة العادية. فقد فتح اناس كثيرون مصارف برؤوس اموال قليلة واخلاق اقل فكانت النتيجة ان فلست هذه المصارف واصيب المتعاملون معها بخسائر جسيمة. زد على ذلك ان المصارف الكبيرة كانت بقبولها او رفضها اعطاء الاعتمادات الى بعض الافراد او الشركات تخلق صناعات كبيرة او تقتلها واحيانا تخلق بيئات جديدة او تميتها، فتجنبا لقضايا كهذه

وامثالها وضعت تدريجاً قوانين المصارف الدقيقة الصارمة المطبقة اليوم .

وفي اغلب بلدان العالم اليوم لا يمكن انشاء المصارف الجديدة ما لم تكن خاضعة لقوانين الحكومة وتشتمل هذه القوانين عادة على شروط رأس المال وطريقة القرض والنقد المحفوظ والمراقبة والتفتيش . ولاجل تنفيذ هذه القوانين والانظمة ترسل الحكومات من وقت لاخر مفتشين من قبلها يفتشون المصارف فيحمون بذلك الشعب من استبدادها وتلاعبها .

وللمصارف خدمات رئيسية يقدمها للناس جميعاً . فالمصرف، باعتباره يتسلم المال من الناس، يحسب مكانا للايداع، وباعتباره يقرض المال الى الناس، يحسب مكاناً للحسم . فهو، بهاتين الخدمتين، يقدم للتجار كميات كبيرة من المال التي لو وزعت بين جميع الافراد الذين اودعوها، لاصبحت زهيدة قليلة الاهمية من حيث المساعدة على الانتاج . ان هذه المساعدة التي تقدمها المصارف الى الصناعة الحديثة هي من الاهمية بمكان، حتى اصبحت تسمى هذه المصارف « معامل الاعتماد » . وفضلاً عن هذه المساعدة التي تؤديها المصارف للتجارة، فانها تخدم المجتمع ايضاً بتشجيع الاقتصاد والتوفير، وباعداد الاماكن الملائمة التي يمكن ايداع المال فيها بامانة، وبتسهيل الدفع بواسطة الشيكات والسحوب، وبمساعدة الزبائن على الربح وحفظ اموالهم سالمة .

ولقد ذكرنا في مكان سابق ان بعض الاسباب للاستعمار الاجنبي هي الموارد الاقتصادية الكبيرة في بلاد ما لا توجد فيها شركات مساهمة وطنية كافية لاستثمارها، وان نشوء هذه الشركات المساهمة يتوقف من جهة على المصارف ومن جهة اخرى على رغبة الناس في ان يقرضوا اموالهم اما بايداعها في المصارف او بشرائهم الاسهم والحصص في الشركات المساهمة، وانه عندما تتعود شعوب الشرق العربي على الوثوق بالمصارف وايداع اموالهم فيها، تبدأ حياة البلاد الاقتصادية بالانتعاش والتقدم .

الاعتماد الزراعي . ان الخدمات الرئيسية التي تستطيع ان تقدمها المصارف

في الشرق العربي من الناحية الزراعية هي قرض المال للمزارعين. وهذا معناه ان يقرض الفلاح المال لشراء البذور والادوات الزراعية ودفع اجور العمال او ادخال بعض التحسينات الى المزرعة، على امل ان يكون الموسم ناجحاً فيدفع الفلاح القرض والفائدة ويبقى بين يديه بعض الربح. ان هذه الاستدانة التي يقصد بها زيادة الانتاج، هي استدانة مشروعة، اما الاستدانة لاجل القيام بالنفقات المستهلكة فهي ليست مشروعة. حتى في الظروف الاستثنائية حين تسوء المواسم ويضطر الفلاح ان يستدين لكي يقوم بنفقاته الضرورية، يقع تحت عبء الدين الثقيل الذي لا يستطيع الخلاص منه قبل مرور بضع سنوات.

ولعله من اهم المشاكل القروية اليوم مشكلة الدين. فعندما تكون المواسم قاحلة، يستدين الفلاحون بعض المال من احد الدائنين او المرابين. ويكون هذا الدين عادة لقاء فائدة باهظة توقعه في حالة من الافلاس قد تؤدي به الى خسارة املاكه.

فكيف يمكن انقاذ الفلاح من عبودية الديون؟ ان الطريقة الرئيسية التي يتبعها الفلاح في الوقت الحاضر، هي الهرب من قرية الى قرية اخرى يغير فيها اسمه ويبدأ حياة جديدة آملاً ان لا يكتشف الدائن مقره الجديد.

ولعل هذه الطريقة اكثر شيوعاً في قرى محافظة اللاذقية، حيث هنالك قرى عديدة لم يقطنها احد من الفلاحين منذ اكثر من ثلاثين سنة، وتقدر الهجرة بما يقرب من ٢٥ ٪ من سكان القرية سنوياً.

ان هنالك طرق متعددة لانقاذ الفلاح من عبء الدين، اهمها تحديد الفائدة وجعلها قانونية على قدر المستطاع، ثم اللجوء الى التزاحم الاقتصادي. لقد كان فلاحو جبل الدروز في قبضة دائني الشام وتحت رحمتهم، لان الطريق الوحيدة لتصريف حاصلاتهم كانت طريق الشام والسوق الوحيدة هي سوق الشام، فقرر حاكم جبل الدروز ان يفتح طريقاً جديدا تمكن الفلاح من نقل حاصلاته الى حيفا

فيصبح لديه طريقان وسوقان، يفسحان مجال التزاحم، ويخولان الفلاح ان يبيع حاصلاته باسعار اكثر ارتفاعاً من ذي قبل، وان ينال قرضاً مالياً بفائدة اقل .

وعندي ان الطريقة الفضلى لانقاذ الفلاح من وطأة الدين، هي بانشاء « الجمعيات التعاونية الزراعية للاعتماد ». فلقد تمكنت هذه الجمعيات في بعض انحاء الهند مثلاً ان تقضي على استبداد المرابين قضاء تاماً، ولنا حول هذه الجمعيات التعاونية، في الفصل الخامس عشر، حديث نكتفي بالاشارة اليه هنا .

السيطرة على النقد وضبط الاسعار

ان الذهب في اغلب بلدان العالم هو القاعدة التي يبنى عليها النقد. فالليرة اللبنانية السورية مثلاً هي بمثابة عشرين فرنكاً من الذهب مودعة في خزائن مصرف سوريا ولبنان، وهذا ما يجعل لها عند الناس القيمة التي تمثلها . ثم ان التجارة بين الدول تقوم، عادة، على قاعدة الذهب، فتعين قيمة النقد بالنسبة الى الدولار او اي قطع آخر . بيد ان هذه النسبة قد تتبدل فيما اذا حادت احدى الدول عن قاعدة الذهب؛ كأن تعمد الى التضخم النقدي او التقلص النقدي، بحيث يصيب التبادل التجاري خللاً يعيق التجارة العالمية . ان نتيجة من هذا النوع يمكن تفاديها فيما اذا تعاونت الدول تعاوناً كافياً وخففت من حدة التزاحم القومي المسيطر عليها .

اما انواع النقد الرئيسية التي تصكها الحكومات اليوم، فهي الذهب والفضة والنكل والنحاس والورق . وهذا الاخير تنحصر فائدته بخفة حمله وقلة تكاليف صنعه، وعدم خسارة وزنه بالاستعمال كما هي الحال مع النقود المعدنية .

بيد ان النقود الورقية تفسح المجال لبعض المساوىء كالتضخم النقدي . فاذا كانت الحكومة قليلة الحرص، او اذا وقعت في ضائقة مالية كما يحدث اثناء الحروب، تطبع اوراقاً نقدية كثيرة لكي تشتري بها حاجاتها وتدفع اجور جنودها . فينتج عن ذلك هبوط في قيمة النقد الشرائية، وارتفاع في الاسعار .

وقد حدث هذا التضخم المالي اثناء الحرب العالمية الاولى والثانية وبعدها . ولعل اهل سوريا ولبنان يذكرون كيف ان قيمة الفرنك تدهورت وتدهورت معها قيمة

الليرة السورية اللبنانية، فاصبحت اقل بكثير مما كانت عليه فيما مضى ان التبسط في اسباب ذلك وطرق معالجته فمن اهم مواضيع علم الاقتصاد.

اما التقلص النقدي فهو عكس التضخم النقدي؛ فاذا انقصنا كمية النقد المتداول يزداد نصيب قطع النقود المتبقية من المقدرة على شراء البضائع الموجودة في البلاد، فتتدنى الاسعار. وهكذا يكون في وسع الحكومة اذن ان ترفع الاسعار او تنزلها بتغيير كمية النقد المتداولة بين الايدي بما فيها كمية الاعتماد (الدين).

ولعل اهم المساوىء الاجتماعية التي يسفر عنها ارتفاع الاسعار الناتج عن التضخم المالي، ما يلحق العمال والموظفين من الهبوط في اجورهم بالنسبة الى قدرتها على الشراء. فهذه الاجور عادة لا ترتفع بنسبة ارتفاع الاسعار. اما التجار في مثل هذه الحالة فيربحون ارباحاً باهظة، لا سيما اذا حدث الارتفاع بعد شراء البضائع وقبل بيعها. بيد ان هذا الامر ينعكس في حالة التقلص النقدي.

فالتضخم النقدي اذن والتقلص النقدي يسببان مصاعب شتى للشعب. والحكومة الحكيمة تحاول جهدها ان تجعل مستوى الاسعار ثابتاً لانها تعرف ان اي تغيير يسبب المتاعب لمعظم افراد الشعب، يؤدي احيانا الى الاستياء الذي يمهد طريق التمرد والعصيان.

الخلاصة

يتبادل الناس البضائع للاسباب الآتية: اولاً — التخصص بالصناعة، ثانياً — الفروق في المنتجات في مختلف انحاء العالم، وثالثاً — الاختلاف في اذواق الناس وحاجاتهم. وقد تم التبادل اولا بواسطة المقايضة، لكن عندما كثر التبادل انشأت الاوزان والمقاييس والنقد. اما النقد فيلعب دوراً هاما في التجارة، فهو اولا وسيلة للتبادل، وثانياً وسيلة لقياس القيمة، وثالثاً عرض شرعي للديون. وقد استبدلت البلدان المتمدنة جميع السلع المختلفة التي استعملت للتداول في مختلف الازمنة بالذهب والفضة لان مميزاتهما تجعلهما افضل بكثير لاجل هذه الغاية. وقد عمدت الحكومات الحديثة، منعاً للغش، الى تقرير الاوزان والمقاييس والسيطرة على

صك النقود سيطرة تامة . ثم ان القسم الاكبر من تجارة العالم اليوم يتم بدون استخدام النقد مباشرة بل بواسطة مختلف وسائل الاعتمادات . وتشكل المصارف اهم هذه الوسائل، الى جانب كونها بمثابة معامل رؤوس الاموال التي تعمل على حماية مصالح الشعب . وتخضع هذه المصارف لانظمة الحكومة ومراقبتها الشديدة

ان التغير، إما للزيادة أو النقصان، في كمية النقد المتداولة في بلاد ما، بالنسبة الى كمية البضائع والخدمات التي تقابلها في مدة معينة، يحدث تبدلا في الاسعار يسبب ضرراً لبعض السكان، وهذا الضرر قد يثير سخطهم على الحكومة . ولذلك كانت افضل سياسة اقتصادية في البلاد هي التي تستهدف المحافظة على مستوى ثابت للاسعار دون ما تضخم او تقلص في النقد . ثم انه، في النهاية، لا يمكن تثبيت اسعار التبادل الدولي والسيطرة عليها الا اذا تعاونت الدول ذات العلاقة وعملت مشتركة لتحقيق ذلك .

الفصل الثاني عشر

مستوى المعيشة

ان الغرض الاول من هذا الفصل هو درس مصلحة المستهلكين، ثم درس احوال المستهلكين الفقراء درساً مفصلا مسهباً .

معنى مستوى المعيشة

يرتكز علم الاقتصاد الى الحاجة. فالانسان يشتغل وينتج لانه يحتاج الى طعام ومسكن وملبس وغير ذلك من ضروريات الحياة، التي لا تجهزه بها الطبيعة مجانا. ويبعث الانسان، باعتباره مستهلكاً، جميع الفعاليات الاقتصادية او الانتاجية الى العمل. وكان، كما ذكرنا في الفصول السابقة، ينتج بادىء الامر كل ما يستهلكه، ولكن ما لبث ان جاء تدريجاً، تقسيم العمل فزادت كمية الانتاج. وقد اختص الانسان، مع مرور الزمن، في انتاج نوع واحد من الاشياء، وتوزيعه، ولكنه لم يختص بالاستهلاك؛ فكل انسان يجب ان يستهلك من مختلف الاشياء التي يمكنه دخله من الحصول عليها. وكانت نتيجة ذلك ان اصبح الانسان شاعرا بمصلحته كمنتج، اكثر من شعوره بمصلحته كمستهلك، على الرغم من تفوقها في الاهمية. فالبناؤون والسواقون والاطباء، مثلاً، يشعرون، بصفتهم منتجين، بضرورة رفع اجورهم لزيادة دخلهم وتحسين شروط عملهم، فنراهم ينظمون الدفاع عن مصلحتهم هذه، ويهملون امر تنظيم جهودهم لاجل حماية مصالحهم ضد ارتفاع الاسعار مثلاً. ثم اننا نجد ان مصالح المستهلكين لا تتجزأ، فهي عامة للجميع، وتنحصر في ان تزداد كمية البضائع التي ينالها المستهلك، ويتحسن نوعها، وتهبط اسعارها .

ميزانية العائلة. ان كمية البضائع التي يستهلكها المرء ونوعها يشكلان

مستوى معيشته. اما معدل مستوى هذه المعيشة فهي ما يستطيع ان يتمتع بها مع الاكثرية الساحقة من مواطنيه، وهي تقاس عادة بمقدار دخله السنوي.

ان دخل العائلة السنوي يجب ان يوازي جميع نفقاتها السنوية مضافاً اليها المبلغ الذي قد تتمكن العائلة من توفيره. وهذه النفقات على نوعين: ضرورية وكمالية. فالنفقات الضرورية تشتمل على الطعام والمسكن والملبس، بينما تشتمل النفقات الكمالية على التعليم والتسلية والتأمين والتوفير والهدايا والخدم، والى ما هنالك من الحاجات التي يستطيع الانسان ان يعيش بدونها.

ولقد درجت العائلات النابهة على ان تضع في بدء السنة تصميماً لمصروفها وتقديراً لمدخولها، بحيث يتوازنان فلا تقع العائلة تحت عجز يضطرها الى الدين. وهكذا تنشأ ما ندعوه «بالميزانية». والميزانية هذه التي تجري عليها الحكومات والشركات والمؤسسات المختلفة، والتي هي من الفائدة والضرورة بمكان عظيم لم تكن تعرف على هذا النحو منذ قرن. وها هي اليوم آخذة بالانتشار لما يختبره الانسان ايضاً من اهميتها في مساعدته على استباق الحوادث الاقتصادية وضبطها.

ولقد درس علماء الاجتماع خلال القرن الماضي دخل العائلات، فاكتشفوا القانون العلمي الذي يستند اليه. ولعل أشهر هؤلاء عالم الماني يدعى «انجل»، فانه توصل بدراسته الى المبادىء التالية: اولا — كلما ازداد دخل العائلة قلت النسبة المئوية التي تنفق على الطعام. ثانيا — كلما ازداد دخل العائلة بقيت النسبة المئوية التي تنفقها العائلة على امثال الملبس والآجار والوقود والنور ثابتة لا تتغير. وثالثا — كلما ازداد دخل العائلة ازدادت النسبة المئوية التي تنفق على الكماليات وشؤون التعليم والصحة والاستجمام وسواها.

ان تطبيق هذا المبدأ يختلف باختلاف البلدان، ولذلك لا نستطيع الآن اعطاء القارىء نسبة مئوية صحيحة بهذا الخصوص عن الشرق العربي، وما ذلك الا لأنه لم يقم حتى اليوم من يتولى القيام بهذه المهمة.

ان لقانون «انجل» اثراً عظيماً في تقرير الضرائب. فعوضاً عن فرض الضرائب

على الفقير والغني بالسواء، وفي ذلك مافيه من اجحاف بحق الفقير، لجأت معظم الحكومات الى طريقة فرض الضرائب بالنسبة الى مقدار الدخل أو الارث، متبعة مبدأ التدرج. وهذا المبدأ الذي يعني ان نسبة الضريبة تزداد بازدياد الدخل، منصف كل الانصاف، اما ضريبة « الوار كو » الزراعية المتبعة في الشرق العربي، فتخالف هذا المبدأ لانها تفرض نسبة مئوية ثابتة للضريبة تبلغ احيانا ١٢ بالمئة من الحاصلات الزراعية، وتطبق على الفقير والغني على السواء. وهذا مناقض كل المناقضة لقانون « انجل » ومجحف بحق الفلاح كثيراً. فيجاز لنا، اذن، ان ندعوه نظاماً رجعياً.

متوسط مستوى المعيشة

لقد حللنا مستوى المعيشة الى مظهريها المتساويين: الدخل والنفقات، ثم حللنا النفقات الى نفقات ضرورية والى نفقات كمالية، ثم اوجدنا قانونا يبين النسبة المئوية للنفقات الضرورية والنفقات الكمالية من مجموع الدخل، اما الان فاننا سنحلل الدخل الى العوامل التي تقرره.

ولتعيين متوسط الدخل في بلاد ما عوامل كثيرة معقدة؛ بيد اننا نستطيع ان نحلل هذه العوامل تحليلا بسيطا بواسطة الرموز الرياضية — لغة العلم. فالمعادلة الآتية تبين العلاقة بين العوامل او مجموعات العوامل الرئيسية وبين مستوى المعيشة، وتساعدنا على تفهم جميع العوامل عند تحليلها:

$$م م = د - ش$$

وتعني (م م) مستوى المعيشة او كمية الدخل السنوي للرجل العادي، وتعني (د) مجموع الدخل في البلاد، بينما تعني (ش) الشعب او عدد الافراد الذين يوزع عليهم ذلك الدخل. ونعرف (م م) او مستوى المعيشة بكونه متوسط الدخل او نصيب كل فرد من الدخل. ولما كان مستوى المعيشة متوقفا على النسبة بين (د) و (ش) كان بامكاننا رفعه اذا ما زدنا الدخل (د) او انقصنا الشعب (ش). ومما لا ريب فيه اننا نستطيع ان نرفع مستوى المعيشة في حين يكون الشعب آخذاً بالازدياد على شرط ان تزيد الدخل بسرعة اكثر من سرعة زيادة الشعب. وفي

الواقع ان المشكلة اعقد مما تظهر في المعادلة لان المعرفة والقابلية في الشعب قد يكون لهما اثر كبير جدا على الدخل .

عامل الشعب. دعنا الان نحلل عوامل مستوى المعيشة كلا على حدة. فنبدأ اولا بعامل الشعب (ش) من الناحية العددية. لا يمكن ان يتغير هذا العامل الا بالولادات او الموت او الهجرة، كما بينا ذلك في المعادلة في الفصل الثاني. اما الطرق التي بها نسيطر على ذلك العامل فقد ذكرناها في ذلك الفصل ايضاً وانما نعيدها هنا باختصار. وهو ان نقصان الشعب يرفع مستوى المعيشة، كما يحدث في بلاد مزدحمة بالسكان كمصر. وذلك واضح، ذلك لانه اذا كان لديك دخل معين توزعه على عدد معين من الناس ثم نقص عدد هؤلاء الناس، يصبح نصيب الباقين من الدخل اكثر من ذي قبل. واذا كان تناقص الشعب ليس من الامور المرغوب فيها، يجب ان تبقى نسبة ازدياد السكان اقل من نسبة ازدياد دخل البلاد، اذا كانت الامة ترغب في رفع مستوى معيشتها.

ولنتحول الان من الناحية الكمية الى الناحية النوعية في عامل الشعب. وهنا يجب ان ندرك ان لنوع الشعب اثراً كبيراً جداً على ثروة الامة وبالتالي على مستوى معيشتها. ويمكننا ان نحلل نوع الشعب لهذا الغرض الى العوامل الاتية: قابليات الشعب الموروثة، وصحته، ومهارته الفنية، ودرجة تعلمه. اما العامل الاول: القابليات الموروثة، فهو امر وراثي يمكننا السيطرة عليه قليلاً بواسطة علم تحسين النسل الذي يساعدنا على تحسين انسال الجنس البشري كما نستطيع ان نحسن نباتاتنا وحيواناتنا بواسطة الاختبار العلمي. واحدى الطرق المستعملة لبلوغ هذا التحسين هي أن تطلب شهادة طبية من الذين يريدون الزواج قبل الترخيص لهم، لكي يمنع نقل الامراض الوراثية عن طريق التناسل الى الجيل الجديد. اما الصعوبة في ذلك فهي ان الاطباء لا يعرفون حتى الان حق المعرفة اية امراض هي وراثية. والطريقة الثانية هي بان يمنع المصابين باشنع الامراض الوراثية من التناسل. ولذا نجد ان اغلب البلدان المتمدنة تفصل بين الجنسين المصابين بالامراض

العقلية لكي تمنعهم من التناسل، كما ان بعض البلدان تستعمل التعقيم لهذا الغرض. فقد عقمت كالفورنيا، بواسطة اشعة روتنجن، عشرين الفاً من المصابين بأمراض عقلية. وتتم هذه العملية بمنتهى البساطة دون ان يشعر صاحبها باي الم. والعامل الثاني: الصحة، اذ يتوقف عليه نشاط الامة وحيويتها. فاذا كانت نسبة المصابين بين الشعب بالملاريا والبلهرزيا والدودة المعكوفة، وسوى ذلك مرتفعة، اصبح الشعب كسولا، خاملاً، لا قدرة له على بذل الجهد العقلي والجسدي لجمع الثروة.

والعامل الثالث: المهارة الفنية، عاملٌ هام جداً في تقوية دخل الشعب وثروته. فالامة الحديثة المجهزة بالمعلومات العلمية والفنية تستطيع ان تستثمر الفحم الحجري والحديد والمواد الطبيعية الاخرى المتوفرة التي كانت مهملة كل الاهمال في الاجيال الغابرة لعدم توفُّر المعلومات الفنية الحديثة. اما نتيجة هذه المعلومات الفنية فهي تمكين البلدان التي تملك موارد طبيعية من زيادة شعبها ثلاثة اضعافه في قرن واحد كما فعلت انكلترا مثلا، ورفع مستوى معيشتها في الوقت ذاته. اما العامل الاخير، فهو عامل التعلم او التربية. فاذا كان التعلم عاماً شاملا، استطاعت البلدان ان تستخدم معلوماتها الفنية، وان تستثمر مواردها الطبيعية لتزيد دخلها اكثر مما تستطيع ان تزيده فيما اذا كانت نسبة التعليم فيها واطئة.

عامل الدخل. لقد بحثنا في الفصول السابقة العوامل التي تتوقف عليها الثروة، وهي الارض، والعمل، ورأس المال، وعامل رابع يتعلق بالتدبير او الادارة، ويستدعي العلم والمهارة، وهو الذي سميناه: نوع الشعب.

وأمامنا الآن عامل آخر من عوامل مستوى المعيشة هو عامل الدخل. فاذا كان عدد سكان بلاد ما متناقصاً، اي اذا كان في البلاد اراض وموارد طبيعية اكثر مما تحتاج اليه لاكفاء سكانها، تستطيع ان تزيد ثروتها اذا ما زاد عدد سكانها. فقد دخل الى اليونان مثلا بعد الحرب العالمية الاولى مليون ونصف مليون من النازحين فزاد عدد سكانها ٢٥ بالمئة، وزادت معه ثروتها وازدهرت حالتها الاقتصادية، ذلك لان هؤلاء النازحين اخذوا يحرثون الاراضي

المهملة وشرعوا، بفضل ما كان لديهم من مال واعتمادات في المصارف المركزية، يشيدون المصانع الجديدة. اما في بيروت مثلا فقد كانت الحالة على عكس ذلك؛ فقد اتاها عدد غفير من اللاجئين الذين لم تكن لهم ارض يحرثونها او رأس مال يستثمرونه في الصناعة، فكانت النتيجة ان سببوا هبوطاً في مستوى المعيشة، لعدم وجود موارد طبيعية في البلاد كافية لاعالة عدد اضافي من الشعب. وهكذا نرى ان النتائج الاقتصادية الحاصلة من تغيير في عدد افراد الشعب، تتوقف على نوع الشعب من حيث كفاءته الانتاجية ومن حيث عدده كمستهلك.

توزع مستويات المعيشة

لقد بحثنا حتى الان معدل مستوى المعيشة في البلاد والعوامل التي تقرره. بيد ان هنالك، بالاضافة الى معدل مستوى المعيشة، مستويات متعددة، منها ما هو فوق المعدل ومنها ما هو تحته؛ وهذا ناتج عن عدم التساوي في توزيع الثروة بين الغني والفقير في البلاد. ولكي نفهم ذلك فهماً واضحاً، علينا ان نراجع بحث «توزع الانتياب» في الفصل الثاني. اما الدخل فيتوزع عادة توزعاً سوياً، كما ترى في التوزع الاتي:

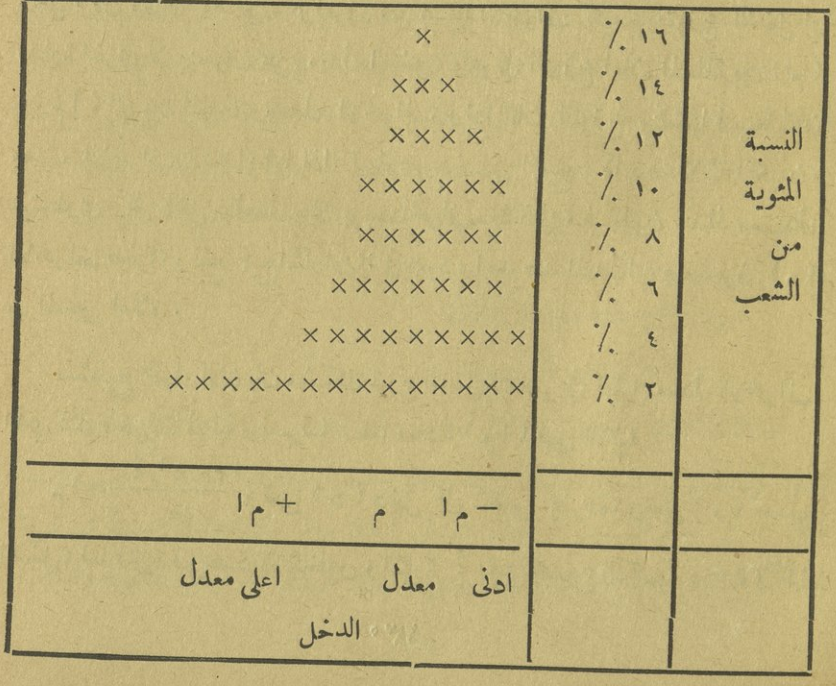

ان كل × تعني ٢ بالمئة من الشعب، وارتفاع كل عمود هو الانتياب بالنسبة المئوية، اي النسبة المئوية من كافة الشعب، التي تنال دخلا معينـا نشير اليه ببعض الوحدات المالية على الخط الاسفل .

فمشكلة رفع معدل مستوى المعيشة هي مشكلة زيادة دخل جميع الشعب حيث تنتقل جميع اشارات × الى جهة اليمين فى التوزع السوي اعلاه، دون ان يتغير شكل التوزع .

ولكن المشكلة الكبرى في توزع الدخل بين الفقير والغني هي مشكلة زيادة الدخل الواطىء وانقاص الدخل العالي بحيث تنتقل اشارة × الى جهة المعدل اي الى جهة حرف (م)، دون ان يغير هـذا التبديل في شكل التوزع مستوى المعدل، فيصبح شكل التوزع طويلا في المركز قصير الاطراف الى اليمين واليسار .

ويمكننا ان نقيس مدى التوزع اي سعته بـين اقل دخل واكثره، بواسطة دليلين، يدعى احدهما «الانحراف المقيَّس» ويدعى الثاني «معدل الانحراف». اما معدل الانحراف فهو معدل الفروق (بصرف النظر عن العلامات الجبرية) بين كل دخل وبين معدل الدخل. ونعرف من هـذا الانحراف كيف يتوزع الدخل او بعبارة اخرى كم ينحرف عن معدل الدخل، وهو في التوزع اعلاه المسافة بين (م) و(م ا) اي بين المعدل ومعدل الانحراف. واذا كان التوزع منتشرا فسيحا كان معدل الانحراف كبيرا، اما اذا تساوى دخـل الجميع كما يود الاشتراكيون، فيتساوى كل دخل بالمعدل ولا يوجد انحراف اذ ذاك، فيكون عندئذ معـدل الانحراف صفرا، وتقع جميع اشارات × في عمود واحد عند المعدل اي عند حرف (م) في المنحنى اعلاه .

نستطيع القول الان بان مشكلة توزع الدخل تنحصر في تقليل معدل الانحراف الذي نمثله بالحرفين الاتيين (م ا) . اما معادلة (م ا) فهي الاتية :

$$م ا = \frac{\sum ا د - م ا}{ش}$$

وتعني (د) دخل كل شخص بمفرده، وتعني (م) معدل الدخل، اما (ش) فهي عدد الاشخاص واشارة $\sum$ تعني مجموع الكمية د – م، كما

ان الخطوط المستقيمة | | التي تضم الكمية ا د – م ا هكذا، تعني ان العلامات الجبرية (+) او (–) مهملة في هذه المعادلة فلا يعمل بها . ولاجل التسهيل نستعين بمثال بسيط جدا: فلنفترض ان دخل اربعة اشخاص (ش = ٤) هو ١٠٠ ليرة للاول و ١٠٠ للثاني و ٢٠٠ للثالث و ٤٠٠ للرابع فيكون المعدل .

$$م = \frac{د}{ش} = \frac{(١٠٠ + ١٠٠ + ٢٠٠ + ٤٠٠)}{٤} = \frac{٨٠٠}{٤} = ٢٠٠ \text{ ليرة}$$

ويكون معدل الانحراف هكذا :

$$م ١ = \frac{\sum |د - م|}{ش} = \left\{ \begin{array}{r} ١٠٠ - ٢٠٠ = -١٠٠ \\ ١٠٠ - ٢٠٠ = -١٠٠ \\ ٢٠٠ - ٢٠٠ = ٠ \\ \underline{٤٠٠ - ٢٠٠ = +٢٠٠} \\ ٤٠٠ \end{array} \right\} \div ٤ = \frac{٤٠٠}{٤} = ١٠٠$$

ولدينا ثلاثة مقترحات لتقليل معدل انحراف الدخل اي لتقليل الفروق بين دخل الفقير والغني، هي الاتية : (١) تقليل دخل الغني . (٢) زيادة دخل الفقير. (٣) او القيام بالاثنين معاً للحصول على المساواة في الدخل. ففي النظام الرأسمالي يفضل الحل الثاني، وفي الاشتراكية والشيوعية يفضل الحل الثالث. والواقع ان معدل الانحراف يزداد في النظام الرأسمالي زيادة لاحد لها، اما في النظام الشيوعي فيأخذ بالنقصان حتى الصفر. ويمكننا ان نعبر عن هذين المبدئين في معادلات جبرية حين نجعل هذه الاشارة $\doteqdot$ تعني «التوصل الى حد» واشارة ∞ تعني اللانهاية اي اكبر عدد يمكن الوصول اليه .

م ا $\doteqdot \infty$ اتجاه الرأسمالية

م ا $\doteqdot ٠$ اتجاه الشيوعية

فالاشتراكية، وخاصة الشيوعية، تود ان تنقص من ثروة الغني وتزيد ثروة الفقير كي يتساوى دخل الاثنين ويصبح لهما مستوى واحد للمعيشة . ففي روسيا مثلاً كانت اجرة الشيوعي واحدة في كل البلاد سواء كان عاملاً بسيطاً في قرية ام حاكم البلاد باجمعها . وان سلّم الشيوعي بوجود الفروق الفردية في القابلية والجهد،

فانه لا يكافىء هذه الفروق بتفاوت في الدخل بل بتفاوت في النفوذ . فينال الشخص القوي مثلاً من جراء عمله شرفا اكثر من الشرف الذي ينانه من كان اضعف منه . قد يظهر ذلك مثالياً بعيداً عن الواقع، ولكننا نعرف انه واقعي في حقلي العلم والادب وبعض المهن الاخرى حيث يشتغل الممتهنون بها، طيلة حياتهم، لا سعيا وراء الثروة بل سعيا وراء الشهرة في حقل عملهم . وتجرب الان هذه الطريقة في كثير من المستعمرات الصهيونية في فلسطين حيث نجد درجات متفاوتة من الشيوعية؛ فمن مستعمرات يملكها اصحابها بالمشاركة، الى مستعمرات يطبق فيها نظام الملكية الفردية مع التعاون معاً في جميع اعمال المستعمرة .

والطريقة الثانية لتخفيض الفروق الكبيرة في الثروة هي فرض ضرائب الدخل المتدرجة على الاغنياء وخاصة ضرائب الارث . وحجة انصار هذه الضريبة هي ان المرء يجب ان يثري من سعيه الخاص وبالنسبة الى قابليته على الكسب وليس من وراثة ثروة طائلة من ابويه . ويقولون كذلك يجب ان يبدأ كل فرد في المجتمع الديمقراطي سعيه في الحياة في ظروف متساوية مع الاخرين . ولذلك يعمد الى فرض ضرائب فادحة على الارث تطبق على الاغنياء فقط كي لا يبدأ ابناؤهم حياتهم كاغنياء بل كافراد عاديين في المجتمع . ويمكن بلوغ هذه النتيجة ايضاً بفرض ضرائب على الدخل مدرجة تدرجاً كبيراً بحيث تصيب الدخل الكبير اكثر مما تصيب الدخل الصغير .

واننا لنجد بين طرفي الرأسمالية المطلقة والاشتراكية الصرفة مختلف الدرجات والانواع من معدل الانحراف، نستطيع ان نختار منها ما يلائم ذوقنا، وما يصح أن نبني عليه سياستنا الاقتصادية .

مشكلة الفقر . يوجه معظم المفكرين الاجتماعيين في العالم، اهتمامهم الى رفع مستوى المعيشة المنخفض او الى تقليل عدد من كانوا جد فقراء بدلا من تقليل عدد من كانوا جد اغنياء . فقد وضعت قوانين كثيرة وبذلت جهوداً اجتماعية جبارة للقضاء على الفقر . ولا ريب في ان العوامل التي حللناها سابقاً، والتي تقرر معدل

مستوى المعيشة، هي مسؤولة بعض الشيء عن وجود الفقر الشديد. بيد أن هنالك بالاضافة الى هـذه العوامل عوامل اخرى من شأنها ان تبعد الشقة بين الغني والفقير بزيادة الغني في الثراء والفقير في الفقر، دون ان يتغير معدل مستوى المعيشة .

وربما كان اهم هذه العوامل، عدا الجهل والمرض، هو الاستغلال الاقتصادي. ونعني بالاستغلال ان يعيش بعض الناس من اتعاب الاخرين؛ فبعض الناس او الطبقات يستطيعون بفضل مـا توصلوا اليه من النفوذ السياسي او مراعاة العادات والتقاليد القديمة وما اشبه ذلك، ان يتوصلوا الى مركز يمكنهم من العيش كسالى لا يأتون بعمل ما، بينما يقوم اناس آخرون بتسيير اعمالهم وشؤونهم. وقد كثر هذا الاستغلال الاقتصادي بين الشعوب الابتدائية التي حل بهـا المتمدنون وحاولوا ان يسخروهم ليكسبوا المال بواسطتهم. ويبلغ الاستغلال الاقتصادي اشده عند ادخال النظام الصناعي الجديد الى بلاد ما قبل ان يتعلم عمالها ان ينظموا انفسهم وجهودهم تنظيما يضمن لهم الحصول على حقوقهم. وربمـا وجدنا في ارياف الشرق العربي اهم مثال على الاستغلال الاقتصادي. ففي هذه الارياف لا يزال النظام الاقطاعي قائماً. وهذا النظام من شأنه ان يسخر الفلاحين المساكين الى فئة ضئيلة من الملاكين العتاة .

ان النظرة الى مشكلة الفقر آخذة بالتغير السريع، فلقد ساد الاعتقاد في القرون الغابرة بان الفقر ناتج عن اعوجاج بشري او عن اسباب فردية صرفة من شأنها ان تستمر ما دامت الطبيعة البشرية لم تتبدل. وكان من الامور المسلم بهـا ان الفقراء سوف يرافقوننا دائماً وانه لا يمكن القضاء عـلى الفقر، وان العمل الوحيد الذي يمكن المجتمع ان يقوم به هو معاقبة الفقراء المتجولين ومساعدة الفقراء المستحقين باعطائهم المساعدات العلنية والخاصة. وقـد كانت، حتى مؤخراً، جميع الوسائل المتبعة في مساعدة الفقراء في اوروبا والشرق العربي، سواء من قبـل الحكومات او المؤسسات الدينية، قائمة على هذا الاساس. ولذلك رأيناهم ينشطون الى انشاء المستشفيات المجانية والملاجيء وسواها من المؤسسات الخيرية.

بيد ان هذه النظرة، خاصة بين المثقفين، قد تغيرت الان. أجل، ان الاسباب الفردية التي تسبب الفقر ستظل تعمل عملها، فالتقدم في السن لا بد منه كما انه لا

يد من المرض والطوارىء. ولكنه في امكان المجتمع ان يجعلها غير مصحوبة بالفقر. الا ان منع الفقر لا يتم الا بمعالجة اسبابه، أما اعطاء الحسنات فليس الا طريقة وقتية لمعالجة المشكلة، تشبه محاولة القضاء على المرض ومحوه من على وجه الارض باعطاء المرضى الادوية بعد اصابتهم بالمرض.

وهكذا فان العلاج الوحيد الدائم لمشكلة الفقر هو ازالة اسبابه، لكن ذلك لا يتم في يوم او لحظة، لذلك كان القيام ببعض الاجراءات الوقتية من قبل السلطات العامة او المنظمات الخاصة، ضروريا لتخفيف وطأة الفقر.

واما العلاج الدائم هذا، فاننا نجده في الوسائل الواقية الشاملة، التي يستعمل بعضها الان في البلدان الراقية بينما لا يزال البعض الآخر قيد الدرس. ومن أهم هذه الوسائل: التأمين ضد المرض والطوارىء، والقوانين التي تقرر ادنى حد للاجور، ونظام تقاعد الامهات. وقد اقرت بعض بلدان اوروبا فكرة التقاعد للطاعنين في السن. وربما لا يكون من المستحسن العمل بالتأمين ضد البطالة عن العمل ولكنه بالامكان تحسين الصناعة لدرجة تقلل عدد العاطلين عن العمل كثيراً. ولا ريب ان مراقبة تجارة المشروبات كانت خطوة هامة في تقليل الفقر. كما ان المدارس المهنية التي تعلم العميان والصم والمقعدين صنعة ما، تقوم الان بخدمات جلى لهؤلاء الاشقياء وتعلمهم فن كسب قوتهم بايديهم. زد على ذلك ان عزل المنحطين في قواهم العقلية والوراثية في مؤسسات خاصة يمنع تكاثرهم ويقلل نسبتهم في المستقبل. كما ان تصميم ابنية المدن الحديثة وشوارعها، وقوانين البيوت الصحية يساعد على منع الازدحام ومنع الاحوال غير الصحية التي تساعد على انتشار المرض وبالتالي الفقر.

اننا، على الرغم من كل شيء، نشك فيما اذا كانت جميع هذه الوسائل مجتمعة، تقدر على محو الفقر نهائياً. بيد اننا متأكدون بانها اذا ما طبقت بهمة ونشاط تقلل من وطأة الفقر وعدد الفقراء كثيراً. ويخشى دائماً ان تصبح القوانين والانظمة التي يقصد منها الترفيه عن الفقير وتحسين حاله عبئاً جديداً يلقى على عواتق طبقة العمال. اما محاولة تقريب الشقة بين الاغنياء والفقراء بفرض الضرائب الخاصة فلا

تنجح دائماً وكثيراً ما تزيد مشاكل الفقير في النهاية . ويصف علماء الاجتماع الفقر بكونه « مرضاً اجتماعياً » ويؤكدون لنا انه يمكننا القضاء عليه كما يمكننا القضاء على الامراض الاخرى . وهذا صحيح، بيد ان الامراض لا يقضى عليها بالضرب على رؤوس الاصحاء، كما انه لن يقضى على الفقر بالضرب على رؤوس الاغنياء لمجرد كونهم احسن حالا من الفقراء . ان الفقير لن يصبح غنيا اذا ما جعلنا الغني فقيراً .

الفصل الثالث عشر

التعاونيات

ان غايتنا من هذا الفصل هو ان نطلع قراء الشرق العربي على التعاونيات باعتبارها طريقا وسطا بين نظام الاقطاعية والرأسمالية والشيوعية .

نسمع اليوم كثيرا عن التعاون في التجارة وفي الزراعة وفي التربية وفي العلاقات الدولية، بين الجماعات الكبيرة وبين الافراد. ان روح التعاون ضرورية كل الضرورة في هذا العالم الحديث اذا شاء سكانه ان يعيشوا بسلام وتوفيق. وتظهر هذه الروح في الاوساط الزراعية في الشرق العربي حيث تجتمع مصالح جماعة الزراع في منظمة يشترك فيها الافراد باختيارهم على اساس المساواة ويتعاونون على تحسين احوالهم الاقتصادية. فالتعاونيات ديمقراطية بطبيعتها؛ ولعل اصدق تعريف لها، وقد عبر عنه السر هورايس بلنكت في كتابه « التعاون » هو : « مساعدة المرء لنفسه بواسطة منظمة ».

وقد يتساءل المرء ما هي فائدة التعاونيات وماذا يستفيد منها ؟ أما الحاجة الى التعاونيات فتظهر في ظروف اهمها : التزاحم على البيع، والزيادة في الانتاج، وقلة البيع، والغش في نوع البضائع، والضرائب الجمركية العالية، وتظهر الحاجة الى التعاونيات مثلا في تجارة البرتقال في فلسطين، حيث ينتج عدد من الملاكين الكبار كميات كبيرة من البرتقال سنويا. ولذلك نرى ان كل ملاك يسعى جهده لكي يجد سوقا ملائمة لبرتقاله، فيجابه الجميع مشكلة واحدة. فقد يعرض الشارون الاميركيون والانكليز بواسطة عملائهم اسعاراً معينة، فاذا كانت هذه الاسعار واطئة، كان من الطبيعي ان لا يقبلها البائع. على ان بعض الفلاحين يفضلون ان يبيعوا باسعار اقل من السعر

كانوا يتوقعونه على ان تبقى منتوجاتهم بدون بيع، فيضطرب بذلك السوق وتهبط الاسعار ويتضرر بقية البائعين الذين ليس لهم من يحميهم وليست لهم اسواق اخرى يلجأون اليها. اما اذا اتحد جميع زارعي البرتقال والفوا شركة او تعاونية، ثم قرروا ان يطلبوا ثمنا واحدا لبرتقالهم وان ينزلوا الى السوق انواعا من البرتقال بدرجات متفاوتة واسعار مختلفة تتناسب مع كل نوع، فانهم يحمون بذلك بضائعهم في السوق ويضمنون الحصول على اجور مخفضة للنقل والعمال وسوى ذلك من التكاليف. وبعبارة اوضح، انهم بتوحيد مصالحهم يضمنون الحصول على الحماية والامتيازات التي تتمتع بها الشركة ويحرم منها الفرد. وهذا نفسه ينطبق على زارعي التمر في العراق، والحنطة في شمالي سوريا.

تاريخ التعاونيات

اين بدأت حركة التعاونيات ومتى؟ تختلف الاجابة على هذا السؤال باختلاف البلدان التي ندرسها؛ ففي ايطاليا مثلا يعود تاريخ اولى التعاونيات الى القرن الخامس عشر حين انتشرت شركات الحليب ومنتجاته في الوديان الواقعة في شمالي ايطالي. الا ان هذه الشركات لم تنمو بسرعة حتى اواسط القرن التاسع عشر حين نشطت الجمعيات التعاونية على مختلف انواعها، لا في ايطاليا فحسب، بل في انكلترا ايضا وكل انحاء اوروبا.

اما في انكلترا فقد ادخل روبرت اون عام ١٨٢٠ فكرة التعاون بين الجماعات والافراد للاستفادة الاقتصادية والمالية المتبادلة، كما انه شجع فكرة التعاون بين الجماعات والافراد للاستفادة الاقتصادية والمالية المتبادلة، كاساس للنظام الاجتماعي والاقتصادي الجديد. بيد ان الفكرة الاساسية تعود الى اواسط القرن الثامن عشر حين مد الاغنياء الفقراء بالمال لكي يشيدوا المطاحن. اما في سكوتلاندا فقد تأسست «جمعية ونوتش للغزل» عام ١٧٦٩ على اسس تعاونية. وفي عام ١٨٤٤ اسس جماعة العمال «جمعية روتشدايل اكوتبل بيونيرز» التي حاولت الغاء الربح ووضع جميع الاعضاء على اساس واحد من المساواة.

وهكذا اخذت فكرة التعاونيات تنتشر رويدا رويدا بين طبقات العمال، بينما كانت طبقات العمال تزداد قوة واهمية، خاصة بعد الثورة الصناعية. وفي عام ١٨٩٥ تأسس « اتحاد التعاونيات الدولي » كهيئة استشارية للتعاونيات في انكلترا والامبراطورية. وفي عام ١٩٠٠ اخذت فكرة تعاونية المستهلكين تتكون في المناطق الزراعية وبين الانكليز مع انها نشأت على الاكثر في الدوائر الصناعية اولا.

وقد ادخل « لوس بلانك » فكرة التعاونية الى طبقة التعاونيات الريفية والمدنية. اما فكرة « تعاونيات الاعتماد » فقد بدأت في المانيا وغايتها في الدرجة الاولى تنشيط الزراعة بمساعدة الفلاح على ابتياع معداته واسمدته واستخراج مختلف مصنوعات الحليب وايجاد اسواق لها في اوروبا وانكلترا والولايات المتحدة، وكل ذلك بواسطة التعاونيات. ولقد بلغ عدد اعضاء التعاونيات في انكلترا في الربع الاول من القرن العشرين ٦١٦٨٩٩٤ عضوا، اي ١٠ بالمائة من مجموع السكان، بعد ان كان ١٧٨٣٤٨٩ عضوا، اي ٤،٣ بالمائة من مجموع السكان. وفي عام ١٩٢٩ بلغ مجموع عدد الجمعيات التعاونية في انكلترا ١٢٣٤ جمعية.

اما في الدانمارك فالخطوة الاولى الحقيقية التي اتخذت في سبيل ايجاد تعاونيات زراعية كانت عام ١٨٨٠ مع ان تعاونيات الاعتماد بدأت عام ١٨٥٠ وبدأت تعاونيات مخازن المستهلكين عام ١٨٦٦. اما اليوم فالفلاحون الدانماركيون يؤلفون هيئة واحدة من البائعين بدلا من ان يكون كل واحد منهم على حدة. هذا هو السبب في تقدم الدانمارك تقدما عظيما اقتصاديا وزراعياً وماليا خلال الخمسين او الخمس والسبعين سنة الاخيرة. اما في السويد فقد بدأت التعاونيات حوالى منتصف القرن التاسع عشر وتقدمت تقدماً باهراً ولا تزال كذلك حتى اليوم. ويبلغ عدد اعضاء الجمعيات التعاونية في السويد ٥٩٠٠٠٠ عائلة وهي ما يقرب من ثلث مجموع سكان البلاد اذا اعتبرنا معدل كل عائلة اربعة اشخاص. وقد كان فيها في اخر سنة ١٩٣٦، ٤٣٤٠ مخزناً تعاونيا. اما في الولايات المتحدة فقد تألفت الجمعيات التعاونية بتأثير « روتشدايل بيونيرز » وغيرها من تعاونيات انكلترا واوروبا. ويقدر اليوم ان اكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ عائلة اميركية مشتركة في الجمعيات

التعاونية؛ وهذا العدد يمثل نسبة لا يستهان بها من مجموع السكان. اما الشرق العربي فلم تدخل فكرة التعاونيات اليه الا في الحرب العالمية الاولى، ولكنها آخذة منذ ذلك التاريخ، في النمو السريع ولا سيما في فلسطين.

انواع التعاونيات

كانت التعاونيات، في بدء نشوئها، على اربعة انواع: التعاونيات الزراعية، تعاونيات المستهلكين، وتعاونيات الاعتماد. ثم انه عندما انتشرت فكرة التعاونيات في مختلف بلدان العالم، زادت انواع التعاونيات، فتكونت جمعيات تعاونية للمنتجين ولاعمال خاصة مثل البناء، والتأمين، والمدرسة، والكلية، والمكتبة، والمستشفى والتطبيب، وما سوى ذلك. والتعاون اليوم داخل في كل حقل من حقول الانتاج او الاستهلاك. ففي الجامعة الاميركية مثلاً يوجد مخزن تعاوني، جميع اعضائه من هيئة عمدة الجامعة وعائلاتهم، ولولا هذا المخزن لما استطاع المشتركون فيه ان يشتروا البضائع الاميركية من طعام وملبس بمثل الاسعار الرخيصة التي يدفعونها الان. وهكذا ترى ان الفرص لخلق تعاونيات متعددة الانواع لا تحصى ولا تعد. ويجدر بنا الان ان نفهم كيف تتألف الانواع الرئيسية من التعاونيات وكيف تعمل.

التعاونيات الزراعية

تعني التعاونية الزراعية بمعناها الشامل تطبيق المبادىء التعاونية على حاجات اهل المناطق الزراعية، خاصة الذين يشتغلون منهم بالاعمال الزراعية. ان اتصال الفلاحين بالعالم الخارجي ينحصر في استدانة رؤوس الاموال التي يحتاجون اليها لشراء معداتهم ومواد هم الضرورية وتوفير الخدمات والاسواق لبيع منتجاتهم. فالتعاونيات اذن تشتمل على اعتماد للتعاون الريفي، والتعاون في شراء الادوات والمعدات الزراعية، والتعاون في بيع المنتجات وانزالها الى الاسواق. اما الرسالة الحقيقية التي اوجدت التعاونيات الزراعية لتحقيقها، فهي المحافظة على الفلاح من المساوىء الناتجة عن ضعفه المادي وجهله الطرق التجارية الحديثة. ويصدق ذلك بصورة خاصة على الشرق العربي، حيث يبلغ عدد الاميين ٨٠ ٪ في اكثر بلدانه،

وهم جاهلون كل الجهل الطرق التجارية والمعاملات المالية .

تعاونيات المستهلكين

ان هذه التعاونيات هي منظمات تجارية بشكل مخازن او دكاكين تنظمها جماعة المستهلكين لتوزع البضائع الاساسية كالطعام والملبس والاثاثات البيتية وما الى ذلك . وللتمثيل على ذلك خذ تعاونية الجامعة التي اشرنا اليها في غير مكان من هذا الفصل، فهي تعاونية للمستهلكين وبامكانها ان تجهز حاجات اخرى كالبيوت، والتأمين ضد الخطر، وتجهيز الغاز والنور والنقل . ولتأسيس هذه التعاونيات نحتاج الى رأس المال، حتى اذا ما توفر رأس المال تأسست جمعية يودع فيها اعضاؤها الحصص فيتمتعون بعضوية التعاونية . ولا يتطلب الاشتراك في هذه الجمعيات التعاونية اكثر من دفع قرض بسيط يمكّن الجمعية من القيام بنفقاتها . وقد بدأت تعاونيات المستهلكين التي يبلغ عددها الان ٦٠٠٠٠ جمعية في ثلاثين بلاداً وعدد اعضائها ٤٠٠٠٠٠٠٠ بدأت في عام ١٨٤٤ عندما اشترك ٢٨ حائك في روتشدايل قرب مانشستر في انكلترا، وكان هؤلاء اي حائكو روتشدايل قد تأثروا بروبرت اون ومن سلفه من المفكرين كما ذكرنا سابقاً .

تعاونيات الاعتماد

وهذه ايضاً مؤسسات تعاونية على غرار المصارف تخدم مصالح اعضائها الذين ينخرطون في عضويتها بملء اختيارهم، هدفها الاساسي تبادل المساعدة في سبيل تحقيق اغراض الجماعة التي تتألف منها والاستغناء عن الحاجة الى الشركات التجارية المساهمة .

وتختلف هذه التعاونيات في كيفية جمع رؤوس اموالها او اسس توزيع ارباحها وادارتها ومركزيتها، وهي على العموم سلاح بايدي الطبقات الوسطى في معركة تنازع البقاء لانها تحل محل التجار والمرابين في توفير الاعتمادات لهذه الطبقات، كما انها تقدم المساعدات المتبادلة في الشؤون المالية الى الطبقات الفقيرة وتدربهم على تحمل المسؤوليات التجارية . ويقدر عدد هذه الجمعيات في الوقت الحاضر بـ ٨٠٠٠٠ وعدد اعضائها ٢٥٠٠٠٠٠٠ . اما البلدان التي تأتي في المقدمة من حيث كثرة هذه

الجمعيات فيها فهي الاتية: روسيا، الهند، اليابان، المانيا. اما في الشرق العربي فلم تنجح هذه الجمعيات كثيرا لان التعاونيات الزراعية تسيطر على الموقف نظراً الى ان القسم الاكبر من الشرق العربي هو زراعي بطبيعته.

تأثير التعاونيات

لقد راينا، خلال القرن الماضي، وعلى الاخص الربع الاخير منه، ان عدداً كبيراً من الناس في ما يقرب من ثلاثين بلاداً مختلفة انضم الى بعض الجمعيات التعاونية. فما هو تأثير هذه المنظمات الكبيرة التي، ولا ريب، قد تجاوز تأثيرها الاعضاء الذين يستفيدون منها الى الاوساط الاقتصادية والمالية والاجتماعية في البلدان التي توجد فيها؟ واليكم فيما يلي بعض التأثيرات التي لاحظناها في البلدان التي نجحت فيها التعاونيات، كالدانمارك والسويد وفلسطين.

ان الدانمارك تشبه البلاد العربية في كثير من الاعتبارات. فقد جاهد الشعب الدانماركي كما جاهد الشعب العربي قرونا طويلة في استثمار الارض. فهو كالعربي فلاح منذ اقدم العصور. وقد حرمت الدانمارك كما حرم الشرق العربي من التقدم الصناعي لعدم توفر المواد الطبيعية المعدنية فيها كالفحم والحديد وغيرهما، اللهم الا النفط الذي يسيل بكثرة في بلدان الشرق العربي. وقد انقرضت في الدانمارك كما في لبنان الغابات الكثيفة التي كانت في زمن ما تغطي معظم سطح الارض. بيد ان التربة الدانماركية باقية، كما ان سهولها المنخفضة التي لا ترتفع الا قليلا عن سطح البحر، تصلح لانواع خاصة من الزراعة.

علاوة على هذا التشابه في المميزات الطبيعية، فان الدانمارك كانت تشبه بعض المناطق في البلاد العربية من حيث سيادة النظام الاقطاعي عليها قرونا متطاولة؛ فكان فلاحو الدانمارك يعيشون في الغرب تحت وطأة هذا النظام كما يعيش الفلاحون، خصوصاً في قرى شمالي سوريا.

على ان التشابه الآن بين الدانمارك والشرق العربي يضمحل في الاحوال الاقتصادية والمالية والاجتماعية. ذلك ان الدانمارك تعد اليوم في مقدمة بلدان العالم الزراعية

الصغيرة المتعلمة المزدهرة. وهي تختلف اختلافا بينا عما كانت عليه قبل قرن مضى او عما هي عليه البلاد العربية اليوم . فما هو سبب هذا التغير العظيم ؟ ماذا الذي احدث هذا التأثير البارز في حالة البلاد ؟ وللاجابة على ذلك نقول ان السبب الرئيسي الاول هو الجمعيات التعاونية.

ان الجمعيات التعاونية هذه، لم تقتصر في الدانمارك على مساعدة الفلاحين المزارعين فقط، بل تنظمت جمعيات تعاونية ايضاً لمنتجات الالبان والبيض وتربية المواشي والدواجن وما اشبه ذلك . وبلغت المنظمات التجارية اعلى الدرجات من حيث القانون والمال والادارة، ومن حيث البيع والشراء والعقود، ومن حيث تصريف البضائع وانفاق الارباح، واخيراً من حيث ايجاد اسواق ممتازة لمنتجات البلاد. وللجمعيات التعاونية الدانماركية وكلاء في انكلترا والولايات المتحدة يؤمنون تصدير البضائع ويسهلونه . ولا تقتصر الجمعيات التعاونية في الدانمارك على ماذكرناه، بل تساهم ايضاً في الحصول على البذور واطعمة المواشي والاسمدة والفحم الحجري والالات والادوات وتنظيم تحسين النسل وجمعيات الاعتماد . وهكذا نرى كيف نهض هذا التعاون بالدانمارك وبوأها هذه المرتبة العالية التي اكسبتها اعجاب العالم المتمدن واحترامه .

اما في السويد فقد كان نجاح التعاونيات اكثر منه في الدانمارك، ذلك لان السويديين اهتموا منذ البداية بتخفيض الاسعار وتحسين النوع وزيادة الانتاج لاجل الاستهلاك لا لاجل الربح . وقد نشأ قسم كبير من التعاونيات الاولى في المدن، فكان ذلك عاملا هاما في نموها وتوسعها . ولم تنتشر حركة التعاونيات بين الملاكين والمزارعين الا بعد الحرب العالمية الاولى، كما كانت الحال في بلدان الشرق العربي .

ويمتاز السويديون بالمهارة التجارية وببذل العناية التامة في عرض بضائعهم عرضاً جذاباً . ويصدق ذلك بصورة خاصة على المخازن التعاونية حيث يُنظّف التفاح والبرتقال والبيض والبطاطا وتلمع قبل عرضها في واجهات جميلة في مخازن حديثة . وفي مدينة استوكهلم فقط ٣٨٠ مخزنا من هذه المخازن تديرها جمعية المستهلكين

وقد اثبتت الازمة المالية التي وقعت في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، صلابة الحركة التعاونية في السويد . فالتقارير التي قدمها مختلف الجمعيات التعاونيات، دلت على ارباح في جميع النواحي معا بفضل اتحاد الجمعيات التعاونية الصغيرة وتشكيل جمعيات اكبر واقوى . وقدنشأ في السويدبالاضافة الى تعاونيات المستهلكين التي لعبت اكبر دور في حركة السويد، تعاونيات اخرى لمعامل الطحين ومعامل المصابيح الكهربائية، وشركات التأمين، ومنتجات الالبان والمواشي، وتشييد البيوت الرخيصة، وصناعات المناجم واستخراج القوى الكهربائية، والاعتماد . وقد ساهمت هـذه جميعها في مساعدة السويد حتى تصبح بلادا حديثة مزدهرة كما هي الان .

أما في فلسطين، فقد بدأت الجمعيات التعاونية على شكل مصغر في بدء القرن العشرين . ففي عام ١٨٩٦ تأسست جمعية للنبيذ، واخرى لتسوق البرتقال، وكانت هاتان الجمعيتان يهوديتين، فاستطاعتا ان تصرفا اكثر من ٤٠ ٪ من منتجات فلاحي اليهود . ولكن لم تكن لهاتين الجمعيتين صفة شرعية في عهد العثمانيين الذين حكموا البلاد في ذلك العهد، لذلك لم تشجع الحركة التعاونية في فلسطين حتى عام ١٩٢٠، حين وضعت الحكومة البريطانية المدنية قـانون الجمعيات التعاونية الذي شجع الحركة ودفعها الى الامام . وكانت هذه الحركة ناجحة بين اليهود وخاصة الذين اتوا من المانيا واواسط اوروبا حيث كانت الجمعيات التعاونية مزدهرة .

واذا ما رغبنا في الاطلاع على احدث المعلومات عن الحركة التعاونية في فلسطين تسنى لنا ذلك في كتاب الاستاذ سعيد حماده « النظام الاقتصادي في فلسطين » وقد جاء في صفحة ٣٧٠ ما يلي :

« لقد نمت الحركة التعاونية في فلسطين نموا باهراً في السنوات الاخيرة، بحيث يمكننا ان نقابلها مع مراعـاة النسبة في الحجم، بالبلدان التي قطعت فيها الحركة شوطاً بعيداً . ففي آخر عام ١٩٣٧ كان مجموع الجمعيات التعاونية فيها ١٠٠٣ يقابلها ٧١٢ في سنة ١٩٣٦ و ٦٦٨ في سنة ١٩٣٥ . وبلغ مجموع اعضاء ال ٧٠٧ جمعيات

تعاونية التي قدمت تقاريرها في ٣٠ ايلول سنة ١٩٣٧، ٢٤١٦٦٨ عضوا بينما بلغ مجموع اعضاء ٥٩٢ جمعية عام ١٩٣٦، ٢١٥١٠٧. اما اهم هذه الجمعيات واكثرها فهي الجمعيات التعاونية الزراعية، وتجمع هذه بين مهمة الانتاج والتسوق والاعتماد معاً ».

وعلى الرغم من ان الحركة التعاونية كانت، في البدء، يهودية في فلسطين، الا انها تسربت الى العرب ايضاً. فالفلاح الفلسطيني جاد في السعي الى التخلص من قبضة التجار المرابين الذين الحقوا به كل حيف وظلم مدة سنوات طويلة. وقد وجد ذلك ممكناً بتأسيس جمعيات تعاونية تقوم باعمال التسوق واعمال الاعتماد ايضاً، ففي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٣٦ كان في فلسطين ٦٠ تعاونية اعتماد عربية و٤٨ تعاونية المستهلكين وعدد غير قليل من التعاونيات للبيع بالجملة التي تاسست في نهاية الحرب العالمية الاولى لتجهز العمال بالحبوب باسعار معقولة، وقد اتسعت هذه التعاونيات كثيراً واشتملت على اعضاء من العرب واليهود معاً.

ولقد كان للجمعيات التعاونية بين الفلاحين العرب في فلسطين اعظم الاثر على الصمود في وجه تجار اليهود وزراعتهم، ومعالجة مشاكل الاعتماد (الدين). وهكذا فانه بامكان الجمعيات التعاونية الزراعية ان تؤدي خدمات جلى لتحسين أحوال الشعب في فلسطين.

مبادئ تنظيم الجمعيات التعاونية

لقد ذكرنا حتى الان لمحة موجزة عن تاريخ الجمعيات التعاونية، كما ذكرنا مختلف انواعها وتأثيراتها في بعض البلدان. اما الان، فيجدر بنا ان نتناول بعض الشيء المبادىء الاساسية التي ترتكز عليها هذه الجمعيات.

عندما قدم « روبيرت اون » فكرة التعاونيات عام ١٨٢٠ قدم معها المبدأين الاساسيين التاليين :

اولا — عدم اعتبار الحكومة واسطة لاحداث التغير.

ثانياً — التجمع الاختياري للاستخدام الذاتي والحكم الذاتي ايضاً.

فالاقتراع يتم على اساس العضوية فقط لا على اساس نسبة الاسهم التي يملكها الفرد في الجمعية . وهذه العضوية من حق الجميع، والاقساط على رأس المال معينة او محدودة، وكذلك الحصص في بعض الاحيان. اما التزاحم بين الاعضاء فكان في بعض التعاونيات الزراعية يمنع العضو من الاتجار بالمنتجات الزراعية الا بواسطة الجمعية. فكان ذلك مثبطا للرغبة بالربح الفردي ومشجعا لمصلحة الجمعية العامة .

هذان هما المبدآن العامان الاساسيان اللذان قامت عليهما الحركة التعاونية، مع العلم ان هنالك قوانين وانظمة فردية في جميع التعاونيات تختلف باختلاف البلاد والشعب ونوع الانتاج والسوق. بيد انها مهما اختلفت تظل ثانوية بالنسبة الى المثل الاعلى للحركة التعاونية التي تعتبر « منظمة للمساعدة الذاتية » .

دعم الحركة التعاونية

على الرغم من ان احد مبدأي « روبرت اون » المتعلقين بالتعاون، ينص على « عدم اعتبار الحكومة واسطة للتغيير »، الا ان هذه الجمعيات التعاونية عندما تنمو نموا عظيما وتكسب نفوذا واسعاً، لا بد من ان تسترعي انتباه الحكومة وتثير اهتمامها. وهكذا فإنه من الضروري للحكومة ان تسن القوانين لكي تصبح الجمعيات التعاونية شرعية، والا لا يكون في مقدور هذه الجمعيات ان تحصل ديونها وان تقوم باعمالها التجارية التي تقع تحت طائلة القانون. وعلى هذا النحو تم سن « قانون الجمعيات الصناعية والاحتياطية » في انكلترا عام ١٨٥٢، ثم اصلح فيما بعد لكي يماشي التطورات الحديثة؛ كما تم سن قانون مشابه لذلك في الهند عام ١٩٠٤ دعي قانون «جمعيات الاعتماد التعاونية». وقد نص هذا القانون على ايجاد « جمعيات اعتماد تعاونية » تصنف الى صنفين: ريفية ومدينية، كما نص ايضاً على الانظمة العامة لهذه التعاونيات. ثم تأسست المصارف المركزية التي اصبح عددها في الهند ٥٩٨ عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

وليس في الدانمارك قوانين تنص على تأليف تعاونيات. فهي جمعيات اختيارية تتألف بحسب القوانين العامة، ولكل منها دستور وقانون داخلي، وهي عبارة عن

اتفاق او تعاقد بينها وبين اعضائها، وينفذ هذا الاتفاق او التعاقد في المحاكم. وتشكل الجمعية مجلس محكمين لينظر في القضايا التي تنشب بين اعضائها والتي يمكن عدم رفعها الى المحكمة. اما القضايا التي يقيمها شخص ليس من اعضاء التعاونية فترفع الى المحاكم. ويطلب الى جميع اعضاء التعاونية ان يوقعوا على دستورها وقانونها الداخلي وان يقسموا بشرفهم بان يحافظوا على قوانين الجمعية وانظمتها.

وليست الجمعيات التعاونية الدانماركية شركات رأسمالية. فرأس المال الضروري لاعمالها يؤخذ بقرض يكفله الاعضاء.

اما في السويد فتنحصر السلطة العليا للجمعيات التعاونية الصغيرة في المجلس العام الذي يشترك فيه جميع اعضاء التعاونية الذين يحق لهم التصويت. وينتخب المجلس العام مجلس المدراء فيعين هذا مدير التعاونية ثم يراقب اعماله. اما الجمعيات التعاونية السويدية الكبيرة التي يبلغ عدد اعضائها الوفاً وعشرات الالوف، فلا يمكن ادارتها بهذه الطريقة المباشرة وبمثل هذه السهولة.

وتتمسك الجمعيات التعاونية السويدية من الناحية المالية بالمبدأ القائل ان التعاونية نفسها يجب ان تمول اعمالها كما يجب الا تستدين او تدين. وهذا هو اساس النجاح التجاري الذي تتميز به التعاونيات السويدية الكبيرة والصغيرة، ويتألف مورد الجمعيات التعاونية الرئيسي الذي تعتمد عليه في جميع اشغالها، من الاسهم والمال الاحتياطي والتوفير. وتتمسك هذه الجمعيات بالمبدأ القائل: اذا ارادت التعاونية ان تكون قوية فعالة بحيث تستطيع ان تخدم اعضاءها، وجب عليها ان تحصر جهودها فقط في الاعمال التي تستطيع ان تقوم بها بما لديها من المال والموارد.

وهكذا نرى ان هنالك طريقتين لتمويل الجمعيات التعاونية: الاولى ان تمول الجمعية نفسها بنفسها، والثانية ان تتمول الجمعية بواسطة القروض الحكومية او غير الحكومية. ومن حيث الادارة فهنالك مبادىء عامة تطبق على الجمعيات

الصغيرة والجمعيات الكبيرة. وتتمشى جميع التعاونيات بصورة عامة على هذه القوانين العامة في الادارة والمالية مع شيء من التبديل والتحوير يناسب البلاد والشعب والظروف التي توجد فيها التعاونية .

علاقة الجمعيات التعاونية بغيرها

والآن، ما هي العلاقة بين الجمعيات التعاونية، الكبيرة او الصغيرة، والشركات المساهمة الرأسمالية ؟ وما هي امتيازات الاولى على الثانية ؟ ان الجمعيات التعاونية هي في الدرجة الاولى منظمات اختيارية لمساعدة نفسها وتمويل نفسها بنفسها، وللتحرر من القوى التي تسيطر عادة على الشركات المساهمة الرأسمالية .

وكثيراً ما يقع الاصطدام بين الجمعيات التعاونية والشركات المساهمة، ذلك لان الشركات المساهمة الكبيرة تتبع طرقاً جائرة، اما الجمعيات التعاونية فعلى عكس ذلك؛ انها خصم خطير للفردية الاقتصادية القديمة . فالشركات المساهمة الكبيرة تمثل التنظيم الاوتوكراتي، بينما تمثل الجمعيات التعاونية التنظيم الديمقراطي والمثل العليا الديمقراطية .

ومن جهة ثانية، ما هي علاقة التعاونيات بالشيوعية ؟

لقد كانت فكرة « روبرت اون » عن التعاون عام ١٨٢٠ اوسع مما اظهرته الجمعيات التعاونية الزراعية وتعاونيات الاعتماد وتعاونيات المستهلكين. فهو لم يتردد ان يقترح انشاء بيئة تكون منعزلة ومكتفية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وتشبه مقترحات كهذه حول الحركة التعاونية، المستعمرات الشيوعية التي سبقتها والتي تلتها اكثر مما تشبه تعاونيات العمال التي نشأت كنتيجة لاراء « اون ». اما الفروق بين الجمعيات التعاونية والاساليب الشيوعية فتلخص في المبدأين اللذين وضعهما «اون» واتينا على ذكرهما في مطلع هذا الفصل، وهما : «عدم اعتبار الحكومة واسطة لاحداث التغير والتجمع الاختياري للاستخدام والحكم الذاتي». اما الانظمة الشيوعية فهي في اهدافها ومثلها العليا عكس ذلك تماما لان الدولة هي كل شيء والافراد هم اجزاء آلية من الدولة . والشيوعية تجبر الفرد على الاشتراك فيها بالقوة اما

التعاونيات فاختيارية؛ وهي تستطيع ان تنمو وتزدهر في المجتمع الرأسمالي او الشيوعي على السواء .

وخلاصة القول ان الجمعيات التعاونية قد اثبتت فائدتها العظمى لانهاض المجتمع البشري وتنظيمه على اسس عادلة . ولذلك فهي ستنمو وستبقى جزءاً هاماً من المدنية الحديثة .

الفصل الرابع عشر

الحكومة

يقدم لنا هذا الفصل والفصول الثلاثة التي تليه درساً في العلاقات السياسية بين المواطنين وحكومتهم، ويشتمل هذا الدرس على تنظيم الحكومة وعلى القانون والاجرام والرأي العام والاصول البرلمانية.

اما هذا الفصل فيتناول نشوء الحكومات وتشكيلاتها مع ذكر المسائل الهامة كشؤون الموظفين والميزانية والانتخابات.

قلّما يعرف المواطن العادي عن حكومته الا الشيء القليل؛ فهو لا يعرف من يديرها وكيف تقوم باعمالها، وهل هي افضل نوع من الحكم لبلاده ام لا؛ وهو بطبيعة الحال لا يهتم الا قليلاً بهذه الامور ما دامت السلطة الحكومية لا تتدخل باعماله وشؤونه الشخصية. ولكن منذ الحرب العالمية الاولى زاد اهتمام الشعوب على اختلاف طبقاتهم، في شكل حكوماتهم وما تقوم به من اعمال في الحاضر وما ستقوم به للمستقبل واصبح هـذا المواطن العادي يتعرف باهتمام ولذة الى أشياء عن تغير خريطة اوروبا بعد معاهدة فرساي، وعن سقوط الممالك ونشوء الدكتاتوريات، وعن سلطات الانتداب الاوروبي عـلى بعض بلدان الشرق العربي وغيرها؛ كما ان الافراد والشعوب أخذوا يتناقشون في القضايا الآتية التي تدور جميعها حول لفظة « حكومة » : هل الدكتاتورية افضل من الديمقراطية ؟ وهل الشيوعية افضل من الفاشستية ؟ وما قيمة الممالك في الوقت الحاضر، كبيرة كانت ام صغيرة ؟ وهل يلائم نوع واحد من الحكم جميع البشر ؟

ان كلمة حكومة تعني ادارة الشؤون العامة بواسطة السلطات الشرعية المنظمة. فالحكومة هي سلطة المجتمع منحصرة بالافراد او جماعات من الافراد، او قل هي

مؤسسة اجتماعية نشأت خلال مئات من السنين في تاريخ الجنس البشري . وليست الحكومة، على حد قول « ستيفن ليكوك » في كتابه (عناصر العلم السياسي صفحة ٣٨)، بدعة، بل هي نمو، هي نشوء تدريجي رافق تاريخ البشرية وابتدأ منذ ماض بعيد مجهول » . فكيف بدأت الحكومة في ذلك التاريخ البعيد وماذا كان هدفها ؟ .

منشأ الحكومة وهدفها

من المعلوم ان الحيوان والانسان كانا منذ بدء عهدهما ينزعان الى العيش في جماعات . وقد اشرنا الى هذه النزعة في الفصل الثالث عندما درسنا العائلة . فالغريزة الجنسية كانت الباعث على الجمع بين الذكر والانثى للتناسل والعيش في جماعات عائلية . وعندما اخذ الناس يعيشون في جماعات كان عليهم ان يجابهوا مسألة السلطة او الحكومة : فمن يكون الزعيم والى اي مدى تكون سلطته على الجماعة ؟ فالاب هو الذي يسيطر على الابناء في العائلة، ثم امتدت هذه السلطة حتى بلغت الانسال . وكانت العائلة بادىء الامر تتألف من اعضاء البيت الواحد (الزوج والزوجة والاولاد) ثم اتسعت حتى صارت تشتمل على الانسال جميعاً، ثم تكونت من هذه الانسال القبيلة واخيراً الامة . وقد قال ارسطو في هذا الشأن : «تنشأ العائلة اولا، وعندما تتحد عدة عائلات ويستهدف افرادها اموراً اكثر من تحصيل القوت وضروريات الحياة تتكون القرية، وعندما تتحد عدة قرى لتكون بيئة واحدة كبيرة وقادرة على ان تكفي نفسها بنفسها او تكاد، تتكون الدولة » . ونرى صحة هذا القول في بيئات كالقبائل الرحل في اواسط آسيا او قبائل البدو في الشرق العربي .

ان حماية الدولة من العدوان الخارجي، وحمايتها كذلك من العصيان والفوضى الداخليين، أوجب ايجاد سلطة عليا، سواء كانت فرداً ام مجموعة أفراد، كما اوجب الطاعة لهذه السلطة . فالسلطة والطاعة اذن هما اساس الدولة . وقد تدرجت هذه السلطة، من فردية مطلقة الى جمهورية . بيد ان هذا لا يعني ان هذين الشكلين المتناقضين من الحكم لم يوجدا جنباً الى جنب خلال عصور التاريخ . فلقد عرف

التاريخ منذ اقدم عصوره شكل الحكم الجمهوري قائماً الى جانب شكل الحكم الفردي المطلق . ونحن لا نزال حتى اليوم نشهد هذا الاخير قائماً في بعض البلدان الراقية على الرغم من انتصار الديمقراطيات الغربية في الحرب الاخيرة .

ان نمو المجتمع نموا طبيعيا وتطوره من الجماعات العائلية الى القبائل الى القرى الى امم تتكون من ملايين البشر، أدى الى اتساع وظائف الحكومة وتنوعها وتشعبها . فلقد كان زعيم الجماعة في البلدان حاميها والمسؤول عن مورد رزقها؛ ثم اصبح، بعد ان كبرت الجماعات، القيم على افرادها الذين هم دونه منزلة والذين قاموا بالذود عنها وباعالتها، ثم اصبح بعض هؤلاء مع الزمن مراقبين على الموظفين الذين دونهم في المنزلة والذين اصبحت واجباتهم اعظم واكثر تعقداً مما تحتاج اليه جماعة صغيرة . وكانت بعض الواجبات التي كانت تقوم بها الدولة، في بدء نشأتها، هي حماية الافراد والمحافظة على ممتلكاتهم، وتنظيم التبادل ان كان بالمال او بالمقايضة، والاهتمام بالصحة العامة والاخلاق وما الى ذلك . اما واجبات الدولة الحديثة فهي بلا ريب اعظم واعقد، مما ادى الى انشاء دوائر كثيرة لتنظيم هذه الواجبات والقيام بها .

تشكيلات الحكومة

لقد لخص ارسطو في كتابه « السياسة » في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني، اشكال الحكومة فقال : — « كانت الحكومة الاولى ملكية، وربما كان السبب في ذلك راجع الى ان اصحاب الفضائل كانوا قليلين في القدم، فنصبوا ملوكا لانهم كانوا محسنين ولا يمكن ان يقوم بالاحسان الا الصالحون؛ وعندما برز الى الميدان اناس لا يقلون كفاءة عن الملوك، لم يتحملوا سيطرة الفرد فرغبوا في انشاء مملكة وسن دستور . فانحطت حالا الطبقة الحاكمة واخذ افرادها بجمع الثروة من خزينة الدولة، ثم اصبحت الثروة الطريق الى المجد والشرف . وهكذا نشأت حكومة الاعيان والخاصة بصورة طبيعية . ثم انقلب هؤلاء الى طغاة لم تلبث سلطتهم ان زالت لتعطي مكانها لسلطة الشعب، ذلك لان حب الربح السائد بين الطبقة

الحاكمة كان دائما سبباً في انقاص عددهم وبالتالي تقوية الشعب، الذي قضى على اسياده فيما بعد واسس الديمقراطيات». وما اصدق الجملة الأخيرة التي كتبت منذ قرون عدة على ما احدثته الثورات الفرنسية، والاميركية، والروسية، من انتزاع الشعب لحريته وسيادته اللتين كانتا تحت رحمة فئة ضئيلة من الاسياد المستبدين.

ومما لا ريب فيه ان حكومة الولايات المتحدة أجود مثال للحكومة الدستورية التي استمرت على شكل واحد من الحكم مدة اطول من اية امة عظيمة اخرى. ففي سنة ١٧٧٦ عندما اعلن استقلال البلاد عن بريطانيا العظمى كان البعض من السكان احرارا طليقين من الانظمة والقوانين والتقاليد والعادات الاوربية، ولذلك سهل عليهم ان يقيموا الحكومة التي يشاؤون، فأقاموا حكومة دستورية على اساس القانون الانكليزي والروماني. في حين ان بريطانيا العظمى، اذ كانت مكبلة بعادات وتقاليد القرون الغابرة التي نشأت خلال اجيال طويلة من حكم الملوك، لم يكن من السهل عليها تأسيس حكومة دستورية. فعلى الرغم من ان الشعب بدأ العمل ضد سلطة الملك المطلقة عام ١٢١٥ عند توقيع «المكناكرتا» من قبل الملك جون، الا ان السلطة الحقيقية المطلقة لم تتم له الا بعد ما ينيف عن ستة قرون.

وانه لمن الواضح ان اعظم ما تتصف به الحكومة الدستورية هو كونها حكومة قوانين لا حكومة رجال. وبذلك تختلف، في أهم ما تختلف، عن الحكومة الاوتوكراتية او الدكتاتورية. ولقد اكسبتها هذه الصفة القدرة على البقاء والمحافظة على شكلها مدة قرون يتغير اثناءها الرؤساء ورؤساء الوزارات والحكام والمديرون، كما اكسبتها المرونة بحيث تسمح بادخال التغيير عند الضرورة. ولما كانت العادات والانظمة تتغير في البلاد، وجب ان يسمح الدستور بادخال التعديلات الضرورية والتغيرات التي يفرضها التطور.

وتتألف كل حكومة دستورية من ثلاثة اقسام رئيسية: القسم التشريعي ويقوم بسن القوانين، والقسم التنفيذي ويقوم بتطبيق القوانين، والقسم القضائي ويقوم بمحاكمة الاعمال التي تخالف القانون. وتتداخل هذه الاقسام بطبيعة

الحال في نقاط كثيرة ولكنها تمثل السلطات الرئيسية التي تعمل الحكومة الدستورية بواسطتها .

ان بريطانيا العظمى هي من الناحية الفنية مملكة، ولكنها في الحقيقة حكومة دستورية؛ ويتكون القسم التنفيذي من الملك ورئيس الوزارة والوزراء وضباط الجيش والبحرية والقوة الجوية والضباط المدنيين ذوي الرتب الرفيعة الذين تم تعيينهم على اسس سياسية، والخدمة المدنية الدائمة والوقتية، وما الى ذلك .

اما القسم التشريعي فيتكون من الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم الذي يتمركز حول رئيس مجلس الوزراء والوزراء، وكلهم يتأثرون بالناخبين .

واما القسم القضائي فيتكون من مجلس اللوردات واللجنة القضائية المكونة من « بريفي كونسيل » والمحكمة العليا، والمحاكم الروحية، والمحاكم العليا للدومينيونات والمستعمرات والمحاكم المحلية المدنية والجنائية .

وللولايات المتحدة شكل حكومي مماثل، فلها المجلسان والمحكمة العليا والوزارة والرئيس . كما ان شكل الحكومة في فرنسا يشبه شكل الحكومة البريطانية وحكومة الولايات المتحدة، وجميعها مكونة من الاقسام الثلاث الرئيسية التشريعية والتنفيذية والقضائية .

ان القسم التنفيذي، اذن، يشتمل على رئيس الدولة، ومجلس الوزراء، والمدرين، وعامة الموظفين، وتعتبر جميع دوائر الحكومة التي لا علاقة لها بالعمل التشريعي او القضائي تابعة للقسم التنفيذي . ويكون عادة رئيس الدولة الذي تختلف سلطته وطريقة توصله الى الحكم ومدة بقائه فيه وعلاقته ببقية دوائر الحكومة، بمختلف البلدان، عظيم الاهمية في الحكومة . ويختلف المجلس الوزاري عادة عن الهيئة التشريعية التي اخذ الكثير من سلطانها . اما اعضاء الوزارة فهم رؤساء الدوائر الادارية الكبيرة . وتشكل الوزارة عادة وحدة، تختلف صلتها برئيس الدولة والسلطة التشريعية باختلاف البلدان . فهي مسؤولة امامه بموجب دستور الولايات المتحدة، بينما هي ليست مسؤولة امامه بل امام الهيئة التشريعية او المجلس النيابي،

بموجب دستور لبنان وانكلترا وفرنسا مثلاً . ففي الحالة الاولى يحق لرئيس الدولة ان يعين ويقيل اعضاء وزارته، اما في الحالة الثانية فينحصر هـذا الحق بالهيئة التشريعية . الا ان الوزارة مخولة اما ان تستقيل او ان تحكم الناخبين من جديد في ايهما يضعون ثقتها .

والى جانب ادارة البلاد الحكومية، تقوم ادارات محلية في كل مدينة وقرية تدعى المجالس البلدية .

وقد رأيت ان امثل بلبنان، وعلى الاخص ببيروت، في الكلام عن نظام هذه المجالس .

لقد نشأ النظام البلدي العام في لبنان من القانون البلدي العثماني الذي سن عام ١٨٧٧ والذي يستند الى قوانين نابليون . وفي عام ١٩٢٢، اي بعد قيام الانتداب الفرنسي في لبنان، وضع نظام بلدي جديد يشبه النظام القديم مع بعض التبديلات البسيطة في طريقة التنفيذ . وتسيطر الحكومة الوطنية على الاعمال البلدية بواسطة وزارة الداخلية . وقد قسمت الجمهورية اللبنانية الى خمس مناطق ادارية رئيسية يعين لادارة كل منها محافظ، وقسمت كل من هذه المحافظات الى ١٨ قضاء يعين لادارة كل منها قائمقام، ويتفرع من هذه الاقضية مخاتير للقرى .

ولما كانت بيروت هي عاصمة لبنان واكبر مدينة فيه، كان مركز الحكومة فيها . اما حكومتها البلدية فيرأسها محافظ او رئيس المجلس البلدي . ولهذا الرئيس السلطة النهائية في امور التعيين والصرف من الخدمة وبعض السلطات الاخرى، ولكن لوزير الداخلية السلطة العليا في الامور النهائية . ويستطيع ان يقوم بتفتيش البلديات في اي وقت شاء .

ويتكون مجلس بلدية بيروت تكوُّناً يعتبر غريباً من عدة وجوه : فعدد اعضائه ستة عشر، اي اكبر من عدد اعضاء اي مجلس بلدي آخر في لبنان، وذلك لكي يفسح المجال لتمثيل مختلف الطوائف الدينية في المدينة .

وينتخب اعضاء المجلس البلدي، بموجب الدستور، بالتصويت العام المباشر الذ

يشترك فيه جميع الاهلين الذكور الذين تبلغ عمارهم ٢١ سنة وما فوق. اما في الوقت الحاضر فيتم تعيين اعضاء هذا المجلس من قبل الحكومة. ويقرر الدستور اعمال المجلس وسلطته، وميزانيته. ومهمته الرئيسية ان ينظر في جميع اعمال البلدية وان يقدم الارشادات الى الحكومة المركزية، كما انه يفحص ميزانية رئيس البلدية ومصاريفه مع مصاريف امين صندوق المدينة، ويشرف على الاشغال العامة والابنية العامة وينظم الضرائب والتعريفة، ويشرف على الطرق ويؤلف الدوائر الخيرية ويديرها، ويقرر تعريفة النقل، ويهتم بالفقير، ويقر مشاريع الصحة العامة، ويقرر الميزانية. وبعبارة اوضح فان المجلس البلدي ورئيس البلدية يديران المدينة ويحكمانها تحت اشراف الحكومة المركزية.

اما المخاتير فيحكمون جميع قرى لبنان، بموجب القانون الصادر في ١٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٨. وينص هذا القانون على ان كل بيئة تتكون من ٥٠ نسمة وما فوق، يديرها مختار ومجلس اختيارية، ويبقى المختار في وظيفته مدة اربع سنوات، يجوز عند انقضائها اعادة انتخابه او اعادة تعيينه. ويترأس المختار هيئة الاختيارية وله سلطة تامة بما يختص بالامن العام والمالية وتسجيل الاراضي والزراعة والصحة والقضاء والتعليم. وعليه ان يطلع الحكومة المركزية على الحوادث المحلية التي تخل بالامن العام وان يتعاون مع الحكومة بكل ما هو ممكن في الشؤون المالية والادارية. وتصبح بهذه الطريقة الجماعات الصغيرة من السكان الذين لا يقعون مباشرة تحت السلطات البلدية او الحكومة المحلية، مرتبطين بالسلطة فيطيعون القوانين والانظمة، ويساعد ذلك على تمركز الحكومة وزيادة وحدة الدولة.

مشاكل الموظفين في الحكومة

أ ـــ اختيار الموظفين: تجابه كل حكومة مشكلة انتقاء الموظفين لملء المراكز الحكومية على اختلاف انواعها، من الرئيس الاعلى فمادون. اما الطرق الممكن استخدامها لذلك فهي: الانتخاب والتعيين والامتحان. ولكل من هذه الطرق

حسناتها وسيئاتها. فطريقة الانتخاب تفسح مجالا للتزوير ولا تضمن فوز الاكفاء لوظائفهم. بيد انها، على الرغم من هذه السيئة، افضل الطرق لضمان اشتراك الشعب في اختيار موظفي حكومتهم. اما طريقة التعيين فتفسح المجال للتحيز والتعرض في اختيار الموظفين لان البت فيها ينحصر في شخص واحد، ومع ذلك فقد يساعد التعيين على انتقاء الافضل لان الذي يعين يعرف جيداً ما هي المؤهلات الضرورية للوظيفة. واما طريقة الامتحان فرعا كانت افضل الطرق، مع العلم ان من ينجح بالامتحان ليس من الضرورة ان ينجح كذلك بالقيام بوظيفته خير قيام. فنجد اذن ان لكل من هذه الطرق سيئات وحسنات، وفي الفقرة الآتية المأخوذة من كتاب « المعلومات المدنية الاجتماعية » تأليف موندو واوزان، نقطة هامة، ولكنها لا تحل المشكلة حلًا تاماً:

« يتوقف حل هذه المشكلة (مشكلة اختيار الموظفين) على ماذا نتطلب من الموظفين، فاذا كانت مهمة الموظف ان يمثل الشعب في تقرير المسائل المتعلقة بالسياسة العامة، كان يكون عضواً في المؤتمرات او الهيئات التشريعية او المجالس البلدية، فعلى الشعب ان ينتخب الموظف لانه من واجب الشعب وحقه ان يختار ممثله، واذا لم يفعل ذلك فلا يجوز ان تكون له حكومة تمثيلية، اما اذا لم تكن مهمة الموظف ان يقوم باعمال تتعلق بالسياسة العامة بل ان يقوم باعمال تتطلب المهارة والخبرة فمن الافضل ان يعين الموظف تعييناً. ويمكننا ان نلخص القاعدة هكذا: حين تتطلب التمثيل انتخب، وحين تتطلب المهارة والاختيار عين.

ب ــ كفاءة الموظفين : يخشى كثيرا، عندما تصبح الآلة الحكومية كبيرة ومعقدة، ان يصبح الموظفون في مختلف الدوائر قليلي الكفاءة. واسباب ذلك كثيرة جداً منها سوء تنظيم الدوائر، وسوء الادارة، والتراخي في التفتيش والمراقبة وعدم التعاون بين مختلف الدوائر، وعدم الرغبة وفقدان الاندفاع عند الموظفين. ومن اكبر عيوب هذه الاخيرة « نظام الغنائم » الذي يمكننا ان نصفه بما يلي: عندما يأتي حزب سياسي الى الحكم يبدل عادةً موظفي الحزب المغلوب بموظفين جدد من حزبه ليكافأهم بذلك على خدماتهم في سبيل الحزب. ولا يخفى ما يلحق تبديل

الموظفين واخضاعهم للحزبيات السياسية، من الضرر في استقرار الآلة الحكومية واستقامة سيرها .

وربما كانت اكبر عقبة في طريق كفاءة الآلة الحكومية هي عدم التعاون بين دوائر الحكومة . فكثيراً ما يؤدي عدم هذا التعاون الى تأخير اتمام معاملات الناس . فكم من معاملة في الدوائر استغرقت وقتاً طويلاً لا يمكن تقصيره الا بالرشوة او بتدخل ذوي النفوذ، وفي هذا ما فيه من تشجيع المحسوبية وافساد ضمائر الموظفين والشعب معاً .

جـ ـ امانة الموظفين : في الوظائف الحكومية، كما في الوظائف التجارية، فرص كثيرة لسوء الائتمان . وليس هنالك، لسوء الحظ، من حكومة خالية من هذا العيب . بيد ان جميع الحكومات تسعى صادقة لتقليل سوء الائتمان بين موظفيها بقدر مستطاعها . إن الفقر من اهم اسباب الاجرام، فاذا كان راتب الموظف قليلاً كانت التجربة للسرقة او سوء الائتمان كبيرة، لذلك رأت حكومات كثيرة، وطنية وبلدية، انه من صالحها ان تدفع اجوراً عالية لموظفيها كي لا يبقى هؤلاء تحت رحمة تجربة السرقة التي تخسر الخزينة من ورائها سنوياً اضعاف ما تدفعه الحكومة للموظفين اذا ما رفعت رواتبهم .

ومما يساعد ايضاً على رفع مستوى الامانة بين الموظفين الى درجة رفيعة، هو التشديد على الناحية الاخلاقية، والتفتيش الدائم والتدقيق في حسابات الدائرة الحكومية وميزانيتها . الا أن هذا التفتيش يجب ألا يكون مبالغاً فيه .

مشاكل الميزانية

ان نفقات الحكومة كثيرة، وموارد الدخل محدودة، ولا سيما في حالات استثنائية كالحروب والمجاعات والفيضانات، وما اشبه ذلك من النكبات والويلات التي تكلف نفقات باهظة .

أما موارد الدخل، فتحصل من جباية الضرائب . ولفرض هذه الضرائب

أسس مختلفة، فما هي هذه الاسس في العصر الحاضر ؟

منذ قرن ونصف القرن وضع آدم سمث وهو اقتصادي شهير، اربعة اسس للضرائب، نذكرها فيما يلي باختصار :

١ – يجب قدر المستطاع ان تفرض الضرائب على الناس بنسبة قابليتهم على تحملها .

٢ – يجب ان تكون جميع الضرائب معينة مقررة لا استبدادية عرفية .

٣ – يجب ان تجبى الضرائب بالطرق والاوقات التي تسبب اقل ازعاج ممكن للشعب .

٤ – يجب ان تنظم الضرائب بحيث لا تكلف الشعب الا ما هو ضروري لخزينة الدولة .

وتعني هذه الاسس الاربعة ان الضرائب يجب ان تكون نسبية ومعينة، وملائمة وان تبلغ ادنى حد ممكن .

اما الضرائب المختلفة التي ابتدعتها الدول وبنتها على هذه القوانين الاربعة فهي الآتية : ضريبة الملك وتوضع على جميع الممتلكات الحقيقية والشخصية، وضريبة الدخل التي تفرض على كل انواع الدخل بعد اجتياز حد معين، وضريبة الكماليات ووسائل التسلية، وضريبة الارث، وضريبة البيع، وضريبة الشركات المساهمة العامة، وضريبة الاجازات والرخص، وماسوى ذلك من الضرائب العرضية التي تختلف باختلاف المكان والزمان .

وتثير هذه الضرائب المتنوعة كثيراً من المسائل الجدلية كالاتية مثلاً : هل تفرض الضرائب على المرء بالنسبة الى دخله ؟ ام تفرض الضرائب على الجميع بالسواء ما دام نصيب كل منهم من خدمات الحكومة متساوياً ؟ ان الخوض ببحث هذه المسائل يتطلب تفهماً عميقاً للعلوم السياسية والاقتصادية . وقد اتينا على معالجتها بقدر ما يسمح به المجال في فصل سابق من هذا الكتاب .

ثم ان هنالك موارد اخرى للدخل، لم يتناولها بحثنا في الفصل السابق، كضريبة

التوريد والتصدير وضريبة البريد، وبدل المنافع العامة وتأجيرها .

هذا فيما يتعلق بالدخل ، اما فيما يتعلق بالنفقات فهناك عدة انواع اهمها ما ينفق على الامور الآتية : التعليم العام، فوائد ديون الحكومة او البلدية، الشرطة، الطرقات والاشغال العامة، الاطفائية، الجيش، البحرية، وزارة الخارجية، الاعمال الخيرية، المستشفيات، الحكومة العامة، وسائل التسلية والملاهي العامة، الابنية العامة، التماثيل والحدائق العامة، ومصلحة البريد. ان هذه النفقات واجبة على كل حكومة ترغب في ان ترعى مصالح الشعب رعاية صحيحة وان توطد اركانها على اساس متين .

مشاكل الانتخاب

ان انتخاب موظف او زعيم بين جماعة قليلة من الناس امر بسيط جداً، ولكن نظام الانتخاب في الجماعات الكبيرة كثير التعقيد، فالالوف المؤلفة من المواطنين يودّون أن يشتركوا بالانتخاب، فكيف يعرفون مرشحيهم وميولهم السياسية؟ ثم ما هو النظام الذي يجدر بهم ان يتمشوا عليه في هذا الانتخاب ؟

ولمجابهة هذه المشكلة، نشأت في الشعوب المتحضرة فكرة الاحزاب السياسية . والاحزاب السياسية هذه، كانت بادىء الامر ترتكز حول المبادىء، ولكنها في الواقع تدور حول الاشخاص . والحزب السياسي هو جماعة منظمة من المواطنين يعملون معاً كوحدة سياسية في سبيل تطبيق مبادىء يجمعون على اعتناقها، عن طريق السيطرة على الحكم . وتكون هذه السيطرة، في البلدان الديمقراطية، بواسطة الانتخاب . فعندما يحين موعد الانتخاب نرى هذه الاحزاب السياسية تعلن عن مناهجها وتسمي مرشحيها، وتتوسل بجميع وسائل الدعاية لكسب اكبر عدد ممكن من اصوات الناخبين .

اما قوانين الانتخاب، فتختلف باختلاف البلدان، ففي الولايات المتحدة مثلاً يحق لكل مواطن يستوفي الشروط، رجلاً كان أو امرأة ، ان يشترك في الاقتراع . وكذلك في انكلترا وفرنسا . وفي الشرق العربي يحصر حق الانتخاب بالرجل دون

المرأة. وتقوم طريقة الانتخاب في البلدان الديمقراطية على تقسيم البلاد تقسيما جغرافيا، وهذا يكون إما على اساس القضاء، واما على اساس المحافظة كما هي الحال في لبنان. وقد تكون على درجة واحدة كما في لبنان، او على درجتين كما في سوريا مثلاً. ويجري الانتخاب في بعض البلدان طائفياً كما في سوريا ولبنان مثلاً، أو مهنياً كما كان في ايطاليا الفاشستية.

ومهما يكن من أمر، فالانتخاب يتضمن مشاكل عامة كالاقتراع السري، وعد الاوراق مباشرة عند فتح الصناديق، وعدها مرة ثانية للتثبت من حصتها، ومراقبة الانتخاب. ولمجابهة هذه المشاكل ينبغي أن تكون الحكومة من الشعب، وبواسطة الشعب، ولاجل الشعب.

الفصل الخامس عشر

القانون والاجرام

ان غرضنا من هذا الفصل هو ان نشرح كيفية سن القوانين وكيفية مخالفتها مع درس الدوائر الحكومية المتعلقة بها كدوائر الشرطة والسجون المحاكم .

لم يكن هنالك شرائع وقوانين في العصور الابتدائية الاولى قبل ان ينتظم المجتمع في وحدة ذات قوانين وانظمة تحكمه وتضبطه، بل كانت هنالك عادات متوارثه وتقاليد متبعة منذ القدم اومن بانها من مصدر آلهي، ثم تحولت فيما بعد الى شرائع وقوانين. وتعرف الشريعة في الموسوعة بأنها « بالنسبة الى الحكومة هي مجموعة من القوانين التي وضعت لتوفق بين سلوك الفرد وسلوك رفاقه في المجتمع، هدفها ان توجه اعمال الفرد الضرورية لمصلحة المجموع . » وبأنها « تعبر عن رغبة الدولة ». ويصبح التعريفان واحدا عندما تراعي الحكومة مصالح الشعب باجمعه .

سن القوانين

ما هي الهيئة التي تسن القوانين في الدولة، وما هي الاسس التي يجب ان توضع عليها القوانين ؟ لقد نشأ القانون كما ذكرنا اعلاه، من العادات والتقاليد، وعليها قامت الشريعة في مختلف بلدان العالم. على ان هنالك بعض الفروع الاساسية للشريعة التي بنيت عليها جميع القوانين .

واهم هذه الفروع ثلاثة : أولا — القانون العام، وهو الذي يستمد من السابقات والتقاليد والعادات . ثانياً — قانون المساواة والعدل، وهو الذي يستمد من مفهوم القضاة للعدالة فيما اذا كانت القضايا المعروضة عليهم لا تستند الى اية سابقة او تقليد

أو عادة. وثالثاً — الشرع أو السنة، وهذه قوانين كتبت ووافقت عليها هيئة تشريعية او سلطة ادارية: فالدساتير، ومجموعة القوانين، والمراسيم الحكومية، والاوامر البلدية، جميعها امثلة على هذا الفرع من الشريعة. وفي الشرق العربي يرتكز النظام التشريعي في الدرجة الاولى الى الشريعة العثمانية، الا ان قسماً كبيرا من القوانين التركية التي كانت مرعية في هذا الشرق قد تبدلت، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى، وحلت محلها قوانين اخرى تجاري مقتضى الحال في كل من بلدان الشرق العربي.

وتختلف مصادر القوانين التشريعية باختلاف البلدان: فهي في الجمهورية اللبنانية مجلس النواب ورئيس الجمهورية؛ وكذلك في سوريا ايضا؛ اما في فلسطين فهي المندوب السامي والمجالس البلدية، وفي العراق البرلمان والملك، وفي مصر كذلك. ولكل من هذه المصادر، في مختلف البلدان المذكورة اعلاه، سلطة قضائية خاصة، او نوع خاص من القوانين التي تستطيع سنها. ففي لبنان مثلا تستطيع المجالس البلدية ان تضع الانظمة المحلية، ويضع القوانين العامة مجلس النواب بعد موافقة رئيس الجمهورية عليها.

ويمكننا ان نصنف جميع القوانين تحت بابين نسميها فنيا: ذاتية وموضوعية. فالقوانين الذاتية تبين العلاقات الطبيعية بين الفرد والدولة وبينه وبين الافراد الآخرين. والقوانين الموضوعية تهتم بمخالفات النظام وارتكاب الجرائم. على ان هذين الصنفين من القوانين كثيراً ما يتداخلان لان كليهما يستهدفان حماية المجتمع.

الاجرام — مخالفة القانون

نعرف الجريمة بكونها مخالفة القانون. فهي، اذن، القيام بعمل ضد الاخلاق او المصلحة العامة. اما في العصور القديمة فقد كانت تعتبر ضد الافراد، فالسارق يعتبر كأنه اذنب الى المسروق وكان للمسروق الحق في ان يحصّل حقه بنفسه، ولكنه بتطور المجتمع وتنظيمه نشأ الاعتقاد بانه من صالح المجتمع بكامله ان يمنع

الاعتداء، وان الاعتداء ضد الفرد هو في الحقيقة ضد المجموع بكامله. وقد اتسعت هذه النظرة في القانون اليوم واصبحت عالمية بحيث ان اعتداء امة على امة اخرى قد يزج امماً كثيرة في حرب ضروس . وهكذا نجد ان المجتمع قد اخذ على عاتقه سن القوانين لحماية حقوق الافراد ولمعاقبتهم عند مخالفة هذه القوانين .

تصنيف الجرائم

لقد صنفت جميع الجرائم في عهد ما تحت ثلاثة اصناف رئيسية : الخيانة، والجناية، والجنحة . فالخيانة هي اية محاولة لقلب الحكم بالثورة او غيرها، والجناية هي التعدي على الاشخاص او الممتلكات كالقتل والسرقة، والجنحة هي جميع المخالفات الاخرى الاقل شأناً . اما اليوم فتصنف الجرائم تصنيفاً افضل وادق كالتصنيف الآتي مثلا :

(ا) الاخلال بالنظام والامن العام، كالخيانة والثورة او اية معارضة للقائمين على تنفيذ القانون .

(ب) الاخلال بالاخلاق والصحة العامة، كالزنى وبيع المخدرات او تلويث المياه العامة .

(ج) التعدي على الافراد، كالقتل عمداً او القتل بغير عمد او الاغتيال .

(د) التعدي على الملك، كالسرقة والسلب والتزوير .

ولا تشتمل هذه القائمة على الاخلال بالعقود والقذف بالاخرين والعجز عن دفع الديون، ذلك لان هذه ليست جرائم بل هي عيوب اجتماعية، وتعتبر موجهة ضد الفرد لا ضد المجموع .

اسباب الجرائم

لكل جريمة ترتكب سبب ما، وهذه الاسباب فردية واجتماعية . فقد يرتكب المرء الجريمة لنقص في عقله او في اخلاقه، وقد يرتكبها لنقص في تربيته البيتية، او لتأثره منذ الصغر بنزوة العصيان والتمرد، او لانطباعه على الشذوذ في العلاقات

الجنسية وعلى العواطف الرديئة كالحقد والغضب . وتعتبر هذه اسباب فردية للاجرام . اما الاسباب الاجتماعية فقد تشتمل على الفقر او المعاشرة الفاسدة، او المؤثرات المحيطية غير المرغوب فيها، او عدم كفاءة الشرطة في تنفيذ القانون . وفيما يتعلق بالشرق العربي، فان الاسباب الرئيسية للاجرام هي، على الغالب، الفقر والعداوات العائلية التي اخذت تدريجاً بالزوال كلما ازدادت ثقة الناس بعدالة القانون ونزاهة المحاكم التي تحكم البلاد .

ولقد كانت الشعوب الابتدائية تنظر الى العقاب كوسيلة للانتقام او الثأر، ولكن هذه الفكرة تغيرت بتقدم المدنية، وحلت محلها فكرة النظر الى العقاب كوسيلة لانذار الآخرين وتحذيرهم من ارتكاب مثل تلك الجرائم التي ارتكبها المعاقبون . وفي كلا النظرتين كان الشعور السائد بان العقاب يجب ان يكون شديداً، فكان الحكم بالموت يأتي قبل جميع العقوبات الاخرى ولا يزال حتى الان، رغم ما عليه من قيود بالنسبة الى الماضي . فكان السارق في انكلترا، لقرن مضى فقط، يعدم اذا سرق كمية قليلة من الدراهم، كما كان يسجن من يعجز عن دفع ديونه مدة طويلة ولا ريب في ان هذه النظرة في العقاب كانت سخيفة اذ كيف يستطيع السجين ان يكسب المال ليسد ديونه التي كانت سبباً في سجنه ؟

وقد توصل الرأي العام الى الاعتقاد بان التأكد من اظهار الجرم واجراء العقاب هو افضل من الشدة، في المحافظة على القانون . ولما كان الهدف الرئيسي للعقاب ليس انزال غضب المجتمع على المجرم وليس اصلاحه (رغم ان هذا هدف عرضي) بل حماية الشعب من الجرائم، فليس من الضروري ان يكون العقاب شديداً أكثر مما هو ضروري لتحقيق غرضه . لذلك كان في العقاب تدرُّج، وكل درجة تناسب مقدار ما يكون في الجرم من تهديد لمصالح المجتمع . فاذا عوقب القتل عمداً اشد مما يعاقب القتل عن غير عمد، فليس ذلك لان المقتول عمدا يتألم اكثر من الاخر، فكلاهما خسرا الحياة ولا يستطيع العقاب ان يرجعها لهما . وليس قبح الجريمة او فظاعتها ما يجعلها خطرة، بل درجة الخطر الناشىء عنها على المجتمع بكامله، هي التي تقرر خطورتها .

انها والحق يقال دولة خيالية « يوتوبيا » تلك التي يطيع جميع ابنائها العادات والعرف والانظمة والقوانين دون ان يجبروا على ذلك . ان دولة كهذه لم توجد مع الاسف بعد، ويرجح انها لن توجد لان الافراد كثيرا ما يرغبون في ان يحققوا شهواتهم ومطامعهم دون ما نظر الى مصالح الغير او مصالح الدولة . هذه هي الطبيعة البشرية، ولاجل ذلك كان على كل دولة ان تعد وسائل نظامية لتنفيذ القانون، فاوجدت اربع وسائل : الشرطة، والمحاكم، والسجون، والرأي العام.

١ ــ الشرطة. ليست عادة اقامة هيئة من رجال الشرطة المهنيين بالملابس الرسمية للمحافظة على النظام والقانون في المدن، الا وليدة قرن واحد فقط. فقد كانت المحافظة على الحياة والممتلكات حتى القرن التاسع عشر، موكولة الى شرطة او حراس غير مدربين او الى فصائل من الجنود. وقد كانت لندن اول مدينة ادخلت عام ١٨٢٩، قوة الشرطة النظامية. وقد قوبل عملها هذا بمعارضة شديدة من الشعب لان الشعب اعتبره خطوة في سبيل الظلم والاستبداد. ومع ذلك فقد برهنت الشرطة النظامية على انها افضل، في حراسة النظام والقانون، من اية شرطة غير مدربة ترتدي ملابس المدنيين، فنسجت جميع المدن على منوال مدينة لندن الى ان اصبح اليوم نظام الشرطة عاماً شاملاً جميع مدن العالم.

وهكذا نشأ نظام تدريب رجال الشرطة قبل ان يصبحوا اهلا للخدمة. وتتطلب المدن في بعض البلدان كانكلترا مثلا تدريبا شديدا ومستوى رفيعاً من التحصيل المدرسي قبل ان يصبح المرشحون لائقين بالوظيفة. ولاجل التمثيل على ذلك خذ مدرسة تدريب الشرطة في فلسطين التي يحتوي منهاج التدريس فيها على تمارين رياضية، وعلى اطلاق البنادق، وقانون الاجرام والادلة والمحاكمة، وواجبات الشرطي العامة كالاسعاف الاولى والمصارعة الانكليزية واليابانية، وقوانين بلاده ونظام السير فيها، وكيفية التحقيق من الجرائم البسيطة او الجنحات التي تقع اثناء قيامه بواجبه، واخيراً معرفة حقوقه وماذا يجب ان يصنع عند توقيف

احد المجرمين او المخالفين .

ان واجبات الشرطي اكثر مما يتبادر الى الذهن، فهو يتجول في شوارع المدينة محافظة على الامن، كما تجوب رجال الدرك الجبال والقرى لالقاء القبض على مخالفي القانون وللمحافظة على المواطنين من اي تعد. ومن واجبه ان ينفذ القانون دائماً لذلك تراه مضطرا الى ان يفتش مخازن اللحامين ومجاري الاقذار واماكن توليد الحشرات ليتحقق من ان الانظمة الصحية البلدية مرعية. وعليه ايضا ان يجد المجرم وان يلقي القبض عليه ويحضره الى المحكمة. وتتخصص عادة فرقة من قوة الشرطة في المدينة للقيام بالتحري لمعرفة المجرمين والسارقين الذين قاموا بالجرائم والسرقات التي رفعت الى الدوائر المختصة، ثم لمراقبة سير محاكمة المتهمين امام المحاكم .

ثم يجب ان يراقب الشرطي السير محافظة على السلامة العامة وليس عليه ان يراقب ذلك في منعرجات الطرق والشوارع بل في الطرقات المتفرعة في المدينة حيث يجب تطبيق القانون المتعلق بنظام السرعة . ان جميع هذه الواجبات المترتبة على الشرطة ناتجة عن نمو المدن وازدياد القوانين التشريعية، لان القوانين الجديدة تخلق وظائف جديدة، اذ عندما يعين مفتشون لتنفيذ القوانين الجديدة تقع مسؤولية تنفيذها على عاتق الشرطة، فتجد هذه نفسها مثقلة بواجبات كثيرة .

٢ ــ المحاكم . لما كان الشرطي ليس سوى وسيلة لتنفيذ القانون وليست له سلطة ليحكم او يدين المواطنين، فمن الضروري ان توجد مؤسسة للعدل يسمع فيها صوت المتهم، وهذه المؤسسة هي المحاكم، التي نستطيع ان نعرفها بكونها لجان لتفسير القانون وتنفيذه ولحماية حقوق المجتمع وحقوق الفرد . وتنزل هذه المحاكم، عملاً بالقوانين الدستورية، العقوبات بالمجرمين ضد المجتمع، اي ضد كل ما يهدد مصالح الافراد وحقوقهم .

والمحاكم على انواع، وللتدليل عليها لنأخذ فلسطين أيضاً كمثال عن الوحدات الحكومية في الشرق العربي . ان محاكم فلسطين تنقسم الى قسمين : محاكم مدنية،

ومحاكم دينية . اما المحاكم الدينية فتكون محاكم اسلامية او غير اسلامية، فالاسلامية تتكون من المحاكم الشرعية وقد اوجدت ايام الحكومة التركية ولا تزال بعد الاحتلال البريطاني . ثم هنالك المفتي ومحكمة استئناف شرعية ومركزها القدس، وتنحصر سلطة المحاكم الشرعية في « الشؤون الشخصية » و « الاوقاف » وتعالج بالاضافة الى ذلك كثيراً من الاعمال غير الجدلية، وتشمل واجبات المفتي اصدار الفتاوي التي هي بمثابة احكام بالشريعة الاسلامية، وتستأنف المحاكم الشرعية دعاويها الى محكمة الاستئناف الاسلامية .

اما المحاكم الدينية غير الاسلامية فهي المحاكم المسيحية واليهودية، وتتعلق سلطتها في شؤون الزواج والطلاق والنفقة والارث وكل ما يتعلق « بالوقف » الذي اوقف في محكمة دينية بحسب القانون الديني المتعلق بالشعب المختص . ولليهود في المدن والقرى محاكم الحاخاميين . ومحكمة الاستئناف عندهم هي « مجلس الحاخاميين » الذي تعترف به الحكومة بوصفه السلطة الحاخامية الوحيدة .

وتشتمل المحاكم المدنية على : المحاكم الصلحية، والمحاكم البدائية، ودوائر الاجراء، والمحاكم البلدية، ومحاكم الاستئناف، ودوائر الاستنطاق والتحقيق والادعاء العام، ومحاكم الجنايات، ومحكمة التمييز العليا . وتتناول المحاكم الصلحية القضايا البسيطة اولاً، فتصدر احكامها بشأنها . وقد جرت العادة ان يكون حاكم الصلح دائماً فلسطينياً . وتقع جميع القضايا المدنية الخارجة عن سلطة القاضي، وجميع الجرائم ما عد التي تعاقب بالاعدام، تحت سلطة المحاكم البدائية . وتعالج دوائر الاجراء جميع القضايا التي تتعلق بملكية الاراضي . وتعالج المحاكم البلدية النزاع الذي لا تزيد اقصى عقوباته على الجزاء بخمس ليرات فلسطينية والسجن لمدة ١٥ يوماً .

ويمنح المدعون العموميون سلطات قضائية لمن يشاؤون من المندوبين والمأمورين في الاقضية، يستطيعون بواسطتها ان يحاكموا المخالفات البسيطة، كما ان بعض القضايا البسيطة تحاكم في بعض نواحي فلسطين من قبل محكمة شيوخ القرى، وذلك بترتيب خاص . وتحاكم محكمة الجنايات الجرائم التي يعاقب عليها بالموت . اما المحكمة

العليا فهي اعلى المحاكم في فلسطين وتتفرع الى فرعين : محكمة للاستئناف ومحكمة للتمييز. وتستطيع المحكمة العليا ان تستأنف قضاياها الى اللجنة القضائية في المجلس الملكي الخاص . (Privy Council)

ان هذا النظام المعقد ضروري بالنسبة الى كثرة العوامل الدينية والسياسية المختلفة في بلاد كفلسطين. فقد يطلب احد الاجانب في فلسطين ان يحاكم على يد قاض انكليزي او في محكمة اغلبية اعضائها من الانكليز، اذا كانت القضية التي يحاكم من اجلها هامة .

ان الحكومة، كما نرى، توزع العدل بين الناس بواسطة المحاكم، لذلك كان لزاما على المحاكم ان تنظر في جميع القضايا نظرة عادلة. على انه ثبت، لسوء الحظ، ان المحاكم لا تعدل دائما بسبب الرشوة او التحيز او التهديد، فلاجل ذلك انشئت هذه السلسلة الطويلة المعقدة من الاستئناف والرجوع الى محاكم عليا كافية لاعادة النظر. ان رشوة القاضي او اعضاء المحكمة جريمة معروفة في كل البلدان، وكما تعتمد الحكومة على امانة رجال شرطتها واخلاصهم، ترجو ايضا ان يبلغ موظفو محاكمها قمة الاخلاص والصدق والشرف، اذ بدون هذه الصفات لا تستطيع المحكمة ان تعدل.

وهنالك نوع من الاحكام، هو الوضع تحت المراقبة او التجربة، وهذا يعني امتحان المذنب امتحانا ادبيا بعد ان ثبتت ادانته في جنحة او جرم بسيط. هذه طريقه حديثة في معالجة المذنبين خاصة اذا اذنبوا لاول مرة، فبدلا من ان يزجوا في غياهب السجون يوضعون تحت التجربة مدة معينة يعلنون اثناءها الى السلطات المختصة عن مقر وجودهم وعن حركاتهم. ويعين لهذه الغاية موظفون خصوصيون يلتحقون بالمحكمة ليراقبوا هؤلاء. فاذا اخل المراقب بواجباته او ارتكب جريمة اخرى يسجن عندئذ. ويعتقد الثقاة الحديثون ان مدة التجربة هذه تفسح المجال للمجرم ليصلح نفسه قبل ان يصبح مجرما جلفا يقضي السنين الطويلة في السجن. وقد برهنت هذه الطريقة على انها ناجحة في كثير من بلدان العالم .

٣ ـ السجون. ان تاريخ السجون في اي بلد من بلدان العالم يؤلف قصة يهلع لهولها

قلب كل من يطلع عليها . لقد كان الاعتقاد قديما ان السجين شخص خطر غير مرغوب فيه يجب ان يزج في غياهب السجون بقساوة تطبع في نفسه نتائج جرمه السيئة . وقد كانت جزيرة الشيطان، وهي جزيرة افرنسية ،حتى حديثا، مثالا على القساوة والشدة اللتين يعامل بهما السجين . اما الان فقد اقر العالم اصلاحات عامة للسجون فتحسنت احوالها كثيرا، وتقوم هذه الاصلاحات على ثلاثة مبادىء اساسية كانت نتيجة اختبار قرون طويلة . نثبتها فيما يلي :

لقد كتب جون هاورد، وهو محسن انكليزي ، وصفا لحالة سجون الدولة في القسم الاخير من القرن الثامن عشر، اثار فيه الشعب الى الاصلاح . وقد انتهج خطة للسجون، خاصة السجون الاصلاحية، اقترح فيها ان يجعل المساجين في غرف منفصلة، اذ كان يرجو ان يصلح المساجين بواسطة هذه العزلة والانفراد . ولم يكن قبل ذلك التاريخ من تمييز بين السجن والاصلاحيات، فكانت فكرة اصلاح المجرم بدعة حقيقية . اما اليوم فهدف السجن هو الاصلاح لا العقاب، واننا نعلم المساجين بدلا من ان نشدد عليهم، ولا نرجو ان نجعلهم مساجين صالحين فحسب بل مواطنين صالحين ايضا .

لقد اخذ مبدأ عزل السجين بالاضمحلال تدريجيا، فانه لمن الصعب ان نتصور حالة العزلة المرعبة ، خاصة حين يكون السجن مظلما ردىء التهوية لا يرى السجين فيه الا الحارس الذي يحرم عليه التحدث اليه . ان معاملة كهذه كثيرا ما سببت جنون المساجين بدلا من ان تحسن حالهم . واذن، فمن الافضل ان نعامل المساجين على غير مبدأ العزلة، فنسمح لهم بشيء من العلاقات الاجتماعية مع بعضهم البعض، نعلمهم مهنة او صنعة مفيدة اذا امكن ذلك .

وعلى هذا الاساس انشئت معامل السجون حيث تمكن المساجين من القيام بعمل مثمر، فاثبتوا انهم اهل لان يعول عليهم . وتشتمل السجون الحديثة في الولايات المتحدة على تسهيلات اخرى غير المعامل، ففيها الملاعب والمكاتب وقاعات الاجتماع حيث يستمع المساجين الى الحفلات الدينية والخطب وما الى

ذلك. اما السجناء الذين تدل سجلاتهم على سلوك حسن فيمنحون امتيازات تزيد من حريتهم في التنقل وفي المناقشة ويتركون عادة على شرفهم. ويسمى هؤلاء «الامناء»، وقد دل الاختبار على ان قليلين منهم لم يكونوا عند الثقة الممنوحة لهم.

اما الشرق العربي فلا يزال امامه مجال كبير لاصلاح سجونه. فهنالك في فلسطين مثلا سجن مركزي واحد في القدس وآخر في عكا، ويقيم في هذين السجنين كل من حكم عليه بالسجن لمدة تزيد على خمس سنوات، والمحكومون الذين لا يصلحون للاشغال الشاقة. وجميع ملابس المساجين واحذيتهم هي من صنع ايديهم. فالحياكة والنجارة وصنع الاحذية والحدادة، هي صناعات تقوم على المساجين في السجون المركزية. اما المساجين الذين يحكم عليهم بأقل من ثلاثة اشهر فيحفظون في سجون الشرطة.

ومن السجون التي ادخلت عليها بعض الاصلاحات في الجمهورية اللبنانية هو سجن الرمل في بيروت، حيث يوضع المساجين الصغار في غرفة منفردة وليس مع المجرمين واللصوص الكبار، ثم يعلمون اللغة العربية. وقد تحسنت ايضا الاحوال الصحية، فيسمح للمساجين ان يستحموا بالماء الحار والماء البارد مرة في الاسبوع، كما ادخلت بعض الصناعات النافعة. على ان كل ذلك لا يكفي، ولا يزال المجال واسعاً للتحسين.

ان الامور الاساسية لاصلاح السجون هي، باختصار، كما يلي:

اولا — تصنيف المساجين وجعل كل صنف في مؤسسة خاصة بدلا من ان يجمعوا في سجن واحد. فبعضهم مجرمون قدماء يصعب اصلاحهم، وبعضهم مستجدون يمكن اصلاحهم وجعلهم مواطنين صالحين اذا فصلوا عن المساجين الاخرين. كما ان بعضهم ضعفاء العقول فيجب وضعهم في مؤسسة خاصة.

ثانياً — الفصل بين المجرمين الاحداث وبين المصابين بضعف العقل. إن في وضع الاحداث مع المجرمين الكبار في سجن واحد، خطراً كبيراً لما يلحق الاولين من

المساوى، فالمساجين الاحداث والمصابون بضعف عقلي هم بحاجة الى العناية بهم في اماكن منفردة وتحت ادارة اناس مدربين يعرفون العلاج الذي يأتي بافضل النتائج.

ثالثاً – ان ادخال عامل الانسانية في ضبط المساجين بادرة مهمة جدا في معاملتهم. فالمساجين – وان ارتكبوا جرائم خطرة – يجب ان يعاملوا كبشر، فيعطون الطعام الملائم والنور والتهوئة الكافيين، والفرصة المناسبة لحفظ صحتهم العقلية والجسدية. واذا ما تم ذلك ارتفع مستوى معنوياتهم ارتفاعاً عظيماً، خاصة في الشرق العربي حيث يعتمد المساجين على عائلاتهم واصحابهم ليحملوا اليهم ضروريات العيش من اكل وملبس.

ويجدر بنا قبل الانتهاء من الكلام عن السجون ان نذكر شيئاً عن نظام اخلاء السبيل. لقد ادخلت تحسينات كثيرة على الطرق الاصلاحية باستخدام انواع من العقوبات غير محدودة وباستخدام طرق اخلاء السبيل بكفالة. ونعني باخلاء السبيل ترك السجين على شرفه. وقد وجدت السلطات ان احسن طريقة لتقوية شرف السجين وتحسينه هي ان يثقوا به. وقد كانت الخطة القديمة ان يعاقب كل سجين بالسجن لمدة معينة، فيقضيها السجين كاملة بصرف النظر عن سلوكه. اما هذه الخطة فقد ألغيت الآن، واستبدلت بعقوبات غير محدودة كقولنا مثلا: مدة لا تقل عن سنتين ولا تزيد عن خمس سنوات – بحيث يفسح المجال لاطلاق سراح السجين قبل المدة المعينة، اذا سلك سلوكا حسناً. ان هذه الطريقة ضرورية جدا خاصة بين الاحداث الذين يرسلون الى الاصلاحيات، كما انها تستخدم لتشجيع المجرمين الكبار على السلوك الحسن والاصلاح. ويستطيع رجال السجن، حيث يطبق هذا النظام، ان يطلقوا سراح المساجين قبل ان تنتهي مدة سجنهم على شرط ان يتعهدوا بأن لا يأتوا بما يعكر صفو المجتمع. فاذا ما اخلّوا بذلك، يلزمون باكمال مدة سجنهم وربما سجنوا مدة اطول ايضاً. اما الاعتقاد العام بهذا النظام فهو انه يجعل السجين يرغب حقاً في ان يسلك سلوكا جيداً كمواطن صالح، ويرجى بذلك ان يقل عدد المساجين المحكومين والذين يدخلون السجون كل سنة.

وبعد، فانه ما دام الرأي العام جاهلاً باحوال السجون، فالامل ضعيف بوضع

التشريع الضروري لاصلاح السجون . ان افضل طريقة للاصلاح هي باثارة الرأي العام حول الموضوع المرجو اصلاحه، فللجرائد والراديوات والقصص والسينمات الخ اثر كبير على الرأي العام. وتقوم هذه الوسائل اليوم بالاعلان عن الاحوال غير المرضية كي تثير الرأي على اصلاحها الحقيقي . وكما اثارت روايات « دكنز » في اواسط القرن الاخير الرأي العام حول احوال الفقراء وحالة المدارس المحزنة، هكذا ايضاً تثير الوسائل الحديثة، الرأي العام، حول تحسين احوال السجون واصلاحها .

الفصل السادس عشر

الاصول البرلمانية

ان الغرض من هذا الفصل تدريب الطالب على الطرق التي تتبعها الجماعات الديمقراطية في ادارة النقاش بانتظام للتوصل الى القرارات الجماعية. وهذا ضروري لاعداد المواطنين الذين يصلحون للنظم الجمهورية والحكم الذاتي.

لنفترض ان جماعة من الافراد اجتمعوا في صبيحة احد الايام ليقرروا امراً ما، ولنفترض ان القرار كان اصدار مجلة شهرية، فهنالك طريقتان لاتخاذ مثل هذا القرار: طريقة نظامية، وطريقة غير نظامية.

وربما خبر كثيرون منكم الطريقة الثانية، ففيها يناقض عادة الواحد الاخر ثم تتهيج العواطف، وتلوح الايدي في الفضاء، ويعم الغرفة الهياج ويدوي فيها صراخ الغضب، وقد يشتبك الاعضاء احيانا بعراك عنيف. فتصبح الجماعة جمهوراً متعاركا يدوس على الاحترام والنظام والقوانين.

وليس من الضروري ان يكون اعضاء جماعة من هذا النوع من الاغبياء والاشرار، بل على العكس فهم في الغالب اذكياء ولكنهم في تلك اللحظة قد اضاعوا قواهم الفكرية فعمدوا الى هذا السلوك الفاسد وانغمسوا في انانية قضت على صبرهم وتساهلهم وشكلت خطرا على البحث والنقاش. ويتفرق عادة اعضاء جماعة كهذه دون ان يتوصلوا الى قرار مرض.

اما الطريقة النظامية لتسيير الاعمال، فهي تلك التي سنعرضها عرضاً بسيطاً في هذا الفصل، وهي مبنية على مجموعة من القوانين تسمى عادة القوانين البرلمانية لحفظ

النظام. وقد نشأت هـذه القوانين، بالاختبار، تلبية لشعور الجماعات المفكرة بضرورتها لادارة الاعمال بعدل وانتظام.

وبموجب هذه القوانين تتم القرارات، عادة، بالاكثرية، وعلى الاقلية ان تخضع له وان تعمل باخلاص على تأييده. كما انه من واجب الاكثرية ان تبذل جهداً صادقاً لتأخذ بعين الاعتبار مصالح الاقلية الذين اقترعوا ضدهم. وهذا هو الحل الوحيد للتوصل الى العدل، وهو مبدأ هام من مبادىء الديمقراطية.

كيف نسيّر جمعية نظامية اعمالها

لنفترض ان جمعية تألفت وانتخب لهـا رئيس وكاتم سر وباقي الموظفين؛ فواجب الرئيس ان يترأس الاجتماعات ويدير اعمال الجمعية اثناء اجتماعاتها. اما كاتم السر فيحفظ سجلاً بما قامت به الجمعية من اعمال اثناء اجتماعاتها، ويسمى هذا السجل بالوقائع، ويشتمل عادة عـلى القرارات والاستدعاءات وغيرها من الاعمال الهامة التي تنجز في كل اجتماع.

ولكي تتم اعمال الجمعية بكفاءة يجب ان تقدم هـذه الاعمال بشكل استدعاء، وتقدم الاستدعاءات عادة شفويا الا المهم منها فيجب ان يكتب.

وعندما يرغب احد اعضاء الجمعية ان يقدم استدعاء عليه ان يقف ويخاطب الرئيس بقوله: «حضرة الرئيس» فيجيبه الرئيس بقوله: «حضرة العضو فلان». فيصبح للعضو عندئذ الحق بالكلام دون ان يقاطعه احد (الا في ظروف خاصة). فيقدم استدعاءه ثم يثني عليه احد الاعضاء بقوله: «اثني على ذلك» دون ان يخاطب الرئيس اي دون ان يسبق التثنية بقوله: «حضرة الرئيس». اما اذا لم يثن احد على الاستدعاء فيقول الرئيس: «لقد سقط الاستدعاء لعدم التثنية عليه.»

ومن البديهي ان تكون اكثر الاستدعاءات قابلة للبحث والمناقشة اي ان لاعضاء الجمعية الحق في ان يناقشوا الاستدعاء، فاما ان يحبذوه او ان يعارضوه. وكل من شاء مـن الاعضاء ان يتكلم في الموضوع عليه ان يخاطب الرئيس، ولا يستطيع الكلام قبل ان ينال موافقته، كما لا يحق له الكلام في استدعاء

واحد اكثر من مرة واحدة الا اذا اقترع اعضاء الجمعية عكس ذلك، كما يجب الا يخرج عن موضوع الاستدعاء والا اضطر الرئيس ان يقول له: «لقد خرجت عن الموضوع، فالرجاء المحافظة على النظام.» ثم يمنعه من الكلام.

واذا ما رأى الرئيس ان كل من يريد الكلام في الموضوع قد تكلم، يطرح الاستدعاء على التصويت بقوله: «كل من يوافق على الاستدعاء يشير بقوله نعم»، أو «كل من لا يوافق يشير بكلمة لا». فاذا حصل التباس ما في فهم نتيجة التصويت يطلب الرئيس التصويت مرة ثانية فيقول: «كل من يوافق على الاستدعاء يشير برفع يده اليمنى أو «كل من لا يوافق يشير برفع يده اليمنى». فاذا كانت اكثرية المقترعين في جانب الاستدعاء يقول الرئيس: «لقد نجح الاستدعاء» اما اذا كانت اكثرية المقترعين معارضة للاستدعاء فيقول: «لقد سقط الاستدعاء».

ان الاستدعاءات التي تأتي باعمال جديدة الى الجمعية، كالنوع الذي ذكرناه اعلاه، تدعى استدعاءات رئيسية، وعندما تبحث الجمعية باستدعاء رئيسي لا يجوز البتة النظر في استدعاء رئيسي آخر. انما هنالك بعض الاستدعاءات التي يجوز البحث فيها اثناء البحث في استدعاء رئيسي، وتسمى هذه بالاستدعاءات الفرعية، واشهر انواعها ما يلي:

١ – اصلاح او تعديل الاستدعاء: اذا شاء احد الاعضاء ان يحدث بعض التعديل او الاصلاح في الاستدعاء الرئيسي الذي تبحث فيه الجمعية، يطلب الكلام من الرئيس ثم يقول: «استاعي اصلاح الاستدعاء»، ثم يذكر ما يريد ان يغيره او يصلحه، على انه يجب ان يثنى عليه قبل الشروع بالمناقشة فيه، ثم يصوت على التعديل بعد انتهاء البحث فيه وقبل التصويت على الاستدعاء الرئيسي. اما اذا فشل التعديل فيستمر النقاش في الاستدعاء الرئيسي كما لو لم يقدم التعديل. اما التعديل فيجب ان يتعلق بالاستدعاء الاصلي فقط، وفي حالة الصدوف عنه يعلن الرئيس انه غير قانوني. ويمكن ان يقدم تعديل التعديل ثم يثنى عليه ويناقش فيه وفي هذه الحال يصوت على التعديلات اولا ثم على التعديل واخيراً على الاستدعاء. ان هذه التعديلات تسبب على العموم شيئاً من الفوضى لذلك كان من الضروري

وضع الاستدعاء باسلوب واضح منذ البداية لتجنب ضرورة الاصلاح .

٢ — الاستدعاء بالانصراف : يكون الاستدعاء بالانصراف قانونياً دائماً الا اذا اتى اثناء كلام احد الاعضاء او اثناء التصويت وهو غير قابل للمناقشة والتعديل ويطرح على التصويت حالما يثنى عليه . اما اذا كان الاستدعاء بالانصراف يعين مكان الاجتماع وزمانه الثاني فتجوز فيه المناقشة . واذا سقط الاستدعاء بالانصراف فيجوز اعادته بعد قليل .

٣ — الاحالة الى لجنة : من الضروي احيانا ان يحال استدعاء رئيسي الى لجنة لكي تشبعه درسا وترفع به تقريراً . فيمكن تقديم استدعاء بذلك اثناء النقاش ويكون استدعاء من هذا النوع قابلاً للتعديل والمناقشة .

٤ — التأجيل : اذا رغبت الجمعية في عدم الاستمرار في بحث استدعاء رئيسي كانت قد باشرت فيه، يمكن الاستدعاء بتأجيله، وهذا لا تجوز فيه المناقشة او التعديل؛ واذا نجح لا يجوز اعادة النظر في الاستدعاء الذي تم تأجيله الا بعد استدعاء بتناوله مرة ثانية .

٥ — اعادة النظر : وقد ترى الجمعية بعض الاحيان انه من الضروري ان تعيد النظر في استدعاء ما، وان كان قد سقط عند التصويت، فيتم ذلك باستدعاء « اعادة النظر »، ولا يستطيع ان يقدم هذا الاستدعاء الا احد الاعضاء الذين اقترعوا في جانب الاستدعاء الرئيسي، ولا يجوز تعديل استدعاء كهذا انما تجوز المناقشة فيه . ويجب ان يقدم في ذات اليوم الذي قدم فيه الاستدعاء الرئيسي انما يجوز تقديمه اثناء المناقشة في استدعاء آخر، واذا نجح يعاد النظر في الاستدعاء الرئيسي مباشر بعد انهاء الاستدعاء الذي تنظر فيه الجمعية . اما مفعول استدعاء اعادة النظر، فهو انه يضع الاستدعاء الاصلي امام الجمعية بنفس الموقع الذي كان يحتله قبل التصويت . اما اذا لم يكن بالامكان اعادة النظر في الاستدعاء الاصلي في الجلسة نفسها التي قرر فيها اعادة النظر فيه، فيدخل الاستدعاء باعادة النظر في الوقائع ثم يعاد النظر في الاستدعاء الاصلي في الجلسة المقبلة . واذا لم تتمكن الجمعية من

القيام بذلك يفقد الاستدعاء باعادة النظر مفعوله .

٦ – العودة الى المؤجل : وهذا الاستدعاء غير قابل للتعديل او المناقشة، فاذا سقط يمكن اعادة النظر فيه .

٧ – السحب : يمكن الاستدعاء بسحب استدعاء آخر كان قد قُدِّم الى الجمعية وهذا لا يمكن تعديله او مناقشته .

٨ – طلب الاقتراع : هذا هو الاستدعاء الوحيد الذي يستطيع ان يوقف البحث في استدعاء ما، ولا يجوز تعديله او مناقشته وحالما ينجح يطرح الرئيس الاستدعاء الاصلي على التصويت .

٩ – تحديد البحث : ان هذا الاستدعاء يحدد وقت المناقشة في الاستدعاء ولا تجوز المناقشة فيه بل يجوز تعديله .

هذا فيما يتعلق بالاستدعاءات الفرعية . اما اذا ظن احد الاعضاء ان الرئيس قد اخطأ في عد الاصوات فيستطيع ان يطلب اعادة عدهم مرة ثانية، ويستطيع ان يطلب ذلك دون ان يطلب ترخيصاً بالكلام من الرئيس . واذا رأى احد الاعضاء ايضاً ان القوانين المرعية قد خولفت اثناء الاجتماع، يقف ويقول، دون ان ينتظر ترخيص الرئيس : « حضرة الرئيس نقطة قانونية » فيتوقف عمل الجمعية حالا، ويقول الرئيس للعضو المذكور : « تفضل واذكر النقطة القانونية » . فيشرحها العضو، فاذا وافق عليها الرئيس يقول للعضو : « سنحافظ على هذه النقطة القانونية » . ثم يغير سير الاعمال كي يتفق مع القانون . اما اذا لم يوافق الرئيس على ملاحظة العضو فانه يقول : « اننا لا نقر بهذه الملاحظة » فاذا رأى العضو ان الرئيس على خطأ يستطيع هو او اي من الاعضاء ان يقول، دون ان ينتظر ترخيص الرئيس : « حضرة الرئيس، اني استأنف قرار الرئيس الى الاعضاء » فيخاطب الرئيس الاعضاء قائلاً : « هل تعتبر الجمعية قرار الرئاسة قرارها ايضا؟ » وهذا يفتح مجال المناقشة التي يحق للرئيس الاشتراك فيها . ثم يطرح للاقتراع . اما الاستئناف فلا يجوز تعديله . ولما كانت النقطة القانونية وما يليها من استئناف تؤخران عمل الجمعية

النظامي، وجب على الرئيس ان يهتم بتسيير اعمال الجمعية بموجب القوانين والانظمة لكي يتجنب مقاطعة الاعمال النظامية؛ كما ان الاعضاء لا يجوز ان يقاطعوا الا اذا كانت المقاطعة ضرورية حفظا للحق والعدالة .

ان هنالك نوعين من اللجان : اللجان الدائمة، واللجان الخاصة . وتتألف اللجنة من ثلاثة اعضاء او اكثر يكون احدهم رئيسا لها . ويقرر دستور الجمعية عدد اللجان الدائمة التي تقدم تقاريرها في فترات نظامية . اما اللجان الخاصة فانها تؤلف لدرس مسألة معينة، وبعد ان تقدم تقريرها النهائي بخصوص تلك المسألة تنحل بصورة طبيعية . وينتخب اعضاء اللجان الدائمة عادة اعضاء الجمعية بطريقة الاقتراع، اما اللجان الخاصة فيعينها الرئيس . واذا لم يتوصل اعضاء اللجنة الى اتفاق يقدمون تقريرين، تقرير الاكثرية وتقرير الاقلية ثم تقرر الجمعية اي التقريرين تفضل .

وهنالك ما يسمونه النصاب، وهو يعني عدد الاعضاء الضروري وجودهم حسب القانون الداخلي ليكون الاجتماع قانونياً، فاذا لم يكتمل النصاب في اجتماع ما، لا يصح له ان يتم، فيعلن الرئيس صرف الحاضرين .

وقبل كل اجتماع، يجب ان يقدم امين السر الى الرئيس جدولا بالاعمال التي سينظر فيها في ذلك الاجتماع، ويرتب هذا الجدول عادة على حسب الترتيب الاتي :

(١) الاشغال التي نشأت من الاجتماع السابق .
(٢) تقارير اللجان الدائمة .
(٣) تقارير اللجان الخاصة .
(٤) اشغال خاصة .
(٥) الاشغال التي لم تنته بعد .
(٦) اشغال جديدة .
(٧) قراءة وقائع الجلسة .

هذا، ويجب ان يكون القانون الاساسي قصيراً بقدر المستطاع، وان يشتمل على الامور الاتية : (١) اسم الجمعية وغايتها . (٢) مؤهلات الاعضاء . (٣) الموظفون

الاداريون، مدة بقائهم في الوظيفة، كيفية انتخابهم وواجباتهم (٤) اللجان الدائمة (٥) مكان وزمان الاجتماع. (٦) كيفية تعديل القانون الاساسي، وهذا يجب ان يصعّب. والطريقة المألوفة لذلك هي تقديم التعديل في جلسة ثم التصويت عليه في الجلسات المقبلة، ولكي ينجح التعديل يجب ان تنال ثلثي اصوات الحاضرين.

اما النظام الداخلي فيجب ان يشتمل على الامور التي لم يتناولها القانون الاساسي وهي عادة ما يلي: (١) العدد الضروري لحصول النصاب (٢) حقوق الاعضاء وواجباتهم (٣) العقاب لمخالفة القوانين (٤) الاشتراك او الرسوم (٥) كيفية تعديل النظام الداخلي (٦) جدول الاعمال. ويعدل النظام الداخلي بنفس الطريقة التي يعدل فيها القانون الاساسي الا ان اكثرية الاصوات تكفي لاقراره. ومن الضروري ان يوضع القانون الاساسي والنظام الداخلي منذ البداية بعناية ودقة تغنيان عن تعديلهما فيما بعد. لذلك يجب الرجوع الى مصادر ثقة بالموضوع ككتاب « قواعد روبرت » وسواه من المصادر المعترف بافضليتها.

وللموظفين واجبات، وكذلك الاعضاء، فواجبات الموظفين منها:

أولاً — على الرئيس ان يفتتح اجتماعات الجمعية ويقدم اعمال الجمعية بالترتيب، ويطرح الاستدعاءات الى التصويت ويحافظ على النظام. وهو لا يستطيع ان يشترك في البحث الا حين يكون البحث في نقطة قانونية، ولا يستطيع ان يقترع الا عند تعادل الاصوات.

ثانياً — على نائب الرئيس ان يحل محل الرئيس عند غيابه، ولذلك كان لزاما عليه ان يعرف واجبات الرئيس بدقة وضبط.

ثالثاً — على امين السر ان يحفظ سجلا باسماء الاعضاء ويسجل الغياب والحضور ويبلغ الاعضاء الموظفين عن واجباتهم كما يسجل الوقائع ويحتفظ بنسخة من القانون الاساسي والنظام الداخلي لاجل المراجعة عند الحاجة، كما يقوم بمراسلات الجمعية.

رابعاً — على امين الصندوق ان يحفظ سجلا مضبوطا بجميع المال الذي يستلمه والذي يدفعه باسم الجمعية، ويجب ان يعطي ايصالات بجميع ما يقبض وان يأخذ

ايصالات بجميع ما يدفع، ولا يجوز له ان يدفع المال الا استنادا الى امر خطي من الموظف المسؤول، ويجب ان يكون مستعدا في كل اجتماع ليقدم تقريرا مضبوطا عن كمية المال الذي لدى امانة الصندوق، كما يجب ان يقدم تفاصيل الصرف والدخل في الاوقات المعينة .

اما واجبات كل عضو فهي : اولاً – يجب ان يكون حاضرا وجالسا في مكانه عندما يبدأ الاجتماع . ثانياً – لا يجوز بعد الجلوس تغيير الاماكن الا برخصة من الرئيس . ثالثاً – يجب ان يتجنب احداث الضوضاء او الهمس مع جاره او الضحك بصوت عال . رابعاً – لا يجوز الخروج من قاعة الاجتماع قبل الانصراف الا باذن خاص من الرئيس . خامساً – يجب ان يضبط نفسه ويمسكها عن الغضب تحت كل الظروف، وعندما يتكلم يجب ان يتكلم برزانة وبصوت هادىء . سادساً – يجب ان يحترم الرئاسة ويعمل ما في وسعه على مساعدة الرئيس لاتمام واجباته بدلا من ان يعيقه . سابعاً – كما يجب ان يبذل ما في وسعه لتسهيل سير اعمال الجمعية .

ان كل جمعية نظامية هي تجربة في التعاون؛ ويقاس ذكاء اية منظمة بالعدل والانتظام والكفاءة التي تتم بها اعمالها . اما الافراد الذين لا يتمكنون من التعاون فلا يصلحون لهذه المؤسسات الديمقراطية .

الفصل السابع عشر

اليهودية

يتناول هذا الفصل والفصول الثلاثة التي تليه مؤسسة اجتماعية خامسة، هي المؤسسة الدينية في الشرق العربي، اي العلاقات بين الشعب وبين الخالق، وبين رجال الدين هذه العلاقات. ونحاول في هذه الفصول ان نطلع القارىء على منشأ الاديان المختلفة وتطورها في بيئته، وهذا الاطلاع ضروري لاجل تعاون اتمّ بين مختلف الطوائف الدينية في الشرق العربي.

الديانة الابتدائية

كيف تكونت الفكرة عن الالهة، أو كيف بدأ الانسان يتعرف بالله؟ حين نظر الانسان الابتدائي حوله لاول مرة لا بد وانه قد انذهل وتحير من الاشياء التي رآها والاصوات التي سمعها، ومن المرجح ان انفعاله الاول كان الخوف من قوة مبهمة غامضة تهدده في كل مكان وتعرف هذه الحالة الفكرية الابتدائية بما قبل الانيمزم. وعندما تطور عقل الانسان اخذ يميز بين الاشياء المادية كالاشجار والسواقي، وبين «الارواح» او النتائج غير المنظورة لهذه الاشياء، كصوت حفيف الاوراق وخرير المياه فوق الصخور. وقد نشأت، من تحيره لهذه الظواهر، العقيدة بان لكل شيء روح، او «انيما» فسميت هذه العقيدة بالانيميزم.

وقد كان الموت حادثاً آخر مخيفاً في حياة الانسان الابتدائي اليومية. فاعتقد ان الموت نوم طويل تترك الروح الجسم خلاله على ان تعود الى الظهور بشكل آخر او لتحيا في مكان آخر. وبنتيجة ذلك لم يكن بنظره الهواء الذي يحيط به مليئاً بارواح الاشياء غير الحية فقط، بل كان مليئاً بارواح اصحابه واقاربه ايضاً. ولما

كان يبصر ان الاشجار والصخور المتساقطة تزهق ارواح من تصطدم بهم، كان من الطبيعي ان يعتقد بان هذه الارواح خطيرة ان لم تسترض.

لقد قال ماكليود بيرسلي بهذا الخصوص ما يلي: «كان الانسان الاول يعرف ان افضل طريقة للحصول على المساعدة ممن كان اقوى منه، هي اقناعه بتأدية تلك المساعدة، بالتوسل اليه او بتقديم شيء له يرغب فيه مقابل ما سيؤديه له من خدمات. اما اذا اثار غضبه فليحاول ارضاءه بالوعود والعطايا، فكان من الطبيعي ان يتقرب من الارواح بالطريقة نفسها محاولا بالصلاة وبتقديم الذبائح ان يحمل الارواح على ابلاغه امانيه، وبعبارة اوضح بدأ يعبد الارواح».

ان الخرافات الكثيرة والطقوس القديمة التي لا تزال متبعة تقريباً في كل بلدان العالم، تبين العقائد بالانيمزم التي انحدرت الينا من الانسان الابتدائي.

التوحيد وتعدد الالهة

من بين الارواح المتعددة التي آمن بها الانسان في عهد «الانيمزم» كانت تلك التي ظهرت له بانها اقوى الجميع واصعب مراساً واكثر نفعاً. ومن هناك نشأت فكرة تعدد الالهة وعبادتها.

وقد احكمت الطبقة المفكرة بين القدامى هذه العقائد جيداً حتى تغيرت الارواح تدريجيا واصبحت بشرا كالرجال والنساء واخذ الانسان يفكر بالارواح باعتبارها مشابهة له.

ولقد تطور الانسان، رويداً وخلال قرون طويلة، من عبادة آلهة متعددة الى العقيدة بآله واحد، اي التوحيد. وقد كان الاسرائيليون، بفضل إبراهيم، اول من ادخل فكرة التوحيد الى الدين.

مبادئ الديانة اليهودية

قيل ان تاريخ الاسرائيلين يبتدىء بموسى، وليس في هذا القول غرابة اذ انه كان منشىء الديانة الاسرائيلية وباعث وحدة اليهود القومية.

فالعبرانيون هم ساميون وديانتهم لم تختلف بصورة عامة في منشئها عن الاديان السامية. وقد ساد الاعتقاد ان موطن الشعوب السامية الاصلي هو الجزيرة العربية وبأن هذه الشعوب انتشرت، بسبب ضغط السكان وقلة الطعام، في الاراضي المجاورة فكونت جماعات سامية مختلفة سُميت باسماء مختلفة، وكان العبرانيون واحدة منها.

واظهرت الابحاث التاريخية الحديثة ان اسماء ابراهيم ويعقوب واسرائيل ويوسف كلها كانت مرتبطة بهجرات مهمة قامت بها جماعات سامية. ويشير العهد القديم «التوراة» الى ان ابراهيم كان زعيماً آراميا كما كان عبريا.

وقد خرجت القبائل السامية التي عُرفت باليهود من بلاد الكلدانيين ساعية مع قطعانها ومواشيها وراء المراعي الخضراء، وعاشت حياة الرحل هذه مدة سنوات عديدة تكونت خلالها اساطير وتقاليد يرجح انها كانت الاساس الذي بني عليه وصف عصر «البطاركة» اي الاباء في سفر التكوين.

وما عيد الفصح الذي يحتفل فيه اليهود بتقدمة خروف ذبيحة الى الله، وهو مزية بارزة في الديانة اليهودية، الا احدى عادات الرحل القديمة التي سبقت ايام موسى؛ ولكن لولا محنة العبرانيين القاسية في مصر وصحراء سينا، لما انتقل عيد الفصح الى الديانة اليهودية فيما بعد واحتل المكانة الرئيسية في التعبير الاجتماعي عن ارثهم الروحي الذي ورثوه من العهد الموسوي.

ولقد كان الفضل لموسى أولاً ثم الى الانبياء في جعل العبرانيين يقدرون حقيقة شخصية «يهوه» وصفاته ويفهمون شيئاً عن وجود الله. أما الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الديانة اليهودية، فهي الشعب الاسرائيلي باعتباره الشعب المختار وبين «يهوه» الاله الذي يتطلب الاخلاص المتناهي والتضحية والقيام بالاحتفالات الدينية والحياة الصالحة. ولم تكن الشريعة التي اعطاها موسى مجموعة القوانين المتقنة المعروفة بنا موس موسى، لان نظام الطقوس والنظام الكهنوتي اللذين اسسهما موسى لم يشملا تفاصيل النظام الذي وضعه كهنة هيكل اورشليم.

والقوانين الاجتماعية والاخلاقية التي وضعها لم تشتمل على المثل العليا التي اتى بها الانبياء المتأخرون، والفكرة التي بشر بها عن «يهوه» لم تتضمن انكار وجود بقية الالهة. ومع ذلك فان مثال الاخلاص «للعهد» بين الشعب وبين يهوه ونشر شريعته وتطبيقها باسمه حينئذ حددت نهائياً ولجميع الازمنة الميزة الاساسية التي تميزت بها الديانة اليهودية باعتبارها ديانة شريعه الله كما انهـا مهدت السبيل للظهور الكامل للناحية الادبية والاخلاقية في التوحيد في تعاليم الانبياء وتعاليم يسوع.

تطور الديانة اليهودية

١ ـــ القضاة والملوك: لقد اضطر اليهود اثناء المدة الطويلة التي قضوهـا في فلسطين كجماعة قومية، الى مجابهة مشاكل متعددة كثيرة الاهميـة. وظل القضاة والمشايخ المحليون اليهود زعماء فلسطين السياسيين زمنا طويلاً بعد احتلالها. وكان محتما عليهم ان يجربوا الملكية. انما خلال العهدين، عهد الملكية وغير الملكية، كان الانبياء هم الزعماء الذين حافظوا على الاسس الاخلاقية للعدالة الاجتماعية، وهم الذين اثاروا في النهاية العمل الوطني بواسطة الوضع الاخلاقي السائد في ذلك الوقت. ولكي نفهم حقيقة هذا الوضع يجب ان نستعرض الاحوال الروحية في فلسطين بعد مجيء العبرانيين اليها.

لقد نشأ خطر عظيم على التقدم الروحي العبراني بعد الاحتلال من احتكاكهم بالتقاليد القديمة للعبادة الزراعية في فلسطين التي كانت جديدة بالنسبة اليهم. فقد كان طبيعيا للفلاح ان يتأثر بالحوادث السنوية في تقويمه الزراعي التي تجلب له البركة واليسر فتسترعي انتباهه وتوجه نظره الى الله وعبادته. وكانت العبادة الزراعيـة اكثر فعالية من عبادة الرحل، في اثارة النزعات الدنيا في العبادة. وقد كانت هذه النزعات قوية وخطرة في عبادة الكنعانيين بحيث لم ينقذ العبرانيين من الانتحار الروحي سوى تحذير انبيائهم المستمر لهم.

وكان بالاضافة الى الافكار والاعمال الخارجة عن الحشمة والادب والتي كانت تسمم العبادة الروحية، سبب آخر يبعث التفرقة بين العبرانيين. فالوضع الاقتصادي

في ذلك الوقت كان مختلًا بحيث ان الغنى والفقر كانا آخذين بالتزايد السريع واصبحت مظالم الغني للفقير متعددة تهدد الارث الروحي بالفناء. ولنا في كتابات اولئك الانبياء المصلحين الذين جاهدوا في سبيل العبادة الصحيحة والعدل الاجتماعي الحقيقي تراثا رائعاً يحتل مكانه بين افضل ما خلفه الفكر الانساني.

لقد انقسم عرش العبرانيين خلال هذه المدة الى قسمين بسبب ما طبع عليه الساميون من النزعة الى عدم الاتحاد السياسي. فاقامت عشرة قبائل في الشمال مملكة تنافس مملكة قبيلتين اخريتين في الجنوب. وما كان العبرانيون ليتجنبوا هذا الانشقاق بالماضي الا بفضل الملوك العظام، كداود وسليمان، وتاثيرهم الفعال.

وكان لهذا الانشقاق السياسي تأثير عظيم في تأخير تقدم عامة الشعب؛ ومن حسن الحظ ان الخطر الذي كان يهدد الارث السلالي لمثل الرحل العليا، اصبح حافزا تاريخيا للمفكرين القليلين في المعسكرين، الذين كان وجودهم فخراً للتاريخ العبري في كل زمن.

وعندما طغت الممالك الاستبدادية التي قامت في وادي الفرات، على سوريا وفلسطين، انهت تاريخ الملك العبراني الذي كان، على الرغم من مساوئه، مشرقاً كل الاشراق. فكان ان سقطت المملكة الشمالية عام ٧٢٢ ق. م، بعد عشر سنوات من سقوط الشام بيد الاشوريين. اما المملكة الجنوبية فقد دامت قرنا بعد ذلك حافظت فيه على التقاليد العبرانية الاخلاقية، واختبرت فيه انواع المجد كما اختبرت فيه انواع العار. وقد جاء القضاء المبرم على المملكة العبرانية القومية على اثر تدمير اورشليم بيد الفاتح البابلي نبوخذنصر عام ٥٨٦ ق.م.

وقد اصبح هيكل اورشليم خلال الفترة التي تلت سقوط المملكة الشمالية المركز الوحيد للعبادة العامة للاسرائيليين. وفي هذا القرن فقط من تاريخ هيكل اورشليم استطاع الهيكل ان يحل بصوره واسعة محل مراكز عبادة البعل التي

كان يلجأ اليها العبرانيون الذين يقطنون حولها. ان هذا الشرف الخاص الذي منح لهذا الهيكل، منذ ذلك التاريخ، ساعد على تثبيت التعاليم التوحيدية التي بشر بها الانبياء المتأخرون. ومع ذلك فان جوهر الروحانية العبرانية لم يجد الفرصة الصالحة للتعبير عن ذاته في نظام الهيكل الاحتفالي. ولم يكن هـذا النظام من ابداع العبرانيين او خاصاً بهم، بل نشأ عند الساميين الذين يجلون الشكل المربع او المكعب الذي بني الهيكل على قاعدته.

٢ــ السبي ــ نشوء الكتاب المقدس والكنيس : لقد انتهت مدة قيام العبرانيين في اراضي كنعان بكارثة قومية، فتهدمت مدينة اورشليم وهيكلها العظيم، وسبي اهـل يهوديا الى بابل. وبسقوط الهيكل المقدس تزعزع اساس ديانة التوحيد.

بيد ان هذه الكارثة القومية الفادحة ادركهـا النسيان واستعيض عنها بالنزعات التحريرية الجديدة الخلاقة التي نشأت في عهد الرجوع من السبي.

ان امكانية القيام بامور العبادة والتعبد بدون هيكل وبدون الاحتفالات الكهنوتية، لم يكن، حتى ذلك التاريخ، يتبادر الى اذهان الساميين. وهكذا كان على الاسرائليين وعلى سواهم من الشعوب ان يتعلموا، عن طريقهم، بان العبادة والتعبد لا يتمان بدون الهيكل فقط، بل انهما تزدادان قوة ونشاطا ونقاوة ايضاً بانفصالهما عن الهيكل. ولقد اوجد السبي مؤسسة دينية عظيمة لم تكن معروفة في العالم من قبل. فالمسبيون في بابل تعودوا على الاجتماع مرة في الاسبوع ليندبوا ما عموه موت ديانتهم. فكانوا يقرأون بعض المقاطع من كتابات انبيائهم ثم يكلفون احداً منهم ان يتزعم الصلاة والدعاء. ثم نشأت فيهم فيما بعد عادة تكليف احدهم تفسير ما قرأوه وشرح معانيه. وهكذا اصبحت هذه الاجتماعات الاسبوعية تراثا يهوديا حافظوا عليه بعد عودتهم الى فلسطين.

وعلى الرغم من انهم لم يتحققوا من اهميـة العبادة الجديدة التي اوجدوها، فانهم بلا شك اكتشفوا مؤسسة من اهم المؤسسات في نشوء الديانات هي ما دعيت

فيما بعد « بالكنيس »، الذي انبثق منه فيما بعد نظام الصلاة في الكنيسة المسيحية ونظام الصلاة في الجامع الاسلامي. ففي جميع هذه الانظمة ثلاثة امور رئيسية: اولا : قراءة الكتاب المقدس، ثانيا : اتباع قائد من قادة الدين في الصلاة العامة. ثالثاً : حرية الخطابة يلقيها معلم مختار من على المنبر. وقد كان الكنيس اول مكان في التاريخ تمت فيه الصلاة على اساس القراءة من « الكتاب »، فحلّ الادب الديني محل الاحتفالات الدينية والهياكل في تحريك روح الانسان وتقريبه من الله .

اما كتاب العبرانيين المقدس فهو « العهد القديم » الذي هو مجموعة اسفار تشتمل على الاشعار المقدسة والشرائع والاساطير والتاريخ. وهو مقسم الى ثلاثة اقسام: اولا : الشريعة، ثانياً : الانبياء، ثالثاً : الكتابات المقدسة. ولكي نفهم كيف اصبح العهد القديم بشكله الحالي يجب ان نمر بسرعة بالادوار البارزة من تاريخ الشعب العبراني .

كان ساميو بابل القدماء تحت سلطة طغمة قوية من الكهنة تمثل الالهة وتتوسط بينهم وبين بقية الشعب. وكانت هذه الطغمة تدير اعمال الملوك بواسطة الوحي المنزل، كما كانت توزع العدل بين الناس. وقد ساعدها على ذلك كونها الطبقة المتعلمة الوحيدة.

وكان لهؤلاء آلهة متعددة أهمها إله الارض « بول »، واساطير عن الخليقة وعن الطوفان، كما كان لهم مجموعة قوانين وتقاليد انتقلت اليهم على الغالب، في اقاصيص البطاركة .

وهكذا كان العبرانيون القدماء ككل الشعوب الابتدائية، يعبدون القوى الطبيعية؛ ولم تنشأ فيهم فكرة التوحيد الا تدريجياً. وكان يشار الى الاله في ادوار البطاركة المتتابعة باسماء مختلفة وفقاً للظروف التي كانت تحيط بمفهوميتهم لما كانوا يدعونه « بالعهد » .

وليس يعرف بالضبط متى استعمل اسم يهوه لاول مرة؛ بيد انه يرجح استعمالهم له قبل استقرار اليهود في ارض كنعان. ومما لا ريب فيه ان يهوه كان معروفا ومعبودا قبل ان يتصل الاسرائيليون بموسى. فقد كان موسى هو الذي جمع حوله ديانة يهوه، كما كان للوحي في سيناء الفضل في قبول «يهوه» الهاً لليهود.

ومعنى هذا الاسم غامض لانه محاط بالاسرار. فالفقرة التي تنص: «وقال الله لموسى: «اهيه الذي اهيه» ثم تابع قائلًا. «انك ستقول لابناء اسرائيل: انا ارسلتك اليهم» ان هذه الفقرة جعلتهم يفسرون ان معنى «اهيه» او يهوه هو «الذي يكون» او «الخالد».

وكانت مهمة موسى ان يجمع القبائل تحت قيادته وقيادة هذا الاله بحيث يوحدهم ويجمعهم تحت لواء شعب واحد. ولكن هذه العلاقة بين الله والشعب توقفت على «العهد» الذي يتضمن شيئاً من الشراكة. اما ماذا كانت شروط هذا «العهد»، فما لا نحيط به علماً. ان العبارات التي تسبق وصف الاحتفال (الخروج ٢١ — ٢٣) تشكل مجموعة صغيرة من القوانين التي ندعوها اليوم «كتاب العهد».

وانه لمن الواضح ان العبرانيين وجدوا اسم «يهوه» نصيراً عظيما لهم من الناحية الروحية. ذلك لان موسى فسره لهم تفسيراً يجعله حاكماً وحامياً ومدافعاً عنهم، ومقوماً ما اعوج من سبلهم. حتى اصبح اسم «يهوه» فيما بعد عند اليهود من القداسة بحيث منعهم رجال الدين من التلفظ به عالياً، كانما هو اقدس من ان تنطق به الشفاه.

وكانت الفكرة الاساسية المسيطرة على اليهود، اعتقادهم بان الله سينقذهم بواسطة موسى، وقد تأكدت هذه العقيدة الروحية بشدة اثناء اقامتهم في صحراء سيناء جيلًا كاملًا.

واهم حادث في هذا الدور كان اعلان الشريعة كما تمثلها اخلاقياً الوصايا العشر. وهذه الوصايا العشر، وهي مختصرة في الاصل، تكوّن من الناحية

الاخلاقية خلاصة النظام الذي وضعه موسى لشعبه اثناء زعامته، كما تكوّن عنصراً اساسياً في الديانتين المسحية والاسلامية.

ولعل افضل عهد في تاريخ تطور العبرانيين الروحي هو عهد احتلالهم اراضي كنعان، ذلك الاحتلال الذي تم على يد قائدهم العسكري يشوع، وازدهر بفضل خبرتهم الاقتصادية، وتقاليدهم الاجتماعية التي ورثوها من هجرة اسلافهم.

وقد كانت هذه الحوادث في تاريخ العبرانيين اساس العقائد التي وضعت فيما بعد في الكتاب المقدس.

٣ــ المكابيون. كانت الاعمال الفريدة التي قام بها المكابيون بدء عهد قصير انتعشت فيه بطولة العبرانيين الاخلاقية، كما ظهر فيه نبوغهم العسكري، مما ادى الى بعث الدولة اليهودية الثانية في التاريخ.

وهكذا اصبحت فلسطين مرة ثانية مسرحاً للسياسة الاجنبية: سياسة مصر وسياسة انطاكية. فلقد جابه الغزو اليوناني على يدي الاسكندر، دنيا الشرق الاوسط مباشرة بالفكر اليوناني والثقافة اليونانية، فانتشرت اللغة اليونانية في اقطار البحر المتوسط جميعاً فتعلمها اليهود كما تعلمتها الشعوب الاخرى متأثرين بثقافتها الهلينية تأثراً سريعاً.

وقد حملت الثقافة اليونانية معها تفسخ الاخلاق وانحلالها، فكان من الطبيعي ان يخاف زعماء الدين من تأثير انطاكيه هذا على شبيبتهم، فلجأوا الى مصر ليستعينوا بها ضد ملوك انطاكيه. بيد ان لجوأهم هذا لم يكن من الحكمة في شيء، اذ كان من نتيجته ان عزم الانطاكيون على سحق اليهود ومحو ديانتهم من الوجود فاخذوا باتلاف كتبهم المقدسة، وتدمير هياكلهم التي بنوها بعد عودتهم من السبي، واجبارهم على عبادة الاوثان.

وكان في احدى هذه الاحتفالات الدينية التي أجبر فيها اليهود على تقديم الذبائح للاوثان، ان ثار ماتاثيوس، وهو كاهن ووالد عائلة المكابيين، وهجم على ممثل الحكومة الانطاكية فمزقه تمزيقاً، ثم قام مع اولاده الخمسة وشعبه بثورة دامت

زمنا طويلًا اسفرت عن انتصارات مدهشة ظفر بها الثوار على الجيوش الانطاكية المدربة، مما جعل يهود مكابي من اكثر القادة العسكريين نجاحاً في التاريخ .

بيد ان هذا الظفر لم ينقذ العبرانيين من ان يجبروا على الخضوع لسلطة روما الحكيمة التي اطلقت لهم حرية الدين . وفي هذا الدور نشأ بينهم حاخام عظيم اسمه « هيليل » فاثر كثيراً على نمو الافكار الروحية خاصة بين الفريسيين .

ولكن أنى لليهود ان يستطيعوا الخضوع طويلًا لسلطة دولة وَثَنية، فقاموا بعدة ثورات تذكيها فكرة «الامل بمجيء المسيح» تلك الفكرة القديمة التي جددت اذ ذاك وانتعشت، حتى اضطرت روما اخيراً الى ان تخضع هذه الثورات بالقوة .

٤ ــ سيطرة اليونان والرومان ــ التلمود : كان هذا العهد اطول العهود في التاريخ العبري واعظمها اختباراً في حياة اليهود كجماعة، فقد سبقه حين من الزمن خيل فيه أن تاريخهم الروحي قد اضمحل . ولعل اسوأ ما مرَّ في التاريخ اليهودي من اعوام هو عام ٧٠ ق . م، حين سقطت اورشليم بايدي الرومان بعد حصار دام عدة اشهر، فهدمت فيه المدينة، ودمر الهيكل، بحيث لم تعد اورشليم تعرف في التاريخ بعد ذلك بمدينة يهودية خالصة . ولقد تعذر في مثل هذه الحال على مؤسسة حاخامي اليهود العظيمة التي نشأت من نظام الكنيس ان تجتمع في غير مدينة ساحلية لاجل كتابة الشريعة الشعوبية التي اصبحت فيما بعد مجموعة عظيمة من الانظمة والقوانين الرامية الى توجيه سلوك الشعب اليهودي، والى تعليمهم اعتبار انفسهم، قبل كل شيء، وحدة دينية . وقد سميت هذ الانظمة «بالتلمود» .

٥ ــ التشتت : كان ما يقرب من نصف يهود العالم مجتمعين في فلسطين وما جاورها قبل ان دمر الرومانيون مدينة اورشليم عام ٧٠ ق . م . وكان يهود فلسطين محافظين يقاومون ادخال الثقافة اليونانية ويفضلون لغتهم الارامية على اللغة اليونانية، ثم تشتتوا في مختلف انحاء العالم بعد انقراض المملكة الرومانية، ولكنهم ظلوا محتفظين بهذا الخلق المحافظ المتمسك بالتقاليد الاجتماعية والتراث القومي .

اما النصف الآخر من اليهود فكان موزعا في اوروبا وشمالي افريقيا وآسيا الصغرى، فاقتبسوا اللغة اليونانية وعادات البلاد التي عاشوا فيها ولكنهم بقوا امناء لديانتهم اليهودية. وسمي هؤلاء باليهود الهلينين؛ وكان قسم منهم في فلسطين بسبب تأثير مختلف مراكز الثقافة الهلينية التي تأسست بعد وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م. وكان من بين هذه المراكز الهلينية يافا وغزة وعسقلون وعكا.

وقد انضم الكثيرون من اليهود الهلينين الى المسيحية بعد سقوط المملكة الرومانية كما قتل الكثيرون منهم واضطهدوا ثم اجبروا فيما بعد ان يعيشوا في احياء منفصلة تعزلهم عن بقية السكان المحافظين.

٦ــ اليهود المحافظون واليهود المجددون: ان يهود الوقت الحاضر ينقسمون انقساماً جوهرياً الى قسمين: محافظين ومجددين. فالفئة المحافظة هي تلك التي تتمسك تمسكاً شديداً بالعادات الدينية التي انحدرت اليها من الاجيال الغابرة. أما الفئة المجددة فهي تلك التي تأثرت بحركة الاصلاح التي نشأت من النزعة الفكرية في اليهود ونمت في غربي اوروبا حوالى القرن الثامن عشر، وهي اليوم ابرز ما تكون في الولايات المتحدة حيث وضع اليهود هناك قواعد الاصلاح بتفصيل واقروه في مؤتمر الحاخامين في بتسبيرغ عام ١٨٨٥.

٧ ــ الصهيونية: ان هذه الحركة الحماسية بين اليهود لاسترجاع فلسطين وطناً قومياً قد اصبحت قوة عظيمة وحدت بين مختلف صفوف اليهود. واذا كانت لا تشتمل على اية تعاليم دينية جديدة او اي تغيير في التعاليم الحالية الا انها تعمل على تحديد استعمال اللغة العبرية في الحديث والكتابة مما ادى الى توحيدها وتعميمها بين مختلف اليهود، لأول مرة منذ الفي سنة.

الفصل الثامن عشر

الديانة المسيحية

ان الغاية من الفصول الاربعة الباحثة في الدين هي تعريف القاريء بالتقاليد الدينية والعادات المتبعة في مختلف الاديان كي يتكون فيه شعور بالتساهل والصداقة نحو جميع مواطنيه الذين ليسوا من دينه – وفي هذا الفصل نقدم بحثاً موجزا عن الديانة المسيحية.

نشوء المسيحية

كتب ماكليود بيرسلي ما يلي : «كان العالم المتمدن في صدر المسيحية حافلاً بانقلاب وشيك. فقد انتشر تأثير الرومان بسرعة هائلة في كل انحاء العالم بحيث انقرضت قوميات كثيرة واوشكت قوميات اخرى عديدة على الانقراض، واخذت في هذه الظروف القوى الفكرية التي شيدت المدنيات العظيمة بالاضمحلال بما فيها القوى الفكرية في روما نفسها. فكانت المدينة ذات التلال السبع تقيد الحريات بسيطرتها، فتضيق عقول المثقفين وتتقلص بسبب ذلك وتفقد المقدرة على النقد التي ابدتها العقول النابغة في اليونان وفي روما قبل ذلك التاريخ. أما الفلسفة فقد رجعت الى الوراء كما كانت ايام حرم اصحابها من استخدام قواهم العقلية في الحكومة والسياسة، ولم يبق للحياة الفكرية مجال الا في الدين. فوجدت الطبقة العليا بذلك عزاء وشغلا بينما تمسك افراد الطبقات الوضيعة بالعقائد الدينية البسيطة التي سمحت لهم بها الظروف.

فانتشر الاستياء بين اليهود – ويجب الا ننسى ان المسيحية نشأت من اليهودية – وشعر الفقراء انهم حرموا من الصلاة في الهيكل، وتململت النساء من الذل الذي

قاسته ان كان في الحياة المدنية او الحياة الدينية، ونشأت طوائف غير الفريسيين والعشار. كان الاول متمسكين بالشريعة ولكنهم اضافوا عقيدة الى ايمانهم لم تكن في كتابهم، اما العشارون فقد رفضوا هذه العقيدة الجديدة وتمسكوا بالنظام الموسوي. واهم الطوائف الجديدة كانت طائفة «الاسينز» التي يحتمل ان يسوع كان عضوا منها، والتي عمرت بضعة اجيال وكانت عقائد أتباعها كعقائد المتقشفين، اذ حرموا اكل اللحوم وشرب الخمور والاستحمام وارتداء الملابس الجميلة وتقديم الذبائح، وعاشوا حياة العزوبة.

وفوق ذلك كانوا يؤمنون بالاعتقاد المحبب القديم القائل بمجيء المسيح الذي سيزعزع كيان النسر الروماني ويرفع الامة مرة اخرى الى القوة والمجد»

ولكي نتفهم اهمية العامل المسيحي يجب ان نتذكر انه بعد انقراض الدولة المكابية وسيطرة روما على اليهود، قامت في البلاد سلسلة من الثورات ضد الحكومة الرومانية، وكان يقود كلا من هذه الثورات بطل حربي يدّعي انه المسيح فكان نصيبه القتل ونصيب ثورته الفشل. وقد تكررت هذه الثورات خلال القرن الاخير قبل ولادة المسيح.

وكان الحزبان اليهوديان القويان في ذلك الوقت حزب الكهنة الارستقراطيين وحزب الفريسيين المتدينين. بيد ان هذين الحزبين لم يدعما تلك الثورات او يوافقا عليها، الا ان عامة الشعب الذين لم يفقدوا ايمانهم بالمسيح بفضل تعاليم الفريسيين النظرية كانوا مخلصين في سرهم للرسالة التي شاءت تلك الثورات تأديتها، وكانوا في كل مرة يعتقدون ويرجون ان يكون زعيم الثورة هو المسيح المرجو فيعتقهم من ظلم الرومان وسيطرة الوثنيين.

ولكن مهما قلنا في تفسير نشوء هذه الحركة المسيحية، فان هذه الحركة، بلا ريب، قد نشأت في التاريخ بفضل شاب واحد هو يسوع.

واسم «يسوع» في العبرانية «يشوع» على انه عندما تعلم اليهود اللغة اليونانية لفظوا اسمه «يسوع»، ومن هذا اللفظ اليوناني تحدّر اللفظ العربي «عيسى».

اما اسم يسوع فهو مركب من اسمين عبرانيين معناهما « يهوه » والخلاص . واذا اضفنا الى هذين المصطلحين الشعور الوطني الذي كان يجيش في صدور اليهود المخلصين للمسيح والذي اكسبته اياه تاريخ يشوع الظافر استطعنا ان نبلغ العبارة : « يهوه مخلصنا الظافر » .

لقد كان يسوع اثناء المدة التي قام فيها بتأدية رسالته مصحوباً بتلاميذه الاثني عشر الذين لقبهم بالرسل .

ونحن لا نعرف الا القليل عن تاريخ هؤلاء التلاميذ قبل ان يلتحقوا بيسوع، انما كان كلهم في مثل سنه ومن مستواه الاجتماعي يشتغلون للحصول على قوتهم . وجميعهم ما عدا واحداً منهم كانوا من الجليل، تلك المنطقة التي كانت مزدحمة بسكان تفاوتوا منشأ واختلفوا عقلية، وتعودوا، تحت تأثير ذلك، على التساهل وسعة الصدر، اكثر مما تعود اهل يهوذا . ثم ان معظمهم لم ينحدروا من اصل يهودي، مما ساعد على ضعف السلطة التي كان يتمتع بها الكهنة والاكليركيون في اورشليم . وكان اربعة من هؤلاء التلاميذ صيادي سمك؛ واثنان محاسبين؛ واثنان اسماهما يونانيان مع كونهما من اقحاح اليهود؛ وواحد ثائراً، اي انه كان قبل ذلك عضواً في جمعية ثوروية سرية اقسم اعضاؤها ان يقتلوا عمال روما كلما سنحت لهم الفرصة؛ وواحد جابياً للضرائب من قبل الحكومة الرومانية؛ وواحد متحمساً لفكرة الرجاء بمجيء المسيح .

ولعل اغرب بادرة في حياة يسوع ثقته بان هؤلاء الاثني عشر رجلا البسطاء العاديين الذين لا تأثير لهم في المجتمع، يستطيعون ان ينهضوا بالحركة التي بدأها لتجديد حياة العالم الروحية . فقد وضع جميع آماله لتحقيق تعاليمه في المستقبل بهؤلاء الرجال وباصحابهم . فاعلمهم انه واثق بان الله سيجعل من اختبارهم الروحي المتزايد اساساً في المستقبل لتغيير عظيم في كيفية علاقة الناس والامم بعضهم مع بعض .

ولم يقم يسوع خلال الثلاثين سنة الاولى من حياته بعمل يسترعي انتباه

الناس؛ اما بعد الثلاثين فقد بدأ حياة عملية قصيرة لم تدم اكثر من ثلاث سنوات ولكنها كانت حافلة بالاعمال الجسيمة. وهو لم يكتب حرفاً من تعاليمه، ولم يترك اية تعليمات لاية منظمة اجتماعية. وهكذا نجد انه لم يكن للمسيحيين عند فجر المسيحية، كتب خاصة بهم غير كتاب العهد القديم الذي ابقوا عليه ككتابهم المقدس. فالايمان المسيحي قام على اساس الديانة اليهودية وتقاليدها، وكان اذن من الطبيعي ان يقتبس المؤمنون كتبها المقدسة. على انه نشأ تدريجياً جملة مؤلفات عن الديانة المسيحية، ثم اصبح لبعض هذه المؤلفات، خلال قرنين، صفة قانونية فجمعت لتكون ما يسمى الان بالعهد الجديد.

ولقد كانت تعاليم يسوع واختباراته الدينية ومثله العليا ذات صبغة يهودية مستمدة من العهد القديم. وعلى الرغم من تحرره من تقاليد الكتب المقدسة فانه كان اميناً للشريعة من حيث مغزاها الرئيسي. اما انتقاده الكتب المقدسة فيلخص بقوله :

« لقد افقدتم وصايا الله تأثيرها بما ادخلتم عليها من تقاليد. » وفي الحقيقة انه عارض كثرة القوانين في ذلك الزمن، فلم يحاول ان يضيف قوانين جديدة الى مجموعة الانظمة الحاخامية التي سيطرت على حياة كل يهودي. وعندما سئل ما هي اول الوصايا واهمها اجاب بالمقطع التالي الذي لا يزال حتى الان اساس الايمان اليهودي الحقيقي :

« تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ». فما لا ريب فيه ان يسوع قد اعتبر نفسه حاملاً رسالة لليهود، ولذلك نجده يصرح : « لقد أرسلت لأهدي خراف اسرائيل الضالة ». اما فيما يختص بالتشديد على يوم السبت فقد اتى بالمبدأ الجديد القائل بان السبت انما صنع من اجل الانسان وليس الانسان من اجل السبت. فكانت تعاليمه بذلك متفقة مع تعاليم الانبياء القدماء، ولم يكن فيها شيء من روح القوانين الرسمية.

ان الفكرة المبدعة في المسيحية الاولى تعود الى حقيقة يسوع نفسه والى اختباره

العظيم للقوة الازلية، هذا الاختيار الذي ظهر في اقواله وافعاله وموته على السواء. وقد اكسب يسوع اتباعه اختبارا حيا بالله، فشعروا بوجود الله فيه. وكانت اقواله وحياته انعكاساً لحقيقة الله، ورأوا في موته عملا الهيا صدر عن آله للسلام يحاول ان يخلص شعبه ويجذب قلوب الناس اليه. وقد عبرت كلمة بولس الاتية عن ايمانهم خير تعبير اذ قال « كان الله ينقذ الناس بالمسيح ويرجعهم اليه ». وكان محور تعاليم يسوع التأكد الاخلاقي من امكانية اعادة بناء الطبيعة البشرية والتاريخ البشري على اساس مبدأ عملي، هو « مبدأ الابوة الالهية التي تتعاون مع بنوية الانسان ». اما يسوع فقد وجد ان هذا المبدأ ينطبق على اختباراته الخاصة. اذ انه من الناحية الفردية، ليس سوى تجديد لقوى الفرد الروحية؛ اما من الناحية الاجتماعية، فهو ليس سوى اعادة تنظيم اهداف البشر ومؤسساتهم تنظيماً تقدمياً ناجحاً بحيث يسود التعاون المثمر والثقة المتبادلة في التاريخ.

وقد كانت الديانة الحقة، بنظر يسوع، ترتكز الى العقيدة بان الله صديق الانسان الفعال، وصديق كل شعب مهما كان جنسه ونوعه. ان هذه العقيدة تؤدي بنا الى القول بان البشر لا يكونون اصدقاء الله ما لم يكونوا اصدقاء، ليس لاصدقائهم فحسب، بل لاعدائهم واعداء الله ايضاً. هذا هو الذي كان مثال يسوع الاعلى في حياته.

وكان يسوع يكره القيام بالمعجزات والعجائب.. وقد اساء اتباعه حقيقة كونه طبيباً روحانياً وجسمانياً بارعاً في معالجة مختلي العقول والاجسام واخذوها حجة على امتلاكه قوة سحرية، الامر الذي كان يكرهه يسوع تماما. اما اعماله الباهرة، فليست الا نتيجة جسمية طبيعية، لما تملى به من المواهب النادرة في ايقاظ قوى خلقية روحية سيكولوجية في نفوس البشر.

كان يسوع يؤمن ايمانا لا يتزعزع بعاملين في الدين :

اولا : حقيقة نشاط الله اليومي وتأثيره في حياة كل انسان ذي قابلية من الناحية الروحية.

ثانياً : استطاعة كل فرد ان يساهم حقا في هذا النوع من الايمان بالله، على ان يكون ذا تأثير اخلاقي اجتماعي مبدع .

وكان يسوع يعتقد من صميم قلبه ان هذا المبدأ بالايمان القوي سيجعل من الارض فردوساً — وانه اذا ماتوافر الايمان الرشيد يظهر التأثير الالهي في اعمال البشر واتصالاتهم سواء كانت بعضهم ببعض أم بالله .

ولقد عاش يسوع يهوديا ومات يهوديا، ولم يطلق على اتباعه اسم «مسيحيين» الا بعد مرور ١٥ سنة على وفات يسوع، وذلك عام ٤٧ في انطاكيه حين سمي سكان انطاكيه اتباع بولس الرسول « مسيحيون »، لاعتقادهم بأن زعيمهم يسوع هو المسيح المنتظر .

ان دراسة تعاليم يسوع دراسة دقيقة تبين ان المسيحي العادي يؤمن بأن الانسان بطبيعته فاسد، وبأن امله الوحيد بالخلاص هو بهبوط الرحمة عليه من قوة عليا، وبأن المسيح قد صلب ليكفر عن خطايا البشر، وبأن دمه قد هرق على الصليب لغفران خطايا البشر، وبأن الكنيسة هي الباب الذي يجب ان يدخله جميع من يودون الاتصال بالله وبالمسيح . وقد نشأت هذه العقائد جميعها من كتابات بولس، وليس بالامكان اسنادها الى يسوع باي حال من الاحوال؛ فمن يقابل بين عظة المسيح على الجبل وبين رسائل بولس الرسول يظهر له الفرق واضحاً، سواء كان في المعنى أم في المبنى .

ولقد اطلق اليهود تعبير « ملكوت الله » على العالم الذي ينبثق بعد مجيء المسيح . وقد رأى يسوع ان اكثر ما هم بحاجة اليه هو استعداد روحي لكي يدخلوا الى نظام المجتمع الجديد « ملكوت الله على الارض » الذي يحل محل النظام الحالي آنذاك، فنجد ان فكرة هذا الحادث العظيم تتخلل العهد الجديد بكامله . ولقد اثبتت المدونات ان يسوع كان يعتقد مثل كل يهود زمانه بأن الله سينهي هذا العالم باعجوبة ويشيد « ملكوت السموات » بدلا منه، ويعتبر هذا الملكوت المجتمع المثالي الكامل . وقد عنى يسوع « بملكوت الله » هذا المجتمع الارضي المتغير . واننا نجد في الاناجيل تنبؤات عن زمن مجيء ملكوت الله

وعلامات مجيئه. ومع ان يسوع ماشى العقيدة اليهودية القائلة بمجيء «ملكوت الله» التي بعثها النبي «عاموص» فانه انما عنى نظاماً اجتماعياً متغيراً قائماً على قوانين وشرائع جديدة بحتة: «ان لي امورا كثيرة ايضاً لاقول لكم ولكن لا تستطيعون ان تتحملوها الان. اما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم.» (انجيل يوحنا ١٦: ١٢ — ١٣)

انقسام المسيحية الى طوائف

اول مشكلة جابهت المسيحيين كانت مشكلة السلطة والتنظيم. فعند البدء تزعم الحركة المسيحية رجال في طليعتهم بطرس، ويعقوب، وبولس؛ بيد ان هذا التزعم لم يكن ثابتاً مقرراً. ولما اطل القرن الثاني برز الكهنوت الى مقام السلطة. ثم وجدت الكنيسة، مع الزمن، نفسها امام وضع يفرض عليها ايجاد انظمة معينة وعقائد ثابتة. فجمعت، شيئاً فشيئاً، الكتابات المسيحية التي اشتملت على تاريخ حياة مؤسس المسيحية وعلى تعاليمه وتفاسيرها وشروحها كما في الانجيل الرابع وفي رسائل بولس واضيفت الى العهد القديم. وهكذا كانت ايضاً نشأة العقائد الاخرى والطقوس الكنسية المقدسة.

وبالنظر الى الاختلاف في الشكل، فانه لمن الصعب ان نصور حياة الكنيسة المسيحية؛ وانما نستطيع ان نقول بصورة عامة ان الكنيستين المتنافستين كانتا الكنيسة الرومانية او الكاثوليكية والكنيسة اليونانية او الارثوذكسية. وقد نشأ هذا التنافس من جراء قيام امبراطوريتين سياسيتين متنافستين على شواطىء البحر المتوسط: الاولى روما اللاتنية، والثانية روما البزنطية اي القسطنطنية.

اما الكنيسة الرومانية فقد كونت بسرعة نظاماً جيداً ومركزية كاملة في جميع سلطاتها التي حصرتها في رئيس واحد سمي «البابا». وعندما اكتسبت الكنيسة فيما بعد نفوذا سياسيا اعظم، كان من الطبيعي ان يتطلب البابا السلطة الزمنية كما يتطلب السلطة الروحية.

اما اتباع كنيسة روما الجديدة فلم يتوحدوا تحت زعامة واحدة. فبدلا من

ان يكون لهم رئيس واحد كانت الكنيسة تحت رئاسة خمسة بطاركة يقيمون في المدن الخمس الرئيسة في الشرق الادنى. وكان هؤلاء البطاركة نظريا في درجة واحدة. ثم اشتهرت هذه الكنيسة، فيما بعد، بالكنيسة اليونانية التى استعاضت عن النقص في الوحدة الاكليركية بالوحدة في التعاليم والعقائد، بحيث ادعوا انهم ارثوذكس، اي مستقيمو الرأي.

ان الديانة المسيحية بالنظر الى هاتين الكنيستين هي بالدرجة الاولى مؤسسة اكليركية ذات نظام معين الهي وسلطة رسولية تسيطر على وسائل الخلاص المنصوص عنها في الطقوس الدينية المقدسة.

وبما ان يسوع المسيح لم يترك بيانات صريحة بالعقائد المسيحية، كان من الطبيعي ان تنشأ بعده مذاهب شتى من العقائد مبنية على الافكار المبدعة التي غرسها في عقول اتباعه. وقد اصبحت هذه المذاهب كثيرة التعقيد والتشعب، بحيث افسحت المجال للجدل والخصام والاضطهاد. وحسبنا في هذا الفصل ان نذكر اربعة من هذه المذاهب فقط :

ان المؤمنين بعقيدة التجسد يعتقدون ان يسوع شخصية ازلية الهية وانه اتخذ شخصية انسانية عند ولادته في هذا العالم بالاضافة الى شخصيته الالهية، وهكذا اصبح يسوع الى الابد انسانا والها دون ان تنقسم شخصيته.

وقد نشأت فكرة « الثالوث المقدس » كنتيجة للعقيدة الفلسفية السابقة، واخذ اعمق مفكري المسيحية يعتقدون بوجود فروق عملية في هذا الثالوث المؤلف من الاب والابن والروح القدس، اي ثلاثة مظاهر دائمة لحياة الهية متساوية في القوة والمجد. ولا تزال الكنائس المسيحية المختلفة حتى الان، غير متفقة اتفاقا تاما على تحديد هذه الفروق.

وكانت الصلاة في الهيكل ترتكز الى مبدأ تقديم ذبيحة الى الله تكفيراً عن الذنوب، فرأت الكنيسة المسيحية، في العهد الجديد، ان موت يسوع كان اكبر مثال على هذا المبدأ، مبدأ الغفران بواسطة الذبيحة. ومن هنا انبثقت عقيدة

« الغفران العوضي . »

ولا تزال جميع الكنائس القديمة ومعظم الشيع البروتستانتية حتى الان تتمسك بهذه العقيدة، الا ان كثيراً من المفكرين الحديثين يرون انها نشأت في اوائل عهد الوثنية وانها لم تعد فكرة اساسية في الدين .

على ان اعظم الفروق المذهبية في تاريخ الفكر المسيحي هي تلك التي نشأت عن الخلاف حول الفائدة الدائمة للعبادة العبرانية التقليدية القديمة بواسطة الكاهن والمذبح : هل هو من الضروري الاحتفاظ بالمذبح المقدس والاحتفال بالذبيحة وسلطة الكهنة الروحية ونشاطهم الذي لا بد منه، في عهد النظام الجديد الذي اتى به يسوع المسيح ؟ اما الاصلاح البروتستنتي في اواسط اوروبا، فقد اعلن ان هذه الامور قد تحققت جميعها في شخص يسوع وحياته كمخلص، وانها الان لم تعد ذات فائدة في العبادة المسيحية .

اما الخلاف الثاني الهام الذي نشأ بين الكنائس الاسقفية (اي الكنائس التي تعترف بالامتيازات والسلطة الكهنوتية) وبين البروتستانت، فكان حول قضية قانونية الكتب التي وضعها اليهود المتكلمون اليونانية في التوراة واعتبارها منزلة، او الاكتفاء باعتبار تلك التي كتبها يهود فلسطين فقط . إن اغلب البروتستانت اعتبروا ما كتبه يهود فلسطين فقط ورفضوا تلك التي كتبت باليونانية . في حين ان اتباع الكنائس الاسقفية قد تبنوا الكتب الاولى وادخلوها في العهد القديم وسموها « ابوكريفا » اي الكتب الدينية المشكوك في صحتها .

ولما كان البروتستانت نزاعين الى الحرية الديمقراطية في العقيدة الدينية كان من الطبيعي ان يرفضوا سلطة البابا المطلقة وسلطة الكهنة . وقد حصروا السلطة المطلقة في التوراة فاعلنوا ان التوراة هي السلطة العليا التي لا تخطىء في جميع شؤون الايمان والاعمال الدينية .

وفي الواقع ان العالم قد رأى اليوم انه ليست هنالك اهمية قطعية لاي من السلطتين، وذلك استناداً الى ان الطرق التاريخية والعلمية المتبعة في البحث والتنقيب

والتي ادخلت في كل حقل من حقول الحقيقة، تبين تدريجيا لاصحاب العقول الحديثة ان هذا الخلاف خارج من اساسه عن جوهر الموضوع وانه هدام.

يجب ان تكون جميع مصطلحات السلطة ومفهوماتها نامية متطورة كما يجب ان تنمو وتطور جميع انواع المعرفة .

الفصل التاسع عشر

الديانة الاسلامية

ان الغاية من الفصول الاربعة عن الدين هي جعل المواطن يفهم الاديان الاخرى ويقدرها اكثر من ذي قبل، كي لا تقف الفروقات الدينية حاجزا يمنع المواطنين من التعاون والتكاتف في سبيل الخير العام لوطنهم . ونتناول في هذا الفصل دراسة الدين الاسلامي .

نشوء الاسلام

كتب تور أندريا، الاستاذ في جامعة « ابسالا »، في كتابه « محمد الانسان وايمانه » الذي يعتبر درسا علميا لحياة محمد وتعاليمه، ما يلي :

« كانت الوثنية العربية عند ظهور محمد متجهة اتجاهاً قوياً نحو الاعتقاد بتعدد الارواح (Polydaemonism)، فلم تكن الكائنات الآلهية محددة تحديداً واضحاً ومتصفة بذاتية فردية كما كانت الحال في الاديان ذات الآلهة المتعددة، بل كانت كائنات على غرار صغار الظباء الاوروبية، والاقزام، والارواح الارضية، لا تتميز بعضها عن بعض الا بواسطة اماكن سكناها المختلفة. وكما كانت الخرافات الاوروبية تنص على ان لكل بيت صرّار الليل، وان لكل غابة روح، هكذا كان، بحسب العقيدة السامية العربية، لكل بلاد آلهة خاصة، قد تسمى « البعل » او « الآل »، وبامكان هذه الالهة المحلية ان تقطن اشياء خارجية توجد في الطبيعة. وقد درجت العقيدة السامية، كما يظهر من قصص الساميين المقدسة، على اعتبار الاشجار والينابيع اهم هذه الاشياء . وكثيراً ما لجأ الساميون الى تبديل الشجرة المقدسة بعمود خشبي (ashera) ينصب عادة قرب المذبح. كما ان

الحجر المقدس قد يكون صفاً من الصخور او صخراً واحداً يجعل منه مركزه الفريد الذي يحتله موضوعاً مقدساً للعبادة .

وقد كان الحجر الاسود في مكة المكرمة اهم هذه الحجارة المقدسة عند سكان الجزيرة العربية. ويقوم هذا الحجر في الزاوية الشرقية من بناء حجري مستطيل يعرف بالكعبة. وقد ظل هدفاً للعبادة عدة قرون قبل هجرة محمد الى مكة المقدسة التي تعتبر أحد اركان الاسلام .

والى جانب ذلك، فقد توسط هذه العبادة الوثنية الايمان بعدد من الآلهة اللواتي اتصفن بطبيعة بشرية، نخص منهن بالذكر آلهات مكة الثلاث : منات واللات، والعزى .

ثم يقول تور اندريا: «ومهما يكن من أمر، فقد كان العرب القدماء يؤمنون بأن فوق تلك الآلهة جميعاً — هذه الآلهة التي تحتل فيها الاناث منها مركز الصدارة — إلهاً واحداً كلي السلطة خالق العالم وحاكمه. وهكذا فانه عندما اعلن محمد « ان لا اله الا الله » لم يأت باله جديد، لان ابناء بلاده الوثنيين قد عرفوا هذا الاله واقروه. اما اسمه « الله » فقد ورد قبل محمد في النقوش والاسماء المركبة كاسم عبد الله. على ان اهم ما جاءت به تعاليم محمد في هذا الشأن هو استطاعته ان يلوم الوثنيين على انهم بالرغم من اقرارهم بان الله هو خالق السماء والارض، لم يتمكنوا من الوصول الى النتيجة الوحيدة التي توصلهم اليها هذه العقيدة، وهي ان يعبدوا الله فقط دون سواه . . . »

رسالة محمد الدينية

ان تعاليم النبي الدينية مودعة في القرآن الكريم — كتاب المسلمين المقدس . ويعتقد المسلمون بان كل كلمة من كلمات القرآن، بل كل حرف فيه، منزل : فان الله كان يملي على محمد بواسطة النبي جبرائيل من قبة لا تزال محفوظة في السماء السابعة . وتعني كلمة قرآن في العربية « كتابا يقرأ جهرا لكي يسمعه الناس ». وقد استعملت كلمة « مِقرى » في العبرية، التي تشابه كلمة قرآن، لتعني القانون عندما

يقرأ جهراً . وكانت عقول جماهير العرب تدرب وتعلم في ذلك الزمن بواسطة السمع لانهم لم يعرفوا القراءة والكتابة. وانه لعسير علينا ان نتصور الغبطة التي شعر بها اتباع محمد عندما عرفوا انهم قد اصبحوا بفضله اصحاب كتاب يلائم وضعهم كل الملائمة. فلم تعد بهم من حاجة لان يحسدوا « اهل الكتاب » وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على اليهود والنصارى في ذلك العهد. لقد سمي النبي محمد الكتاب اعجوبته فكانت تسمية موفقة جدا. ففي اللغة العربية ليس له نظير، وقوته الادبية في العربية يصعب نقلها الى اية لغة اخرى .

لقد كلف ابو بكر الصديق، الخليفة الاول، بعد وفاة الرسول بسنة واحد زيدا ابن ثابت الذي كان كاتم اسرار النبي، ان يجمع اجزاء القرآن المبعثرة . ويقال انه جمعها من مصادر مختلفة من على اوراق النخيل وصفائح الحجارة البيضاء ومن صدور الناس. والظاهر ان زيدا المذكور جمع هذه الاجزاء ورتبها بترتيب عثوره عليها، وكثيراً ما كان لا يراعي اكتمال الموضوع . فان السور، كما وردت في المخطوطات العربية، لم يراع ورودها اي ترتيب زمني. فقد وردت سور «المدينة» المتأخرة قبل سور «مكة» التي انزلت قبلها، كما ان السور القصيرة التي وضعت في آخر القرآن الكريم هي اقدم سوره. وهكذا يبدو لنا ان النظام الوحيد الذي سار عليه زيد في ترتيب سور القرآن هو نظام وضع السور الاطول والاشهر مباشرة بعد الفاتحة .

ولما ظهرت صور للقرآن محرفة عن النسخة الاولى قرر عثمان ابن عفان ان يجمع نسخة تكون المرجع الاوحد، وتكون باللغة المكية الصرفة التي كان يتكلم بها محمد، فكلف زيدا وجماعة من زملائه القيام بهذا الجمع . وعندما اكتمل جمع هذه النسخة ارسلت نسخة منها الى المراكز الرئيسية في المملكة الجديدة واحرقت جميع النسخ السابقة .

لقد قال محمد عندما شاء ان يعلن مضمون دينه باقصر عبارة ممكنة ما يلي : « انه الايمان بالله وبالآخرة ». وقد كان الهه الحاكم العادل الكلي القدرة. كل ما في السماء وما في الارض يسبح الله ، وهو القادر الحكيم. السماء والارض

ملكوته، يحيي ويميت وله السلطة على كل شيء؛ هو الاول والاخر، الظاهر والخفي ولكنه في الوقت نفسه واسع الرحمة فهو ارحم الراحمين. وتبدأ جميع سور القرآن بهذا الدعاء: «باسم الله الرحمن الرحيم». والله ذو سلطة وارادة حرة لا تحدان. ولا يمكن لهذه الارادة — وهي سبب كل بقاء واساسه — ان تغلب او تتأثر بعصيان الشعب وعدم طاعته. فلا يستطيع الانسان ان يثور ضد ارادة الله ويفسد خطته لخلاص العالم. اما ثورة الانسان الذي لا اله له، تلك الثورة الهائلة، فهي نوع مخزٍ من خداع النفس، ذلك لأنه يستطيع ان يعمل فقط ما حكم به الله. ويؤكد للمؤمن في الوقت ذاته ان هذه الارادة التي لا يمكن ان يسبر غورها، هي في جوهرها البركة والرحمة. وتظهر رحمة الله بجلاء في تكرمه وفي غفران خطايا غير المؤمنين اذا ما تابوا عنها وعملوا ما يتطلبه الايمان الجديد. وهو ليس بالمنتقم الجبار الذي لا يرحم بل يصر على التكفير عن كل ذلة صغيرة كانت ام كبيرة. وتذكرنا هذه البادرة بان محمدا (صلعم) كان ذا طبيعة كريمة وانه كان قادرا ان ينسى الماضي، وكان دائما يبرهن على انه يستطيع ان يكسب اعداءه السابقين بكرم اخلاقه وكبر نفسه.

وقال محمد: «ان الخضوع الى ارادة الله هو جوهر التدين والتقوى. ان الدين هو في الدرجة الاولى الاستسلام الى الايمان». وقد عبر محمد عن هذا الاستسلام، استسلام المؤمن الى القوة الالهية «بالاسلام». «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي لله رب العالمين. لاشريك له وبذلك أمرت وانا اول المسلمين.» (سورة ٦ الاية ١٦٣) ولقد جاءت تسميته لهذه الديانة الجديدة صحيحة كل الصحة. «ان دين الله الحقيقي هو الاسلام» واولئك الذين اعطوا الكتاب المقدس لم يختلفوا الا بعد ان اتتهم المعرفة: «ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اتوا الكتاب إلا من بعد أن جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن». (سورة ٣٥: ١٧ — ١٨).

ولقد عظم النبي يوم الدينونة؛ ففي كل صفحة من القرآن الكريم تقريبا تجد ذكرا لذلك اليوم العظيم، الذي هو ليس بنظره حادثا بعيدا في المستقبل المجهول

مرتبطا بدائرة تختلف عن الحوادث الدنيوية ، بل هو حقيقة على وشك الوقوع؛ بيد ان الله وحده يعرف متى يتم ذلك .

وتصف السور الاولى من القرآن يوم الحشر العظيم وما سيعقبه من مكافآت وعقوبات، بعبارات قصيرة قوية ذات نغم موسيقي. فهو يوم الله، وسيصرخ الناس فيه قائلين اين لنا من مأوى نلجأ اليه ؟ على انهم عبثاً يجدون إلا الله : « يقول الانسان يومئذ اين المفر، كلاّ ولا وزر، إلى ربك يومئذ المستقر » (سورة ٧٥ الآية ١٠ و ١١ و ١٢)

ويظهر عرش الله تحمله الملائكة :« وجوه يومئذ ناضرة، الى ربها ناظرة . . . » (سورة ٧٥ الاية ٢٢ و ٢٣) .

وليس المهم بنظر محمد متى سيأتي ذلك اليوم، انما المهم تأكده بانه آت. ويجب ان يعيش الناس ويفكروا ويعملوا كأن يوم الدينونة ماثل امام اعينهم متأكدين من حقيقته اكثر من تأكدهم من اي شيء آخر في هذا العالم الفاني .

ويقول تور اندريا : « ان ما جعل النبي متأكدا بان الدينونة والعقاب امران واقعان بلاريب هو شدة ايمانه الفياض بآله يوم الدينونة، ايمان بجلاله الذي لامثيل له، وبحقه الذي لا حدله في معاقبة اولئك الذين خالفوا ارادته السامية. اما جوهر الموضوع الحقيقي في تعاليم محمد فتتأصل، قبل كل شيء، في اختباره الديني، وفي تقواه الشخصية الفريدة العظيمة .»

ان الواجب الاول على المسلم هو الاعتقاد بان« لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله » والخطيئة العظمى هي عدم الايمان بهذه العقيدة الاسلامية. ولذلك نجد اشد الانذارات هولاً في القرآن الكريم هي تلك التي وجهت لغير المؤمنين. لقد بغض محمد الأوثان، وعندما دخل مكة، في العام الثامن للهجرة، ذهب الى الكعبة مسلحا وابو بكر الى جانبه، فلما وصل الى المسجد لمس الحجر الاسود بعصاه وصرخ قائلا: « الله اكبر » فانتشرت هذه العبارة بقوة فائقة ورددتها جميع جيوش المسلمين، ثم دار حول الكعبة ونزل من على جمله وطلب مفاتيح المسجد وحطم

الاصنام داخله وخارجه، وخاطب جمهور المسلمين المحتشدين، والمفتاح لا يزال في يده، معلناً أن عهد الوثنية قد انتهى، وانتهى معه اهراق الدماء؛ أما الديون وغيرها من الواجبات المتعلقة بهذا العهد، فقد الغيت ايضاً مع جميع امتيازاته: « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (سورة ٤٩ الآية ١٢)

أما الواجبات الدينية الخمسة التي تتحتم على كل مؤمن فهي الاتية :

١ – الايمان بان « لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله » .

٢ – الصلاة والوضوء يومياً كلما اذّن المؤذن داعياً المؤمنين الى الصلاة .

٣ – الزكاة وهو الاحسان الى الفقراء والمحتاجين . ويكون في شهر رمضان، هذا الشهر الذي هاجر فيه النبي من مكة الى المدينة .

٤ – الصوم .

٥ – الحج الى مكة المكرمة

وقد امر النبي بمنع الاخذ بالثأر وبان يعامل المسلمون كاخوة، وانشأ ديمقراطية في الدين بين اتباعه جعلها العامل الاساسي الدائم في جميع علاقات البشر بالله وببعضهم البعض ضمن حدود الاسلام .

وانشأ محمد الجامع ليكون مكان التعبد والقيام بالصلاة كما انه افرد يوماً في الاسبوع للقيام بالصلاة العامة . وقد اختار النبي يوم الجمعة لكي يكون للمسلمين يوم خاص الى جانب السبت والاحد المخصصين لليهود والنصارى . وهنالك رواية تنص على ان هذا الاختيار تم لان هجرة النبي من مكة الى المدينة بدأت يوم الجمعة .

اما السنة المحمدية فهي سنة قمرية : نصف أشهرها تتألف من ٢٩ يوماً، والنصف الاخر من ٣٠ يوماً، فيكون مجموع ايامها ٣٥٤ يوماً . وبعد كل ٣٠ سنة تأتي احدى عشرة سنة « كبيس » تتألف من ٣٥٥ يوماً . ولذا كانت السنة المحمدية تتبدل بالنسبة الى السنة المسيحية بحيث يكون الفرق بينهما في القرن الواحد ثلاث سنوات ونيف . اما التاريخ الهجري فيبدأ بنقطة ثابتة تعرف بالهجرة، هجرة النبي من مكة،

التي وقعت عام ٦٢٢ ميلادية .

ومن تعاليم الاسلام الامتناع عن المسكرات؛ فالسكر يعتبر رذيلة كبرى .

وقد اوصى محمد بمعاملة العبيد بلطف ورأفة وقال بان تحرير عبد يعد عملاً صالحاً .

وحرَّم القرآن عادة وأد البنات الاطفال، تلك العادة التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية . وحاول محمد باخلاص ان يرفع مستوى المرأة، فأصر على المسلمين بان يكبحوا جماح انفسهم ويتحلوا بالعفة ويعاملوا نساءهم بلطف وعدالة .

بيد ان عادة تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، والاخذ بالثأر، وما الى ذلك، فقد كانت متأصلة في الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جداً بحيث لم يكن بالامكان البتة القضاء عليهـا كلها دفعة واحدة. وجل ما كان بامكان محمد صنعه هو تعديل بعض هذه العادات لكي يرفع مستوى شعبه الديني والاخلاقي . وقد قال بهذا الصدد القس « رودوال » الذي ترجم القرآن الى الانكليزية منذ بضع سنوات، ما يلي :

« يجب ان يقاس فضل القرآن من حيث انه مجموعة من القوانين ونظام للتعاليم الدينية، بالتغيير الذي ادخله على عادات الشعب الذي آمن به وعقائده، وبالقضاء على الاصنام، وباستبدال عبادة قوى الطبيعة وقوى الجن بعبادة الله، وبالقضاء على عادة قتل الاطفال وعـلى كثير من الخرافات، وبتقليل عدد الزوجات الى حد معين، الخ — لقد كان بركة لا ريب فيها الى العرب . . . »

ولم يكن رأي محمد بالكتاب المقدس جامداً لا يقبل التطور؛ فالكتـاب بنظره لم يعط الى البشر بشكل ثابت لا يقبل التبدل؛ وعلى هذا فلكل شعب الحق في ان يساهم بالارشاد الروحي والادبي الذي يقدمه الكتاب المقدس، لذلـك كان لكل شعب كتابه المقدس ونبيه، ولا تختلف هذه الكتب من حيث روحيتهـا واهدافها بعضها عن بعض . فكل كتـاب يقر الكتب التي سبقته . فقد اقر يسوع الوحي الذي انزل على موسى كمـا اقر محمد الوحي الذي انزل على موسى والمسيح . « قل آمنا بالله وما انزل علينا ومـا انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق

ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » (سورة ٣ الآية ٧٨) .

الفروق المذهبية في الاسلام

يبدو ان نصيب التعاليم التي جاء بها المصلحون العظام ان تصبح سبباً لسوء التفاهم والخلاف بين اتباعهم ؛ هذا ما حدث لبوذا وسقراط وموسى والمسيح ومحمد . فلم يترك احد من هؤلاء المصلحين العالميين تعاليم ثابتة معينة لتكون دستورا لايمانهم ، كما انهم لم يتركوا نظاما اداريا يتميز عن النظام الروحي . ولم يمنح احد من الكتب المقدسة القديمة سلطة لاولئك الزعماء والمجالس التي ادعت حق تفسير تلك الكتب فيما بعد . فلو منحوا تلك السلطة او الصلاحية لاخرصوا اولئك الذين اتوا فيما بعد وانكروها عليهم فسببوا بعملهم هذا الاختلافات المذهبية التي لا تزال حتى يومنا الحاضر . ولم يقم احد من اتباعهم بدرس جميع التعاليم التي اعطاها لهم معلموهم العظام لانهم لم ينظروا الى الاشياء نظرة شاملة كما فعل معلموهم .

واذن ، فلا غرابة ان انقسم الاسلام كما انقسمت بقية الاديان من قبله ؛ واهم اقسامه هما الشيعة والسنة . اما الخلاف الجوهري بينهما فهو حول العقيدة بالامامة ، وهي لقب خلفاء محمد الاثني عشر الاوَل ؛ في حين ان الخلافة ، بحسب عقيدة الشيعة ، هي مسألة روحية يمنحها الله فقط ، وقد منحها اولا الى نبيه ثم الى خلفائه من بعده ، وهي لا علاقة لها بالانتخاب كما يعتقد السنّة عند اختيار خليفتهم .

وهكذا فان مسألة استمرار السلطة الروحية بعد وفاة النبي قد شقت اتباع محمد الى معسكرين كبيرين بعد وفاته .

لقد انتخب ابو بكر ، وهو رجل روحاني مخلص ، باكثرية اصحاب الرسول ليكون الخليفة الاول . ثم انتخب بعده عمر وعثمان ، وقد كان الثلاثة ذوي اخلاق ممتازة وشخصيات قوية وايمان لا يتزعزع .

وقد كان حق هؤلاء الثلاثة بالخلافة في نظر الشيعة وهم اتباع علي صهر الرسول مغتصب ؛ اما علي فلم يعطَ حقه وينتخب للخلافة الا بعد مرور ٢٣ سنة على وفاة

الرسول . ولم تمض خمس سنوات على خلافته حتى قتل بمؤامرة كان القائمون بها يستهدفون قتله مع كثيرين من مزاحميه ولكنهم نجوا جميعاً الا عليًا .

ثم انتخب حسن بن علي الاكبر ليكون الخليفة، الا انه استقال متنازلا لمعاوية، معتمدا على وعد الاخير بان يخلفه من بعده . غير ان يزيد بن معاوية نقض هذا الاتفاق، فنشأ الخلاف بينهما واستمر اتباع علي بمناصرة الحسين اخ الحسن الى ان فوجيء الحسين وقليل من اتباعه باربعين الف فارس في سهول كربلاء قرب الكوفة فقتل بعد مقاومة عنيفة ودفاع جبار . ويعتقد الشيعة ان موت الحسين واتباعه كان بمثابة تضحية لغفران خطايا جميع لمسلمين . وهكذا ادخل الشيعة نوعاً جديداً من العبادة الى الاسلام جعلهم منفصلين عن السنة فيما بعد .

وتبدأ لأئمة الاثنا عشر عند الشيعة بعلي، وكلهم ملهمون يتصفون بميزات الهية . كما ان الشيعة انهم يعتقدون بمجيء امام عظيم ملهم في المستقبل اسمه المهدي او القائم وسيكتمل برجوعه تجديد العالم .

الحركة الوهابية

ومصدر هذه التسمية محمد عبد الوهاب الذي ولد عام ١٧٢٠ ميلادية في نجد . وقد اعتقد ان الدين الاسلامي كما يطبقه المسلمون في ذلك الوقت قد فسد، فقرر ان يعيده الى الاسس الاولية التي نشأ عليها معتمدا بذلك الى القرآن والسنة فقط . قال « دوزي » : « لقد هاجم الوهابيون عبادة محمد بالطريقة الوثنية، كما هاجموا بشدة عبادة القديسين . وقالوا ان جميع البشر متساوون امام الله، وليس بامكان اي منهما كان تقيا ومتعبداً ان يتشفع لديه، فمن الكفر اذن ان نستغيث بالقديسين ونمجد آثارهم ونعبدها » . وكان من نتيجة هذا الاعتقاد انهم حطموا كثيرا من القبب والمقابر المزخرفة التي كانت تمثل اكثر القديسين احتراما وقد اصبح الوهابيون في آخر القرن الثامن عشر اقوياء جدا تحت قيادة عبد العزيز بن محمد بن سعود، فاحتلوا الحجاز بكامله عام ١٨٠٣ بما فيه مكة والمدينة . ولكن عبد العزيز اغتيل في تلك السنة فخلفه ابنه الاكبر سعود، فاخضع القسم الاعظم من الجزيرة العربية الى سلطانه . وفي

عام ١٨١٨ قهر الاتراك الوهابين واحتلوا عاصمتهم درعيا ولكنهم استعادوا حريتهم بعدذلك بحوالى ٢٠ سنة. وهم يسيطرون اليوم على القسم الاكبر من الجزيرة العربية .

الفصل العشرون

الاديان الاخرى

ان الغرض من هذا الفصل تعريف الطالب بان الاديان والتعاليم الدينية لم تظهر في العالم السامي فحسب، كما اشارت الفصول السابقة، بل ساهمت في ظهورها بلدان اخرى. وقد كانت الاديان الاتية ولا تزال تؤثر في حياة الملايين من البشر في انحاء العالم جميعاً.

الزردشتية

كان « زرديشت » من كبار المعلمين في الشرق، فهو مؤسس ديانة الفرس. اما العصر الذي عاش فيه فلا نعرفه بالضبط، وقد قيل انه ولد في « بكتريا » لعدة قرون خلت قبل المسيح، يرجح بعض الثقاة انها لا تقل عن العشرة. ويقال انه اعتزل الناس في شبابه وانصرف الى التأمل والتفكير، ثم بدأ التعليم في سن الثلاثين.

ان تعاليمه الدينية مجموعة في كتاب مقدس يدعى زيند — افستا. وقد جاء في هذه التعاليم ان هناك قوتين او كائنين فوق الانسان: قوة للنور والخير التي تتجسم في شخصية (اهورا مازدا) (رموزد)، وقوة الظلام والشر التي تتجسم في شخصية (اورا مايانيو) (اهريمان)؛ وان هاتين القوتين في نزاع مستمر وحرب دائمة. وتنزع تعاليم زرديشت الدينية والاخلاقية الى تغلب قوة الخير على قوة الشر.

وكانت عقيدة زرديشت جوهر الاخلاق العملية، اذ لا يستطيع الانسان ان يبلغ الخلاص الروحاني بالتأمل والتجرد والابتعاد عن الناس، بل بالشجاعة والاستقامة، وبعمل الخير الحقيقي وبالقيام بالاعمال النافعة، وبملاطفة الحيوانات

والقيام بكل ما يجعل العالم افضل واسعد .

وها اننا نقتطف بعض الفقرات من كتاب (زندا فستا) :

« كيف يمكني ان اعلن على الملأ مديحك وتسابيحك وترانيم الروح الصالحة ايها الاله الحكيم . »

« اسمع باذنيك ما هو الافضل ، وادرك بعقلك ما هو نقي حتى يستطيع كل انسان ان يختار عقائده قبل يوم الدينونة العظيم ، ولتكن الحكمة رائدنا . »

« ان تلك الارواح القديمة التي هي توأمان ، قد عرفتنا ما هو صالح وما هو شرير في الافكار والاقوال والاعمال ، فالصالحة منها هي التي ميزت بين الاثنين لا الرديئة . »

« دعنا نكون اذن من اولئك الذين يرفعون شأن هذا العالم ايها الروح « اهورا مازدا » ، باركنا ايها الروح « اشا » الصادق ، دع عقولنا تكون حيث تكون الحكمة . »

« ان طهارة الانسان من حيث الاهمية تأتي بعد الحياة ، فهي خير شيء في الحياة ، ويمنح قانون مازدا تلك الطهارة الى من ينقي نفسه بالافكار والاقوال والافعال الصالحة . »

ولا تزال فئة قليلة من اتباع « زرديشت » تعيش في الهند حيث لجأت بعد دخول الاسلام الى العجم ؛ ويعرف افرادها باسم « بارسيس » ؛ وهم يقطنون في الدرجة الاولى مدينة بومباي ، تلك المدينة التجارية الكبرى ، حيث يتزعمون حركة التجارة والانتاج والصيرفة والتعليم .

ولقد سيطرت ديانة « زرديشت » ردحاً طويلا من الزمن على آسيا ، وهي دين الملك كوروش العظيم الذي قهر بابل واعتق اليهود من الاسر وسمح لهم بالرجوع الى بلادهم ، كما كانت دين « احشويروش » ملك الفرس الذي غزا اليونان بعد نصف قرن من تاريخ احتلال بابل .

البوذية

نشأت البوذية في الهند حوالي القرن السادس قبل المسيح. وكان مؤسسها شاباً من انسال الامراء، اختلف الثقاة حول تاريخ ولادته، فمنهم من قال بين عامي ٥٦٠ و ٥٥٧ ق. م، ومنهم من قال عام ٦٢٠ ق. م، او عام ٦٢٨ ق. م. وقد توفت والدته، واسمها « مايا »، بعد ولادته ببضعة ايام، فقامت على تربيته عمته « برجاباتي ». اما اسم قبيلته فقد كان « كوتاما » وقد سماه والده « سيدارثا » اي « من تحقق به الامال والرغبات ». اما لقبه « بوذا » ومعناه « المنوّر » فقد ناله بعد ولادته بزمن طويل.

لقد قضى الامير الصغير قسما كبيرا من حياته الاولى في التأمل والتفكير، وكان يهتم كثيراً بتتابع جميع المخلوقات وآلامهم، فاعتبر حياته وقفا لايجاد حل لهذه الآلام وخلاص البشر منها ومن احزانهم كي يصلوا الى الـ « نيرفانا » اي السلام التام. وقد خشي والده — ملك « كابيلا فستو » وهي مملكة بالقرب من حدود « اوذ » « ونيبال » — ان ينصرف ابنه عن الاهتمام بالعرش وولاية العهد، فزوجه وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره، الى اميرة جميلة اسمها « ياسوهارا » فعاش معها اثنتي عشرة سنة في قصر منيف مزود بجميع وسائل الراحة والرفاه. بيد انه كان تحت حراسة شديدة كما لو كان سجينا. ولما بلغ الثلاثين كانت لا تزال افكاره مأخوذة بخطأ الوجود، وبعدم الرضى بروابط هذا العالم، فهجر امرأته وابنه الوحيد في احدى الليالي وانضم الى جماعة من النساك. ثم انسحب الى قرية صغيرة وعاش مع خمسة تلاميذ لمدة ست سنوات انقطع فيها الى التقشف التام. ولكنه اقتنع خلال هذه المدة ان الطريق الى الخلاص ليس في تعاليم براهما التي تنص على تعذيب النفس والجسم وتحمل التضحيات الكبيرة.

وقد مرت به محنة شديدة جدا في هذا الدور من حياته، كما تنص الاسطورة، فقد حاول « مارا » امير الظلام بواسطة الخطيئة ان يزيح « كوتاما » عن مبدئه، ولكن « كوتاما » بعد ان جلس بضعة اسابيع تحت شجرة « بو »، شجرة الذكاء، منصرفا الى التأمل العميق، انتقل الى حالة من التنور والالهام ساعدته على ايجاد

الحل لمشكلة الآلام العامة. وهكذا فانه بعد ان بلغ « نيرفانا » السلام التام، قضى الاربعين سنة الاخيرة من حياته في التبشير برسالته. فرجع اولا الى امرأته التي كانت اول المؤمنين به، ثم تنقل في مختلف انحاء الهند الشمالية حيث اكتسب الاتباع الكثيرين. وقد مات في امن وسلام وهو في الثمانين من عمره؛ ويذهب بعض الثقاة الى القول بانه مات في الخامسة والثمانين.

وتقوم « البوذية » على الحقائق النبيلة الاربعة التي يمكن تلخيصها بان الالم لا ينتهي الا بالا « نيرفانا ». اما طريق الوصول الى الا « نيرفانا » فهو فقط باتباع طريق ذات ثمانية شعب: ان تكون آراء المرء صحيحة وشعوره صحيحا، وان يكون كلامه وسلوكه وطريقة معيشته وجهوده وذكرياته وتفكيره صحيحة. ويمكن ان تجمع هذه العقائد بكلمة كبت النفس او نكران الذات، اي التخلص من الروابط التي تبعث الآلام والتعاسة.

اما كتاب البوذية المقدس فهو « تربيتاكا » او السلات الثلاث، وهو يشتمل على جميع تعاليم بوذا. وفيما يلي نورد بعض تعاليمه:

« تغلب على الغضب باللطف والوداعة، وعلى الشر بالخير، وعلى الكذب بالصدق. »

« لا تحاول كشف عيوب غيرك بستر عيوبك. »

« كل شيء طاهر بنظر العفيف الصالح، فلا تظنن اذن ان العري والصوم والنوم على التراب يجعل القذر نقياً طاهرا، لان العقل يظل كما هو لا يتغير. »

« ان المحارب الذي يخضع نفسه ويكبح جماحها، لهو اشرف من الذي يتغلب على الالوف في ساحة الوغى. »

والبوذية اكثر اديان آسيا انتشارا، ويقدر عدد اتباعها بثلث عدد سكان العالم. ومما يدعو الى الاستغراب انها تكاد في الوقت الحاضر تكون منقرضة في البلاد التي نشأت فيها. فبعد ان ظلت مسيطرة في الهند حوالى ١٥٠٠ سنة، انتقلت الى سيلان وبرما وسيام والتيبت والصين ومنغوليا ومنشوريا واليابان.

الديانة الكونفوشيوسية

كان كونفوشيوس حكيما صينياً عظيما، ولد عام ٥٥١ قبل المسيح. مات والده وهو لا يزال في الثانية من عمره، فقامت امه بتربيته وتعليمه. وقد تقلب عندما اصبح رجلا في المناصب الآتية: مدرس، وحاكم، ووزير، فقام بها جميعها قياماً ناجحاً وتمم واجباته بحكمة وتعقل. بيد ان فساد الشؤون الاجتماعية والفوضى العامة المنتشرة آنذاك في البلاد اجبرته على الاستقالة من هذه المراكز واحداً بعد الاخر. ولما بلغ الرابعة والخمسين قام مع جماعة صغيرة من التلاميذ المؤمنين بالتجول من ولاية الى ولاية ومن بلاط الى بلاط، يعلم الاخلاق والآداب. وقد خصص سني حياته الاخيرة لجمع الكتابات الصينية القديمة ونشرها. وفي عام ٥٧٨ قبل المسيح ادركه الاجل وهو في الثالثة والسبعين من عمره.

يعتقد الكثيرون بان مذهب كونفوشيوس نظام اخلاقي اكثر منه نظاماً دينياً. واذا اخذنا بهذا الاعتقاد استطعنا ان نصفه بكونه مجموعة عظيمة من التعاليم العملية او مجموعة من التعاليم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية، توافق الحكومة والفرد والبيت والمجتمع والدولة. وكان كونفوشيوس يؤمن بان البحث في الحياة الثانية عبث لا طائل تحته. ويروى عنه بهذا الصدد انه قال مرة الى احد تلاميذه «ما دمت لا تعرف الحياة نفسها فكيف تستطيع ان تعرف الموت؟» لقد كانت تعاليمه عملية جداً، وفي الدرجة الاولى عقلية وانسانية. وها انا نثبت فيما يلي تحديده للقاعدة الذهبية، على اثر سؤال وجهه اليه «تسي كنك» احد تلاميذه: «هل من كلمة واحدة تكون قاعدة لعمل الانسان طيلة حياته؟» فاجابه المعلم: اليست كلمة المقابلة بالمثل هي ما تقصد؟ لا تصنع بالاخرين ما لا تريدهم ان يصنعوا بك.»

ولقد حاول كونفوشيوس جهده ليعلم البشر كيف يعيشون؛ فاتصفت تعاليمه باسمى ما توصل اليه الادراك في حقل الادب والاخلاق كما يظهر في العبارات الاتية:

« لتكن فيك محبة التكلم عما هو صالح في الاخرين . »

« ان التعلم الذي لا يستوعبه الفكر هو مجهود ضائع ، والفكر الذي لا يدعمه التعلم هو خطر . »

« المعرفة هي ان تمسك عن القول بانك تعرف ، وأن لا تمسك عن القول بانك تجهل . »

« لا يستطيع ان يقنع الآخرين ويؤثر فيهم ، الا من كان اشدهم اخلاصاً . »

« اذا كان امرؤ لا يستطيع اصلاح نفسه او خدمة الاخرين ، فكيف يستطيع ان يصلح الاخرين أو يخدم الله . »

« لا فضيلة اسمى من ان تحب جميع الناس على السواء ، ولا هدف للحكومة ارفع من ان تعمل الخير للجميع على السواء . »

الهندوسية

الديانة البراهمية هي ديانة الهند القديمة ؛ ويرجح ان عمر كتابها المقدس ٤٠٠٠ سنة ، ويدعى « ريق — فيدا » اي « المعرفة » او « الحكمة » ، ويتألف من ترانيم دينية ألفها المهاجرون الآريون النازحون الى الهند ، وهي مزيج من عبادة الارواح وتعدد الالهة ، وعبارة عن مديح الطبيعة وعبادتها او تجسيم القوى الطبيعية التي يعتقد بها البشر . اما من حيث قيمتها الشعرية فهي جذابة في خيالها وفي الافكار التي تحتويها ، وملأى بروح الحيوية والبهجة والظفر ، كما انها زاخرة بسحر العراء وجمال الطبيعة والسماء والجبال والسواقي والفجر والماء والبرق والمطر والغيوم والقطعان والمواشي .

ولقد اضيفت ثلاثة كتب الى الكتاب الاول وكتابات كثيرة عن التأمل الروحي والاخلاص التام والفكر الفلسفي العميق ومجموعات القوانين والتعاليم الادبية والاشعار الحماسية العظيمة ، والروايات التمثيلية والاناشيد والقصص والمواعظ وتختلف الكتابات عن شتى المواضيع الادبية والصفات الاخلاقية والدينية .

والغريب في هذه الديانة انه لا يعرف لها مؤسس . ومن بين الالهة المتعددة التي يعبدها البراهميون يجب ان نذكر ثلاثة منها تكون ثالوث البراهمة : « براهما » الخالق ، « فشنو » المنقذ ، و « سيفا » المدمر .

ويعتبر البراهمة ان « فيدا » اي كتبهم المقدسة منزلة من الله ، وفيما يلي نثبت بعض الفقرات منها :

في البدء كان مصدر النور الذهبي ،
ذلك الذي يمنح الحياة ، ذلك الذي يمنح القوة ،
ذلك الذي يشتهي جميع الالهة الاذكياء بركته ،
الذي في ظله الخلود وفي ظله الموت ؛
ذلك الذي اسس السموات والذي قاس النور في الهواء . »

« بالماء نقاوة الجسد ، اما نقاوة العقل والفكر فبالصدق . ان مصباح الصدق هو مصباح الحكيم . »

« لا تصنع شرا للاخرين اذا كنت لا تود ان تلاحقك الاحزان . »

ان كلمة البراهمية في عصرنا الحاضر ترادف كلمة الهندوسية ، لانها تحولت اليها بعد مرور قرون طويلة . وقد عرفت الاخيرة بكونها تلك المجموعة المختلفة والمتناقضة ، الموحدة والمتجانسة ، من الايمان الديني والعبادات والطوائف والخرافات والتقشف والفلسفات والتقوى . وهي الديانة التي يدين بها اليوم ٢٠٠٠٠٠٠٠ شخص من اصل ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ شخص من سكان الهند .

البهائية

اول من بشر بالديانة البهائية هو الميرزا علي محمد من شيراز ، الملقب بالباب . وقد اعلن عام ١٨٤٤ رسالته المزدوجة اي انه مظهر امر الله المستقل والمبشر بمجيء من هو اعظم منه . وقد اعدم رميا بالرصاص علناً عام ١٨٥٠ في مدينة تبريز وهو في الواحدة والثلاثين من عمره ، ثم نقل جثمانه بعد مدة طويلة وصعوبات جمة الى حيفا حيث وضع في ضريح فخم على جبل الكرمل بناه له خصيصا عبد

البهاء ابن بهاء الله مؤسس الديانة البهائية .

وقد اعلن بهاء الله – الذي بشر بمجيئه الباب – رسالته عام ١٨٦٣ حين كان منفيا في بغداد، حيث وضع مبادىء تلك المدنية السماوية الجديدة . ويعتقد اتباعه ان هذه الرسالة كانت بمثابة التصريح بان الوحي السماوي مستمر ومتواصل . وهم يعتقدون : ان الهام بهاء الله سماوي الاصل، شامل، علمي في طريقته، انساني في مبادئه، وفعال في تأثيره على القلوب والعقول البشرية؛ وبأن رسالته تمثل مبدأ الوحدة البشرية باعتبارها هدف التطور البشري بكامله .

بيد انه صادف مقاومة شديدة وعومل بقساوة مريرة، فجرد من املاكه وحقوقه ونفي الى العراق ثم الى ادرنه، واخيرا سجن في قلعة عكا حيث مات عام ١٨٩٢ وهو في الخامسة والسبعين من عمره . فوضع في مزار مقدس في « البهجة » شمال عكا .

اما تفسير تعاليم بهاء الله فقد ترك لابنه الاكبر عبد البهاء الذى اختاره والده ليكون المرجع الذي يرجع اليه جميع البهائيين للتعلم والارشاد . وكان عبد البهاء رفيق والده الدائم؛ فقد تبعه الى المنفى ثم سجن معه وظل سجينا حتى عام ١٩٠٨ حين وقع الانقلاب في تركيا واطلق سراح المجرمين السياسيين والدينيين، فاقام في فلسطين، ثم قام برحلات واسعة في مصر واوروبا واميركا لبث تعاليم والده وترويجها وشرح مبادئها، ولتوجيه اعمال رفاقه واتباعه . وقد وافته المنية في حيفا عام ١٩٢١، ودفن في القبو نفسه الذي يرقد فيه مقام الباب، على جبل الكرمل .

ولقد انتشر الدين البهائي في اكثر من اربعين دولة؛ وتم الاعتراف بالبهائية مؤخراً دينيا ومدنيا، في بلدان كثيرة . وليس للبهائية كهنة، بل نظام اداري يمكنها من تحقيق وحدة الايمان والعمل في سبيل تحقيق هدفها الاسمى، الا وهو وحدة البشرية .

ولما كانت كتابات بهاء الله كثيرة بحيث تملأ مجلدات ضخمة، فاننا نكتفي هنا بذكر مبادئه الرئيسية :

١ – التحري المطلق عن الحقيقة ونبذ كل الخرافات والتعصبات .

٢ – وحدانية الجنس البشري، فجميع البشر اوراق شجرة واحدة وازهار حديقة واحدة .

٣ – يجب ان يكون الدين مبعث المحبة والتآلف والا فهو ليس بدين .

٤ – جميع الاديان راحدة في مبادئها الرئيسية .

٥ – يجب ان يتفق الدين مع العلم ، فالايمان والعقل يجب ان يكونا على اتم وفاق ووئام .

٦ – السلم العالمي، تأليف عصبة للامم عالمية اوهيئة تحكيم دولية، وبرلمان دولي .

٧ – اختيار لغة دولية مساعدة وتعليمها في جميع مدارس العالم .

٨ – التعليم الاجباري، خاصة للبنات اللواتي سيصبحن امهات الغد ومربيات الجيل الجديد .

٩ – التساوي في فرص التقدم والمساواة في الحقوق والامتيازات بين الجنسين .

١٠ – العمل للجميع : لا بطالة ولا فقر، العمل بروح الخدمة هو العبادة .

١١ – القضاء على الفقر والثراء الفاحش : الاهتمام بالمعوذين .

١٢ – الاعتراف بوحدة الله وطاعة وصاياه كما تظهرها براهينه السماوية .

وحدة الدين

سيشتهر القرن العشرين في التاريخ بالشك الديني، لان التفكك في الايمان ظاهر ظهوراً جلياً، خاصة بين المتعلمين . فالناس في الشرق والغرب يحاولون ان يخلصوا انفسهم من الانظمة الدينية وارتباك فلسفة ما وراء الطبيعة الذي احدثه المتدينون المخلصون القدماء وغا خلال الاجيال . وهم يسعون اليوم وراء الفائدة العملية من الدين في حياتهم اليومية . وليس من شك في ان الدين، اذا تخلص من الاخطاء والتفاسير المغلوطة، يصبح قوة مبدعة في كل ناحية من نواحي الحياة البشرية . وما هو جدير بالذكر ان العلم، وطريقة توصله الى الحقيقة بالتجربة واعتماده على الاختبار، يمهد الطريق الى تكوين رأي جديد في الدين واعتباره حقيقة حيوية في

حياة البشر .

ان هذه الدراسة المختصرة المدرجة في هذا الفصل والفصول السابقة لحياة انبياء العالم والمصلحين العظام وتعاليمهم، تحمل القراء غير المتعصبين على الوصول الى الخلاصات الآتية :

١ — ان الاسس الاخلاقية لجميع الاديان واحدة .

٢ — ان تعاليم الاديان العظيمة كانت في زمن ما مسيطرة على العالم المتمدن .

٣ — ان هذه التعاليم كانت مرشد السلوك البشري ومثله العليا في جميع العصور .

وتظهر لنا هذه الدراسة ايضاً ان جميع الاديان العظيمة ذات وجهتين، الاولى تعالج وجود قوة سامية مدبرة في هذا الكون، وتعرض عالم الله الذي تسود فيه الصفات الالهية كالمحبة والرحمة والعدالة، وهذه الوجهة هي واحدة في جميع الاديان وثابتة لا تتبدل. اما الوجهة الثانية فتعالج الحياة العملية والقوانين والانظمة التي يجب ان تسير الانسان في اعماله وعلاقاته مع الاخرين . وهذه الوجهة خاضعة لنظام التطور حسب الحاجة وظروف الزمان والمكان.

ويدعي جميع مؤسسي الاديان العظيمة انهم ملهمون من الله وانهم يحملون رسالة سماوية، ولا يمكننا ان نتجنب الاستنتاج بان اساس جميع الاديان الالهية هو واحد .

فلسفات نصف دينية في الحياة

بالاضافة الى الاديان الرسمية المعترف بها، هنالك في العالم اليوم عدد من النظم للقيم او فلسفات الحياة التي تكاد تكون نصف دينية بطبيعتها . وتشتمل هذه النظم، في نظر بعض المؤمنين بها، على مثلهم العليا في الحياة، كما تتناول شتى المبادىء والطقوس، وتتصف بالتنظيم والزعامة، بحيث يصح مقابلتها بما عهدناه بنظام الكهنوت . وهي الى ذلك تثير في اتباعها عاطفة تضحية الذات في سبيل هذه القيم التي تشبه تلك التي ترتكز اليها المؤسسات الدينية، فتزاحمها، لذلك، في تعلق الشباب

بمبادئها واخلاصهم لها. واذن، يجدر بنا ان نذكر بعضها :

١ ــ النزعة الانسانية: لقد نشأت فلسفة في الحياة هدفها الاسمى الانسانية بدلا من الله. فاعتقد الانسانيون ان هدف الحياة هو تكوين شخصيات بشرية انبل وارفع في مجتمع مثالي راق. ولكي نصل الى هذه الغاية علينا ان نستعين بالعلم، دون ما اتكال على الله. فاذا كان الاتكال على الله امرا طبيعيا حين كانت الانسانية في دور الطفولة، فهو لم يعد كذلك بعد نضوج الانسانية وبلوغها سن الرشد الذي يفرض على الانسان ان يتحمل مسؤولياته بنفسه. وينبذ الانسانيون جميع العقائد الدينية كعقيدة الله والسماء، وجهنم، والخلود، ويعتبرونها مراحل ابتدائية في التطور الديني، يجب ان يعيدوا تفسيرها وفهمها. وما الله بنظرهم الا القيم السامية والصلاح في الحياة البشرية الذي يجب ان يسعى الانسان لزيادته. اما السماء فهي المجتمع المثالي هنا على الارض، وجهنم هي المجتمع الذي تسود فيه الحروب والامراض والجهل والظلم واستغلال الاخرين وغير ذلك من الشرور. اما الروح فهي الشخصية، والخلود فهو تأثير المرء على الشخصيات الاخرى اثناء حياته وبعد مماته. ويختلف هذا الخلود في النوع والكمية والمدة؛ فهناك تأثير الابله او المجرم في جهة، وهنالك تأثير الاشخاص العاديين في الوسط، واخيراً هنالك تأثير الشخصيات التاريخية الفذة في الجهة المقابلة. والدين بنظر الانساني اليوم هو الاخلاق او الآداب بعينها. فالانساني لا ينكر عقائد الاديان الاخرى بل يعتبرها نظرة غير ناضجة متحيزة تقليدية في جوهر الدين. والواقع ان الجماعات الانسانية التي تكونت حتى الان فقد بنت تعريفها «للشخصية الاكثر نبلاً» و «المجتمع المثالي» على المبادىء المسيحية.

٢ ــ القومية، الاستعمارية، الامبية: تكاد تكون القومية – وهي التعلق بالوطن والاخلاص له – دينا لبعض الناس. ويختلف التعبير عن القومية، فيتراوح بين الكلام المجرد فقط وبين ان يوقف المرء حياته لخدمة احدى المؤسسات في امته ورفع شأنها. وتختلف القومية في مدلولها : من قومية تعتبر الحكومة

محقة دائما والمصالح القوميـة واجبة التشجيع مهما اصاب الامم الاخرى من حيف، الى قومية ديمقراطيـة تعتقد ان واجب المواطن الاول هو نحو امته ولكن هذا الواجب يتضمن مساعدة حكومته عـلى معاملة جميع افراد الامة والامم الاخرى معاملة واحدة .

اما الاستعمارية فهي توسيع القومية بحيث تشمل شعبا يحكم شعبا آخر . وقد يختلف الاستعمار من استقلال مجحف الى معاملة الشعب المحكوم معاملة حسنة عادلة . ويشبه اخلاص المستعمر لمملكته اخلاص القومي لامته وتعلقه بهـا، فكلاهما يسيطران على الاقليات التي لا تشترك معهم في ذلك الاخلاص .

اما في الاممية فاسمى القيم هي الاتحاد بين الامم، عن طريق برلمان عالمي او حكومة عالمية . وهكذا فان هيئة الامم المتحدة، بنظر الاممي، خطوة تقترب بالعالم نحو مثله الاعلى . وسنتناول هذا الموضوع بشيء مـن التفصيل في فصل آخر من هذ الكتاب .

٣ ـ الفاشية، الاشتراكية، الديمقراطية : ـ ان هذه المثل الثلاثـة، الكثيرة التناقض، تتنافس مع الدين؛ فالاثنان الاولان منهـا يتطلبان، بدرجات مختلفة، خضوع الشعب التام للحكومة ويحاولان القضاء عـلى المؤثرات الدينية او جعلها ثانوية في الاهمية . فالفاشيون يعتقدون ان الحكومة هي القيمة الساميـة وان السلطة يجب ان تنحصر في زعيم، وان هذه السلطة ينبغي ان تقوم على التسلسل، والنظام، والطاعة . اما الشيوعيون فيعتقدون بان الطبقة العامـة الفقيرة هي القيمة السامية، وبانه من الضروري قيام دكتاتور خلال فترة الانتقال من نظام الرأسمالية الى نظام الشيوعية . امـا الديموقراطية فتعتقد بان القيمة السامية هي جميع افراد الشعب اي جميـع الطبقات، وان نظام الحكم يجب ان يكون دستوريا تمثيليا، وينحصر مذهبها في الكلمات الآتية : « الحرية والمساواة والاخاء . »

هذا تعريف مقتضب جداً في وصف هذه المذاهب السياسية الثلاث . وليست غايتي منه النقد، بل القول بأن كلا منهـا قد اوجدت في اتباعها اخلاصاً يكاد

يكون نصف تعبد، مما يجعلها تزاحم الاديان في العالم الحديث. هذا تطور جديد للعلاقات الاجتماعية يجب ان يتأكد منه القارىء بوضوح وان يتوسع به جيدا في الكتب الاخرى.

بعض القيم الاخرى.

واخيراً يجدر بنا ان نذكر بعض القيم الاخرى، كالعلم الذي يرفعه البعض الى مقام الله، فيؤمنون به كسبيل للخلاص وحيد، وكالرياضة والصحة وما اشبهها. الا ان هذه لم تنظم بمؤسسات نصف دينية كما نظمت الفلسفات التي اتينا على ذكرها آنفاً.

الفصل الواحد والعشرون

الصحة العامة

ان غرضنا من هـذا الفصل هو ان نصف الامراض الرئيسية السارية التي تهدد الصحة العامة، وان نبين كيف يستطيع المواطنون الذين يتعاونون مع السلطات الحكومية الصحية ان يقضوا على هذه الامراض .

تمهيد

لقد اتينا على بحث خمس من المؤسسات الثمانية التي تربط افراد الشعب بعضهم ببعض، وهي : العائلية والتربوية والاقتصادية والسياسية والدينية؛ اما الان فقد جاء دور المؤسسة السادسة التي نشأت في المجتمع الحديث للعناية بالصحة العامة . ويمكن لنا ان نعرف هذه المؤسسة بأنها المعلومات والوسائل والاجهزة التي نستخدمها في تحسين صحة الشعب . وسنذكر في هذا الفصل بعض المعلومات عن الامراض الرئيسية وطرق معالجتها ومنع انتشارها، كما اننا سنصف الطرق المألوفة التي تتبع في السيطرة على الامراض، كالتطعيم والتعقيم والحجر الصحي والمراقبة على النظافة . اما الاجهزة او العدة فتشتمل على الابنية كالمستشفيات والصيدليات والمصحات، وعلى اثاثاتها بما فيها الادوات الجراحية والمنحات المالية ورأس المال والدخل السنوي الذي ينفق منه على الاعمال الطبية .

ان مستوى الصحة في شعب ما يقاس بواسطة بعض الادلة، كالنسبة المئوية للوفيات، ومعدل طول العمر . ولكي يتسنى لنا العمل على رفع مستوى الصحة، علينا قبل كل شيء ان نعالج اسباب الامراض .

ان هنالك الاف الانواع من الامراض؛ ولكل من هذه الانواع اسبابه الخاصة

منها ما هو معروف ومنها ما هو غير معروف حتى الآن. ولكن اكثر هذه الاسباب تعود الى الجراثيم التي برهنت العلوم الطبية على أنها علل لكثير من الامراض، خاصة الامراض السارية. والجراثيم هذه مخلوقات صغيرة تعيش في الهواء وفي جميع الاجسام، وهي ليست جميعها ضارة إذ منها ما هو مفيد كالبكتيريا التي من جراثها نصنع الخل والجبن والزبدة وسواها مما يحتاج الى التخمير. إلا ان الذي يهمنا منها هنا هو الجراثيم المرضية او الميكروبات التي تدخل الى الجسم بشتى الطرق واهمها الطعام والشراب ولذعة الحشرات. وعندما تقيم هذه الجراثيم في انسجة الجسم تتكاثر بسرعة فائقة فتولد مواداً سامة تزيد حرارة الجسم العادية وتصيبه بالحمى، إلا في الظروف العادية حيث يستطيع الجسم مقاومتها والتغلب عليها.

ولما كان معظم هذه الجراثيم ينتقل بالعدوى من جسم الى جسم، وذلك بمساعدة الحشرات والجرذ والاقذار والمياه الملوثة والحليب وما الى ذلك، توجب على جميع افراد الشعب والحكومة ان يتعاونوا على القيام بكل ما هو ضروري لمنع انتشارها.

الامراض السارية الرئيسية

ولكي نتفهم مشكلة الصحة العامة بوضوح اكثر فاننا سنبحث اسباب الامراض السارية المعدية الرئيسية في الشرق العربي وكيفية السيطرة عليها. نبدأ ذلك بحسب تصنيفها التالي:

١ — الامراض التي تنتقل بالهواء: ان الزكام الاعتيادي هو اكثر الامراض التي ينقلها الهواء، انتشاراً. فهو ينتقل بواسطة قطرات اللعاب التي تتناثر في الهواء حين يعطس او يقح من كان مصاباً به، لذلك كان من الضروري ان يعطس المرء اويقح في منديله. وليس الزكام مرضاً خطراً ولكنه اولاً يسبب التزام المرء الفراش اياماً طويلة كل سنة، وثانياً قد ينقلب الى امراض اشد خطراً منه كالتهاب اللوزتين و لانفلونزا او ذات الرئة. ولم يكن حتى حديثا بالامكان مداواة المصاب بالزكام الا بملازمة الفراش والعناية بتقوية جسمه كي يتمكن من محاربة المرض. فالعقاقير الكثيرة الممتازة مثل «برونتوسيل» لعلاج التهاب اللوزتين والحنجرة

و « السلفابيريدين » لعلاج ذات الرئة، وسواها من العقاقير التي جربت وامتحنت واصبحت سلاحا جيـدا بايدي الاطباء، لم يتم اكتشافها قبل عـام ١٩٣٩. ولما كانت هذه الامراض تنتشر بسرعة حيثما يكثر ازدحام الناس فيفضل ان يتجنب من كان ضعيف المقاومة الازدحام في ايام الشتاء. كما انه يجب ان لا يسمح للمصاب بزكام شديد ان يذهب الى عمـله لانه يسبب العدوى للآخرين. واذا اصيب احد افراد العائلة بزكام شديد كان من الضروري ان لا يستعمل افراد العائلة الاخرون الادوات التي يأكل فيها المريض قبل غسلها بالماء الغالي، وان لا يدنوا منه كثيرا اثناء المحادثة وان لا يلمسوا الادوات التي يلمسها.

ان هذه الاحتياطات ضرورة جدا في حالة مرض السل. فـان المريض يقح ويبصق فينشر الميكروب في الهواء، لذلك يجب ان يعزل خاصةً اذا كانت اصابته شديدة، لئلا يعدي الاخرين. وليس السل بمرض عضال اذا ما شخّص في اول امره وعولج قبل استفحاله.

ولاجل زيادة الايضاح عن مدى انتشار هذه الامراض واسبابها واعراضها ونتائجها وعلاجها ومنعها، يجب ان يراجع القارىء الموسوعات الطبية. اذ ليس بالامكان التفصيل هنا باكثر من هذه المعلومات التي يجب ان يطلع عليها كل مواطن نابه.

٢ ــ الامراض التي تحملها المياه : ان اولى هذه الامراض : التفوئيد، وهو حمى كانت منذ ٥٠ سنة من اكثر الامراض انتشارا في جميع البلدان. وغالبا ما تعيش جراثيم التفوئيد في المياه الملوثة، وفي الحليب اذا مـا وضع في أوان غسلت بماء ملوث. فالقضاء على انتشار التفوئيد ينحصر اذن بالعناية بالمياه وحفظها سالمة من الاقذار، ولذلك نجد البيئات الراقية توجه عنايتها وتنفق المال الكثير على استخدام طرق جر الاقذار الحديثة والعناية الشديدة بمياهها.

ثم ان هنالك مرضاً هاماً تحمله المياه هو ما يسمى بالبول الدموي. وهذا الداء الطفيلي من اشد امراض الشرق العربي خطرا. وعلى الرغم من تأثيره البطيء الذي كثيراً مالا يلاحظ، فانه يضعف المرء مع الزمن ويفقده نشاطه وحيويته بحيث

يصبح خاملا كسولا يائسا لا طموح له. ويقدر ان ٨٠ بالمئة من سكان مصر مصابون بهذا الداء. ومما يؤسف له انه آخذ بالانتشار في سوريا والاقطار الاخرى. وينتقل هذا الداء بواسطة طفيلي صغير او دودة لا تبصر بالعين المجردة، فما ان تدخل هذه الدودة الى جسم الانسان، حتى تبيض ملايين من البيض، ثم يخرج هذا البيض مع البول او الغائط؛ فاذا القيت هذه الاوساخ قرب الماء بدأت الطفيلة دورة حياتها الثانية حيث تدخل جسم حلازون الماء فتعيش فيه ثم تخرج منه وتسبح في المياه الى ان تحتك بجسم الانسان فتدخله مرة ثانية. وهنالك طرق ثلاث فقط لقطع هذه الحلقة اللعينة التي تبدا بجسم الانسان ثم تنتقل الى الحلزون ثم الى جسم الانسان ثانية. فالطريقة الاولى هي منع الناس من ملامسة الماء بيد ان هذا المنع يكاد يكون مستحيلا، ففي مصر مثلا يضطر اغلب الفلاحين ان يلامسوا الماء اثناء قيامهم بعملية الري. والطريقة الثانية هي قتل جميع حلازين المياه؛ على ان العلم لم يتوصل بعد الى وسيلة ناجحة قليلة التكاليف لتنفيذ هذه الطريقة.

اما الطريقة الثالثة، وقد تكون اقرب الطرق الى التطبيق، فهي القيام بحفر المراحيض في كل بيت وتعليم الناس ان يستعملوها دائما. فمن شأن هذا العمل ان يحول دون تسرب الجراثيم الى المياه ثم الى الانسان. وللمراحيض فوائد جمة هامة جعلتها ضرورية في كل بيت.

٣ — الامراض التي تنتقل بالطعام: ان اهم هذه الامراض: الديزنتري او التهاب الامعاء، وهي شديدة الفتك في الشرق العربي. واحدى الطرق للوقاية منها هي الامتناع عن شرب المياه غير الصحية، وعن اكل الاطعمة غير المطبوخة والفاكهة الخضراء التي لم تغسل وتطهر بمحلول «البرمنغنيت». على ان انجع الطرق جميعاً للقضاء على هذه الامراض، هي العمل على إبطال عادة التغوط في العراء كما هي الحال في معظم قرى الشرق العربي.

٤ — الامراض التي تنتقل باللمس: بالاضافة الى الامراض السارية كالجدري والحصبة التي تنتقل بملامسة المريض او اشيائه، هنالك امراض اخرى من

هذا النوع ربما كانت التراكوما من اشرها في الشرق العربي. انما يزيد على ٩٠ بالم من سكان الارياف مصابون بهذا الداء اللعين. فمن شأن هذا الداء ان يضخم الجفون ويغلظها وفي النهاية يصيب العيون بالعمى. وينتقل هذا المرض بلمس المنشفة التي استعملها المريض قبلا، كما ان الامهات المصابات بهذا الداء ينقلنه الى اطفالهن باستخدام اطراف اثوابهن لمسح وجوه اطفالهن بعد ان مسحن وجوههن بها. وتعالج التراكوما باستعمال قطرة كبريت النحاس يوميا لمدة اشهر او ربما سنوات طويلة.

اما الامراض الاخرى التي تنتقل باللمس فهي السيلان والسفلس اللذان ينتقلان بالملامسة اثناء الجماع الجنسي. وليس من وسيلة للقضاء عليهما بغير الاقلاع عن مجامعة المومسات. ولهذين المرضين نتائج سيئة جداً، اهمها العقم والجنون. ان شفاءه يتطلب وقتاً طويلا يداوم المصاب خلاله على التداوي.

٥ — الامراض التي تنقلها الحشرات: ان اهم هذه الامراض هي التيفوس والطاعون والملاريا. فالتيفوس والطاعون كانا منذ القدم وباء البلدان المتأخرة. وينتقل الطاعون الذي لقب بالموت الاسود في العصور الوسطى والذي اجتاح آسيا وبعض اجزاء اوروبا مرارا عديدة، بواسطة براغيث الجرذ والقمل. وقد كان لاختراع محلول (ددت) خلال الحرب الاخيرة اكبر الاثر في مكافحة جميع الحشرات. اما الملاريا، فقد ثبت ان اخطر الحشرات التي تنقلها هي البعوض. والبعوض تتوالد في المستنقعات والمياه الآسنة القذرة.

وللملاريا اعراض عادية تمرّ في ثلاث مراحل: البردية، ثم الحرارة، ثم العرق البارد. على انه قد تفقد احدى هذه المراحل كما يجوز ان تتبدل. وللوقاية من الملاريا طرق عديدة منها وضع حجاب من الشريط على الابواب والنوافذ لمنع دخول الحشرات، او استعمال (الناموسية) فوق الفراش اثناء النوم، ومكافحة البعوض بتجفيف المياه الآسنة والمستنقعات ورش الادوية.

مبادئ مكافحة المرض

لا شك في ان مسؤولية مكافحة الامراض تقع على عاتق كل مواطن، كما تقع

على عاتق الحكومة ايضاً. ان المواطن النابه يتبع القوانين الصحية الفردية ويتعاون مع السلطات باطاعة تعليماتها في هذا الشأن. اما الحكومة، فتقع عليها واجبات رئيسية اهمها:

١ — عزل المصابين بامراض معدية. يجب ان يحتم القانون على كل طبيب او اي رجل آخر مسؤول، اعلام دائرة الصحة عن كل اصابة باي من الامراض المعدية، اذ يجب ان يعزل المصابون بهذه الامراض عن بقية الشعب كي لا ينتقل المرض منهم الى افراد آخرين. فيجب على البيوت التي تحوي اصابات بالحصبة او الخناق او الشاهوق او الحمى القرمزية وما اشبه ذلك ان تضع علامة تحظر على الزائرين الدنو منها، كما يجب ان يمنع الاطفال المصابون باحدى هذه الامراض من الذهاب الى المدرسة او الاختلاط بالاطفال الاخرين قبل انقضاء المدة القانونية لعدم انتقال العدوى. اما الاصابات الخطرة فيجب ان تنقل الى مستشفى الاعتزال، كما يجب ان يفحص مأمورو الصحة في الموانىء البحرية جميع المسافرين الآتين الى البلاد. ويجب ان تقام المحاجر الصحية حيث يمكن ابقاء المسافرين الى ان ينتهي ما يحمل على الحذر منهم. وهكذا تستطيع الحكومة بفضل هذه الخطوات ان تمنع انتشار الاوبئة وتفشيها.

٢ — تعقيم الغرف والادوات الملوثة بجراثيم الامراض المعدية. يجب ان تعقم جميع الملابس والاثاث والادوات التي يستعملها او يلمسها المصاب باحدى الامراض المعدية، وذلك بغليها واستعمال بعض المواد الكيماوية او الغازات التي تقتل جميع الحشرات كالبق والقمل والبراغيث وما اشبه ذلك من الهوام التي قد تحملها ملابس المريض او قد توجد في الغرفة التي كان فيها. فبالامكان مثلا منع انتشار حمى التيفوس التي تنتقل بواسطة القمل برش ملابس المسافرين وشعرهم وجميع امتعتهم اذا كانوا آتين من منطقة مصابة بهذه الحمى. وينتقل الطاعون بالبراغيث التي تنقلها الجرذ، ولتعقيم ذلك يجب قتل جميع الجرذ في مدينة ما او في باخرة ما. وتستعمل لهذه الغاية الطعم المسمومة والفخاخ

والتبخير، وتبني اساسات البيوت من الكونكريت المسلح، وما الى ذلك من الوسائل.

٣ - تطعيم الشعب. اذا تطعم كل فرد من افراد الشعب ضد الجدري والتفوئيد والتيفوس والخناق تنقرض هذه الامراض من المجتمع الانساني. لقد كانت الامراض الثلاثة الاول منتشرة بكثرة تفتك بالالوف من الناس والجنود كل سنة، الا ان التطعيم الاجباري قضى عليها في الجيوش وجعلها نادرة في الغرب بحيث يندر على كثير من الاطباء ان يصادفوا اصابة منها. وكثيراً ما يرفض بعض الناس ان يتطعموا بحجة انهم لا يقبلون ادخال الجراثيم الى دمهم، فيجب القضاء على هذه الخرافة بواسطة التربية وتعليم هؤلاء ان هذه الجراثيم القليلة التي تدخل الجسم عن طريق التطعيم انما تكون في جسمهم مناعة ضد هذه الامراض. ان كل فرد في المجتمع يمتنع عن التطعيم او يهمله لا يعرض نفسه للخطر فقط، بل يعرض الآخرين ايضاً، وذلك بمساعدته المرض على النمو في المجتمع. وهكذا كان التطعيم واجباً مدنياً.

٤ ـــ تعقيم مياه الشرب. اذا لم تجر مياه المدينة مباشرة من نبع او بئر نقية، فمن الضروري تنقيتها وتعقيمها وذلك بوضع محلول الكلورين في المياه؛ الا ان هذا المحلول يترك طعما كريها ولا تكون نتائجه دائمة، فلذلك كانت افضل الطرق هي ترشيح المياه او خزنها في احواض لمدة ثلاثة اشهر معرضة لنور الشمس والهواء الطلق ثم جرها في الانابيب الى البيوت.

٥ ـــ التخلص من الاقذار والفضلات. ومن واجب البلدية ان تقوم بجمع الاقذار والتخلص منها. ففضلات الطعام مثلاً، إمّا تباع للفلاحين كي يطعموها لخنازيرهم، او تباع للمعامل التي تستخرج منها الزيوت والدهونات، وإمّا تُحرق أو تُدفن. اما الرماد والمواد الاخرى المهملة فيمكن ان تملأ بها المستنقعات والاماكن المنخفضة. وكذلك فإن الاوساخ السائلة المتأتية من الحمامات والمراحيض تشكل خطراً على الصحة. فلا يجوز البتة صبها في المجاري او السواقي، بل يجب ان تجر في انابيب الى ما تحت البحر كما هي الحال في بيروت.

٦ ــ البيوت الصحية: ان البيوت غير الصحية التي يعيش فيها الوف من الفقراء مزدحمين في غرفة واحدة بقليل من نور الشمس والهواء النقي لمن اهم المصادر لتوليد السل والامراض الاخرى المعدية. فلذا يجب تطبيق قوانين البناء تحت مراقبة المفتشين الامناء، وذلك يتطلب اولا: نافذة واحدة على الاقل في كل غرفة نوم. ثانيا: جر المياه بانابيب صحية في كل بناية مع توفر المراحيض الصحية. ثالثا: جعل البناء قويا محفوظا من الحريق بقدر المستطاع. رابعا: ان يكون ثلث الارض خاليا من البناء كي يتمكن نور الشمس والهواء النقي من الدخول الى البيت. خامسا: ان يخصص لكل فرد مسافة من الاقدام المكعبة لا تقل عن حد معين. ومما يجب الانتباه اليه ان يكون موقع البناء وشكله موافقان لتصميم المدينة.

٧ ــ التفتيش. يجب ان تقوم الشرطة او مفتشون خصوصيون بمراقبة تنفيذ الشروط الصحية التي ذكرناها اعلاه، لان القوانين والانظمة مهما كانت جيدة قد تفقد فائدتها اذا لم يكن هنالك من يراقبها. ويجب ان يفتخر المفتشون بتقليل نسب المرض ونسب الوفيات بين ابناء بلدتهم سنة بعد سنة.

٨ ــ تعليم الشعب اصول حفظ الصحة. ان واجب الحكومة الثامن هو تعليم الشعب اصول حفظ الصحة، سواء عن طريق المدارس او المراقبين او عن طريق الاعلانات والصحف والمؤتمرات والراديو والسينما وسوى ذلك.

٩ ــ ايجاد دائرة للصحة. ولكي يكون بالامكان تتميم الواجبات المذكورة اعلاه يجب انشاء دائرة صحية لها موظفون باجور ولها ميزانية خاصة. اما موظفوها فيجب ان يكونوا متدربين في شؤون الصحة العامة.

١٠ ــ القيام بالابحاث العلمية حول المشاكل الصحية: لقد حاولنا حتى في هذا البحث تطبيق معلوماتنا الحاضرة عن اصول حفظ الصحة، ولكننا لا نزال نجهل الكثير. لقد اكتشف العلم اسراراً عديدة، ولعل اهمها هو

جهلنا العظيم لكامل اسباب الامراض ولكيفية علاجها ومنعهـا . ولاجل هذا كان من اخطر واجبات الحكومة ان تعمل عـلى تدريب اخصائين في البحث والدرس والتنقيب واجراء التجارب .

الفصل الثاني والعشرون

المصابون بالنقص

ان غايتنا من هذا الفصل، اولا اطلاع القارىء على انواع النقص الذي يصاب به افراد المجتمع ومعرفة اسبابه، وثانيا التأكيد على اننا بالبحث والتنقيب والسعي المنظم نستطيع ان نعمل على حل هذه المشكلة الاجتماعية الكبرى.

تعريف المشكلة الاجتماعية

لما كان المصابون بالنقص لا يشكلون الا صنفا واحدا من « المشكلة الاجتماعية » ، جدر بنا ان نعرف المشكلة الاجتماعية تعريفا عاما شاملا قبل بحثها وتحليل فروعها. ان رغبات الشعب او قيمه هي التي تقرر مشاكله الاجتماعية. فاذا سعى الشعب وراء الثروة كان الفقر بنظره مشكلة اجتماعية، في حين ان الفقر في الصومعة او الدير لا يكون مشكلة اجتماعية. واذا لم يكن للتعليم قيمة فلا تكون الامية مشكلة. ولا يكون مسببو الحرب مشكلة الا في مجتمع يحب السلام ويكره الحرب. وهكذا نجد ان مثل المجتمع العليا هي التي تقرر مشاكله الاجتماعية.

فالمشكلة الاجتماعية اذن هي: ان يصاب مجتمع ما بنقصان مبناه في بعض القيم التي يرغب فيها. وعليه فان المشاكل الاجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات. فقد تكون في المجتمع الهندي مثلا غيرها في المجتمع اللبناني، وفي المجتمع المصري غيرها في المجتمع الاميركي.

مبادىء حل المشكلة الاجتماعية

بعد ان عرفنا ما هي المشكلة الاجتماعية، نتساءل كيف يمكننا ان نحلها.

ان هنالك ثلاثة حلول متفاوتة تعرض لنا : فالحل الاول يفرض علاجاً سطحياً وقتياً لا يقضي على المشكلة نهائياً؛ فالتصدق على المتسول هو مسكن وقتي، لانه لايمنع المتسول عن التسول ولا يقلل عدد المتسولين الذين يعتمدون على صدقات الاخرين . كما ان اعطاء الماء البارد الى من كانت حرارته مرتفعة لا يشفي المريض من الحرارة ولا يمنع الاخرين من التقاط الحمى . وقس على ذلك .

اما الحل الثاني فهو بمثابة علاج . فالقضاء على مرض ما او انقاص عدد الجماعة المصابين به بحيث لا يصبحون مشكلة اجتماعية، لا يمنع الاخرين من الاصابة بالمرض ذاته فيما بعد . وكذلك فاننا اذا علمنا متسولا مهنة يرتزق بها، نكون قد انقذناه وحده فقط من العوز الاقتصادي بينما لا يزال الباقون متسولين .

وهكذا نرى ان العلاج ينقذ البعض من مشكلة اجتماعية دون ان يمنع البعض الآخر من الوقوع بها .

اما الحل الثالث فهو الحل الاصح . وقديماً قيل : « درهم وقاية خير من قنطار علاج . » فعوضاً عن معالجة المشكلة، علينا قبل كل شيء بالحؤول دون وقوعها . ان التطعيم مثلاً ضد نوع خاص من الحميات كالتيفوئيد والفواء الاصفر يقي الناس من الاصابة بها، كما ان تعليم الناس ان لا يستعملوا العقاقير التي تجعلهم عبيدا لها فيما بعد، تقيهم عادة الادمان . وكذلك نستطيع وقاية الافراد شر الصمم والبكم بتطبيق قانون يحظر الزواج والتناسل على من كانوا مصابين بهاتين العاهتين .

ان هذه الحلول الثلاثة تكافح « المشاكل الاجتماعية » جميعاً باساليب مختلفة؛ وسنبحث فيما يلي كيفية تطبيقها على بعض انواع من الاصابة بالنقص :

١ ــ العمى : تدل الاحصاءات على ان النسبة المئوية للاصابة بالعمى في بلدان الشرق العربي اعلى منها في اية بلدان اخرى من العالم . ففي كثير من القرى يبلغ عدد المصابين بالتركوما او امراض العين الاخرى التي تنتهي بالعمى، تسعين بالمئة .

وهنالك نوع اخر من العمى يحصل عند الولادة، وهو مسبب من عدوى الطفل اثناء الولادة من امه المصابة بداء الزهري .

ان العمى يقعد الانسان عن الارتزاق . ولذلك ينشأ عنه مشكلة اقتصادية، كثيراً ما يلجأ الى علاجها بتدريب العميان على بعض المهن كالضرب على الآلة الكاتبة أو تقشيش كراسي الخيزران او صناعة السلال . بيد ان الحل الاساسي لا يكون الا بازالة اسباب العمى عن طريق مكافحته والقضاء على انتشاره .

٢ـ الصمم والبكم: يمكن لنا مخاطبة الاصم الابكم عن طريق الكتابة، كما يمكن لنا احياناً معالجة هذه العاهة باجراء عملية جراحية يعقبها تدريب خاص من قبل اخصائيين لهـذا الغرض . وهنالك ايضاً جهاز كهربائي لتكبير الصوت يضعه الاصم في اذنه فيساعده على السمع ان كان صممه جزئياً . اما العلاج الوقائي فيتطلب درس مختلف اسباب العاهات ثم ازالتها؛ فالحمى القرمزية مثلاً وهي كثيراً ما تنتهي بالصمم، يقضي عليها تماما بتطعيم الاطفال، كما يقضي على الصمم الوراثي بمنع التزاوج بين المصابين به .

ولكي يطلع القارى على ما يمكن صنعه في هذا السبيل يجب ان يقرأ قصة هلن كلر. فقد اصيبت هذه الفتاة، وهي لا تزال طفلة، بالعمى التـام والصمم والبكم ومع ذلك استطاعت ان تنـال شهادة عالية من جامعة وان تصبح ذات شهرة عظيمة في الخطابـة والكتابة. واليك ملخصها من كتاب « مطالعات في التقدم البشري » لمؤلفه ل. س . مارشال .

ولدت هلن كلر في بلدة صغيرة في شمـالي « الاباما » في ٢٧ حزيران ١٨٨٠. وقد كانت طفلة كاملة في كل شيء، الى ان دخلت منتصف السنة الثانية من عمرها حين اصيبت بمرض شديد افقدها بصرها وسمعها طول الحياة .

وقد كتبت مس كلر تقول: « لا استطيع ان اتذكر ماذا جرى لي اثناء الشهر الاول من مرضي، وكل ما اعرفه انني كنت اجلس في حجر امي او اتعلق باهداب ثوبها اثناء قيامها بواجباتها المنزلية. وقد لمست يداي كل شيء ولاحظت

كل حركة وتعلمت بهذه الطريقة اشياء كثيرة، فشعرت حالا بضرورة الاتصال بالاخرين وبدأت باستخدام الاشارات، فهزة الرأس تعني « لا » والحناؤه يعني «نعم» والسحب يعني « تعال » والدفع يعني « اذهب ». واذا اردت الخبز فاني اقلد حركة قطع الخبز لوضع الزبدة فيه، واذا رغبت الى والدتي ان تعد البوظة للغداء فاني امثل حركة البرد وارتجف للدلالة على البرد .»

وحالا بدأت هلن تشعر بانها تختلف عن بقية الناس . فقد لاحظت ان امها لم تستعمل الاشارات عندما كانت تتكلم مع الاخرين بل تكلمت بفمها، فكانت تقف بين شخصين يتكلمان وتتلمس شفتيهما، فلم تفهم شيئا من حركات الشفاه، فحركت شفتيها ولكن بدون معنى. وكانت تحاول مرارا بمرارة ان تنطق ولكن بدون جدوى فتنفجر باكية وترتمي بين احضان امها منهوكة القوى .

لم تعرف كلمة « ماما » فهل احبت امها ؟ ربما، ولكن ليس كبقية الاولاد. وهي بلا ريب لم تفهم معنى الحق او الباطل. ففي ذات يوم وجدت ان اختها الطفلة قد نامت في سرير لعبتها فغضبت لذلك، وكانت غيرانة من اختها الطفلة التي حرمتها كثيرا من عطف اهلها واهتمامهم؛ فاخذت الطفلة من السرير وحاولت رميها الا ان امها أمسكتها ومنعتها عن ذلك في آخر لحظة؛ بيد ان هلن لم تغضب او تتأسف وكيف يمكنها ان تغضب وهي لم تعرف بانها اتت عملا مخطئاً ؟

وكانت عائلة كلر تعيش في مكان بعيد عن اية مدرسة للعميان او الصم؛ وكان من المستبعد ان يأتي معلم اخصائي بذلك الى مكان ناء كبلدة «تسكومبيا». على ان ذلك قد تم واتت « آني ماسفيلد سوليفان » راغبة في تعليم هلن قبل ان بلغت السنة السابعة من عمرها ببضعة اشهر .

وكان اول شيء قامت به مس «سوليفان» هو انها اقتادت هلن الى غرفتها واعطتها لعبة؛ وبعد ان لعبت بها قليلاً اخذت مس سوليفان تتهجأ لها ببطء وبواسطة يدها كلمة « لعبة »، وحالما تم ذلك ركضت هلن الى امها ومثلت باصابعها الاحرف التي تتكون منها كلمة لعبة، وبالطبع لم تعرف انها كانت تتهجأ

كلمة او ان هنالك شيئاً يسمى كلمة، وانما كانت تعرف بانها تحرك اصابعها بتلك الحركة الجديدة. ثم تعلمت في الايام التي تلت ذلك ان تهجىء كلمات كثيرة مثل دبوس، وقبعة، وقدح، وتعلمت ايضا بعض الافعال مثل اجلس، وقف، وامش، لكن دون ان تفهم معانيها.

وقد استمرت بهذه اللعبة، لعبة التهجئة باصابعها، خمسة اسابيع قبل ان تعرف ان هذه التهجئة كانت ذات معنى. فلنسمع هلن تصرح فيما بعد:

« بينما كنت ألعب يوما بلعبتي الجديدة وضعت مس سوليفان اللعبة القديمة في حجري وتهجأت كلمة « لعبة » محاولة ان تفهمني ان كلمة لعبة عنت الشيئين معاً. وكانت قبل ذلك قد حاولت ان تفهمني الفرق بين كلمة ماء وكلمة قدح ولكن جهودها ذهبت عبثا. ثم اتت بقبعتي ففهمت اننا ذاهبتان الى الهواء الطلق والشمس الدافئة، فجعلتني هذه الفكرة، اذا صح ان اسميها فكرة، اثب من الفرح والسرور.

ذهبنا الى احد الينابيع، حيث كان بعض الناس يجرون الماء، فوضعت معلمتي يدي تحت المياه وحالما جرت المياه الباردة فوق يدي تهجأت في يدي الاخرى كلمة ماء، تهجأتها ببطىء بادىء الامر ثم بسرعة، فشعرت حالا كأن لغز اللغة قد انحل امامي فعرفت عندئذ ان كلمة « ماء » عنت ذلك السائل البارد العجيب الذي كان يجري فوق يدي، فايقظت تلك الكلمة روحي واضاءت امامي نورا جديدا وبعثت فيّ رجاء وابتهاجا.

« تركت الينبوع وانا تواقة الى التعلم؛ فكل شيء كان له اسماً، وكل اسم يبعث فكرة جديدة. وعندما رجعت الى البيت كان كل شيء لمسته ينتفض بالحياة فتعلمت كلمات كثيرة ذلك اليوم لا اتذكرها جميعها الان ولكن اعرف ان كلمة ام واب واخت ومعلم كانت من تلك الكلمات. وكم كانت سعادتي عظيمة عندما ارتميت على سريري في نهاية ذلك اليوم الحافل بالاعمال العظيمة اتنعم بما حمل لي من افراح وآمال. ولاول مرة بحياتي كنت اتطلع بشغف الى فجر يوم

جديد. ولم اصنع شيئا في صيف عام ١٨٨٧، الا البحث عن الاشياء بيدي وتعلم اسم كل ما تلمسه يدي، لقد تسلمت مفتاح المعرفة واصبحت مشتاقة لاستعماله.

وكانت الخطوة المهمة الثانية في تعلمي، هي تعلم القراءة. حالما اصبحت قادرة ان اتهجأ بعض الكلمات اعطتني معلمتي قطعاً من المقوى طبع عليها كلمات باحرف بارزة، فادركت حالا ان كل كلمة مطبوعة ترمز الى شيء وكان لدي اطار ارتب فيه الكلمات واشكل منها جملا قصيرة.

«ثم انتقلت من قراءة قطع المقوى الى قراءة الكتب، فأخذت كتاب المبتدئين وشرعت افتش عن الكلمات التي اعرفها وكنت عندما اجد واحدة افرح كما يفرح لاعب «الطميش» عندما يجد المختبيء. وهكذا تعلمت القراءة.

«وفي ربيع عام ١٨٩٠ تعلمت النطق، فبدأت باحداث الاصوات. وكنت اضع احدى يدي على مجرى صوتي واتحسس بالثانية حركات شفتي، وأصبحت اسر بكل ما يحدث صوتا واحب ان اتحسس نباح الكلاب ومواء القطط، كما كنت احب ان اضع يدي على بلعوم المنشد اثناء انشاده او اوتار البيانو اثناء التوقيع عليه.

«وقد قبلت مس ساره فولر ان تعلمني النطق فكانت طريقتها كما يلي: كانت تضع يدي على خدها بلطف وتجعلني اتحسس موقع لسانها وشفتيها اثناء التصويت، فتاقت نفسي لتقليد كل حركة من حركاتها واستطعت بعد مرور ساعة ان اتعلم ستة اصوات. وعلمتني مس فولر احد عشر درسا فقط؛ وان انس فلن انسى الدهشة والسرور اللذين شعرت بهما عندما نطقت اول جملة... نعم كانت متقطعة ولكنها كانت نطقا بشريا.

«لن يستطيع الطفل الابكم ان ينسى الفرح الذي يغمره حين ينطق باول كلمة؛ وهو فقط يستطيع ان يقدر الشوق الذي كان يدفعني لاكلم ألعابي والحجارة والاشجار والطيور والحيوانات، ويشعر بالفرح الذي لازمني حين ادعو اختي الصغيرة ملدرد فتركض الي، او حين ادعو كلابي فتطيع اوامري. وكان الفرح والبشر

يتدفقان بكلامي حين انطق . »

يجب الا ننسى الفهم فنظن ان هلن كار استطاعت ان تتكلم جيداً في وقت قصير كهذا، كلا، وهي انما تعلمت مبادىء النطق، بحيث لم يتمكن من فهمها الا الانستان فولر وسوليفان فقط، اما بقية الناس فلم يفهموا منها سوى واحد بالمائة فقط، وانها لم تتمكن من التلفظ الصحيح الا بشق النفس لانها كانت تعتمد كل الاعتماد على اصابعها في معرفة حركات شفاه الاخرين، وفي تحسس اهتزازات بلاعيمهم اثناء النطق، وفي التعرف الى تعابير وجوههم . فكانت تعيد الكلمة او العبارة مراراً متوالية واحياناً لمدة ساعات طويلة قبل ان تشعر بالرنة الصحيحة في صوتها .

وقد تفتح عقلها ونمى بسرعة فائقة بعد ان تمكنت من القراءة والنطق .

وقرأت، حالما تمكنت من القراءة، كل الكتب التي استطاعت الحصول عليها؛ وعندما سئلت لماذا تحب الكتب بهذا المقدار اجابت : «لان الكتب تخبرني اشياء هامة شيقة لا استطيع رؤيتها ولانها لا تتعب او تتذمر كما يفعل الناس، وهي تخبرني دائماً ماذا اريد ان اعرف .»

وقد استمر نموها العقلي بسرعته الفائقة، فدخلت كلية « رادكليف » في سن العشرين ثم تخرجت منها بعد اربع سنوات، وهي الان احد الاشخاص المفكرين الذين يحاولون تفهم مشاكل الحياة الحديثة المتعددة والسعي لمعالجتها .

٣ ـ الكسح : ليست الصدقات سوى مسكّن للمتسول الكسيح، فهي لن تعوض عليه رجله المفقودة او ذراعه المقطوعة او العضو الذي خسره . وليس في تعلمه صنعة تمكنه من تحصيل قوته على الرغم من النقص الذي اصيب به، او في تزويده بيد او قدم اصطناعية، سوى علاج يخفف عليه وطأة ما هو فيه . ان انتباه المجتمع متجه الان الى معرفة مسببات هذه النواقص التي يضاعفها ازدياد الآلات السريعة، والمعامل، والحروب الحديثة، ووسائل النقل، وغير ذلك من شؤون العصر الآلي الحديث . ولا ريب في ان القضاء على مثل هذه المسببات، امر معقد جداً يتناول صميم المجتمع البشري . ان موضوع الحرب سنبحثه في فصل آخر عن « الوطنيـــة والقومية » .

اما فيما يتعلق بالآلات السريعة والمعامل، فليس لنا الا تدريب العامل على استعمالها جيداً والانتباه لكيفية تجنب خطرها . وقد بقيت امامنا وسائل النقل وماتحدثه من تدهور واصطدام . وهذا يمكن لنا تلافيه باتباع الامور التالية :

١ – تحسين صناعة السيارات وحسن العناية بها مع فحص اجزائها باستمرار للتأكد من حالتها .

٢ – توسيع الطرق وتعبيدها وانارتها خصوصاً عند المنحنيات، وتخصيص ارصفة لمرور الناس يفصل بينها وبين مرور السيارات، وتطبيق نظام منع السرعة وتجمع السيارات .

٣ – تقليل السائقين غير الماهرين، أو الذين لا يتقيدون بالقوانين، أو الذين يتعاطون المسكر، او المصابين منهم بضعف عقلي .

ان القيام بهذه الامور يتطلب نفقات باهظة، وتنظيماً عاماً وتربية شاملة .

٤ – **الضعف العقلي** : يقسم المصابون بعاهات عقلية الى صنفين : ضعفاء العقول والمجانين . اما الجنون فعلى انواع كثيرة، وهو يعزى عادة الى اسباب محيطية لانه يظهر بين الراشدين لا بين الصغار . ويتطلب كل من المجنون وضعيف العقل مكاناً خاصاً او مستشفى للعناية بهما . ويكون بالامكان عادة شفاء الجنون في مراحله الاولى، في حين ان ضعف العقل لا يمكن شفاؤه لانه وراثي ولذلك فأن معظم البلدان الراقية تفصل بين الجنسين من المصابين بضعف العقل لتمنع تناسلهم ولا ريب في ان هذه الطريقة تكلف الحكومة نفقات اضافية اذ عليها ان تقوم بنفقات هؤلاء طيلة حياتهم . اما المانيا وبعض الولايات في الولايات المتحدة الاميركية فقد رأت تعقيم هؤلاء الاشخاص كي تمنعهم من التناسل .

٥ – **المصابون بعاهات اخرى** : هنالك، بالاضافة الى العميان والصم والبكم والكسحاء والمجانين وضعفاء العقول، جماعة المقعدين بسبب التقدم في السن، والمدمنين على المسكرات والمخدرات .

ان التقدم في السن، لا يمكن منعه، ولكن يمكن تخفيفه بالمحافظة على الصحة والنشاط في ايام الشباب . اما الادمان على المخدرات، فيمقدورنا القضاء عليه بمصادرة المخدرات كالكوكايين والافيون والحشيش وغيرها، ومنع بيعها لغير الاغراض الطبية؛ وبتعليم الاطفال والراشدين مضار هذه المخدرات واطلاعهم على الذل والعبودية الناشئين عنها .

وقد رأينا ان نختم هذا الفصل بالجدول التالي الذي يلخص أهم المشاكل الاجتماعية مع ذكر المسكن والعلاج والوقاية لكل منها :

المشكلة الاجتماعية	المسكن	العلاج	الوقاية
الطلاق	التزاور	الزواج ثانية	العلاقات الزوجية السعيدة
الارامل واليتامى	علفة من الطعام	انشاء مياتم	القضاء على الحروب
المومسات	تغريمهن	تزويجهن	التربية الجنسية الصحية
الاميّون	القراءة عليهم	تعليمهم القراءة	التعليم العام
المتسوّلون	التصدق عليهم	تعليمهم صنعة	التعقيم
العاطلون عن العمل	الصدقات	التأمين ضد البطالة	اعادة تنظيم الصناعة
اللاجئون	اعالتهم	ايواؤهم وتدبير عمل لهم	انصاف الاقليات
الملحدون	مجادلتهم	هدايتهم	التربية الدينية الصحيحة
العميان	اعانتهم ببعض المال	تعليمهم صنعة	معالجة التراكوما
الصم	التصدق عليهم	تعلم قراءة الشفاه او الاحرف اليدوية	التطعيم ضد الحمى القرمزية
الكسحاء	تزويدهم باعضاء اصطناعية	اجراء عمليات لهم	العناية بوسائل النقل
المقعدون	اعانتهم	التأمين على حياتهم	التقيد بالتعليمات الصحية
المجانين	التصدق عليهم	معالجتهم في المستشفى	المحافظة على صحة العقل
ضعفاء العقول	الحجر	تدريبهم في مدارس خاصة	التعقيم
المصابون بالصرع	مراقبتهم	ايواؤهم في مكان خاص	العزل
المدمنون على المسكر	الوعظ والارشاد	معالجتهم في المستشفى	منع انتاج المخدرات
المتوحشون	توبيخهم	تغريمهم	تربية الذوق لتقدير الجمال والفن

الفصل الثالث والعشرون

التأمين الاجتماعي

ان غايتنا من هذا الفصل هي اظهار المبادىء والاسس التي يقوم عليها التأمين الاجتماعي، مع التأكيد على ما لهذا التأمين من الاهمية الاجتماعية في التنبوء عن المستقبل وأخذ الحيطة الضرورية – بواسطة العمل الاجماعي – ضد ما ينتج من المشاكل الاقتصادية بسبب المرض او الموت وغيرهما من الويلات والطوارىء .

الحاجة الى التأمين

الحياة ملأى بالمخاطر، وكل لحظة منها تقع لنا حوادث غير منتظرة تسبب لنا مصاعب وآلام كثيرة؛ فقد يموت رب العائلة فجأة ويترك عائلته بلا معيل؛ وقد تمرض الام حين تكون العائلة في اشد الحاجة اليها، اذ ربما يكون لها طفل ترضعه ولا يستطيع احد سواها ان يعتني به؛ وقد يقع لفتاة ما حادث يجعلها كسيحة مقعدة طيلة حياتها فتحتاج الى من يعتني بها ويسهر عليها؛ وقد يخسر رب العائلة، وظيفته ابان ازمة اقتصادية يكثر فيها الوف العاطلين عن العمل، فيستحيل عليه ايجاد عمل آخر؛ وقد يحترق بيت او مخزن ما فتلتهم النار كل ما جمعته العائلة المنكودة من ثروة بعد عناء وكد طويلين. ان هذه النكبات – موت ومرض وضياع مركز وغير ذلك من المصائب – تحدث لنا عرضاً وبشكل غير نظامي، مما يثبت ان الحياة ملأى بعدم الطمأنينة وقلة الامن. وحيث ان الناس بطبيعتهم يتطلبون الامن والطمأنينة ويودون ان يتأكدوا بان هذه النكبات لا تحدث لهم، نرى معظمهم يرغبون في التأمين على مستقبلهم .

ومن حسن الحظ ان هذا التأمين قد اصبح ممكنا بفضل اكتشاف

العلم لقانون « الانتظام الاحصائي »، وهو من اهم القوانين التي اكتشفت حتى الان في العلوم الاجتماعية. وسنشرحه فيما بعد، ولكن دعنا قبل ذلك نبحث بعض انواع التأمين ضد نكبات الحياة، التي يمكن للانسان الحصول عليها بفضل هذا القانون .

انواع التأمين

التأمين هو تطبيق قانون « الانتظام الاحصائي » بحيث يمنع الخسارة المالية الناتجة عن نكبات الحياة. وهو طريقة ممتازة لمنع العوز مهما كان سببه، الا انه لا يمنع النكبات بل يمنع الفقر الذي يتولد عنها. واهم انواع هذا التأمين هو التأمين على الحياة، حيث يدفع المرء، في هذا النوع من التأمين، مبلغا سنويا من المال الى شركة التأمين، على انه اذا مات هذا المرء تقبض عائلته مقابل ذلك كمية المال التي أمّن حياته عليها. ولدى شركات التأمين جداول بالاقساط التي يجب ان تدفع سنوياً، وهذه الاقساط تتوقف على عمر طالب التأمين وصحته ونوع التأمين الذي يتطلبه. وتقبض بالنتيجة شركات التأمين سنوياً من الاقساط التي يدفعها طالبو التأمين اكثر بقليل مما تدفع الى اهل الذين يموتون. وهنالك عدة انواع من التأمين أهمها :

اولاً — التأمين على الحياة. وبهذا النوع من التأمين تدفع الشركة كمية رأس المال المؤمن به الى صاحبها عند بلوغه سنا معينة متفق عليها كسن الستين مثلا، كما انها تكون مستعدة لدفع ذلك المبلغ لعائلته فيما لو مات قبل بلوغ هذه السن، حتى ولو لم يكن قد دفع غير القسط الاول. ويستطيع المرء بهذا النوع من التأمين ان يدخر مالا لزمن شيخوخته ولا يكون هو وزوجته عبئاً ثقيلاً على اولادهما .

ثانياً — التأمين ضد « المرض والطوارىء ». ينال طالب هذا النوع من التأمين مبلغا اسبوعيا من المال من شركة التأمين كلما تعطل عن العمل بسبب مرض او اي طارىء، فيتأكد المرء بذلك ان عائلته ستنال مبلغا من المال في كل

اسبوع حتى حين يكون مقعدا عن العمل بسبب المرض او كسيحا بسبب طارىء، هذه الطوارىء التي يزداد عددها سنة بعد سنة كلما اتسع نطاق الصناعة في بلادنا .

ثالثا — التأمين ضد حوادث خاصة كالولادة. فالولادة قد اصبحت في المدن تكلف نفقات باهظة، اهمها اجرة الطبيب والممرضة والقابلة وثمن المعدّات الضرورية للعناية بالطفل بطريقة صحية. لذلك نجد ان بعض اهل المدن يؤمنون على الامومة، وبذلك ينالون كمية من المال على حسب الاتفاق على نوع التأمين من الشركة عند ولادة كل طفل جديد، لكي يضمنوا المصاريف الجديدة التي تتطلبها الولادة .

رابعاً — التأمين ضد البطالة. كثيرا ما تمر في حياة البلدان الرأسمالية الصناعية الحديثة ازمات مالية بين آن واخر، فتضطر بعض المعامل ان تقفل ابوابها وتقف عن العمل بسبب قلة الاقبال على الشراء، فتسرح العمال. وهكذا ينقطع مورد رزقهم وتتضور عائلاتهم جوعا ويستحيل على العامل، في ظروف كهذه، ان يجد عملا مهما كان قادرا وراغبا فيه . ففي حالات كهذه يستفيد من التأمين ضد البطالة. فاذا كان قد دفع الاقساط المترتبة عليه يوم كان يعمل، فان الشركة تقدم له دخلا اسبوعيا حسب الشروط المتفق عليها ما دام عاطلا عن العمل ولا يقدر ان يعيل عائلته. وتكون الحكومة في اغلب البلدان هي نفسها شركة التأمين ضد البطالة لانه عندما يصبح عدد العاطلين عن العمل كبيرا لا تستطيع شركة غير الحكومة القيام بعبء نفقاتهم. فقد كان عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٣٠، وهو اشد سني الازمة، عشرين مليوناً (اي اكثر من سكان مصر وسوريا وفلسطين معاً) وما يقرب من ١٥ بالمائة من سكان الولايات المتحدة، وهؤلاء كانت تنفق عليهم شركة حكومية للتأمين ضد البطالة .

خامساً — وهنالك انواع كثيرة من التأمين، كالتأمين ضد الحريق والسرقة وغرق البواخر، وضد الاضرار المتأتية عن عاصفة او زلزال او حرب، وما الى ذلك من

العوامل الهدامة. وبالامكان اليوم ان نؤمن ضد المطر، هطوله او عدم هطوله، او نؤمن ضد فوز احدى الاحزاب السياسية في الانتخابات.

ان التأمين قد يكون اختيارياً او اجبارياً . فاذا كان اختيارياً سمي خاصاً . اما اذا كان اجبارياً يحتمه القانون على كل فرد من افراد المجتمع وتكون الحكومة هي نفسها شركة التأمين، فيسمى تأميناً اجتماعيا . وقد اصبح معنى التأمين الاجتماعي في العهود الاخيرة : التأمين ضد المرض والطوارىء ومخاطر الامومة والبطالة لان الحكومات تتحمل مسؤولية هذا النوع من المخاطر .

المبادىء العلمية للتأمين

كيف نستطيع ان نؤمن ضد الحوادث التي لا تحصى كالمطر والزلزال والموت والحرب، بمجرد الاعتماد على سجل هذه الحوادث خلال مدة من الزمن ؟ وكيف تستطيع شركة التأمين ان تربح، وهي تربح دائماً ؟ وكيف يمكن التنبوء عن هذه الحوادث بدقة وضبط، فتستطيع الشركة ان تحسب القسط الذي يتوجب على طالب التأمين دفعه حساباً دقيقاً حتى الجزء بالمائة؟ اما الجواب فهو في المبادىء العلمية التي اكتشفها علماء الرياضيات والعلوم الاجتماعية خلال القرن الماضي، وها اننا نلخص هذه المبادىء فيما يلي :

ان المبدأ الاول هو « قانون الانتظام الاحصائي». ويتضمن هذا القانون قانون المعدل وقانون ثبات ، اي عدم تقلب، النماذج الكبيرة او ما يسمى بقانون الارقام الكبيرة. فعندما نراقب عددا كبيراً من الشعب نجد ان عدد الوفيات في هذا الشعب يكاد يكون ثابتاً، اي انه لا يتغير بين سنة واخرى . وكذلك نجد ان عدد الذين يصابون بمرض معين في السنة لا يتغير الا قليلاً بين سنة واخرى . وكذلك عدد الذين يتزوجون او يصابون بالطوارىء او الذين تقع لهم سرقات، فانه يكاد يكون ثابتا . ولذلك يستطيع علماء الاحصاء ان يتنبأوا عن عدد الوفيات في شعب كبير اذا عرفوا عدد الوفيات في السنوات الماضية . وعندما يضرب هذا العدد بمعدل رأس المال الذي تم عليه التأمين تعرف الشركة مجموع ما عليها دفعه الى عائلات الذين

يموتون سنوياً، ثم يقسم هذا المعدل على عدد الاشخاص الذين طلبوا التأمين في تلك الشركة فيكون الحاصل القسط الذي يجب ان يدفعه الى الشركة كل من المؤمنين ثم يضاف الى هذا القسط كمية قليلة من المال لكي تغطي نفقات الشركة وتوفر لها شيئاً قليلاً من الربح، وتكون معادلة التأمين لسنة واحدة كما يأتي :

مجموع الاقساط = مجموع رؤوس الاموال التي يتوجب على الشركة دفعها سنوياً + النفقات + الربح،

وهكذا تستطيع شركات التأمين، من هذا الجدول المدرج ادناه والذي توصلت اليه البلاد بالاختبار، ان تحسب وتتنبأ بحيث تجعل دخلها اكبر من نفقاتها، اي ان يكون المال الذي يدفعه لها المؤمنون الاحياء، اكثر من المبالغ التي تدفعها هي الى ورثة الذين يموتون في سنة واحدة .

وتحسب الشركة مجموع رؤوس الاموال التي يحتمل ان تدفعها في السنة المقبلة باستخدام معادلات كهذه :

مجموع رؤوس الاموال التي ستدفع في السنة المقبلة = معدل رؤوس اموال جميع طالبي التأمين × عدد الاشخاص المؤمنين × النسبة المئوية للذين ماتوا في السنة الماضية

فاذا كانت النسبة المئوية للوفيات واحد بالمائة وقد امن مليون من الناس على حياتهم برأسمال الف ليرة كل منهم، فتتوقع شركة التأمين ان تدفع عشرة ملايين ليرة .

ولكي تضمن الشركة هذا المبلغ، يجب ان يدفع كل من المليون شخص طالبي التأمين عشرة ليرات قسطا سنويا باضافة كمية قليلة لتغطية مصاريف الشركة ولتأمين قليل من الربح . ولكن في الواقع ان هذه العملية الحسابية ليست بمثل هذه السهولة التي يمثلها المثال اعلاه بل هي اعقد من ذلك بسبب تغير الصحة وتغير السن وكمية رأس المال وما الى ذلك .

جدول الوفيات

السن	توقع طول العمر	ارجحية الحياة الى سن معينة النسبة في الالف				ارجحية عدد الوفيات في كل سنة من العمر النسبة في الالف
		٥ سنوات	١٠ سنوات	١٥ سنة	٢٠ سنة	
	المنوات					
٢٠	٤٢٫٤	٩٦٧	٩٣٣	٨٩٧	٨٥٨	٦٫٥
٢١	٤١٫٧	٩٦٧	٩٣٢	٨٩٦	٨٥٦	٦٫٦
٢٢	٤٠٫٩	٩٦٦	٩٣١	٨٩٤	٨٥٢	٦٫٧
٢٣	٤٠٫٢	٩٦٦	٩٣٠	٨٩٢	٨٤٩	٦٫٧
٢٤	٣٩٫٥	٩٦٦	٩٢٩	٨٩٠	٨٤٥	٦٫٨
٢٥	٣٨٫٧	٩٦٥	٩٢٨	٨٨٧	٨٤١	٦٫٩
٢٦	٣٨٫٠	٩٦٤	٩٢٧	٨٨٥	٨٣٧	٧٫٠
٢٧	٣٧٫٣	٩٦٤	٩٢٧	٨٨٢	٨٣٢	٧٫١
٢٨	٣٦٫٥	٩٦٣	٩٢٣	٨٧٩	٨٢٧	٧٫٢
٢٩	٣٥٫٨	٩٦٢	٩٢٢	٨٧٦	٨٢٢	٧٫٣
٣٠	٣٥٫١	٩٦٢	٩٢٠	٨٧٢	٨١٦	٧٫٥
٣١	٣٤٫٣	٩٦١	٩١٨	٨٦٨	٨٠٩	٧٫٦
٣٢	٣٣٫٦	٩٦٠	٩١٥	٨٦٤	٨٠٢	٧٫٨
٣٣	٣٢٫٨	٩٥٩	٩١٣	٨٥٩	٧٩٤	٨٫٠
٣٤	٣٢٫١	٩٥٨	٩١٠	٨٥٤	٧٨٦	٨٫٢
٣٥	٣١٫٤	٩٥٦	٩٠٧	٨٤٨	٧٧٧	٨٫٤
٣٦	٣٠٫٦	٩٥٥	٩٠٣	٨٤٢	٧٦٧	٨٫٦
٣٧	٢٩٫٩	٩٥٤	٩٠٠	٨٣٦	٧٥٧	٨٫٩
٣٨	٢٩٫١	٩٥٢	٨٩٦	٨٢٩	٧٤٥	٩٫٢
٣٩	٢٨٫٤	٩٥٠	٨٩٢	٨٢١	٧٣٣	٩٫٥
٤٠	٢٧٫٧	٩٤٨	٨٢٧	٨١٢	٧٢٠	٩٫٨
٤١	٢٦٫٩	٩٤٦	٨٨٢	٨٠٣	٧٠٦	١٠٫٢
٤٢	٢٦٫٢	٩٤٤	٨٧٦	٧٩٤	٦٩١	١٠٫٦
٤٣	٢٥٫٥	٩٤١	٨٧٠	٧٨٣	٦٧٤	١١٫٠
٤٤	٢٤٫٨	٩٣٨	٨٦٤	٧٧٢	٦٥٧	١١٫٥
٤٥	٢٤٫٠	٩٣٥	٧٥٧	٧٥٩	٦٣٩	١٢٫٠

اما لو اخذت الشركة بالقضايا الفردية فلن تتمكن البتة من التنبوء ما اذا كان الشخص الذي سيموت هو المؤمن برأسمال ١٠٠٠ ليرة ام ١٠٠٠٠ ليرة، لان الافراد تختلف، اما الجماعة فهي اكثر ثباتا، وهذه هي احدى طرق التعبير عن قانون المعدل. فان معدل رأسمال المائة شخص الذين سيموتون يكون متقاربا جدا من معدل رأسمال اي مائة شخص آخرين.

واذا لاحظنا نماذج متتابعة يتألف كل منهـا من ١٠٠ شخص، فان معدل رأسمال هذه النماذج يختلف قليلا بين نموذج واخر، ولكنه يختلف كثيرا بين شخص وآخر. وبكلمة اخرى نقول انه كلما ازداد عدد النموذج قل الفرق بين معدل رأسمال النماذج المختلفة، وهذا مثال عـلى قانون الاعداد الكبيرة. الذي ينص بصورة عامة على ما يلي: كلما كبر عـدد النموذج كانت النتيجة اكثر معولية (سواء اكانت تلك النتيجة معدلا او نسبة مئوية او اي دليل اخر). وقد وجد العلماء ان معولية اي دليل تزداد بازدياد الجزر التربيعي لعدد الاشخاص في النموذج الذي استخرج منه الفهرس. فاذا استخرج مثلا المعدل من نموذج لمائة، وشئنا ان نضاعف معوليته يجب ان نزيد عدد النموذج الى ٤٠٠ شخص وليس الى مائتين فقط.

$$\overline{٤٠٠}\sqrt{} = \overline{١٠٠}\sqrt{٢}$$

ونستطيع الان ان نعرف «قانون الانتظام الاحصائي» مضيفين اليـه «قانون المعدلات» و«قانون الارقام الكبيرة». بقولنا: «ان معدل النموذج يكون اكثر معولية من معدل الافراد، وتتناسب معوليته مع الجزر التربيعي لعدد افراد النموذج»

وعندما تطبق شركات التأمين هـذا القانون تأخذ بعين الاعتبار المعدلات لا الحالات الفردية؛ وتستخرج هـذه المعدلات من نماذج كبيرة كمئات الالوف او الملايين. اما اذا كان فرد ما سيموت في وقت معين ام لا فهذه من امور الصدفة، لكن شركات التأمين تستطيع ان تتنبأ بدقة عن النسبة المئوية للذين سيموتون من شعب كثير العدد خلال سنة.

ويستند التأمين بالاضافة الى قانون الانتظام الاحصائي، الى قوانين الارجحية،

والارجحية هي النسبة المئوية لحدوث امر ما بطريقة معينة (تدعى الطريقة المستحبة) بالنسبة الى حدوثه بمختلف الطرق عامة، المستحبة منها وغير المستحبة . فاذا رمينا مثلا قطعة من النقود ١٠٠ مرة وظهرت الجهة التي عليها الصورة ٥٠ مرة فتكون ارجحية ظهور الصورة ٥٠ بالمائة .

واذا مات عشرون شخصاً سنوياً من كل الف شخص، فتكون ارجحية الموت في هذه الجماعة ٢ بالمائة. ان ارجحية الوفيات بين الاطفال في مختلف بلدان الشرق العربي تتراوح بين ٢٠ بالمائة و ٥٠ بالمائة بينما هي اليوم ٥ بالمائة في احسن بلدان العالم صحة، وهكذا تكون نسبة الوفيات ارجحية للمستقبل ايضا .

ويمكننا ان نعرف قانون الارجحية البسيطة هكذا: ان ارجحية حدوث شيء ما في المستقبل بالطريقة المرغوب فيها هي النسبة الحاصلة من تقسيم عدد مرات حدوث الشيء في الماضي بالطريقة المرغوب فيها على عدد مرات حدوثه بمختلف الطرق الاخرى بما فيها الطريقة المستحبة، وقد يكون ذلك الحادث الموت او الحياة في جماعة من الناس خلال سنة ما. فاذا اعتبرنا الحياة حتى نهاية تلك السنة حادثا مرغوبا فيه، تكون ارجحية الحياة خلال تلك السنة حاصل تقسيم عدد الاشخاص الذين عاشوا في السنة الماضية على عدد الاشخاص الذين عاشوا والذين ماتوا خلال السنة نفسها، ويمكننا ان نضرب هذه النسبة بمائة لكي تصبح نسبة مئوية. ان معادلات ذلك هي الاتية :

$$\text{الارجحية} = ١٠٠ \frac{\text{الحوادث المرغوب فيها}}{\text{الحوادث المرغوب فيها} + \text{الحوادث غير المرغوب فيها}} = \text{ار}$$

$$\text{عدم الارجحية} = ١٠٠ \frac{\text{الحوادث غير المرغوب فيها}}{\text{الحوادث المرغوب فيها} + \text{الحوادث غير المرغوب فيها}} = \text{عدم ار}$$

ار + عدم ار = ١٠٠ بالمائة

فاذا كانت ارجحية المرض ٥ بالمائة (ار = ٥ بالمائة) فتكون ارجحية عدم المرض،

وهي ارجحية الصحة، ٩٥ بالمائة (عدم ار = ٩٥ بالمائة) وللامتحان اجمع ٥ بالمائة + ٩٥ بالمائة = ١٠٠ بالمائة . لاحظ ان عدم ارجحية حدوث الشيء بطريقة معينة يعني ارجحية حدوثه بطريقة اخرى . والارجحية هي ١٠٠ بالمائة (اي تامة) بان الامر سيحدث بطريقة ما اذا كان لا بد من وقوعه . فاذا اخذنا اي عدد من الناس خلال سنة ما فانهم اما ان تنتهي السنة وكلهم اموات او كلهم احياء .

ولما كان مجموع ارجحيات الحياة او الممات ١٠٠ بالمائة فنتوصل من تعميم هذا المبدأ، الى قانون الارجحيات المتناوبة . وينص هذا القانون على ان ارجحية حدوث امر ما من مجموع عدة امور اخرى مستقلة متناوبة هي مجموع ارجحيات كل منها مستقلة . فاذا كانت ارجحية شخص ما بان يصاب بالملاريا هي عشر واحد بالمائة (ار١ = ١٠ بالمائة) وارجحيته ان يصاب بذات الرئة نصف واحد في المائة (ار٢ = ٥٠ بالمائة) وكانت ارجحيته ان يصاب بداء الزنطارية اربعة اعشار الواحد في المائة (ار٣ = ٤٠ بالمائة ٢ فتكون ارجحيته في ان يصاب باي من هذه الامراض، هذه الارجحيات كلها اي واحد بالمائة :

(ار١ + ار٢ + ار٣ + ١٠٠٠٠ر) مجموع قانون الارجحيات المتناوبة

فاذا كانت ارجحية ظهور الصورة على قطعة النقود عند رميها ٥٠ بالمائة (ار = ٥٠ بالمائة) فتكون عندئذ ارجحية ظهور الكتابة ٥٠ بالمائة ايضاً (عدم ار = ٥٠ بالمائة = عدم ارجحية ظهور الصورة) وتكون ارجحية ظهور احد الجانبين مجموع الاثنين معا (ار + عدم ار = ١٠٠ بالمائة).

وهذه بلا ريب ارجحية تامة . ومما لا ريب فيه ان احدى جانبي قطعة النقود سيظهر عند القائها على الارض . ولما كان لا بد من وقوع احد ثلاثة امور للانسان خلال السنة الزمنية : فهو اما ان ينهي السنة معافى سليما دون ان يصاب بمرض، او ان يمرض، او ان يموت . واذا وجدنا ان ارجحية الموت هي ٢ بالمئة وارجحية المرضى هي ٣ بالمئة فماذا تكون ارجحية الصحة ؟ . ولنفترض ان شخصا يود ان يؤمن مخزنه ضد كل انواع العطل والضرر، وان شركة التأمين

وجدت من سجلاتها في السنوات السابقة الارجحيات الاتية :

ارجحية الحريق	٢ بالمئة = ار ١
ارجحية الزلزال	٠٫١ بالمئة = ار ٢
ارجحية العواصف	٠٫٦ بالمئة = ار ٣
ارجحية الحرب	١٫٢ بالمئة = ار ٤
ارجحية اسباب اخرى	٠٫١ بالمئة = ار ٥
	= ار

فما هي ارجحية العطل والضرر ؟ انها النسبة المئوية للمخازن التي تتهدم سنويا باي سبب من الاسباب، وهي في الوقت نفسه الحد الادنى للنسبة المئوية لمجموع رأس المال الذي يجب ان يدفع بواسطة الاقساط لكي تكفل شركة التأمين انها ستجمع من المال ما ستدفعه من رؤوس اموال .

وهنالك قانون آخر مكون من الارجحيات البسيطة، وهو قانون الارجحية المنضمة . ويبين هذا القانون نصيب حدوث امرين في وقت واحد في كل ١٠٠٠ مرة . فاذا كانت ارجحية المرء ان يصاب بمرض ٣ بالمئة (ار١ = ٣ بالمئة) وارجحيته ان يصاب باحد الطوارئ ٤ بالمئه (ار٢ = ٤ بالمئة) فتحسب شركة التأمين ارجحية احتمال اصابة هذا المرء بالمرض وباحد الطوارئ في آن واحد، بضرب هاتين الارجحيتين :

ار١ × ار٢ قانون الارجحية المنضمنة = ار

وبعبارة عامة، ينص هذا القانون على ان ارجحية حدوث عدد من الاشياء في وقت واحد هي حاصل ضرب ارجحية كل من هذه الاشياء . فاذا كانت مثلا ارجحية موت شخص ما ٢ بالمئة فما هي ارجحية موت شخصين في سنة واحدة في عائلة واحدة ؟ الجواب ٠٫٠٢ × ٠٫٠٢ = ٠٫٠٠٤، او اربعة اعشار واحد بالمائة، وتكون ارجحية موت ثلاثة اشخاص في عائلة واحدة ٠٫٠٢×٠٫٠٢×٠٫٠٢=٠٫٠٠٠٨، او ثمانية من المائه من واحد بالمائة . واذا كانت ارجحية احتراق بيت الانسان

٢ بالمائة وارجحية خسارة مركزه ١ بالمائة فما هي ارجحية حدوث الاثنين معاً لشخص واحد في سنة واحدة ؟

وهكذا تستند حسابات التأمين الى قوانين الارجحية البسيطة منها والمتناوبة والمنضمة. ولكن اصحاب شركات التأمين يضطرون ايضا الى استخدام ارجحيات اخرى مثل ارجحية الحالة العادية الحاصلة من منحنى التوزع العادي والارجحية المتوافقة الحاصلة من توزعين او اكثر متوافقين (راجع منحنيات التوزع في الفصل الثاني). ان القارىء يستطيع ان يطلع على هذه الارجحيات بتفصيل في كتب الاحصاء، اما في هذا الفصل فيكتفي بمعرفة قانون الانتظام الاحصائي وقوانين الارجحية الابتدائية، ليعرف الاسس العلمية التي يقوم عليها التأمين الذي نحن بصدده في هذا الفصل .

الفوائد الاجتماعية للتأمين

لقد اصبح التأمين في العالم الحديث من الاهمية بحيث لا يكتفي القارىء ان يعرف انواع التأمين الرئيسية والاسس العلمية التي يقوم عليها التأمين فحسب، بل يجب ان يعرف ايضا فوائده الاجتماعية وطرق القيام به. ان هذه الفوائد جلية واضحة، وليس علينا الا ان نذكرها فيما يلي :

١ — يقضي التأمين قضاء كليا على العوز الاقتصادي الناتج عن المصائب التي لا بد من وقوعها .

٢ — يخفف التأمين مشاكل الفرد التي تحصل من هذه المصائب بتوزيع تكاليفها على عدة اشخاص، فيشارك المجموع خسارة الفرد .

٣ — ان الاقساط التي تدفع الى شركات التأمين هي بمثابة توفير، وشركات التأمين التي تجمع بهذه الطريقة اموالا طائلة من رؤوس الاموال تستطيع ان تستخدم هذه الاموال في تأسيس صناعات مثمرة في البلاد .

٤ — ان التأمين هو الصورة الواضحة للتنبؤ الناجح في العلوم الاجتماعية والسيطرة عليها، اذ ان المرء يستطيع ان يضع ميزانيته قبل اوان الدفع ويعين الاقساط التي

عليه ان يدفعها كل سنة، فيتأكد بذلك انه لن يتضعضع ماليا ولن يصاب بكارثة اقتصادية .

٥ — يساعد التأمين على تحقيق التعاليم الدينية القائلة بضرورة مساعدة الفقراء والمعوزين اذ يوفر التأمين نظاما اقتصاديا استقلاليا عمليا .

كيفية ادارة التأمين

لكي تتوفر هذه الفوائد يجب ان توجد منظمة من الشعب وظيفتها جمع المعلومات، وحسب الارجحيات، وتعيين الاقساط، وتأمين الناس، وجمع الاقساط السنوية، ودفع رؤوس الاموال، واستثمار رأس المال الاحتياطي بحكمة. وهنالك ثلاثة انواع من المنظمات للقيام بهذه الاعمال: اولا — الحكومة، ثانيا — الشركات المساهمة، وثالثا — الشركات او الجمعيات التعاونية. ان الشركات المساهمة هي التي اوجدت اولا؛ وهي تتألف من اشخاص يتقاسمون الارباح او الخسائر بالنسبة الى المال الذي ساهموا به . اما الجمعيات التعاونية فتتألف من الذين يؤمنون هم انفسهم على حياتهم والاقساط التي يدفعونها تشكل رأسمال الشركة والارباح التي تجنيها شركة كهذه تتوزع عليهم . ولا ريب ان هذا النوع من شركات التأمين التعاونية هو الافضل بالنسبة الى طالب التأمين لان الارباح التي تجنيها الشركة تعود اليه بدلا من ان تذهب الى اناس آخرين هم اصحاب الاسهم .

وحيثما لا يمكن ان تحسب الارجحيات بدقة بسبب الحوادث المتواصلة مثل الحروب مثلا، فلا تستطيع شركة واحدة ان تؤمن الناس في حالات كهذه، ويصبح من واجب الحكومة ان تقوم باعباء المهمة. وبامكان الحكومة القيام بهذه المسؤولية لانها اذا ما رأت ان مصاريف التأمين قد زادت على دخله استطاعت الحكومة تغطية ذلك بفرض ضرائب جديدة او بعقد قرض تدفعه في المستقبل عندما تبلغ قيمة الاقساط اكثر من رؤوس الاموال المفروض دفعها. وتحتاج الى التأمين الحكومي ايضا عندما ترغب الامة في تأمين كل من افراد الشعب تأمينا إجباريا سواء دفعوا الاقساط المترتبة عليهم ام لم يدفعوا، ذلك لان الامة لا تريد ان

يكون بين ابنائها من لم يؤمن على حياته او من يصاب بمرض او كساح او يكون عاطلا بلا عمل او من يبلغ سن الشيخوخة ولا يجد من يعيله فتضطر الحكومة الى العناية بجميع هؤلاء المنكوبين حين تعجز عائلاتهم عن اعالتهم . اما مؤسسات التأمين الحكومية هذه التي تؤمن الناس ضد الشيخوخة والبطالة والقصر بسبب المرض والطوارىء، فتسمى مؤسسات التأمين الاجتماعي، لان المجتمع بكامله هو الذي يؤمن في مثل هذا النوع لا الافراد .

ان جميع هذه الانواع من منظمات التأمين غربية المنشأ، وتتطلب الثقة بشركة، اما مساهمة او حكومية، دون ان تكون لها صفة شخصية. ولكن افراد الشعب في الشرق العربي لم يتعودوا جيداً بعد ان يثقوا بالشركات المساهمة، فهم يفضلون المعاملة القائمة على اسس العلاقات الشخصية كما بيّنا في فصل سابق. لذلك يجدر بنا ان ندرس نوعاً محلياً من التأمين على الصحة كالنوع الذي استخدمه الدكتور رشيد معتوق في دوما عامي ١٩٢٩—١٩٣٠ وقد كتب المؤلف الوصف الاتي لذلك التأمين عام ١٩٢٩ على اثر زيارته للدكتور معتوق في دوما في لبنان الشمالي :

لقد اتفق الدكتور معتوق مع كل عائلة من العائلات التي يعالجها بان تدفع له العائلة مبلغا سنويا معيناً يتراوح بالنسبة الى دخل العائلة . على ان يأخذ على عاتقه مقابل ذلك امر العناية بجميع من يصاب بمرض في تلك العائلة . واستطاع ان يثبت للاهلين من اختباراته انهم بذلك لا يدفعون اكثر مما كانوا يدفعون في الماضي حين كانوا يدفعون اجرة الطبيب بعد كل زيارة طبية يقوم بها لهم . فشعر القرويون بان هذا النظام هو اقل كلفة لهم ومع ذلك فانهم يستطيعون ان يدعوا الطبيب كلما شاؤا ، ولكن الطبيب لم يخسر ايضاً فانه بذلك النظام جمع زبائن اكثر مما كان له قبل النظام فزاد بذلك دخله السنوي . وكان القرويون قبل ذلك ملزمين بدفع اجرة الطبيب كلما اصيب احدهم بمرض، وكان يصادف ذلك احياناً في ظروف غير ملائمة حيث لا يكون لدى القروي المال الضروري . اما الان ، بعد التمشي على النظام الجديد، فانهم يدفعون القسط السنوي للطبيب بعد جمع المواسم مباشرة حين يكون المال متوفراً لديهم . وقد اشتركت معظم العائلات في الاثنتي عشرة

قرية التي طبق فيها الدكتور معتوق نظامه الجديد، بهذا التأمين، فيجتمع اهل القرية ويضعون جدولا بالمبالغ التي يجب ان تدفعها كل عائلة ثم يوقعون عقدا واحداً مع الطبيب باسم القرية بكاملها .

وكانت نتيجة هذا النظام بادىء الامر زيادة عمل الطبيب بالاكثار من استدعائه من قبل زبائنه كلما شعروا بمرض، ثم ان الدكتور معتوق قد أدرك انه من الضروري ان يعلم الشعب كيف يتجنبون المرض فبدأ، كلما دعي الى زيارة مريض، بدعوة الجيران ليعلمهم معنى اعراض ذلك المرض، ثم يعلمهم كيف يعالجونه وكيف يمكنهم تجنبه في المستقبل. كما انه ابقى ميزانا للحرارة في كل قرية مع شخص معين وعلمه كيفية استعماله وكيفية اعطاء الكينا للمريض؛ وهكذا اصبح اهل القرية لا يدعون الطبيب الا في الحالات الخطرة . وعندما انتشر مرض الجدري في لبنان استحضر الدكتور معتوق مطعوما ضد الجدري من بيروت لقح به جميع اهل القرى المتعاقدة معه قبل ان تفكر الحكومة بمكافحة هذا الداء، فلم يمت من زبائنه احد. وبنتيجة هذا النظام وما اسفر عنه من تعليم الاهلين، قلت زيارات الطبيب للمرضى، ومع ذلك فقد كان دخله اكثر من ذي قبل وصحة الشعب احسن وهم اقدر على العناية بها . وهكذا اتجهت رغبات الطبيب الانانية ورغباته الغيرية نحو الطب الواقي بدلا من الطب العلاجي كما هي حال جميع الاطباء الذين ينالون اجرا معينا على زيارة طبية . وان هذا لعمري افضل انواع الطب الاجتماعي واعلاه مرتبة وهو النوع الذي لا يزال الغرب الرأسمالي يجاهد في سبيل بلوغه .

الفصل الرابع والعشرون

اللعب

ان الغاية من هذا الفصل هي التاكيد على أهمية اللعب
واثره البعيد في حياة الفرد وحياة الجماعة .

ان ما يستلفت النظر عن اللعب عموميته و انتشاره بين جميع المخلوقات البشرية والحيوانية . وهذه الحقيقة برهان قوي على اهمية اللعب بالرغم من الفكرة الشائعة في بعض الاوساط عن ان اللعب للاطفال مفسد، وللكبار خسارة في الوقت. وتذهب بعض المذاهب الدينية في بلادنا الى حد اعتبار اللعب خطيئة والذين يساهمون فيه خاطئون، وحجتهم في ذلك ان الطبيعة البشرية من اساسها فاسدة، وليست النزعة الى اللعب سوى تعبير عن ذلك الفساد. واذن، فيجب ان تقمع هـذه النزعة، كما يجب ان يطابق سلوك الطفل الناشيء وتصرفاته قوانين الاجتهاد والوقار. اما علم الاجتماع وعلم الحياة الحديثان فيذهبان الى الطرف الثاني في تفسير عمومية اللعب، ويبرهنان على ان اللعب هـو ضرورة بيولوجية للفرد وضرورة اجتماعية للجماعة، ولا يجدان فيه ما يعيب. بل على العكس، فقد توصلا الى اعتباره ضرورة هامة للحياة الكاملة .

ان اللعب ظاهرة يشترك فيها الانسان والحيوان. ولدينا ادلة تاريخية تثبت ان اللعب قديم بقدم المجتمع الانساني، فلا تجد اليوم قبيلة من القبائل ، مهما كانت ابتدائية ساذجة، لا تساهم في نوع من انواع اللعب في مواسم معينة. فبعد كل رحلة من رحلات الصيد يشترك الاسكيمو في احتفال حماسي ينصرفون في اثنائه كل الانصراف الى التمتع بالحياة واللعب، كما ان رقص القبائل الافريقية وطرقهم الغريبة في الاستجمام ليس منعشاً لهم فحسب، بل للمتمدنين ايضاً . ولا اراني

بحاجة الى ذكر الالعاب الرياضية والالعاب المختلفة التي كان قدماء اليونان يشتركون بها، فهي اشهر من ان تذكر في مثل هذا الفصل. ولم يكن فنهم العجيب: النحت الا لعباً بلغ اسمى درجات الابداع. ونحن مدينون بعدد غير قليل من ألعابنا الحديثة لقدماء اليونان، كما اننا مدينون للعرب بسباق الخيل ولعبة «البولو» اللتين ولع بهما اسلافنا العرب. اما المجتمع الحديث فانك تجد فيه شتى انواع الاستجمام التجاري التي يقبل عليها الناس بشوق وحمية. فهنالك السينما وسباق الخيل وصيد الحمام، والمقاهي، وما الى ذالك.

نظريات في اللعب

لماذا نلعب؟ وللاجابة على هذا السؤال نقدم للقارىء النظريات التالية:

اولا — نظرية الوراثة: تستمد هذه النظرية حجتها من التطور البيولجي للسلالة، وهي كنظرية الغريزة تقريبا. وتنص على ان تكوين جسم الانسان الحديث هو نتيجة صراع مستمر مع عناصر الطبيعة دام ملايين السنين. وقد تطور الانسان خلال هذه السنين الطويلة من الصراع بحيث اصبح جزءا تاما من الطبيعة حوله يشعر بالطمأنينة فقط عندما يجابه عناصر الطبيعة ومخاطرها وجهاً لوجه. وقد كان لعضلات الانسان الضخمة اهمية حيوية خلال هذا التطور، في حين اصبح لها في الحياة الحديثة اهمية قليلة جداً بالنسبة الى العضلات النحيفة. بيد ان الحاجة الوراثية لاستعمال العضلات الضخمة، تدفعنا للانغماس باللعب حيث نجد فرصة لتمرين هذه العضلات المهملة. ثم ان الحياة الحديثة تفصل الانسان عن مجتمعه الطبيعي حيث نشأ وتضعه وسط محيط اصطناعي. هذا هو السبب، كما تزعم النظرية، الذي يجعلنا نتمتع بالالعاب التي تقلد ظروف الحياة الابتدائية، وتجعلنا نعتقد، ولو لمدة قصيرة، اننا في احضان الطبيعة.

ثانياً — النظرية الاستجمامية: وتنص هذه النظرية على ان عب. الاعمال اليومية يقع على مجموعة من العضلات والاعصاب، وان هذه العضلات والاعصاب

تتعب من كثرة الاستعمال، فيلجأ المرء بنتيجة ذلك الى اللعب كوسيلة لاستجمام هذه العضلات والاعصاب بحيث تتمكن هذه من تجديد نشاطها .

ثانياً — نظرية الاسترخاء : وتشبه هذه النظرية نظرية الاستجمام؛ والفرق بينهما هو ان هذة النظرية تنص على اننا نلعب لكي تسترخي عضلاتنا واعصابنا المتعبة فتستريح وتستعد للعمل المقبل .

رابعاً — نظرية الطاقة الزائدة : تنظر هذه النظرية الى المسألة من ناحية فيزيولوجية؛ فاللعب هو فعالية، وكل فعالية تتطلب انفاق الطاقة، اذن بدون توفر الطاقة لايمكن القيام باللعب . ولقد جهزت الطبيعة الانسان بجهازين : عصبي وعضلي، يتصفان بدقة التنظيم وكثرة التعقيد . وقد تطور هذان الجهازان كما تتطلب الظروف الطبيعية التي تقلب الجنس البشري في احضانها . وحيث ان ظروف الحياة الحديثة لا تخول الانسان استخدام هذين الجهازين استخداماً عنيفاً، فانهما لا يستهلكان سوى جزء من الطاقة التي يولدها الجسم؛ اما بقية الطاقة فتخزن في الجسم ككمية زائدة . وهكذا يشعر هذا الجسم بحاجة ماسة الى منفذ للطاقة الزائدة، فيجنح الى اللعب .

فوائد اللعب

سواء فسرت النظريات المتقدمة اللعب تفسيراً مرضياً ام لا، فالحقيقة الهامة التي لا تتغير هي أن اللعب عنصر ضروري في حياة الحيوان والانسان معاً ومظهر هام من مظاهر المجتمع الانساني؛ وأن فائدة اللعب للفرد والمجتمع بعيدة الاثر اذ من شأنه أن يجدد فيها القوى والنشاط . ان هذا التجديد في قوى الفرد ونشاطه واضح لا حاجة الى الزيادة في تفصيله، فلنر كيف يتعداه الى المجتمع .

عندما كان الانسان يعيش في احضان الطبيعة وبين عناصرها، كانت الجرأة والشجاعة — وهما عنصران هامان للشخصية الكاملة — تأخذان حظهما من النمو التام . اما اليوم فان المرء الذي يقضي معظم وقته في المكتب، او المتجر، او المعمل،

لا يترك للجرأة والشجاعة فرصة مناسبة للنمو. بيد ان اللعب، على انواعه، يهيء مثل هذه الفرصة؛ اذ على لاعب الكرة مثلاً ان يكون شجاعاً وجريئاً اذا شاء ان يحتل مكاناً لائقاً في الفرقة وان يقودها الى النصر. وهكذا قل عمن يقفز في المياه من مكان عالٍ، فهو حين يفعل ذلك لاول مرة يشعر بخطر عظيم فيتهيب، ولكنه حالما يقدم عليه تكراراً يكتسب ثقة بالنفس تذهب روعة الخطر وتمنحه لذة وشوقاً.

ان الثقة بالنفس، وضبط النفس، والتضحية، والتعاون، كلها وكثيراً سواها من الفضائل، تنمو فينا بفعل اللعب، ويمتد اثرها الى المجتمع.

الاستجمام المنظم

كلما اتضحت قيمة الاستجمام زاد اهتمام الجماعة فيه واكثروا من تخصيص المال والوقت له. فان المدارس والبلديات والنوادي وغيرها من المؤسسات جميعها تعمل على تنظيم الفعاليات الاستجمامية وعلى ايجاد الاسباب الضرورية لها واعداد المدربين الاخصائيين لاجلها. ان اول خطوة في مجهود الجماعة لتنشيط الاستجمام هي اجراء كشف عن مختلف انواع الاستجمام اولاً، ثم تنشيط تلك الانواع التي تلائم الجماعة بما لديها من امكانيات ومال.

ولاجراء هذ الكشف يجب وضع الجداول وتصنيفها على الاسس الاتية:

ا — الفرق في الميول الناشيء عن التفاوت في السن منذ دور الطفولة حتى الرشد.

ب — فردية او اجتماعية (بما فيها الجماعات والفرق)

ج — متحركة ام جامدة.

د — جسمية ام عقلية.

ه — قائمة على المنافسة ام لا منافسة فيها.

واننا نورد فيما يلي جدولا بالفعاليات التي لا منافسة فيها:

المحادثة	الاكل	الشرب	الالعاب
التزحلق	التنزه في البحر	السياحة	التزحلق على الثلج
تسلق الجبال	التخييم	الانشاد	زيارة المتاحف
الرقص	السهرات	حضور التمثيل	حفلات العشاء
الاجواق الموسيقية	الرحلات	السفر	الروايات التمثيلية
الحفلات	الهوايات	العمل في الحديقة	الاهتمام بالمحركات
درس الطبيعة	المباحثة	القراءة	الاهتمام بالسيارات
التصوير	الرسم	النحت	ألغاز الكلام
الكتابة	عمل الخرائط	تجليد الكتب	الحفر
الطبخ	النجارة	صنع النماذج	اجهزة الراديو
الجمع	تربية الدواجن	درس الفلك	المجوهرات
التطريز	حضور الافلام	شغل الابرة	الخياطة

وفيما يلي جدول آخر بالالعاب الجسمية العنيفة التي تقوم على المنافسة :

كرة القدم	سباق الموانع	كرة الطائرة	كرة الكبتن
التنس	التنس على الباخرة	بادمنتن	البنكبونك
الهوكي	السباحة	بيزبال	البولو
كرة اليد	الغوص	الملاكمة	المصارعة
ركب الدراجة	اجريد	الالعاب الجمبازية	سباق الخيل
رمي الثقل	جر الحبل	القفز العالي	الرقص
كرة السلة	الغوص	القفز بالمظلة	بولتك

وهنالك عشرات اخرى من الالعاب المعروفة. واذا شئت التوسع في هذه الجداول راجع كتاب « بانكروفت » وعنوانه « العاب البيت والمدرسة والملعب » او سلسلة المناشير العربية التي تصدرها مؤسسة الحياة الريفية في الجامعة الاميركية ببيروت، وكتب الكشافة ونوادي شبان القرى العاملين .

وليس من ريب في ان كثيرا من هذه الالعاب في هذا الجدول لم يتعرف عليها الشرق العربي، او لم تعم فيه بعد. واذا دل هذا الجدول على شيء فانما يدل على مقدار اهتمام الناس بالاستجمام وتنظيمه بعد ان زاد وقت الفراغ بسبب الثورة الصناعية فاصبح مؤسسة اجتماعية نظاميـة مثل البيت والمدرسة والتجارة والحكومة والكنيسة والمستشفى وسواها.

الفصل السادس والعشرون

الفنون الجميلة [1]

ان غايتنا من هذا الفصل هي ان نلقي نظرة على البيئة التي نشأت فيها الفنون الجميلة في تاريخ الشرق العربي ، وان نبين الطرق التي تتبع الان لاحياء هذه الفنون وتقديرها ، واخيرا ، أن نعالج العلاقات الفنية بين مجموع افراد الشعب .

قال الشاعر الانكليزي المشهور جون كيتس : «ان الجمال بهجة ابدية للنفس» فما هو الجمال ؟ يعرفه القاموس كما يلي : هو تلك المزايا التي تبعث البهجة في الحواس وتثير سحرا وفتنة في النفس . ويشرح جون دولمان في كتابه « فن الانتاج باللعب » طبيعة الفنون الجميلة بالنسبة الى الجمال ، فيقول :

« يمكننا ان نصف الفنون الجميلة بكونها تلك الفعاليات التي توجد في الدرجة الاولى للحصول على البهجة بالفن ، اي البهجة التي تتوقف على تقدير الجمال . لا ريب ان هنالك آراء متضاربة كثيرة حول ماهية الجمال ، فقد يرى احدهم الجمال في منظر غروب الشمس ، وقد يجده آخر في شعر او قصيدة ، وقد يراه آخر في حسن سير آلة بخارية وانتظام عملها . ويتمتع البعض بالجمال بالنسبة الى نفعه بينما يتمتع به آخرون من اجله فقط . لكن مهما اختلفت نتائج تقدير الجمال فان القابلية على تقديره تكاد تكون عامة الانتشار . ومن هنا كان للفنون الجميلة وانواع الفنون المختلفة ان تحوز على رضا مختلف الطبائع البشرية . »

---

(١) سبق هذا الفصل فصل بعنوان « الخدمة الاجتماعية » هو الفصل الخامس والعشرون رأينا ان نحذفه في هذه الترجمة العربية .

وبالاضافة الى هذه الناحية المادية للجمال فهنالك الفكرة الفلسفية التي يشتمل عليها التأثر العقلي بالجمال المادي . فقد كانت المثل العليا للحق والخير والجمال دائماً مرتبطة بعضها ببعض بنظر اللاهوتيين المفكرين العظام والفلاسفة . ويظهر ان ارتباط الجمال بالخير والحق امر طبيعي، اما الشر او عدم الصدق فليس فيه شيء من الجمال الحقيقي؛ وقد ابرز هذه الفكرة بوضوح جون رسكن النقاد الفني في رسالته عن الرسم وقد سماها « الجمال والبشاعة والحق » فقال :

« ينحصر الفن العظيم بكل ما هو جميل، اما الفن الكاذب فيحذف او يبدل كل ما هو بشع . ان الفن الحقيقي ينظر الى الطبيعة كما هي ولكنه يوجه الانظار والافكار الى أفضل ما فيها؛ في حين ان الفن الكاذب لا يكلف نفسه عناء التوجيه، فيحذف ما يرى انه غير موافق او يبدله » .

وقال رسكن في الرسالة نفسها ان احدى مميزات الفن البارزة هي انه يضم اقصى ما يمكن من الصدق باتم ما يكون من الاتزان. اما افلاطون وارسطو فقد اتيا بفكرة تناقض هذه الفكرة، فقالا انه قد يكون في تمثيل البشاعة احيانا شيء من البهجة الفنية وان كان الجمال مفقوداً . وقد اشار ارسطو الى اننا ننال غالباً اعظم لذة من تمثيل الفاجعة التي كانت في الحقيقة تبعث فينا اشد الالام . ولنستشهد بدولمان، مرة ثانية، فننقل ما قاله عن الجمال . فقد لخص الاراء المتضاربة عن الجمال بما يلي :

« يقول البعض ان الجمال هو رمز للتقدير ، ويقول آخرون انه نتيجة ما توحيه روح الفنان في تفسير ما يبصره ، او انه يتوقف على مقدار الدافع الابداعي في مخيلة الملاحظ . ويخلط البعض بين نظرياتهم الفنية ونظرياتهم الادبية فيؤكدون ان الجمال هو الصدق ، وان الصدق هو الجمال ، وان الجمال هو الطريق الى الخير او الكمال . وبينما ينظر البعض الآخر من ناحية دينية ، فيزعمون ان الجمال هو الطريق الى الله ، نجد سواهم يأخذون بالنظرة الاغريقية التي تعتبر ان الجمال هو التقدير الحسي للشكل » .

نجد في هذه الفقرة اغلب الآراء العامة في الجمال، وكلها، كما نرى، تجمع على

ان الجمال كان دائماً ولا يزال عاملاً هاماً في حياة الانسان . وقد برهن الانسان على هذه الحقيقة، خلال العصور، منذ عهده برسوم الكهف الابتدائية، حتى عهده هذا بسنفونيات بتهوفن .

الرسم

كان نمو الرسم في الشرق العربي محدودا لدرجة ما؛ ولكن الفرس، خاصة في العصر الفني الفارسي الاسلامي من سنة (٦٤١ — ١٧٣٦)، اشتهروا خصيصاً في رسم المصغرات. وكان حكامهم يحبون الكتب الجميلة المزدانة باجمل الصور والالوان بريشة رسامين مشهورين كبهزاد (عام ١٥٠٠ ق . م) او آغا مراك (١٥٠٠ — ١٥٥٠ ق. م). وقد خط الخطاطون الكوفيون المشهورون في اوائل عهد الخلافة، قبل تأسيس مدينة بغداد، نسخاً جميلة من القرآن الكريم باجمل الخطوط الكوفية. اما التصوير الذي يتخذ من الجسم البشري موضوعاً له، فكان ممنوعا حسب الشرع الاسلامي والتقاليد الاسلامية. بيد ان الفنانين غير المسلمين الذين تأثروا ببعض المؤثرات الصينية، انعشوا هذا الفن فاصبحت ترى صور الصيد والمعارك والاعياد والازهار والموسيقى تملأ الكتب في ذلك العهد. وبالاضافة الى تلك الكتب المزينة بالازرق الباهت والمطلات بماء الذهب، بلغ الخط العربي درجة ممتازة من الفن، وبلغت العناية بهذه الكتابات العربية الجميلة درجة قصوى بحيث اصبح الاهتمام بشكلها وقيمتها الفنية اعظم منه بمحتوياتها .

وقد ذكر الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب ان الرسم كان من اضعف الفنون الجميلة في الشرق العربي لان الديانة الاسلامية تحرم كل انواع الفن التمثيلي، فقال ما يلي : «يعتقد معظم رجال الدين المسلمين ان تمثيل الانسان والحيوان من حق الله فقط، ويعدون من يحشر نفسه في ذلك كافراً بالله . »

على ان تطور العرب وتأثرهم بالحضارة الغربية افسح لهم مجال التعرف الى آثار الفنانين العالميين المشهورين، من مصرية قديمة واغريقية، الى متوسطية وانبعاثية، فالى هوالندية وحديثة. بيد ان تأثرهم بهذه الفنون الغربية كان قليلا، ذلك لان

الرسم قد مر في دور من البعث والنمو خلال القرون التي كان فيها العالم العربي غارقاً في لجة من التأخر الثقافي والفني والعلمي والتربوي. ولم تظهر علامات اليقظة الفنية في البلاد العربية الا حديثا، ولا يزال كثيرون من العرب يجهلون المبتكرات الفنية العالمية الرائعة.

النحت

لقد كان فن النحت مرتبطاً حتى في اقدم عصور التاريخ العربي، بفن البناء. ففي مصر القديمة حين كان فن البناء يستخدم في الدرجة الاولى لحماية الموتى كالاهرام وغيرها من القبور، كان النحت مرتبطاً بالمحافظة على الموتى او بخدمتهم ولهذا السبب تقدم النحت التصويري الى درجة مدهشة، بحيث لم تظهر في الصورة تقاطيع الجسم فقط بل الملابس والحلى والشعر والحاجبان وبقية التفاصيل ايضاً. وبالاضافة الى الرسوم البشرية فقد نحتت صور الحيوانات والطيور والاسماك نحتاً فائقاً في الجمال. وقد كانت النقوش البارزة قليلا، خاصة في القبور، دقيقة الصنع بحيث يستطيع المشاهد ان يكون منها فكرة تامة عن حياة الشعب اليومية كما يكون من الرسوم والزخرفات على الاقداح والخشب وسواها. اما الحفر فكان يصنع في الخشب والحجارة معاً، وكانت الصور تلون عادة بالوان براقة لا تزال آثار بعضها ظاهرة حتى الان. وقد مر فن النحت المصري في ادوار مختلفه تقدم خلالها من الاشكال الابتدائية السمجة الى ادق الاشكال المحفورة في الهياكل العظيمة في وادي الملوك مثلا. وتمتد ادوار الفن المصري هذه من سنة ٤٥٠٠ — ٢٤٧٥ ق.م.

وكذلك رقى البابليون والاشوريون والكلدانيون والفرس فنونهم بما فيه النحت، الى درجة قصوى، ما بين سنة ٣١٩٠ — ١٩٢٥ ق.م. اما في بابل فقد اقتصر النحت على الملوك والامراء وحاشياتهم وعبيدهم، وكانت لهم بعض النقوش البارزة التي تبين الجيوش المتحاربة والحفلات الدينية والاعياد والاعمال اليومية. واذا قارنا الفن البابلي بالمصري فاننا نجد ان الاول كان سمجا ومتأخرا بالنسبة الى الاخير، اما النحت الاشوري فقد كان غالبا في القصور حيث كان يخرج بالكتابة

المسمارية مرتبا باطارات على الحائط. وقد رسموا الحفلات والحروب والحدائق والصيد كما فعل البابليون. وابرز ما كان في النحت الاشوري الثيران او الاسود ذات الرؤوس البشرية على جثة ضخمة هائلة وكذلك ابواب القصور الجانبية. اما الدور الكلداني فهو في الحقيقة دور بابلي ثان اتى متأخرا (٦٠٦ — ٥٣٩)، ولكنه لم يضف الا القليل الى الدور السابق. وقد اقتبس الفرس الكثير من نحتهم عن الاشوريين كالثيران المجنحة الضخمة الجثة وذات الرأس البشري. وتوحي الاعمدة الضخمة في العاصمة بعض الاثر المصري، مثال ذلك قاعة الاجتماعات في Xerxes بمدينة Parsepolis (عام ٤٨٥ — ٤٦٥ ق. م.)

والمدنية العظيمة الثانية التي دفعت بالنحت الى الامام هي مدنية اليونان. ويبدأ الدور اليوناني الاول منذ سنة ٢٠٠ — ٤٨٠ ق. م. واول ما نحتت صور الرجال العراة، ذلك لان اليونان كانوا امة رياضية. وكانت اثينا مركز هذه الثقافة والمدنية ولا تزال حتى الان التماثيل المنحوتة على ابنية الاكروبوليس دليلا ناطقاً على مبلغ الكمال الذي ادركه هذا الفن عند اليونان. وليس في العالم المتمدن من يجهل تماثيل ابولو، ورامي القرص، وفينيس، وسواها من آثار للنحت خالدة، لم يعرف العالم لها مثيلاً لا من قبل ولا من بعد.

ولقد بدأ الشرق العربي يظهر علامات انتعاش ابتدائي في النحت تحت تأثير الغرب الذي ما زال تأثيره في الشرق آخذا بالتزايد منذ الثورة الصناعية، على الرغم من معارضة الدين لتصوير الجسم البشري. ففي الشرق العربي اليوم طالبات وطلاب درسوا الفن في الخارج وعادوا الى بلدانهم ليبنوا دعائم النهضة الفنية الحديثة.

البناء

ان البناء اقرب الفنون الجميلة الى التطبيق العملي؛ ولذلك فقد احتل دائماً مكاناً رئيسياً في ثقافات المدنيات العظيمة. واذا ما القينا نظرة عجلى على تاريخ فن البناء، ثبت لنا انه لم يعجز شعب من شعوب العالم عن المساهمة فيه وتخليف نماذج عنه. ففي الشرق العربي مثلا نجد الخرائب العظيمة كتلك التي تقوم في « الاقصر »

و « الكرنك » بمصر. وقد كانت البتراء في شرق الاردن، وهي المركز الوحيد بين الاردن واواسط الجزيرة العربية الذي توفرت فيه المياه بغزارة، من اعظم المراكز في العهد القديم كما تدل خرائبها القائمة حتى الان. ويصدق الشيء نفسه على تدمر التي كان لها التأثير الكلاسيكي بفضل ما نقل اليها الرومانيون بتجارتهم مع الشرقين الادنى والاقصى. كما ان خرائب بعلبك في لبنان تعطي دليلا ساطعاً على عظمة فن البناء في ذلك العهد تحت المؤثرات الكلاسيكية. ولا تزال الهياكل والقصور والقبور التي تدل على عظمة هذا الفن في الشرق العربي القديم، قائمة في القدس وبابل وبرسيبولس واماكن اخرى.

ولقد ساهمت جميع الاديان في تشييد ابنية تدل على عظمة الفن المعماري وجماله وتركت الكثير من هذه الابنية شاهداً من بعدها. فها هي ذي كنيسة القديسة صوفيا في استنبول، وقباب كربلاء في العراق، وتاج محل في الهند، تقف في مقدمة الآثار البنائية الدينية العالمية في كل العصور؛ ناهيك عما امتازت به القرون الوسطى من قلاع وقصور شيدها الصليبيون في انحاء الشرق العربي لاغراض دينية وعسكرية، ولا تزال خرائبها تنطق بالروعة والابداع.

ومن البديهي أن يتأثر الشرق العربي بالاتجاهات الحديثة في البناء، فتنهض الابنية الحديثة على انقاض القديمة. واذا كان هذا الاتجاه الحديث يقضي على ما يتصف به الطراز المعماري القديم من الروعة والسحر والجمال، الا انه انقذ المدن الكبرى من الشوارع الضيقة والاحياء القذرة، وأدخل اليها الوسائل الحديثة من كهرباء وماء وسوى ذلك مما يوفر اسباب الراحة والصحة.

الشعر

عندما سؤل « وليم واردسوارث » الشاعر الانكليزي الذي عاش في القرن التاسع عشر، من هو الشاعر ؟ اجاب : « الشاعر هو رجل منحته الطبيعة احساساً مرهفاً، وحماسة، ورقة، وفهماً جيداً للطبيعة البشرية، وروحاً اسمى مما وهبت سواه من افراد البشر الآخرين. »

اننا نجد في القرآن والشعر العربي عامة برهاناً قاطعاً على ان العرب شعراء بطبيعتهم. ولقد نمت الموهبة الشعرية في الشعوب العربية وسمت فوق كل الفنون الجميلة. وكان للشاعر دائماً في تاريخ هذه الشعوب المقام الاعلى. ولقد ازدهر الشعر العربي في عهد الدولة الاموية (عام ٦٨٣ — ٧٥٠) فبرز فيه شعراء عديدون في طليعتهم شاعر الحب الخالد عمر بن ابي ربيعة والفرزدق وجرير والاخطل، وسواهم من امثال قيس وجميل وحماد الراوية. أما في ايام العباسيين فقد بلغ الشعر جانباً من الكمال؛ ولنا منه آثار لا تزال الى اليوم ننشدها ونتغنى بها.

الموسيقى

ولقد احتلت الموسيقى، ككل الفنون الجميلة، مكانا هاماً في ايام الامويين. واليك ما جاء في كتاب الدكتور حتي «تاريخ العرب»:

«لقد كان للعرب قبل الاسلام انواع مختلفة من الغناء، كالاغاني الحربية والدينية والغرامية. ولا تزال آثار الاغاني الدينية موجودة عند الطلبة عند الاحتفال؛ ثم هنالك الانشاد في تجويد القرآن. وقد كانت اغاني القوافل، الحداء، احب الاغاني عندهم، وبنظرهم اول انواع الغناء.

«وحالما ذهب اثر الرعب الذي احدثه الاسلام، لانه لم يكن يحبذ الموسيقى، اتجهت نزعة التطور الاجتماعي في الحجاز الى الناحية الفنية خاصة في ايام عثمان اول خليفة تذوق الثروة والظهور. فتعلم العرب حالا التوفيق بين الصوت والآلة الموسيقية.

«وكان الجوق الاول من المغنين في الاسلام من المتهتكين الاجانب. وقد تركوا عدداً من التلاميذ منهم ابن سريج الذي يعتبر احد المغنين الاربعة المشهورين في الاسلام، والذي يعود اليه الفضل في ادخال الكنارة الفارسية واستعمال العصا في ادارة النغم الموسيقي.

«وقد اقيمت الحفلات الموسيقية بين آونة واخرى في بيوت سيدات الطبقة الارستقراطية فجذبت اليها المولعين بالفنون الجميلة. اما الكنارة التي ادخلت من فارس فقد تحسنت حتى تفوقت في هذا العصر على الكنارة الاصلية. والآلة

الخيطية الثانية التي كانت محبوبة، هي «الرباب»، ثم تلتها الالات الهوائية كالقصب والمزمار والبوق، وآلات القرع كالطبل والصنوج والدف المربع. وكانت النوطة تنقل شفهياً من جيل الى جيل، ولذلك ضاعت تقريباً.»

تعطي هذه الفقرات المتقدمة فكرة واضحة عن الموسيقى العربية اثناء دور من ارقى الادوار ثقافة. وقد حدث مثل ذلك في عهد العباسيين ولا يزال يحدث مثله حتى في ايامنا هذه. فنجد ان السينما والراديو والفونوغراف وسواها من وسائل نقل الموسيقى كالجوقات الغربية النقالة، قد ادخلت عنصراً جديدا الى الموسيقى العربية وجعلتها تنمو وتتطور على غرار الموسيقى الغربية. ومن جهة ثانية فقد اصبحت الآلات الموسيقية الغربية تستخدم كاداة للتعبير عن الاغاني الشرقية والتقاليد القديمة.

ولقد كان القسم الاكبر من موسيقى العرب، خاصة في اول ايامهم، موسيقى شعبية لانها لم تكن مكتوبة بل كانت تنتقل شفويا من جيل الى جيل. فكان لمختلف القبائل اغاني تقليدية تغيرت وتبدلت مع الزمن فحذف منها واضيف اليها. وقد كثرت اغاني المعارك والصيد والحب مع الايام وعاشت طويلا رغم انها لم تكتب. اما الحداء فكان يعبر تعبيراً طبيعياً عن اغاني عرب البادية السذج اثناء ركوبهم الجمال والسير في قوافلهم فوق الرمال المحرقة. وظلت الموسيقى العربية حتى القرن التاسع بسيطة سماعية، ولكن بتأثير اليونان وتحت قيادة الفيلسوف الكندي بدأ الموسيقيون العرب بكتابة النوطة لتسجيل موسيقاهم. واخذت منذ ذلك الحين، وخاصة في القرون الوسطى، تتطور وتزداد اتساعاً. وقد كتب الدكتور حتي عن الموسيقى العربية المكتوبة التي انبعث معظمها من الاغاني الشعبية، ما يلي:

«لقد ضاع لسوء الحظ اصل معظم هذه الرسائل الفنية. وحيث أن الموسيقى العربية بنوطتها وعنصريها اللذين تتكون منهما وهما النغم والايقاع قد انتقلت شفهيا، لذلك ضاعت. وقد نتج عن هذا الضياع ما نشهد اليوم حتى في الاغاني العربية من الفقر في النغم والغنى في الايقاع. ولا يستطيع الموسيقي الحديث ان يفسر تفسيرا صحيحا التآليف القليلة عن الموسيقى الكلاسيكية التي لا تزال موجودة حتى الان

او يفهم معانيها القديمة ومصطلحاتها العلمية. ويعود كثير من هذه المصطلحات الى اصل فارسي او هندي.»

نستخلص مما تقدم ان القسم الاعظم من الموسيقى العربية اليوم كما كان في اول التاريخ العربي، يتكون في الدرجة الاول من الموسيقى الشعبية او اغاني اهل القرى والصحراء. اما الموسيقى الكلاسيكية كالتي نشأت في الغرب في القرون الاخيرة فليس لها مثيل عند العرب.

الفنون التطبيقية

اشتهر الشرق العربي بانشاء الفنون التطبيقية اكثر من الفنون الجميلة نفسها اذ كانت هذه جزءاً من المدنيات القديمة اكثر مما كانت جزءاً من مدنية العصور الوسطى والعصور الحديثة. وقد حمل الصليبيون معهم الى اوروبا كثيرا من صناعات الشرق العربي والهند والشرق الاقصى. وصنع العرب الفنون التطبيقية مدة قرون طويلة وكان ذلك تلبية لميلهم الفني الطبيعي من جهة ولاغراض نفعية تجارية من جهة اخرى. ويعود السبب في بقاء الصناعات اليدوية في الشرق بعد ان كادت تصبح مجهولة في الغرب الى عدم توفر المعامل من اي نوع في الشرق حتى بعد ان اجتاحت الثورة الصناعية اوروبا واميركا. وبامكانك اليوم ان تبتاع في بلدان الشرق العربي المصنوعات اليدوية باثمان اقل من المصنوعات الآلية بينما الحال في اوروبا واميركا على نقيض ذلك تماما؛ فان المصنوعات اليدوية اعلى ثمنا من الاخرى، وهذا هو السبب في بقاء الصناعات اليدوية العربية القديمة حية.

ولعل ابرز هذه الصناعات هي الصواني النحاسية، والاواني البيتية، وادوات الزينة التي تصنع في دمشق. وقد اشتهرت دمشق ايضا بصناعة الزجاج بالطرق القديمة التي كانت تستعمل منذ قرون غبرت، ناهيك عما تمتاز به الدروع الدرزية من اتقان فيما حفر عليها من رسوم هندسية جميلة جعلتها ذات شهرة عالمية. وكذلك صناعة الاقمشة في حماه، والفضة في العمارة، والتطريز في بيت لحم، وحياكة السلال في القرى، والحفر على الخشب والعظام والنحاس الاصفر، كلها نماذج تشهد على تفوق

شعوب الشرق العربي في الصناعة اليدوية .

المسرح

ان المسرح كالرياضة من الفنون التي ارتبطت بالمدنية الهندية الاوروبية لا المدنية الساميّة . فلم يزدهر التمثيل في المدنية العربية كما ازدهر عند اليونان او كما هو الان في اوروبا واميركا . ويعود بعض السبب في ذلك الى الحواجز الدينية وبعضه الى اختلاف نوع الحياة في الشرق العربي . بيد انه قد ظهر في مصر في القرن الثالث عشر نموذج راق جدا من الروايات الخيالية سمي : « طيف الخيال في معرفة خيال الظل » فكان ذلك، النموذج الوحيد للشعر الروائي الاسلامي في العصور الوسطى . ومن المرجح ان الروايات الخيالية اخترعت اولا في الشرق الاقصى ثم انتقلت الى العرب بواسطة الهند والعجم . وابتدعت في القرن الثاني عشر، روايات هزلية (كركوز) ثم ادخلت بعد ذلك الى تركيا . اما اهتمام العرب الحديث في التمثيل فمتجه اتجاهاً تاماً الى الرواية الغربية، وهم، على العموم، يميلون الى التراجيديا اكثر من ميلهم الى الكوميديا .

تشجيع الفنون الجميلة

قام احد مدرسي الجامعة منذ بضع سنوات برحلة في مختلف انحاء الشرق العربي واليونان مصطحبا جماعة من طلاب الجامعة فزاروا بعلبك والاهرام في مصر والاكروبليس في اثينا؛ ورغم ان هذه الجماعة كانت من طلاب الجامعة العرب الذين قد سمعوا على الاقل بهذه الخرائب المشهورة، لم يظهر احدهم اي تقدير لهذة الاشياء التي شاهدوها، ولم تحركهم البتة الفنون الجميلة كالرسم والنحت والبناء وغيرها ! وعندما وصل الجميع الى الاكروبليس في اثينا عشية احد ايام الربيع المقمرة توقع المدرس ان يؤخذ الطلاب بجمال المنظر ويبهروا بالخرائب القديمة التي تمثل اعظم مدنية عرفتها البشرية . وكم كانت دهشته عظيمة حين فاجأه اغلب الطلاب، بعد ان تأملوا الخرائب مدة خمس او عشر دقائق، بسؤاله اذا كان بامكانهم ان يزوروا احدى مقاهي المدينة . هذا مثال عن مقدار تقدير شباب

الشرق العربي للفنون الجميلة. ولما كان من الضروري ان تقرن نهضة اي شعب بايقاظ هواياتهم بالفنون الجميلة وتقديرهم لها، كان من الضروري اتخاذ بعض الخطوات العملية في هذا السبيل .

اولا ـ المعارض : نستطيع ان نقوم بالكثير في هذا الباب بواسطة المعارض، كتلك التي نجدها في متاحف القاهرة او اثينة الشهيرة التي تحتوي اثاراً من اثمن الآثار في العالم . بيد ان المعارض في المتاحف او غيرها لا تزيد تقدير الفن ما لم تقم المدارس والنوادي والكليات والجامعات والجمعيات بتنظيم رحلات الى المتاحف واعطاء دروس في الفن. لقد نشرت احدى صحف نيويورك مؤخرا وصفاً مضحكا للاقبال على معرض الفن في « متروبول » . فقد أعلن الموظفون ان هنالك نقصاً في عدد الحضور يبلغ عشرة آلاف شخص خلال الاشهر الثلاث الاخيرة، فعزا ذلك احد الكتاب الهزليين إلى المراحيض العمومية التي شيدت مقابل المعرض، وقد كانت قبلا قائمة في المتحف لذا كان الاقبال عليه عظيماً . ان الناس لا يذهبون الى المتاحف عفوا، بل يجب ان نرشدهم الى ذلك وان يقودهم اثناء زيارتهم خبراء درسوا الفنون الجميلة. كما ان اعداد نسخ من الرسوم والنحوت تباع باثمان معتدلة، تساعد الناس على تقدير الروائع الفنية الحقيقية التي لا تتوفر دائماً لدى عامة الشعب الذين يودون درسها .

ثانياً ـ دروس في تقدير الفن وابداعه : ان المدارس الحديثة في اوروبا واميركا تعلم جميع طلابها مبادىء الفن بما فيه الرسم والتلوين وصب النماذج؛ وليس من المنتظر ان يصبح الاطفال فنانين ولكنه يروق لك ان تجد ان الطفل العادي يجتذب بصورة طبيعية الى هذا النوع من التعليم وتنشأ فيه قابلية قد كانت تبقى مجهولة لولا ذلك . وبصرف النظر عن المهارة الفردية التي قد يبلغها الطفل فان الصفوف الفنية تثير فيهم ولعا وتقديرا للفن يكونان اساسا لحياتهم في المستقبل. وهكذا فانه بواسطة التعليم الابتدائي اولا، ثم الدروس الفنية في الجامعة فيما بعد، يمكن غرس الذوق الفني في مئات الشبان . ويجب ادخال هذا النوع من

التربية الى الشرق العربي اذا كنا نود ان يكون لهذه الشعوب قدرة على تقدير الفن او اية قابلية فنية .

ثالثاً — المباراة والمنح التعليمية : لا شيء يشجع دراسة الفن اكثر من المباريات المنظمة، صغيرة كانت ام كبيرة، ثم منح مساعدة تعليمية للذين يتفوقون في هذه المباريات، لاكمال دراستهم وتحصيلهم الفنيين . فاذا امكن جمع المال لتنظيم هذه المباريات ومنح المساعدات التعليمية في الشرق العربي كما في الغرب، اثار ذلك الرغبة والولع بين كثيرين من العرب الذين لا يظهرون الا اهتماماً قليلاً في الفنون الجميلة الان. ولا ريب ان اثر ذلك يكون بعيد المدى فيما بعد، لان الطلاب الذين يرجعون من الغرب بعد دراسة سنة او سنتين على نفقة المنحة التي نالوها يساعدون على زيادة رغبة مواطنيهم في الفنون الجميلة بعد عودتهم .

رابعاً — الراديو والسينما : يقدم لنا الراديو فرصة سانحة لانماء تقدير فن الموسيقى بواسطة الحفلات الموسيقية التي تقدمها الاجواق العالمية وتذيعها محطات الاذاعة على انحاء العالم، وبواسطة الدروس الموسيقية التي تذاع اسبوعيا من مختلف المحطات. كما ان الافلام السينمائية تساعد كثيرا على انماء التقدير الفني ونشره في كل انحاء العالم خاصة، وان مستوى الفنانين السينمائين يرتفع يوما عن يوم ثم ان روايات شاكسبير ودكنز والمقاطع الغنائية من الاوبرات العظيمة تعرض نواح مختلفة من الفن على جميع شعوب العالم. فبهذه الطرق وامثالها يزداد تقدير الفن وينتشر بين شعوب الشرق العربي . .

الفصل السابع والعشرون

العلم

ان الغايـة من هذا الفصل هي زيادة فهم المواطن لروح المؤسسة العلمية وطريقتها ووظيفتها في العالم الحديث .

يمكننا ان نبدأ بحث المؤسسة العلمية في مجتمعنا، بوصف موجز لتطورها التاريخي ثم بوصف اهميتها ووظيفتها الحاضرة، على ان نتناول بعد ذلك جوهر السلوك العلمي الذي نسميه الطريقة العلمية، وهو نوع خاص من التفاعل البشري . واخيراً ننتهي بالاتيان على ذكر تنظيم الوسائل العلمية في وصف نوع الاشخاص الذين يتخصصون في البحث العلمي وتعليم العلوم وتطبيقها .

نعني بكلمة علم نوعاً من المعرفة الخاصة . ويقصد بهـا عادة المعرفة الدقيقة المحققة النظامية . وهذه تفرق عن المعرفة الادبيـة التي تأتي من الالهام او التخيل، او عن المعرفة التقليدية التي تأتي عن الاسناد، او عن المعرفة الفكرية التي تأتي عن الاختبار الشخصي الصرف .

يظهر اول تعريف دقيق للمعرفة النظاميـة عند بدء التاريخ المدون، حين كان زعماء الدين غالباً يقودون حركة المعرفة الدقيقة . فلقد انشأ الكهنة المصريون في عهد الفراعنة القدماء قياس الارض لمعرفة الحدود بعـد فيضان النيل السنوي، واوجدوا التحنيط والحروف الهيروغليفية . وقد كان للشعوب الابتدائية في كل قطر وزمان اطباؤهم او سحرتهم الذين كانوا يجمعون بين الاعمال الدينية ومحاولة التنبؤ عن حوادث المستقبل وضبطها، وهذه هي وظيفة العلم الحديث . وهكذا

نجد ان رجال الدين كانوا، عندما يتوفر لديهم الفراغ والموارد الضرورية ووجود حكومة ثابتة، يزيدون في دقة المعرفة البشرية، خصوصاً فيما ندعوها بالمعرفة الخرافية.

ولقد ازدهرت العلوم ازدهارها العظيم في اليونان بين سنة ٥٠٠ و ٣٠٠ قبل المسيح، فكانت لنا مؤلفات ارسطو في كلا العلمين الاستنتاجي والاستقرائي، خاصة في تصنيف انواع علم النبات ودساتير حكومات المدن. وظل ارسطو اكثر من الف سنة يعتبر المعلم الاول في شتى فروع المعرفة. وكان العلم، خلال هذه المدة، يعتمد على المرجع والاسناد اكثر منه على الاستقراء. فلما جاء روجر باكون في القرن الثالث عشر، وفرنسيس باكون في القرن السادس عشر، حاولا محاولة صريحة جريئة تحرير عقول الناس من الاعتماد على المرجع والاسناد، والاخذ بطريقة الاستقراء اي ملاحظة الظواهر الطبيعية والوصول الى الاحكام العلمية بشأنها، ثم الاستدلال بها صعوداً من الخاص الى العام. وقد كان لهذه الطريقة صدى بعيد واثر اساسي في نهضة العلم النظري، وانبرى المفكرون العظام بعدئذ الى الاخذ بها، فتوالت الاكتشافات والاختراعات، اشهرها ما حققه كوبرنيكوس وكبلر في علم الفلك، ونيوتن في العلوم الطبيعية، ودالتن وفاراداي في الكيمياء، وداروين في علم الحياة. ثم بعد ذلك بدأ علم النفس منذ حوالي سبعين سنة باستخدام طرق القياس المضبوطة لقياس الشعور بالوعي وضبط سلوك البشر. اما علم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الاحصاء والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع فلا يزيد اعمارها عن الف سنة، بينما لا تزال عديدة في دور الطفولة او قبلها.

ويمكننا ان نعتبر بصورة عامة ان العلوم قد نشأت من الفلسفة اي «محبة الحكمة»، ثم انفردت في نواح من العلم وتخصصت بها، مبتدئة بالظواهر الفيزيكية لانها ملموسة اكثر من سواها، الى ان امتدت في السنوات الاخيرة الى النواحي العقلية والاجتماعية. ان نجاح العلوم الفيزيكية العظيم، خلال الثلاثماية سنة الاخيرة، في زيادة مقدرة الانسان على التنبؤ وضبط الظواهر في حقول اختصاصه، قد شجع الانسان على ان ينشىء طرقا علمية يستخدمها في درس مشاكل السلوك البشري

والاجتماعي التي كان يعتقد قبلا انها فوق متناول العلم، وعلى ان يتثبت يوماً بعد يوم، على ان كل حقل من حقول المعرفة يمكن ان يصبح علماً اذا استخدمت الطرق العلمية في درسه. فلقد اجبرت الكنيسة «غليلو» على الانكار ان مبادئه العلمية في علم الفلك مناقضة للتعاليم التقليدية الدينية. كما ان الكثيرين رفضوا نظرية النشوء والارتقاء لانهم ظنوا انها ستقضي على الدين، ولم يتمكنوا ان يروا حقيقته ويعرفوا انها ليست الا تفسيراً جديداً للدين. كما ان دراسة المقارنة بين الاديان المختلفة ودراسة سيكولوجيا فكرة «الله» دراسة علمية، احدثت في الماضي وتحدث في الحاضر ايضا مشاكل جدلية عديدة. اما العبرة الاساسية التي يجب ان نأخذها من درس تاريخ العلوم، فهي ان الاراء التقليدية حول ما يمكن ان يدرس بالطريقة العلمية وما لا يمكن ان يدرس بها، هي عقيمة لا يعول عليها، ويجب ان نحل محلها فكرة تطبيق الطرق العلمية على اي حقل من حقول المعرفة لنختبر فعلا اذا كان ذلك يزيد في قدرة الانسان على التنبؤ عن الظواهر في ذلك الحقل وضبطها.

تصنيف العلوم

تصنف العلوم اليوم بالنسبة للتطور التاريخي كما يلي: اولا — يفرق بين العلوم الاستنتاجية والعلوم الاستقرائية، او بين العلوم المجردة والعلوم التجريبية. وفي حين ان العلوم الاستنتاجية تبدأ بقوانين افتراضية وقواعد نظرية استنتاجية كما في المنطق والهندسة والرياضيات، نجد ان العلوم الاستقرائية او التجريبية تبدأ بالملاحظة الدقيقة للظواهر المفصلة وباستقرائها صعوداً من الخاص الى العام حتى يتم التحقيق فيها فتسمى عندئذ قوانين علمية يصح تعميمها. وهنالك العلوم الطبيعية ومنها علم الفلك وعلم الفيزياء والكيمياء وعلم طبقات الارض؛ ثم ان هنالك العلوم البيولوجية وتقسم الى علم النبات وعلم الحيوان وغيرهما. كما ان هنالك العلوم السيكولوجية التي تدرس سلوك الفرد او سلوك الجماعة، وتتفرع، حسب اصناف البشر، الى سيكولوجيا الطفل وسيكولوجيا الشاذين وسيكولوجيا الصناعة .. الخ. ثم انه لدينا العلوم الاجتماعية، واهم فروعها نمواً وتطورا هما علم الاقتصاد وعلم الاحصاء.

ثم يأتي بعدهما علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الانثروبولوجيا والتربية وبعض الفروع الخاصة من علم الاجتماع. وقد اصبح لعلم الاجتماع معنيان الان : احدهما باعتباره احد العلوم الاجتماعية الذي يعالج المؤسسات التي لا تعالج في علم الاقتصاد وعلم السياسة، والآخر باعتباره يضم جميع العلوم التي تعالج شؤون المجتمع البشري كالسياسة والاقتصاد وسواهما .

لقد ذكرنا آنفاً ان العلم هو قدرة الانسان على التنبوء عن الظواهر وضبطها. ان مهمة العالم هي ان يجد الطرق التي يجدر بنا اتباعها للتنبوء عن هذه الظواهر وضبطها في اي حقل من حقول المعرفة. فالعلم ليس غاية بحد ذاته، بل هو واسطة لبلوغ غاية. واذا كان العلم من حيث هو وسيلة يرمي الى تدريب الانسان على ان يكيف حاجات نفسه حسب محيطه، او ان يكيف محيطه حسب حاجات نفسه، فالعلم من حيث هو غاية، يتعدى حدوده الى عالم الدين والفلسفة اللذين من شأنهما تقييم القيم وتوجيه الانسان نحو الخير والكمال. وانه لمن المؤسف حقاً ان يسخّر العلم للهدم والتقتيل. وهو ما كان ليسخّر لولم يسجل الانسان تقدماً باهراً في العلم، بينما لم يسجل مثل هذا التقدم في الدين والفلسفة.

اجل، لقد تقدم العلم في القرون الاخيرة تقدماً باهراً، فزاد في ثروة الانسان وسيطرته على محيطه المادي، وانقص الامراض الى درجة ضاعفت توقع طول العمر عند الولادة، وعمل على تكاثف السكان في البلدان التي انتقلت من مستوى الحضارة الزراعية الى مستوى الحضارة الصناعية. وغير هذا كثير. بيد ان الانسان لا يزال يفتقر، كما اشرنا آنفاً، الى مثل هذا التقدم في حقل العلوم الاجتماعية، لكي يتسنى له ان يسخر العلم النظري للغايات البنائية الصالحة.

الطريقة العلمية

ان العلم هو كل مادرس بالطريقة العلمية . والطريقة العلمية هذه هي استقرائية استنتاجية تجريبية قبل كل شيء، من شأنها ملاحظة الظواهر الواقعية وتنظيمها. وهذان : الملاحظة والتنظيم، تشتملان على الامور التالية : (أ) التصنيف

(ب) القياس. (ج) استقراء التعميمات (د) ربط هذه التعميمات بعضها ببعض في نظم متلائمة الاجزاء (هـ) اختبار هذه التعميمات باعادة ملاحظتها وتجربتها بتدقيق اكثر من ذي قبل. وهكذا في مقدورنا اذن ان نحلل نموذجاً عاماً للطريقة العلمية الى النقاط الخمس الآتية: (١) تعريف المشكلة (٢) ملاحظة الحقائق المتعلقة بها (٣) استقراء التعميم (٤) استنتاج النتائج (٥) التحقيق.

اولا ـ تعريف المشكلة: يبدأ البحث العلمي بتعريف المشكلة التي يراد تحريها ودرسها، وقد تكون المشكلة ايجاد مسببات احدى الظواهر او معرفة نتائجها، او قد تكون مشكلة استطلاعية تحاول ان تجد الحقائق في حقل معين من حقول المعرفة، مثل كشف اجتماعي او معرفة خواص مركب كيماوي جديد؛ او قد تكون مشكلة عملية مثل ايجاد وسيلة لتغيير شيء غير مرغوب فيه كالملاريا او ايجاد وسيلة لخلق اشياء مرغوب فيها كالكهرباء مثلا. او قد تبدأ المشكلة باشياء سابقة مثل خلق آلة اكثر دقة من غيرها في ملاحظة مشكلة ما. ان كثيراً من المشاكل العلمية هي مشاكل رياضية، اي انها اكتشاف طريقة لمعالجة بعض المشاكل الاساسية، وقد يستغرق هذا الاكتشاف سنوات طويلة من العمل كصنع التلسكوب والميكروسكوب واختبارات الذكاء ومسمى التوافق، ووسائل اخرى تجريدية في المنطق والرياضيات. وهكذا فان كل بحث علمي يبدأ بتعريف جلي واضح للمشكلة التي يدرسها العالم مع ذكر الخطة التي سيتبعها في دراسته لتلك المشكلة.

ثانيا ـ ملاحظة الحقائق المتعلقة بها: والخطوة الثانية في البحث العلمي هي جمع كل الملاحظات الممكنة المتعلقة بالمشكلة. ان العالم يجب ان يعرف اصول الملاحظة في حقله، وقد يضطر ان يكتشف طرقاً افضل لكي يجعل ملاحظاته ادق واكثر معولية، ونعني بالملاحظات المعول عليها تلك التي تأتي بنتائج واحدة اذا ما أُعيدت ملاحظتها من قبل ملاحظين مختلفين، او تلك التي يتفق الملاحظون المختلفون على ملاحظتها. وهذا يميز الملاحظة العلمية عن الملاحظة غير العلمية، لان الملاحظة العلمية تتم باصول ووسائل لا يختلف الاكفاء على نتائجها. اذن فالملاحظون الاكفاء يتفقون على ان الملاحظة العلمية هي «حقيقية» بينما الملاحظات الاخرى التي يشترك

فيها رأي الفرد العندي قد تكون جدلية فلا تكون حقيقية، وتصبح الملاحظة حقيقية بالنسبة الى اتفاق الملاحظين الاكفاء عليها، وقد يكون هذا الاتفاق ٩٠ بالمائة او ١٠٠ بالمائة ... الخ، فتكون الملاحظة حقيقية بهذه النسبة. والحقيقة ليست مطلقة بل هي اقرب ما يستطيع ان يصل اليه الانسان بالنسبة لها في وقت ما. اما بلوغ الحقائق في ناحية من النواحي وجعلها بعيدة عن كل شك فقد يستغرق مدى حياة كثير من العلماء، وقد يتطلب اعداد مختبرات ومعدات علمية او منظمات اجتماعية كتأسيس الحكومة لمكتب احصائي لجمع الحقائق الوطنية للمستقبل.

يجب ان تكون الملاحظات العلمية دقيقة. وكلما كان بالامكان قياس الظواهر يجب القيام بهذا القياس. وهذا يتفق مع قول اللورد كلفن بان المعرفة تصبح علمية فقط حين يستطيع العالم ان يقيسها.

يبدأ الانسان ملاحظته للقياس بتمييز الاشياء وتسميتها اولا، ثم يلاحظ وجود الشيء او غيابه، فيكوّن من ذلك متغيراً من «الكل اولا شيء»، ذلك لان الملاحظة تختلف بين نقطتين فقط هما «كل الشيء» اي حضوره و «لا شيء» اي عدم حضوره، اما بعد تسمية الشيء وملاحظة وجوده او غيابه، فاننا نصل الى الدرجة الثالثة من الملاحظة، فنبدأ نلاحظ كثيرا او قليلا من الشيء، فنقول «بعض» او «اكثر» او «الاكثر» من الشيء سواء كان هذا الشيء سهل الاحصاء كعدد افراد جيش ما، ام كان لا يمكن احصاؤه لعدم توفر وحدات عددية له حتى الان كالجمال مثلاً، فنقول «جميل» و «اجمل» و «الاجمل» او كالسعادة، فنقول «سعيد» او «اقل سعادة» او «الاقل سعادة». ونسمي هذه المرحلة من الملاحظة المرحلة «الترتيبية» لانها تضع الاشياء في ترتيب او تسلسل، دون ان تكون هنالك وحدات معينة متساوية. اما المرحلة الرابعة في زيادة دقة الملاحظة فهي المرحلة العددية حيث يكتشف فيها الانسان او يخترع وحدات قياسية متساوية متبادلة فيستطيع ان يعبر عن كل ما يقيسه بمضاعفات تلك الوحدة. فكل طول مثلا هو مضاعفات لوحدة الطول مثل المتر، وكل مدة من الزمن هي مضاعفات لوحدة

الوقت مثل ساعة او سنة، وكل نسبة مئوية هي مضاعفات لواحد بالمائة. وينحصر الكثير من الملاحظة العلمية في محاولة تحويل الملاحظات من نوع الكل او لا شيء الى ملاحظات ترتيبية ثم تحويل هذه الى ملاحظات عددية وبالتالي الى قياس ملاحظاتنا قياسا ادق.

ثالثاً — استقراء التعميمات: ان الخطوة الثالثة في الطريقة العلمية بعد جمع الملاحظات على المشكلة، هي استقراء بعض المبادىء او بعض التعميمات منها، ويدعى هذا الاستقراء «تجريد» الفكرة، او المصطلح؛ فيستخلص المرء فكرة «الكلب» مثلاً من جميع الكلاب التي رآها، فتصبح فكرة معممة عن اي كلب ولجميع الكلاب. وكل المصطلحات واسماء الاصناف اي الاسماء والافعال والصفات والظروف جميعها تعميمات مجردة. ثم يحاول العالم بواسطة هذه المصطلحات المعممة ان يستخلص العلاقات القائمة بين هذه الاصناف مع تعميمها، ويبدأ ذلك باظهار اية اصناف هي اجزاء من الكل اي اية اصناف هي اصناف فرعية من الصنف الاخر، كقولنا ان الحيوان والنبات هما صنفان فرعيان من صنف الاحياء او كقولنا ان «الكلام» او «العمل» هما صنفان فرعيان من «السلوك» فيجب ان يصنف كل ظواهره فيجمع كل الاشياء التي من نوع واحد والتي تعمل بطريقة واحدة في صنف واحد؛ وهذه تعتبر الخطوة الاولى في التنبؤ عن سلوكها في المستقبل.

ثم نستطيع بواسطة الاستقراء الاكثر رقيا ان نربط بين الظواهر عمليا او سببياً. وهذا يتم مثلاً عندما يكون مستوى الاسعار في بلاد ما مرتبطاً عمليا بكمية النقد المتداول وبعدد المرات التي ينتقل فيها النقد من يد الى يد وببعض العوامل الاخرى. اما التعميم السببي فينص على انه تحت ظروف معينة يتبع، بدرجة معينة من الارجحية، حادث ما، سمه (ب) حادث (أ). فاذا كانت هذه الارجحية ١٠٠ بالمئة كان حادث (أ) هو السبب الوحيد لحادث (ب)، اما اذا كانت الارجحية اقل من ١٠٠ بالمئة كان حادث (أ) سببا لحادث (ب) بمقدار تلك النسبة.

وعندما تطرح هذه الدرجة من الارجحية من ١٠٠ بالمئة ينتج لدينا نسبة مئوية متممة نقيس بها مقدار سبب وقوع الحادث (ب) الذي لا يزال مجهولا، فيندفع العالم لمتابعة البحث حتى يعرف جميع الاسباب، واذ ذاك يصبح بالامكان التنبوء التام عن حادث (ب) وضبطه تماما .

ويعبر عن التعميمات العلمية باوضح تعبير بواسطة المعادلات الرياضية التي هي بلا جدل لغة العلم. وتبدأ هذه التعميمات بالافتراض، وعندما يثبت هذا الافتراض بملاحظات اخرى وتجارب يقوم بها علماء متعددون تقبل هذه الافتراضات وتصبح في عداد النواميس العلمية .

ويسعى الانسان وراء هذه القوانين لان ذكاءه محدود، فلا يستطيع ان يستوعب في فكره ملايين الحقائق الخاصة، ولذلك يضطر الى ان يستعين بعبارة بسيطة تحل محل حقائق خاصة لا تحصى. وهكذا يتمكن الانسان، بواسطة « قانون » او تعريف موجز للسلوك المتناسق، سواء اكان سلوك الاشياء ام سلوك البشر، ان يفهم ويتنبأ ثم يضبط عددا كبيرا جدا من الظواهر الخاصة .

رابعاً — استنتاج التنبؤات: ان الخطوة الرابعة في الطريقة العلمية هي استنتاج التنبوءات من كل تعميم، فاذا كان التعميم صحيحا وجب ان يكون تطبيقه على الحالات الخاصة المتعلقة به صحيحا ايضا وان يلاحظ ذلك في المستقبل، فنبحث عن هذه الحالات؛ واذا لاحظنا انها تقع كما ينص التعميم، نحقق التعميم اذن؛ اما اذا لاحظنا انها لا تقع هكذا، فاننا نفسد التعميم. وليس التعميم عادة، قرارا قطعيا من نوع الكل اولا شيء، بل هو درجة تراكم الادلة والبراهين التي تثبت صحة التعميم او تفسدها. فنظرية سرعة تداول النقد في الاقتصاد، التي تنص على ان مستوى الاسعار يرتفع او ينخفض بالنسبة الى كمية النقد المتداول على اختلاف انواعه، وبالنسبة الى سرعة تداول النقد، هي تعميم هام او ربما قانون اقتصادي. ولكنه من العسير في حياة الامم الاقتصادية المعقدة، دعم هذه النظرية او دحضها تماما؛ الا ان الدولة التي تجعل رجال الاقتصاد يتأكدون من أن هذا

التعميم هو على الاقل قريب من الحقيقة، تتراكم ببطء جيلا بعد جيل. ونستنتج من هذه النظرية ان كمية النقد اذا تضاعفت في البلاد، كأن يطبع نقـد ورقي كثير، يرتفع مستوى الاسعار؛ او اذا زادت سرعة تداول النقد كعندما تستعمل الحوالات المالية على المصارف بدلا من النقد نفسه، فان مستوى الاسعـار يرتفع ايضا. وقد يتنبأ المرء انه اذا امكن ضبط هذه الحوادث بقي مستوى الاسعار ثابتا كما هو مرغوب فيه بدون تضخم العملة او تقلصها. واذن فان استنتاج تطبيق مبدأ عام على حالات خاصة في المستقبل هو التنبوء، والتنبوء هو نصف مهمة العلم كما ذكرنا مرارا.

ولاجل ان يكون الاستنتاج دقيقا وضعت قوانين خاصة لتلك الغاية. فعلم المنطق وعلم الرياضيات كلاهما بلغا ما بلغا باستخدام هذه القوانين عند الاستنتاج. وكلاهما علم استنتاجي. ويعرف علم المنطق بكونه علم الاستنتاج، اذ انه يتناول الاحكام، فيبدأ بالتعميم الى ان يتوصل الى اثباتها بالاستنتاج.

ومن الناحية الثانية فان طريقة الاستنتاج تقوم بربط التعميمات بعضها ببعض بحيث تكون منها «نظاما»؛ وهذا معناه ان الافتراضات والقوانين يجب ان تجمع في هيئة متناسقة من المعلومات. ففي علم النفس مثلا جمع علماء التحليل النفسي التعميم القائل بان هنالك عقلا باطنا في الناس، اي ان كثيرا من تفكيرنا يتم في عقلنا الباطن، في نظام واحد مع كثير من التعميمات الاخرى، بعضها متفق عليه وبعضها لا يزال موضوع اخذ ورد وجدل. فنظريات عقدة الضعة وعقدة التفوق، والتصعيد، والشخصيات المحطمة، وبعض انواع الجنون، وسوى ذلك، انما هي مبادىء في علم النفس التحليلي تكون نظاما متناسقا مع مبادىء العقل الباطن. ولا تزال أحدث العلوم سنـاً مفتقرة الى «النظام» بينما بلغت العلوم التجريبية القديمة كالفيزياء درجة فائقة من «النظام»، في حين ان العلوم الاستنتاجية، كالرياضيات والمنطق، هي «نظم» صرفة وتامة.

خامساً ـــ التحقيق: والخطوة الاخيرة في تحقيق التعميمات، هي ملاحظتنا اذا

كانت تطبق على الحالات الخاصة. فالتعميم الذي نسميه « نظرية سرعة تداول النقد » اثناء الحرب مثلا يحملنا على الاستنتاج باننا اذا طبعنا اوراقا نقدية كثيرة في بلدٍ ما يرتفع مستوى الاسعار . وقد لاحظنا فعلا خلال الحرب الاخيرة هذا الارتفاع او التضخم الذي بلغ ٧٠٠ بالمئة عما كان عليه قبل الحرب. وهذا التنبوء يساعدنا على تحقيق نظرية السرعة في الاسعار .

ويتم التحقيق عامة بطريقتين : طريقة التجربة او طريقة الاحصاء؛ فاذا استطعنا ان نعالج العوامل في مختبر كما نفعل في مختبر الفيزياء او الكيمياء، نكون قد استخدمنا طريقة التجربة اي اننا اعددنا جهازا لنختبر به التعميم ونرى اذا كان يتنبأ عما سيحدث حقيقة . ولكننا في اغلب الاحيان لا نستطيع ان نعالج العوامل مباشرة كما في علم الفلك حيث لا نستطيع ان نضبط حركات السيارات (الكواكب) وكما في المجتمع حيث لا نستطيع ان نضبط الكثير من التطورات الاجتماعية. ففي حالات كهذه علينا ان نحقق التعميم بالتنبوء والضبط الاحصائي. فقد تنبأ علماء الفلك عن رجوع نجم « هالي » المذنب بعد اكثر من نصف قرن وكان عليهم ان ينتظروا عودته؛ ولما عاد حققوا نبوءتهم . وقد يتمكن منحنى توزع الانتياب ان يتنبأ عن نسبة سرعة انخفاض الهجرة الى الولايات المتحدة لدرجة الصفر في ربع القرن المقبل، ولكن هذه النبوة لا تتحقق قبل مرور ربع قرن وتوفر السجلات الضرورية للهجرة خلال هذا الربع لمقابلتها بالتنبوء. اما في الطريقة التجريبية فتحذف جميع العوامل او تجعل ثابتة ثم يدرس العامل المتغير منفردا او منعزلا عنها. اما في الطريقة الاحصائية فقد تعمل عوامل متعددة في وقت واحد فيعزل واحد منها بالطرق الاحصائية . ولكن مهما كانت تلك الطرق فان مبدأ التحقيق يظل دائما هذا : هل ينطبق التعميم على الواقع ؟ اي هل نلاحظ حقا ما يتنبأ عنه التعميم ؟ وهكذا نجد ان المرجع الاخير للحقيقة هو ملاحظة الحقائق وليس الثقة بزعيم محترم او كتاب قديم .

ليس وصف الخطوات الخمس الرئيسية في الطريقة العلمية الا مقدمة لزيادة مقدرة القارىء على فهم معنى العلم الحديث. ان من عادة اهل الشرق العربي ان

يعتبروا نتائج العلم السطحية التي تظهر في الآلات القوية كانها جوهر العلم بدلا من ان يعتبروها نتيجة فقط. فينبغي ان يدرك هؤلاء ان جوهر العلم هو في المواقف العلمية والطرق العلمية التي تنشأ عنها النتائج العملية. اما هذه الطرق فهي الطرق الاستقرائية التي بها نتوصل الى التعميم بالبدء صعوداً من الحقائق الخاصة، متبعين في ذلك الخطوات الخمس التي ذكرناها.

المواقف العلمية

لقد ذكرنا اعلاه ان السبب في مقدرة العالم على التنبوء عن الظواهر وضبطها يعود الى طريقة عمله وروحه او موقفه عند القيام بعمله. اما الطريقة فقد شرحناها، ولكن الموقف العلمي يحتاج الى شيء من الشرح، لان مواطني الشرق العربي لا يعرفون ما معنى الموقف العلمي، كما ان الغربيين لا يعرفون معناه تماما، ولكنهم اكثر اطلاعا على كل حال.

من المواقف الاساسية للعالم رحابة الصدر، اي أن يقبل بالنقد ويظهر رغبته في تغيير رأيه حالما يتضح له ان رأيه خطأ. فلن يجوز ان يتخذ العالم موقفاً يتمسك فيه بعقيدة ضد اخرى، فيقول هذه مقدسة لا يمكن ان تبدل او ان يُرتاب بها، بل تكون كل عقيدة بنظره معرضة للشك والتساؤل.

والموقف الاساسي الثاني للعالم هو احترام الحقائق. فالحقائق — وهي الملاحظات الحاصلة من التجربة ووسائل القياس — هي للعالم قياس للحق، اضمن من اية شخصية او حديث موثوق، لذلك لايستشهد العالم بالامثال او باقوال الانبياء العظام او الكتب المقدسة بل يبحث عن الحقائق، ويسأل: ما هي الوسائل التي لوحظت بها وكم كانت دقة الملاحظة؟ وما هي الطرق التجريبية او الاحصائية التي استخدمت لعزل الحقائق وقياس معوليتها؟ وللتمثيل على ذلك دعنا نأخذ التعميم الاتي: «يعتقد الشرقيون بما يقوله زعماؤهم الموثوق بهم اكثر من اي مصدر آخر بينما يعتقد الغربيون بما تخبرهم عنه التجارب». دعنا نفترض ان هذا التعميم هو افتراض يحتاج الى اثبات، فالطريقة غير العلمية للقيام بذلك هي ان يذكر المرء رأيه

والحجج التي يدعم بها هذا الرأي ثم يجمع ما استطاع من آراء الغير وحججهم . هذه هي طريقة استعمال الثقة الشخصية . اما الطريقة العلمية لاختبار افتراض ما من هذا النوع فهي قبل كل شيء اختراع آلة اكثر دقة لقياس الحقائق . فقد يضع العالم اختباراً للمواقف مؤلفاً من مائة عبارة تبين مختلف درجات الثقة بالاشخاص وبالتجارب . ثم تدرج هذه العبارات المعبرة عن المواقف، لكي تصبح وحدات متساوية على ميزان واحد . اما عملية التدريج او المقايسة هذه فقد تستغرق اشهرا من الدرس الصعب الفني يقوم به عدد كبير من الناس ويكلف نفقات باهظة . وعندما يدرج هذا الميزان يطبقه على انموذج صحيح تمثيلي من اهل الشرق العربي ونموذج آخر من الغرب . وقد يتطلب هذا ايضاً سنوات طويلة من العمل والوفاً من الناس، ثم يرسم العالم خطا بيانياً بانتياب التوزع (راجع الفصل الثاني) يبين كم من الناس في كل قطر يقعون في كل درجة من درجات المواقف المذكورة على الميزان، ثم يحسب معدل المواقف في الشرق ويقارنه بمعدل المواقف في الغرب، ثم يحسب الفرق بين المعدلين ويحسب معولية هذا الفرق فيكون هذا جواباً علمياً مستمداً من الحقائق يجاب به على السؤال الاتي : هل هنالك من فرق بين الشرقيين والغربيين في مواقفهم تجاه تصديق التجارب وكم هو هذا الفرق ؟ .

ونستنتج من هذا الموقف — موقف الثقة بالاشخاص ام بالتجارب — موقفاً اخر هو الثقة بالعوامل العاطفية والعندية ام بالعوامل العقلية والشبحانية . فمن كان متأكداً كل التأكد من آرائه يثق بعواطفه ، بينما يثق من يعلل آراءه ويعدد اسبابها ويعترف باحتمال خطئها ، بعقله . اما العالم فيفضل النوع الثاني ولا يثق بالاول ، ويعتقد ان المناقشة كلما كانت عاطفية كلما قل فيها التفكير . ولكي يقلل العلماء العنصر العاطفي والشخصي في المناقشة العلمية يقومون بمناقشاتهم بطريقة كتابية وينشرونها بالمجلات بدلا من الجدال وجهاً لوجه . وانه لمن العيب ان يستعمل العالم في هذه الكتابات عبارات كهذه : « اظن » او « اعتقد » او ان يستعمل ضمير المتكلم . وعليه ان يذكر الملاحظات التي اتفق عليها الملاحظون الاكفاء، وقد يستخرج من هذه الملاحظات الاستدلالات اذا كانت استدلالاته شبحانية اي اذا لم تتأثر بآرائه

الشخصية ، وتقاس هذه الشبحانية بمقدار اتفاق الاكفاء عليها . اما اذا لم يتوفر هذا الاتفاق فعليه ان يذكر جميع الاراء المتضاربة حول الموضوع بطريقة حيادية تجعل كل من يطلع عليها يقتنع بانها تشتمل على وصف دقيق لجميع وجهات النظر الممكنة .

والاستنتاج الثاني هو ان يكون موقف العالم تجنب كل ما هو عندي صرف بقدر المستطاع ومعالجة كل ما هو شبحاني صرف . ونعني بالعندي ما يختلف بين شخص وآخر ، فالاختلاف بين الناس يبين العندية في التفكير ، في حين ان الشبحانية التامة تبلغ عندما يجد جميع الاشخاص انفسهم مضطرين ان يتفقوا بواسطة حواسهم وتفكيرهم . ونعرف اذا كان الشيء شبحانياً ام عندياً ، اذا كان الاكفاء يتفقون عليه ام لا ، فاذا لم يتفقوا تكون المسألة مسألة رأي وتفسير عندي . اما الملاحظة فتكون حقيقة شبحانية بالنسبة الى اتفاق الاكفاء عليها .

والاختبار الثاني الذي نميز به بين « العندي » و « الشبحاني » هو بان نسأل السؤال الآتي : « هل تتمكن آلة السينما الناطقة ان تسجل الشيء ؟ » ففي اجتماع لجنة مثلا قد يلح احد الاعضاء على نقطة ما ويرفض ان يقتنع بآراء الاخرين ، فهل هذه « شجاعة تدعو الى الاعجاب » ام « عناد مقصود » ؟ فالكلمات التقديرية كهذه هي عندية وتتوقف على موقف اعضاء اللجنة من ذلك العضو . اما آلة السينما فلن تظهر العناد ولا الشجاعة لان هذا تفسير عندي . اما السلوك الشبحاني فهو ان ذلك العضو يستمر في الدفاع عن نقطته بينما لا يتفق معه الاعضاء الاخرون .

الوظائف العلمية

لقد شرحنا باختصار اعلاه كيف نزيد فهم القاريء للمؤسسة العلمية ومهمتها وطريقتها ومواقف العلماء ، ولكن لا تزال امامنا مسألة مختلف اصناف الناس الذين يتخصصون بالقيام بالمؤسسة العلمية . فالاخصائيون بالعلم هم على ثلاثة اصناف عامة ، وتكون العلاقات متبادلة بينهم وبين الشعب والمؤسسة العلمية . اما هذه الاصناف من العلماء الاخصائيين فهي الاتية :

(أ) البحاثون الذين يزيدون المعلومات العلمية بالاكتشافات والاختراعات

الجديدة.

(ب) مدرسو العلوم الذين ينشرون المعلومات العلمية في مختلف انحاء العالم.

(ج) الفنيون الذين يطبقون المعلومات العلمية على القضايا العلمية كالمهندسين والاطباء.

اذا رغب الناس في زيادة استفادتهم من العلم الحديث، كما يرغب جميع سكان العالم اليوم، عليهم ان يزيدوا عدد افراد هذه الاصناف الثلاثة وان يزيدوا كفاءتهم. ان زيادة عدد البحاثين وكفاءتهم هي اصعب من سواها لان الاشخاص الخارقين بقدرتهم الذين يبلغون درجة النبوغ هم فقط يستطيعون ان يقوموا بالبحث العلمي واكتشاف المعلومات الجديدة. وترى من التوزع السوي للمقدرة ان هذه الطبقة من الناس نادرة جداً وقد لا توجد البتة في الشعوب الصغيرة، ولذلك نتوقع وجود هذه الطبقة بوفرة في البلدان الكبيرة ذات العدد الكبير من السكان. الا ان وفرة السكان لا تكفي وحدها فهي تحتاج الى ثروة كافية لتعليمهم وانماء قابلياتهم الكامنة. كما ان التحمس للبحث العلمي — اي تعدي حدود الفكر البشري ووقف حياة المرء لهذا البحث — هو شيء نادر جداً، ويثار عادة من الاحتكاك بشخصية بحاثة عظيمة وبالنسج على منوالها. لذا نتوقع ان يظهر البحاثة العظماء حيث يوجد دماغ خارق يعمل في مختبر او مؤسسة. اما تكوين العلماء البحاثين فهي باختيار ألمع الطلاب واقدرهم اثناء الدراسة في الكليات والجامعات، ثم تدريبهم على البحث املاً منا في ان يصبح بعضهم على الاقل، علماء مبدعين ينتجون انتاجاً مبدعاً.

والصنف الثاني من الاخصائيين بالعلم، اي مدرسو العلم، يحضَّر بسهولة حتى في البلدان الصغيرة وغير المثرية كبلدان الشرق العربي. فالمدارس الخاصة والمدارس الحكومية مثلا تستطيع ان تعد دروساً في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية يتخصص بها اقدر الطلاب في البلاد ثم يتابعون دراستهم في المدارس العالية في البلاد او خارجها، بحيث يصبحون بعد ذلك مدرسين للعلوم ينشرون العلم بين ابناء الجيل الطالع.

والصنف الثالث من العلماء - اي الفنيون - فيمكن تحضيرهم بسهولة ايضاً في اية بلاد ترغب في ذلك، وذلك بواسطة التعليم المذكور اعلاه مع زيادة في التخصص والاختبار بواسطة التطبيق خارج البلاد حيث يكثر علم الفنون (التكنولوجيا) فلا تقر بضع سنوات حتى يتوفر في البلاد العدد الذي تريده من الفنيين المدربين. وقد استخدمت حكومات الشرق العربي طلاب بعثاتها العلمية خلال ربع القرن الاخير، لزيادة عدد الاشخاص القادرين على تطبيق المعلومات العلمية في مختلف الحقول. فنستطيع بواسطة المال المتوفر من المؤسسات المالية الخاصة ان نعد التعليم المهني ومراكز التدريب المهني، كما ان المؤسسات التجارية والملاكين الكبار الذين يطلبون مستخدمين فنيين لاعمالهم، هم مستعدون ايضاً ان يمدوا يد المساعدة لمستخدميهم كي ينالوا ذلك النوع من التعليم. وعندما تتحرك رغبة البلاد لزيادة العلم والعلماء فانها تستطيع ان تجد شتى الوسائل لتدريب شبانها تدريباً يزيد في الانتاج العلمي وربما يزيد ايضاً في العوامل التي تسبب النمو العلمي.

الفصل الثامن والعشرون

اللغة

« ان غايتنا من هـذا الفصل الذي يقدم لنا مؤسسة التفاهم، ان نبين ان اللغات تتغير وانها لا تلائم الحاجات الحديثة، ولاجل ذلك يجب ان تدرس اللغات درساً علمياً لاجل ضبطها وتوجيهها نحو الغايات المطلوبة » .

تختلف مؤسسة التفاهم الاجتماعية عن بقية المؤسسات التي درسناها لحد الآن اختلافاً ظاهراً، حتى ان كثيراً من علماء الاجتماع لا يدعونها مؤسسة . ومن جملة هذه الاختلافات ان معظم الوسائل التفاهميـة بين البشر تتم مباشرة فلا تحتـاج الى اخصائيين، لكي تصبح مؤسسة بالمعنى الصحيح . وفي الواقع، ان وسائل التفاهم الاجتماعية لم تصبح مؤسسة الا حديثاً . فالطباعة في اوروبا لم تنهض الا منذ خمسماية سنة ، حين اخذ الاخصائيون في الكتابة والنشر يتزايدون . اما البرق ومصلحة البريد فمنذ مئة سنة ، والتلفون والسينما فمنذ خمسين سنة ، والراديو منذ خمس وعشرين سنة فقط .

والاختلاف الثاني بين هذه المواصلات التفاهميـة والمؤسسات الاخرى هو ان المواصلات تتداخل في كل من المؤسسات الاخرى اكثر مما تتداخل المؤسسات الاخرى بعضها ببعض، فالمواصلات تحدث في كل مؤسسة ومن الضروري الحصول عليها . فالعائلة تعتمد على اللغة للتفاهم والتراسل عند الافتراق؛ والمدارس تعتمد على الكتب كما تعتمد التجارة على الرسائل والتلفون، والحكومة على الاخبار ، والكنائس على الكتب والكتابات المقدسة ، والاستجمام على الراديو او السينما او المطبوعات ، والعـلم والفن على الطباعة لنشر آثارهما .

تطور اللغة في الماضي

بما ان اللغة لم توجد قبل ان نشأ الانسان من اسلافه ، الشبيهين بالانسان ، فمن الضروري ان يكون لها بداية ، فكيف بدأت ؟ و كيف تطورت ؟ ان الاجابة على هذين السؤالين لقصة خلابة؛ الا اننا سنكتفي هنا بخلاصة موجزة لستة من المبادىء التي تستند اليها هذه القصة ، والتي توضح بايجاز كيف نشأت اللغة .

١ ـــ رموز الاصوات : ترمز الاصوات اولا الى العواطف ثم الى الاسماء ثم الى العلاقات جميع الحيوانات الراقية تستطيع ان تحدث اصواتاً باخراج الهواء من حناجرها و افواهها بشتى الطرق . اما هذه الاصوات الطبيعية فهي مثل نباح الكلب اوعوائه او انينه ، او هريره ، او مثل مواء القطة او نهيق الحمار ؛ وهي تعبر عن عواطف الحيوان . فهرير الكلب مثلاً يعبر عن الغضب والتهديد بالعراك ، والانين يعبر عن الالم والخوف الشديد ، بينما النباح يعبر عن الهياج او الفرح او الانذار . ويتعلم الحيوان بالقرينة معنى كل من هذه الاصوات كما يسمعها من الحيوانات الاخرى . ثم ان هذه الاصوات تصبح رموزاً اي انها تحل محل بعض السلوك او الاختبار الفعلي ، بحيث يستطيع الحيوان بواسطتها ان يقوم بالعمل الذي ترمز اليه حتى حين يكون امامه وبذلك يزيد قابليته على تكييف نفسه بحسب محيطه .

وقد تعلم الانسان تدريجياً ان يقلد اصوات الحيوانات الاخرى وان يرمز اليها او الى العواطف التي تمثلها حين لا تتوفر هي ، وهكذا يتمكن ان يتكلم عنها ، وتشير هذه العبارة الاخيرة الى نظرية « بو واو Bow-Wow» في منشأ اللغة ، التي تفترض ان الطفل يسمي الكلب « بوواو » تقليداً لصوته . وربما قلد الانسان ايضاً اصوات اشياء اخرى في الطبيعة يسميها باصواتها مثل كلمة رعد التي تشبه صوت الرعد؛ وهذه تسمى نظرية « دنك دونك » وقد سميت هكذا للدلالة على تقليد الاصوات الطبيعية . اما نظرية « بو بو » فتزعم ان بعض الكلمات نشأت من تمتمات تعبر عن شعور الانسان ، كعندما يتمتم الانسان «بوبو» للتعبير على الهزء والسخرية ، فاصبح معنى هذا الصوت فيما بعد ، مقترناً بالسخرية .

فالخلاصة أذن ان هذه النظرية تنص على ان الانسان يستطيع ان يخرج اصواتاً كثيرة تصبح بالتقليد او بواسطة الاقتران رموزاً لاشياء او اعمال او مشاعر تمكنه عندئذ ان ينقل هذه الاشياء او الاعمال او المشاعر الى شخص آخر حين لا تكون هذه الاشياء حاضرة امام حواسه. هذا هو اساس كل انواع التفكير — اي تسمية الاشياء الغائبة عن الحواس ولكنها حاضرة في الفكر بفضل رموزها .

٢ — الكلمات تتراكم، فتزيد مدى اللغة ودقتها : تعلم الانسان بمرور الاجيال ان يكثر من تسمية الاشياء وان يزداد دقة في ذلك . وحالما تعود ان يسمي الاشياء باصواتها امتدت هذه العادة الى تسمية الاعمال وصفات الاشياء ، فمن المحتمل اذن ، ان تكون الافعال والصفات قد نشأت بعد الاسماء والضمائر ، ثم نشأت تدريجياً بعد ذلك، الالفاظ التي تشير الى العلاقات المكانية مثل المرادفات الابتدائية لحرف (و) و (لا) و (الى) و (من) ، ذلك ان ابسط العلاقات هي العلاقات المكانية ، فجميع حروف الجر باللغة الانكليزية مثلا كانت بادىء الامر تشير الى العلاقات المكانية .

وقد تم تطور المفردات على هذا الشكل بطريقة التراكم، اي ان الكلمات الجديدة كانت تنشأ دون ان تحل محل الكلمات القديمة ، وكانت تستعمل لتسمية اشياء اخرى ولتوضيح الفروق توضيحاً دقيقاً . وهكذا اصبحت الكلمات تدريجياً اكثر تخصصاً وادق معنى . ولا يزال هذا الحدوث جارياً في العلوم التي تنحت كلمات جديدة او تغير تعريف الكلمات القديمة لكي تماشي المعاني الفنية الجديدة .

٣ — نشوء القواعد — الصرف والنحو : كان من الضروري عند نشوء الكلمات ، ان يعبر عن العلاقات القائمة بينها . فعلاقة فاعل الفعل بما او بمن يقع عليه الفعل ، من اكثر العلاقات انتشاراً لانها توجد في كل جملة تشتمل على فعل متعد معلوم . وهي علاقة « الفاعل » « بالمفعول » وكلا الفاعل والمفعول حالات في درس القواعد . وهنالك حالات غيرهما كحالة الاضافة، وهي تبين ملكية

الشيء اي من يملكه كقولنا كتاب الولد . وكانت اواخر الكلمات تتغير لكي تدل على هذه العلاقات ، كما تتغير اواخر الكلمات ايضاً للدلالة على العدد اي المفرد والمثنى والجمع ، وللدلالة على الشخص ، انا او انت او هو ، للتمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب . ثم نشأت للدلالة على الفرق في الجنس بين المذكر والمؤنث . ثم اخذ الناس مع مرور الزمن يتخلصون من بعض هذه « التصاريف او النهايات » باعتبارها بقايا لا نفع لها نقلت الينا من العهد القديم حين كان التفكير ابتدائياً . وقد تميزت ازمنة الافعال باضافة احرف في اوائلها او اواخرها كتمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل ثم قسمت الصفات الى درجات مثل افعل التفضيل وهي ثلاث درجات ، مثل جميل واجمل والاجمل .

وتظهر هذه الاضافات الداخلة على الحالة والعدد والضمير والجنس والزمان والتفاضل وغيرها ، بدرجات متفاوتة في جميع اللغات . ويبين تاريخ تطورها اتجاها هاماً ابتدأ في القرون الحديثة نحو تحليل معاني هذه الاضافات والتعبير عنها بكلمات مستقلة تدعى ادوات وهذه الادوات لا تتغير اواخرها ، كحروف الجر وحروف العطف . واللغة التي تفقد اضافاتها تستخدم هذه الادوات بدلا من ان تستخدم لغة كثيرة التعقيد . وهكذا تصبح اكثر مرونة واكثر سهولة . وباستعمال الادوات مع غيرها من الكلمات بمختلف الطرق الممكنة تستطيع اللغة ان تعبر عن معاني اكثر مما تستطيع ان تفعل فيما اذا كانت جامدة لا تتغير . ولغات كهذه تسمى لغات تحليلية ، فاللغة الصينية هي لغة تحليلية بحتة ثم تأتي بعدها اللغة الانكليزية بين اللغات الحية كما ان كثيراً من اللغات الاصطناعية مثل اللغات الدولية (انترلنكويا) هي لغات تحليلية بحتة . ويحتمل ان تهمل اللغة الانكليزية في المستقبل جميع الاضافات التي تدل على الجنس والحالة وان تسهل تصريف الفعل . فال « Basic English » مثلاً ، وهي خطوة حديثة لتسهيل اللغة الانكليزية وجعلها دولية ، ليس فيها الا خمس اضافات فقط بينما نجد مئات الاضافات في اللغة الانكليزية والافرنسية والعربية وغيرها من اللغات . وهذه الاضافات هي « er » للدلالة على الفاعل ، و « ing » للدلالة على القيام بالفعل ، و « ed » للدلالة على ان العمل قد تم او تمم و « s » و « es »

للدلالة على الجمع واحياناً على الضمير الثالث المفرد في الزمن الحاضر

٤ ــ نشأة الكتابة : والمبدأ الرابع لنمو اللغة، هو ان الانسان قد استطاع ان يدون الرموز المنطوقة ، وهذه القابلية على الاحتفاظ بالرموز خارج جهاز الانسان العصبي بحيث تعمر طويلا وتنتقل من جيل الى جيل فتحرك الاجيال المقبلة، هي التي جعلت الفرق بين الانسان والحيوان بارزاً واضحا، لانه ليس بين الحيوانات من يدون رموزه ، رغم ان لها لغة ابتدائية . ولم يكتسب الانسان هذه القابلية الا منذ بضع الاف سنة فقط، وقد بدأ ذلك برسم الصور اولا، فبدأ يصور الحيوانات التي يصطادها على جدران كهفه او على العظام المسطحة ثم قيست هذه الصور فيما بعد كما جرى للكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين، واخيراً تبسطت هذه الصور الهيروغليفية حتى تطورت الى «حروف» ولقد نشأت اقدم الحروف الابجدية في رأس شمرا على الساحل الشمالي من طرابلس ومن المرجح ان لا يعود تاريخ ذلك الى ابعد من ثلاثة الاف سنة . ولا ريب في ان مرونة اللغة تزداد زيادة هائلة حين تصبح لها احرف مستقلة وادوات قائمة بذاتها .

ليس هناك ما يدعونا الى الافتراض ان تطور الكتابة قد انتهى، لان الاحرف الابجدية التي تستعملها جميع اللغات ناقصة جداً . فالحروف الابجدية الانكليزية، وقد اشتقت من اللغتين اللاتينية واليونانية، وعددها ٢٦ حرفاً منها ثلاثة احرف بالامكان الاستغناء عنها لوجود ما يقابل اصواتها (C=Kis ‘x=ks ‘q=kw) لا تزال بحاجة الى ١٧ حرفاً، لان اللغة الانكليزية تستخدم اربعين صوتا وللحصول على ذلك تستعين بجمع حرفين او اكثر لاخراج هذه الاصوات مثل «Th», «Sh» او تضطر ان تستعمل الحرف الواحد ليرمز الى عدة اصوات فيزداد الامر تعقيداً . ولكي يعبر عن جميع الاصوات الممكنة في اية لغة، فقد قايس العلماء احرف صوتية عالمية .

٥ ــ العزلة تساعد على التنوع : الاقطار المنعزلة تحدث فروقاً في اللغة . تختلف اللغات باختلاف الاقطار . فلقد دل الاحصاء على وجود خمسين لغة في القدس وحدها، جميعها مستعملة اما اوروبا ففيها ١٨٧ لغة والعالم فيه ما يربو على الف لغة،

والحقيقة ان هذا العدد يتوقف على طريقة الفصل بين اللغات المتقاربة وبين اللهجات المختلفة في اللغة الواحدة . ولكن كيف وقعت هذه الفروق ؟

من المحتمل ان تكون اللغات قد اكتشفت ونشأت مستقلة في انحاء مختلفة من العالم، لكننا لا نستطيع الجزم بذلك . وانما نعرف جيداً ان الشعب الذي ينطق بلغة واحدة اذا ما فصلته حواجز كالبحار والصحاري وسلاسل الجبال او غيرها، واستمر هذا الفصل قروناً، تنقسم لغته الى لهجات مختلفة، وقد تكون كتابتهم واحدة ولكن التلفظ مختلفاً كما هي الحال في اللغة الصينية واللغة العربية . بيد ان هذه اللهجات قد تمتزج وتكون لغة واحدة مرة ثانية اذا ما تم الاتصال بين الاقطار التي تسود فيها . وبالفعل فاننا نجد اليوم ان لهجات انكلترا آخذة في الزوال كما ان الراديو يعد قوة جديدة فعالة في توحيد اللهجات . والخلاصة انه كلما ازداد الاتصال بين أجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة كالسفر والراديو والسينما والتلفون، توقعنا ان تزول اللهجات وتتوحد اللغات تدريجياً .

٦ ــ اللغة العامية هي التي تسيطر : والمبدأ السادس الذي يصف تطور اللغة هو ان اللغة الدارجة التي ينطق بها مجموع الشعب تصبح مع الزمن هي اللغة المسيطرة . ان هنالك عدداً من اللغات حافظت على اساليبها الكتابية، بينما تطور النطق بها متوخياً البساطة والمرونة . وعلى هذا المنوال نشأ الفرق بين اللغة اللاتينية القديمة واللغة الايطالية الحديثة، وبين اليونانية القديمة واليونانية الحديثة، وبين اللغة الانكليزية القديمة والانكليزية الحديثة . وقد حاولت طبقة المتعلمين في اغلب الاحيان ان تحافظ على اللغة القديمة وتحمل الجميع على استعمالها، ولكن اختبارنا في معظم اللغات قد اثبت ان هذه الجهود لم تأت بنتيجة ما سوى انها اخرت وقوع هذا التغيير قليلا، ولكن في الواقع كانت لغة الشعب الحية هي الظافرة دائماً، فتكتسب ادباً جديداً وتصبح اللغة المقبولة او اللغة القياسية . اما اللغة القديمة فيحتفظ بها لاجل الدين او لاجل امور اخرى كما هي الحال في اللغة اللاتينية او لغة القرآن . لكن كلما ازدادت وسائل التفاهم في العالم الحديث دقة وسرعة، كلما

ترجح ان تتجه كل لغة نحو الوحدة في كتابتها وفي نطقها وفي مفرداتها وقواعدها، وان تقوم هذه الوحدة على اساس اللغة الدارجة التي ينطق بها مجموع الشعب او التي تنطق بها الفئة الاكثر نفوذاً من هذا الشعب

نقص اللغة في الوقت الحاضر

ان الاسس الستة التي تتطور بموجبها اللغة والتي شرحناها آنفاً هي قليل من كثير اخترناها لكي نبرهن على ان اللغة تنمو وانها لا تزال آخذة في النمو والتطور سواء بسرعة كما يتم في جيل واحد او ببطء كما يتم خلال قرون . فكيف تتغير في المستقبل ؟

ان تقرير مستقبل تطور اللغة اخذ، مثل جميع العلاقات الاجتماعية، بالخضوع الى غايات الانسان واهدافه اكثر منه للتجربة والخطأ والعادة . فعندما يقرر الناس المثال الاعلى الذي يريدون لغتهم ان تبلغه، يعملون على تحقيقه . ولكي نتنبأ اذن، عن مستقبل اية علاقات اجتماعية نستطيع ان نعدلها، يجب اولا ان نعرف المثال الاعلى . فما هو اذن النقص الحالي في اللغة ذلك النقص الذي لا نجده في اللغة المثلى ؟

يمكننا ان نلخص نواقص جميع اللغات الحية بأربعة هي: تنوع اللهجات ، والشذوذ، والابهام، والتعقيد . واذا اعدنا ذكر هذه النواقص ايجابياً باعتبارها مثلا عليا مرغوباً فيها اصبحت هكذا : الوحدة، والانتظام، والوضوح، والبساطة . ولنوضح الان معنى كل من هذه المثل العليا .

اولا — يجب ان تتوفر الوحدة في اللغة : ان تعدد اللهجات في اللغة الواحدة او عدم القياس فيها يمنع الشعب الناطق بها من التفاهم بسهولة، كما ان الفروق في اللفظ والفروق في المفردات والقواعد، والفروق في الكتابة، جميعها تعيق تبادل التفاهم الذي اوجدت اللغة لتحسينه .

وفقدان هذه الوحدة بين مختلف لغات العالم اكثر خطورة منه في اللغة الواحدة . فبينما يقدم العلم الى العالم وسائل المواصلات في مختلف انحائه بحيث لم يكن له مثيل،

تزداد مشكلة الفروق اللغوية خطورة . فالتجارة الدولية والتفاهم الدولي ومنع الحروب، كل هذه تتطلب لغة دوليـة مساعدة. ونعني بلغة مساعدة، لغة ثانية بالاضافة الى اللغة القومية. ان البحث عن هذه اللغة قائم بهمة ونشاط. وهنالك مقترحات كثيرة بهذا الصدد، سنذكر بعضها فيما بعد.

ثانياً – يجب ان تكون اللغة منتظمة (قياسية) : يجب الا نفقد الشذوذ المألوف الموجود في اللغات والذي يتجسم فيـه كثير من تاريخ الشعب الذي ينطق بهـا. فباستطاعة اولئك الذين يحبون بقاءه واستعماله ان يحافظوا عليه، ولكن يمكن ايجاد لغة اخرى اكثر انتظاما، الى جانب اللغة الشاذة لكي تخدم هذه اللغة الاغراض التي تخدمها لغة اكثر بساطه ومرونة وانتظاما من لغة يكثر فيها الشذوذ. انما جعل بعض اللغات نظامية يتطلب اجراء تغيرات كثيرة فيها مما يجعلها غير مألوفة للناطقين بها. بيد ان بعض اللغات يمكن تنظيمها باجراء قليل من التغيير. فتنظيم قواعد اللغة الانكليزية مثلا، لا يتطلب الا اختيـار الاستعمالات الجارية التي تنطبق على مجموعة معينة من القواعد، واهمال جميع الاستعمالات الاخرى. فلا يجوز مثلا استعمال كلمة جديدة او تصريف جديد او عبارة جديدة ليست مستعملة الان، وبذلك يمكن ان تصبح القواعد نظامية بدون اي شذوذ كما هي اغلب اللغات المثالية الاصطناعية.

اما الانتظام فله وجوه مختلفة، فالتلفظ والتهجئة والكتابـة والمفردات والقواعد، جميعها يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار. ان التلفظ المنتظم يعني ان اي جذر من جذور الكلمات يلفظ تلفظا واحدا بصرف النظر عن اي تغيير يقع للكلمة في اولها كان ام آخرها. في حين ان انتظام التهجئة يعني ان يكون لكل كلمة تهجئة واحدة فقط، ويفضل ان تكون تلك التهجئة صوتيـة. وفيما يتعلق بانتظام الكتابة، فقد تحقق منذ ان اوجدت الطباعة، رغم ان كثيرا من الكتابات لا تزال ناقصة في الوحدة والبساطة. اما انتظام المفردات فيعني ان جميع الزيادات او التغيرات التي تلحق الكلمة او الاشتقاقات التي تشتق منها تتمشى دائماً على قاعدة ويفضل ان تكون قاعدة بسيطة.

ثم ان نظام القواعد، يتطلب ان تكون القواعد قليلة جداً. وربما تطلب ان تكون اقل من عشر قواعد دون ان يكون لها اي شذوذ، وذلك يعني ان تتقلص كتب القواعد، تلك المجلدات الضخمة، المحشوة بالقواعد بحيث تصبح بضع جمل فقط. وهكذا قل عن انتظام المصطلحات فانه ينطبق خصيصاً على الفروق بين اللغات المختلفة في التعبير عن فكرة ما. ففي كل لغة هنالك عبارات محلية خاصة لا يمكن ترجمتها حرفياً بواسطة القواعد النظامية، الى لغة اخرى. ويمكن التخلص من هذه اذا عهدنا عن كل منها اولا برموز «علم المنطق الرمزي» ذلك العلم الذي يحتم الانتظام. ثم عهدنا عنها باللغة العادية. خذ المصطلحات المستعملة مثلا للاشارة الى الوقت، فبعض اللغات تقول «عشرون دقيقة الا خمس» او «الساعة الثالثة واربعون دقيقة» فيمكن مثلا ترجمة جملة قياسية مثل «اربع ساعات واربعون دقيقة بعد منتصف الليل» ترجمة حرفية، فتفهم في اية لغة وبذلك يتم التخلص من هذه الفوضى في المصطلحات ثم يصبح بالامكان بعد الاستعمال الدولي، اختصار هذه فتصبح «ثلاثة واربعون»

ثالثاً – يجب ان تكون اللغة واضحة: والصفة الثالثة التي يجب ان تتصف بها اللغة هي وضوح المعنى، فلا يجوز ان يكون فيها غموض او قياس، وبعبارة اوضح لا يجوز ان تكون لأحرفها او كلماتها او عباراتها معانٍ متعددة. بل يجب ان يكون لكل حرف صوت واحد ولكل كلمة معنى واحد فقط، ويصبح المعنى الرئيسي الذي يضعه قاموس قياسي لكل كلمة، معناها الوحيد. اما الكلمات المنشقة منها او غيرها من الكلمات فتعني اشياء اخرى. بيد ان هذا يوقعنا في مشكلة جديدة وهي ان نقرر متى تكون هذه الفروق في المعاني كافية لكي يُفصل بين الكلمات. ويمكن قياس درجة سلامة اللغة من الكلمات التي تعني اشياء مختلفة، وذلك باحصاء نسبة عدد الكلمات في احسن القواميس الى عدد المعاني التي ترد لها، وتكون هذه النسبة اقل من مائة بالمائة في اية من اللغات الحية، وتبلغ الحد الاقل اي مائة بالمائة وهذا يعني معنى واحداً للكلمة الواحدة عندما يتساوى عدد الكلمات بعدد المعاني.

وكذلك يجب تجنب الغموض في الجمل والعبارات، فان التغيرات التي تلحق آخر الكلمة او اولها في اللغة الانكليزية والادوات المختلفة وترتيب الكلمات في الجملة بحيث لا يكون للجملة الا معنى واحداً، وحسن اختيار الكلمات، كل هذا يساعد على التخلص من الجمل الغامضة امثال الجملة الآتيه مثلا : « قال لصديق حنا انه سيتكلم معه عنه » فان جملة كهذه قد تفسر على وجوه عدة .

رابعاً – يجب ان تتحلى اللغة بالبساطة : وقد تعني هذه الصفة في لغة مثالية ان تكون كتابتها ذات شكل واحد فقط، فالاشكال الاربعة للحروف الانكليزية والاشكال الثلاثة للحروف العربية – في مبدأ الكلمة وفي وسطها وفي نهايتها ليست ضرورية . ويتمكن الاطفال او الاجانب الذين يتعلمون هاتين اللغتين ان يتعلموهما بربع الوقت او ثلثه لو اصبحت كتابتها ذات نمط واحد فقط، فيتوفر بذلك مجهود عقلي في تعلم القراءة والكتابة فيعمل على ازدياد عدد القارئين في البلاد . فلو استعملت الانكليزية مثلا الاحرف الصغيرة التي تستعملها للطباعة، لاجل الكتابة ايضا لزادت بساطتها وسهل استعمالها في العالم .

اما البساطة في التهجئة فتعني تهجئة كل كلمة تهجئة صوتية كما تلفظ، على شرط ان يكون التلفظ موحداً، وتعني البساطة في القواعد ان يكون عددها قليلا جداً، وتعني في المفردات ان تكون المفردات مدرجة، اي ان توضع كل كلمة في درجة على حسب تعدد استعمالها ومداه . فاذا احصينا مثلا تعدد استعمال كل كلمة في قطعة من النثر تتألف من عشر ملايين كلمة، نستطيع اذ ذاك ان نصنف كل كلمة على حسب تناوبها فنضعها بين المائة كلمة الاولى التي استعملت اكثر من سواها او المائة الثانية او المائة الثالثة الخ . لقد جرى هذا الاحصاء في اللغة الانكليزية، ثم اعتمد في وضع كتب القراءة للاطفال والاجانب على جداول نتائج هذا الاحصاء لاختيار الكلمات الاهم اولا . وقد بوشر في بحث علمي من هذا النوع في اللغة العربية . ونتمكن ان نكتب الى الصحف والراديو وان نعبر عن كل ما نريد التعبير عنه في حياتنا اليومية، بمجموعة بسيطة من

المفردات لا تتجاوز الالفي الكلمة ، اذا تم اختيارها بطريقة علمية . في حين ان باقي الكلمات في اللغة (وقد تتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠٠ كلمة ، بحسب القاموس وثروة اللغة) فيقل تناوب استعمالها بسرعة بعد ان نجتاز الالفي كلمة .

تطور اللغة في المستقبل

من الضروري ان نجعلنا هذه المثل العليا للغة : الوحدة والانتظام والوضوح والبساطة ، ان نلمس النقص في جميع اللغات الحية . فكيف يمكن ان تتغير اللغات لتبلغ هذه المثل العليا ؟ كم هو مدى الاستفادة من تغيير اللغة في الوقت الذي تقف في سبيلنا قوة الاستمرار الشديدة والمعارضة الفعالة اللتان تعترضان كل محاولة لتغيير اية عادة مألوفة لدى الشعب ، وراسخة في اعماق نفسه؟

قد تكون الاجابة على هذين السؤالين اجابة محكمة ومفصلة اطول من ان تستوعب في بحث تمهيدي كالذي نقدمه في هذا الفصل ، ومع ذلك فاننا نقدم بعض الملاحظات على كيفية تطبيق هذه المبادىء او المثل العليا على اللغة العربية وعلى مشكلة ايجاد لغة عالمية ، ذلك لكي نثير تفكير القارىء فيتعمق في التأمل بالموضوع .

دعنا نأخذ اللغة العربية اولا . ان المشكلة هنا هي ان اللغة العربية الفصحى الموحدة لا تستعمل في الحياة اليومية كما ان الاغلبية الجاهلة من الشعب لا تفهمها . وجدير بنا ان نتذكر ان لغة القرآن ، وهي عربية فصحى ، تدرس حتى الان في انحاء العالم الاسلامي كافة ، مما جعل اللغة العربية من الناحية الدينية والثقافية في مركز فريد لا تتمتع به بقية اللغات الحية . وهذا ما جعل ادخال اية تغيرات هامة فيها مستحيلا . اما عامة الشعب فمن المستحيل تعليمهم اللغة العربية الفصحى لان ذلك يتطلب جيلا كاملا . ومن جهة ثانية فانه يشك اذ كان هنالك من يقبل ان تحل اللغة الدارجة محل اللغة الفصحى ، لان الاولى قد اتخذت لهجات مختلفة في النطق بين الشعوب العربية في مصر والعراق ولبنان والشام وشمال افريقيا وغيرها . زد على ذلك ان العربي الذي يستطيع ان يقرأ القرآن الكريم ويفهمه ،

لا يكاد يستطيع ان يفهم كلمة من اللغة الدارجة المستعملة هنـا وهناك في انحاء الشرق العربي .

فنجد اذن ان اللغة العربية ليست لغة واحدة فقط بل تشتمل على لغات كثيرة، وهذا ما يمنع وحدة اللغة ويسبب خسارة في التعليم . فاحدى المشاكل الكبرى اذن في العالم العربي البالغ ستين مليوناً ، هي كيف نستطيع ان نوحد اللغة العربية ؟

ربما كان التوفيق بين هذه اللغات ممكنا باستعمال لغة « وسطى » او باستعمال « لغه الجرائد » ؛ بيد ان هذه الاخيرة لا تزال فوق مستوى مجموع الشعب وتتطلب وقتا طويلا لتعلمها فلا يبقى امامنا والحالة هذه الا معالجة الموضوع معالجة علمية . لقد اقترح بعضهم ان تجمع سلسلة من القواميس تشتمل على الامور الاتية : في اعمدة متوازية كلمات القرآن الكريم (الفصحى) ، والكلمات الدارجة في سوريا وفلسطين والعراق ومصر وكافة الاقطار الناطقة بالعربية، ثم يختار اقل عدد ممكن من المفردات المشتركة بين جميع الاعمدة لكي تقيّس وتستعمل للكتابة والراديو والنطق الخ . كما يمكن ان يتم ذلك ايضا باحصـاء الكلمات ومعرفة تناوب استعمالها ثم إختيار الكلمات التي تردد اكثر من سواها . ويدافع انصار هذه الطريقة عنهـا بكونها لا تضرّ باللغة الفصحى ولا باللغة العامية، وتهيء لغة مشتركة للناطقين بالضاد، راشدين كانوا ام اطفالا، من الهنـد حتى مراكش، فيتعلمونها كتابة وقراءة، كما انها تكون هينة للاجنبي الذي يجب ان يتعلم العربية . اما المشايخ وزعماء الدين فيوافقون عليها لان كل كلمة فيها مأخوذة من القرآن الكريم او الحديث الشريف، ويفهمها القروي الجاهل البسيط . وتكون اساساً تضاف اليه مفردات اخرى اوسع عند الحاجة . ولكننا لا نحتاج لاستعمالنا اليومي الا الى بضع كلمات في اية لغة . فمقررات اللغة « انكليزية الاساسية » مثلا ٨٥٠ كلمة ، وهي كافية للاستعمال اليومي ، ويمكن ايضا اختيار الف كلمة من العربية الفصحى والدارجة، لتقيّس، فتصبح المفردات الاساسية في اللغة المستعملة للاذاعة والجرائد والطباعة والنطق في انحاء البلاد العربية وبين الناطقين بالضاد كافة .

وتستعمل هذه المفردات ايضا لتعليم الصغار والاجانب كما تستعمل لاغراض غير علمية. ومما لا ريب فيه اننا نحتاج في دروس الادب الى مفردات اكثر واوسع للتعبير عن المعاني الدقيقة ولزيادة ثروة اللغة، وان ادبا غنيا كهذا يعد عاملا مساعدا للمحافظة على حيوية اللغة بالاضافة الى عامل الاستعمال اليومي .

وعندما نأتي الى الحروف العربية، نجابه فيها مشاكل جمة اهمها الحركات الصوتية المحذوفة وموقع الحرف في الكلمة واتصاله بغيره من الحروف او عدم اتصاله . ان الاحرف العربية مشتركة بين جميع المسلمين. فالاتراك حتى مؤخراً، والتتر والعجم والهنود والبربر والاكراد والالبانيون، جميع هؤلاء يستعملون الاحرف العربية. بيد ان توحيد الحروف ليس كفيلا بالقضاء على جميع الفروق اللغوية في العالم العربي. وقد تقترح حلول متعددة للتغلب على هذه الصعوبة، كاقتراح استعمال الحركات — وهذا شاق — او استعمال الاحرف اللاتينية كما فعلت تركيا، وقد يكون لهذا الاخير بعض الحسنات لانه يسهل تعلم اللغة ويسهل انتشارها في انحاء العالم، ولكن عيوبه تفوق هذه الحسنات لانه يفقد اللغة جمالها الفني وقيمها التقليدية والادبية والدينية، تلك القيم العريقة بالثقافة العربية، ولذلك نصرف النظر عنه .

ثم هنالك اقتراح آخر وهو يعني بتسهيل الكتابة العربية وتخليصها من قيود التعقيد. مثال على ذلك الاحرف العربية التي ابتدعها السيد نصري خطار لتستعمل على الالة الكاتبة العربية الجديدة، وهذه الاحرف لا تتطلب الا شكلا واحداً لكل حرف مما يسهل تعلم اللغة وكتابتها وطبعها. ويتطلب كل حرف المسافة نفسها وهذا يسهل ايضا استخدام الالات الكاتبة ووسائل الطباعة الحديثة مثل « اللينوتيب » في اللغة العربية. وهذه الحروف جميلة يتعلمها المرء بسرعة لا سيما اذا كان يعرف الاحرف المستعملة الان، ولكنها من الناحية الثانية تغير الكتابة الحاضرة. فيجب علينا ان نتساءل قبل الاقدام على اي تغيير: هل تتساوى حسنات هذا التغيير بسيئاته ؟

انه لفي غاية الصعوبة اتقان اللغة العربية الفصحى، فمجرد تعلم القراءة يتطلب

مدة لا تقل عن اربع سنوات في حين ان اتقان قواعد اللغة العربية من اشق الاعمال. وفي الحقيقة ان الذين استطاعوا ان يتقنوا صرف اللغة العربية ونحوها جيدا قليلون جدا. وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي خصصت لتاريخ اللغة العربية لم يخصص حتى الان درس علمي يفضي الى مقترحات بشأن مستقبل تطور اللغة. فيجدر بطلاب العربية البعيدي النظر ان يخصوا بعض اهتمامهم لهذا الموضوع الخطير.

لغة عالمية مساعدة

ليس مستقبل تطور اللغة العربية الا جزءاً من مشكلة اللغة العالمية، فلو توحدت اللغة العربية لن تحل بذلك مشكلة المواصلات التفاهمية بين الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة. ان مجموع الشعوب الناطقة بالضاد، من العراق حتى السودان ومراكش، لا يبلغ الا ثلاثة بالمائة من مجموع سكان العالم (اي ٦٠ مليون من اصل ٢٢٠٠ مليون).

واننا لا نستطيع ان نستفيد في الوقت الحاضر من وسائل المواصلات العظيمة الحديثة استفادة تامة ما لم نوجد وسيلة المواصلات مشتركة بين جميع الامم. فما الفائدة مثلا ان نتمكن من الاتصال بمختلف انحاء العالم تلفونياً اذا كانت اللغة التي نتكلم بها لا تفهم؟ زد على ذلك ان عالم العلم والسفر والتجارة يحتاج الى وسيلة للتخاطب. وهنا نجابه مشكلة التوفيق بين البشر. والوعي الدولي آخذ بالانتشار ولكن ليست له وسيلة واحدة يعبر بها عن نفسه، فلا يزال بحاجة الى الاستعانة بالترجمة، التي قال عنها المرحوم الرئيس ولسون بانها: «تجزئة الفكرة تجزيئا مركباً». وتتزايد المؤتمرات الدولية سنة بعد سنة، وكثيرا ما يصادف ان المشتركين فيها لا يعرفون لغة غير لغتهم الا معرفة سطحية. كما ان ضرورة المباحثات الدولية بين افراد من مختلف الدول لدرس مشاكلنا اليومية، آخذة في الازدياد يوماً عن يوم. فاذا لم يتمكن الناس من تبادل آرائهم وافكارهم ظلوا غرباء رغم كل وسائل المواصلات التي قد تتوفر لديهم. فلجميع الاسباب المتقدمة اصبحت الحاجة الى لغة عالمية ملحة جداً لا يستطيع احد انكارها. ويجب الا يفوتنا ان العالم يستعمل

بعض النظم والمصطلحات التي هي في الواقع دولية، كالارقام العربية، والمقاييس والرموز الرياضية والمعادلات الكيماوية الخ... ولا يمكننا ان ننكر البتة ان عمومية هذه الوسائل وانتشارها في انحاء العالم كافة، أدى مساعدة جلى للانسان بصورة عامة ولتقدم العلم بصورة خاصة .

ان هنالك عدة اقتراحات لايجاد لغة عالمية موحدة، وقد اقترحت حلول كثيرة لذلك، اهمها اقتباس احدى اللغات الحديثة كالانكليزية او الفرنسية مثلاً لتكون لغة دولية. لكن العراقيل التي وقفت في وجه هذا الاقتراح منيعة لا يمكن ازالتها. ففي الدرجة الاولى — كل من حاول ان يتعلم لغة من اللغات الحية يعرف جيداً الصعوبة التي تعترض سبيله، فانه يستغرق سنوات طويلة من السعي والجهد المتواصلين لكي يحفظ قواعد اللغة المعقده وشذوذها والمجموعات المختلفة من الاحرف التي تولد صوتا واحدا، وتصريف مئات الافعال الشاذة. ولقد اشرنا في اول هذا الفصل الى بعض المشاكل في تعلم اللغة العربية. ويشعر كل من يتكلم لغة اجنبية، وان كان يتقنها جيدا، بشيء من الانزعاج عندما يخاطب بها ابناءها الاصلين .

اما الاعتراض الثاني على اقتباس لغة حديثة لتكون اللغة العالمية، فهو عامل التعصب القومي او النفوذ الادبي. فاية لغة قومية نقتبس لتكون لغة دولية رسمية دون ان نسيء الى باقي الامم؟ لقد قيل ان اللغة هي رمز المدينة وان نفوذها هو نفوذ تلك المدنية، فما هو المعيار او الوسيلة التي نتبعها في تفضيل مدنية على اخرى؟ كل شعب يريد ان تكون لغته هي اللغة الدولية، فاذا ما انتقينا احدى هذه اللغات لتكون لغة التخاطب الدولي احتجت الشعوب الاخرى على المركز الوضيع الذي وضعت فيه لغاتها . فجميع القوميات تريد الاحتفاظ بحقوقها كاملة من محاكم ومطابع ومسارح وكنائس وجامعات وسوى ذلك .

وهنالك اقتراح ثان للتغلب على مشكلة اللغة، وهو اختراع لغة جديدة، وقد ظهر من هذه اللغات حتى الان ما يزيد على ٣٠٠ لغة لم يعش الكثير منها الا مدة قصيرة جدا. وفيما يلي نذكر اسماء اهم هذه اللغات : سولرسول (عام ١٨١٧)،

وفولابرك (عام ١٨٨٠) واديوم نيوترال (عام ١٨٩٨)، والايدو (عام ١٩٠٨)، وهي فرع من الاسبرنتو والانترلنكا (عام ١٩٠٣) ونوفيال . وقد اخترع الاسبرنتو، الدكتور زامنهوف فكانت هي اللغة الوحيدة التي استعملت طويلا وانتشرت كثيراً على نطاق واسع . وتستمد هذه اللغة اصولها من كلمات دولية . فهي خالية من الشذوذ وقواعدها سهلة جداً بحيث تكتب على بطاقة بريدية وتحفظ في ساعة واحدة . ولكل قسم من اقسام الكلام نهاية خاصة كما ان جميع الكلمات تتخذ شكلا واحداً . ولكل حرف صوت واحد، وليس هنالك اي شذوذ عن قواعدها المدرجة في اللوحة المثبتة في هذا الفصل . ولقد نشرت مئات الكتب والمجلات بالاسبرنتو، وحضر الوف من الناس من مختلف انحاء العالم المحاضرات، والمؤتمرات الدولية التي عقدت حتى الان والتي كانت لغتها الوحيدة الاسبرنتو . وقد قال عنها احد الثقاة في الموضوع ما يلي : «لم تعد الاسبرنتو حلماً بل هي دليل على امكانية ايجاد لغة مساعدة دولية »

ثم ان هنالك لغة اصطناعية اخرى استمدت من « علم المنطق الرمزي » الجديد او الجبر النوعي، وهي لغة عالمية جزئية اسمها تلب « Tilp » تمتزج مع اية لغة اخرى . ولقد حلل المؤلف معاني بضع مئات من الكلمات حتى جمعها في عشرة عناصر منطقية . ويتكون من جمع هذه العناصر العشر جميع الحروف (حروف الجر وحروف العطف) والاعداد والصفات وظرف المكان والزمان والضمير والعدد وتسمي هذه جميعها « الروابط » . ثم اضيفت هذه الروابط الى الاسماء في اللغة العربية والتركية والفارسية من اللغات الاسيوية، وفي الانكليزية والالمانية والفرنسية والايطالية واللاتينية من اللغات الاوروبية، وفي الاسبرنتو من اللغات الاصطناعية . والكلمات المسمية، هي الاسماء والافعال والنعوت، فالاولى هي اسماء للاشياء، والثانية اسماء الاعمال، والثالثة اسماء للصفات . اما عناصر المعاني العشر فهي الاتية :

٤ صفات	٤ كميات	الروابط (اثنان)
ز – الزمن	٠ – الصفر	ر – الاتجاه النسبي
ط – المكان	ن – واحد	ن – الكمية النسبية
ش – الشعب	د – اثنين	
س – كل شيء غير (ز) و (ط) و (ش)	ك – ثلاثة	ل – تدخل عند الحاجة لاجل التلفظ

اما الاكتشاف الذي يسترعي الانتباه في هذه اللغة فهو ان ٦٠ بالمائة من الكلام المستعمل في النطق يمكن ان يحول الى هذه العناصر العشر. لقد احصينا «الروابط» في فقرات مأخوذة بدون تعيين من جميع اللغات المذكورة اعلاه، فوجدنا انها بلغت ٦٠ بالمائة من جميع الكلمات بينما بلغت الكلمات المسمية ٤٠ بالمائة. ان هذا التحليل الى عناصر المعاني الذي يشبه تحليل الاصوات الى احرف ابجدية و تحليل التصاريف (الزوائد) في القواعد الى ادوات، ينتهي بمجموعة بسيطة جداً من العناصر ولكنها كثيرة المرونة ولا يزال هذا البحث في بدايته، والغرض منه جعل اللغة مضبوطة في معانيها كالمعادلات الجبرية، وقد شرحناها باختصار لكي نطلع القارىء على الطرق العلمية المتبعة اليوم لدرس اللغة.

ليس الغرض من لغة دولية القضاء على اللغات القومية او الحل محلها او حتى اضعافها. كلا بل هو ان تصبح اللغة الجديدة لغة مساعدة للغة القومية تستعمل لاجل التفاهم الدولي. فهي لغة ثانية يستعملها اي شخص حين تكون لغته مجهولة. وتدرس المسألة باهتمام زائد اليوم، فتقوم الان جمعية اللغة الدولية المساعدة ومركزها الرئيسي في مدينة نيويورك، بابحاث علمية حول مشكلة اللغة المساعدة. فاذا توصلوا الى حل مرض لهذه المشكلة يصبح بامكان الاختراعات العجيبة في عالم المواصلات، والتي اصبحت صعبة الان لسبب الموانع اللغوية، ان تخدم الجنس البشري بكامله بفضل اللغة الدولية. واذ ذاك تحل الكثير من مشاكلنا، فيسهل السفر والتجارة، وتصبح الاجتماعات الدولية شيقة ممتعة واكثر فائدة، اذ يصبح بمقدور من اراد من الناس

الذين لا يفهمون غير لغتهم، ان يشتركوا في هذه الاجتماعات، كما ان المنشورات العلمية الثمينة التي تتأخر كثيراً بسبب الترجمة حتى تصل الى جميع انحاء العالم تصبح اقل كلفة واسرع انتشاراً. كما يصبح في الامكان تحقيق مصلحة دولية للطيران وشرطة دولية وجيش دولي ايضاً. وفي النهاية تنشأ عن هذا التوحيد مدنية ذات صفات عامة شاملة.

الفصل التاسع والعشرون

الرأي العام

ان الغاية من هـذا الفصل هو تعريف القـارىء العربي بالوسائل التي من شأنها تكوين الرأي العام وتوجيهه ، كالطبعة ، والراديو ، والسينما ، والبريد والبرق والتلفون وغيرها .

على الرغم من ان هذا المصطلح حديث الاستعمال ولم يصبح شائعا قبل اواخر القرن الثامن عشر ، فان تاريخ الفكرة التي يحملها يعود الى المدنيات القديمة . فقد كان « لصوت الشعب » في اواخر ايام الامبراطورية الرومانية قوة عظيمة في تقرير اعمال الدولة وآرائها . كما بين وليم تمبل عام ١٦٧٢ في مقاله « عن منشأ الحكومة وطبيعتها » ان مصدر السلطة السياسية هو « الرأي » السائد . ثم حاول جون لوك عام ١٦٩ في مقاله عن « فهم البشر » ان يضع اساساً شرعيا وادبيا للرأي العام . فسماه «قانون الرأي» وكان أن انتقلت الفكرة من انكلترا الى فرنسا حيث نستطيع ان نعتبر الروح العامة « Esprit général » التي اتى بها « مونتاسكيو » و الارادة العامة « Volonté général » التي اتى بها « روسو » اقرب شيء لما نسميه «الرأي العام» .

طبيعة الرأى العام واهميته

هنالك نوعان رئيسيان من الرأي العام ، الرأي العام الجامد والرأي العام المتحرك ، فالاول يظهر في العادات والتقاليد ، وتكون علاقته بالثاني كعلاقة اللباس بالزي وعلاقة القوانين العادية بالاعمال البرلمانية . اما الرأي العام المتحرك فيقوم على فن الاقناع والدعاية المنظمة ، ويعتمد على الحوادث التاريخية او الحوادث الخارجية

ليستمد منها مواد الدعاية واثارة الرأي. وينمو هذا النوع من الرأي العام في الشوارع المزدحمة في المدن حيث تنشأ حياة الشعب تحت ضغط الاتصال اليومي وتبادل الاراء في الاجتماعات اليومية النمطية .

يعرف اغلب الناس ان جزءاً قليلا جدا من آرائهم وافكارهم هو ملكهم الخاص، فاغلب الافكار التي تمر بنا يوميا هي نتيجة مباشرة او غير مباشرة لاراء جاهزة نأخذها من الغير. وجدير بالمرء ان يسأل نفسه، لاثبات ما تقدم، كيف نال الحقائق التي يملكها او توصل الى الاراء التي كونها حول اي من المواضيع او الابحاث. هل رأى هو او سمع او شعر او حسب او سمى الشيء الذي كون رأيه عنه ؟ وعندما يقول احد الناس ان فرنسا ستدخل الحرب، او ان انكلترا ستعقد معاهدة، كيف توصل الى هذا الرأي ؟ فمن اي قسم من اقسام فرنسا نال هذه المعلومات او اية جماعة من الانكليز اخبروه عن المعاهدة ؟ ويتكلم المرء عن فرنسا وانكلترا كما لو كانتا من الافراد وكان من مدة وجيزة يتحدث اليهما بينما نعلم ان هذا مستحيل عمليا، وانما ما يعبر عنه المرء هو رأي عام او ربما خاص .

ان الرأي العام الحقيقي يجب ان يستند الى حكم اكثرية الشعب في قضية ذات اهمية قومية وذلك بعد بحثها بحثا عاما يقوم على التفكير والوعي. ولكي يستحق الرأي العام هذه التسمية ويكون قوة محركة في مجتمع ديمقراطي، يجب ان يكون عاما حقا. فالاغلبية ليست بكافية والاجماع ليس ضروريا، ولكن الرأي العام يجب ان يكون مما يجعل الاقلية التي لم توافق عليه مجبرة على مسايرته لا عن خوف بل عن عقيدة . واذا كانت الديمقراطية ديمقراطية حقة، وجب ان يتم رضوخ الاقلية بدون حقد .

ومما لا ريب فيه ان الرأي العام عامل هام في ديموقراطية تقوم على معاضدة الشعب الاختيارية، ولذلك كان العمل على تنوير الرأي العام فرضاً واجباً. في حين ان هذا الرأي في بلاد يسود فيها الحكم المطلق او الطغيان يهمل او يشوه. وفي سبيل هذه الغاية، برزت اهمية الصحافة والراديو وغيرهما من الوسائل الاذاعية

الاخرى، كما برزت اهمية التعليم الالزامي الحر .

وكذلك ايضاً فان الرأي العام عامل هام جداً في نشوء العادات والقوانين، او في الغائها وتعديلها . انه مرحلة اولى اذا دامت اصبحت عادة، وهذه العادة بدورها قد تصبح بالنسبة الى اهميتها قانوناً او مؤسسة اجتماعية .

القياس العلمي للرأي العام

كيف نستطيع ان نعرف الرأي العام حول اية قضية من القضايا؟ ماذا يعتقد اهل الشرق العربي، مثلاً بالتعليم المختلط ؟ وبسفور المرأة ؟ وبالرقص ؟ وبكلمة اخرى، كيف نقيس الرأي العام ؟

ان لقياس الرأي العام او معرفة اتجاهه في شأن من الشؤون، وسيلتين : الاولى الاقتراع او الانتخاب، وقد بحثناها في فصل سابق، والثانية وسيلة الاستفتاء .

واننا نثبت فيما يلي الفقرتين المأخوذتين من مقال دانيال كاتز وهالدي كانترل من جامعة برنستون عنوانه « استفتاءات الرأي العام » :

«تستند الاستفتاءات الانتخابية الى خمسة عوامل : (١) فائدتها للسياسيين عند قيامهم بحملة ما (٢) استخدامها للدعاية (٣) اهتمام الناس بآراء رفاقهم (٤) الحاجة العامة الى معرفة المستقبل (٥) والربح التجاري في تحقيق هذه الحاجة .

«أما كيف تتم عملية الاستفتاء، فهنالك عدة طرق، اهمها طريقتان : الاولى الصحف، وهذه ليست بحاجة الى شرح؛ والثانية اختيار النماذج، وهذا على نوعين : النموذج الاعتباطي، والنموذج التمثيلي . فالنموذج الاعتباطي يجري فيه اختيار الذين يستفتون اختياراً اعتباطياً او عن طريق الصدفة . في حين ان النموذج التمثيلي يجري فيه اختيار هؤلاء اختياراً تمثيلياً بحسب العوامل التي تحيط بموضوع الاستفتاء . فاذا كان العامل طائفياً مثلاً، اختير الذين يستفتون وقُدر عددهم تبعاً لوجود الطوائف وتعددها من مجموع الشعب . فاذا كان هنالك ثلاث طوائف تبلغ نسبتهم

من مجموع الشعب ٥٠ ٪ و ٣٥ ٪ و ١٥ ٪، اختير الذين يستفتون تبعاً لهذه النسبة، اي ٥٠ ٪ من الطائفة الاولى، و ٣٥ ٪ من الثانية، و ١٥ ٪ من الثالثة.»

وسائل المواصلات ومحتوياتها

لقد كون الناس آراءهم حول الاشخاص والجماعات والدولة والكنيسة، وسواها، منذ القدم. الا انهم لم يتمكنوا دائماً من التعبير عن آرائهم وذلك لعدم توفر وسائل المواصلات، اما العالم الحديث اليوم فيملك كثيراً من الوسائل العظيمة التي تنور الرأي العام وتوجهه وتنقله الى مسافات بعيدة نقلاً سريعاً. واهم هذه الوسائل هي الطباعة، والراديو، والسينما، والبريد والبرق والتلفون.

وهنا تعرض لنا مشكلة المحتويات التي تتضمنها هذه الوسائل الخطيرة. هل يستطيع المرء مثلاً ان يصدق كل ما يقرأ في الصحف، او يسمعه في الاذاعات اللاسلكية؟

لقد نشر جون ملتون عام ١٦٤٤ مقاله المشهور باسم «اريوباكيتيكا» في سبيل حرية النشر، فكان ذلك بداية النزاع في سبيل حرية الصحافة. بيد ان هذه الحرية ينبغي ان تستمد من مبدأ هام جداً هو: اذا كان للصحف الحق بان تنشر كل ما لا يحرمه القانون، عليها اذن ان تتحمل مسؤولية الدقة والصدق في ما تنشره. ولذلك رأينا ان «جمعية محرري الصحف الاميركية» قد وضعت بعض القوانين وجعلتها مثلا عليا. وها نحن نقتبس منها الفقرات التالية:

«ان مهمة الصحافة الرئيسية هي ان تنقل الى الجنس البشري ما يصنع ابناؤه وما يساورهم من الشعور او يجول في خواطرهم من الافكار. لذلك تتطلب الصحافة من القائمين بها ذكاء فائقاً، ومعرفة كبيرة، واختباراً واسعاً، كما تتطلب قوة ملاحظة وقوة تفكير موروثتين ومكتسبتين...

«وقد وضعت القوانين الاربعة الاتية كوسيلة لجعل عمل الصحافة الاميركية الصحيح وآمالها الحقة مشروعة:

اولا – المسؤولية : يحق للجريدة ان تجذب القراء بقدر ما تريد على شرط ان تحترم المصلحة العامة. ويتوقف شعور الجريدة بالمسؤولية على كيفية استخدامها وعلى نصيبها من اهتمام الرأي العام بها. وتتقاسم هذه المسؤولية مع افراد الاسرة المشتركة في تحريرها. اما الصحافي الذي يستخدم نفوذه لغايات انانية وما اشبه ذلك من الغايات الدنيئة فيعتبر خائناً لرسالة سامية.

ثانياً – حرية النشر : يجب ان يحافظ على حرية النشر باعتبارها حقا حيويا من حقوق البشر. فحق الانسان في ان يبحث صراحة في كل ما لا يحرّمه القانون، او حتى في مشروعية القانون نفسه ومبرارته، حق لا يحتمل الجدل.

ثالثاً – الاستقلال : ونعني به الانعتاق من كل الواجبات ما عدا تلك التي تتناقض والمصلحة العامة، وهذا الانعتاق هام وحيوي جدا.

(أ) – لا يتفق تشجيع المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة مع شرف الصحافة مهما كانت المبررات لهذا التشجيع ولا يجوز نشر الاخبار المستقاة من المصادر الخاصة قبل التأكد من صحتها ومراقبة مصدرها.

(ب) – ان التحيز او التحزب في النقد الذي يحيد صاحبه عن الصدق عمدا يبعث ثورة وشعورا بالنقمة في روح الصحافة الامريكية الطيبة. اما التحيز في نقل الاخبار فيعارض مبدأ هاما من مبادىء المهنة.

رابعاً – الاخلاص والصدق والدقة : ان الصدق على القارىء هو اساس الصحافة الحقة.

(ا) – يفرض على كل صحيفة ان تكون صادقة، ولا يجوز التغاضي عنها او عذرها لعدم دقتها او تمحيصها للحقائق او لتقصيرها في تحقيق هذه الصفات الهامة.

(ب) – يجب ان تشير العناوين الرئيسية بدقة الى محتويات المجال الصحيفة».

ثم هنالك بالاضافة الى هذه المثل الصحفية العليا قوانين الطعن او القذف حيث يستطيع المواطن ان يقيم الدعوى على الناشر او المحرر لنشره خبرا كاذبا يمس باخلاق

المرء او يطعن بسمعته وشرفه. وهذه القوانين هي احدى الوسائل القليلة التي تحد من قوة الصحف في البلدان الديمقراطية. امـا في البلدان التي يسود فيها النظام الدكتاتوري فقد اصبحت الصحف لسان الحكومة الناطق لبث الدعاية لها بصرف النظر عما اذا كانت الدعاية صادقة ام كاذبة، وتكون صحة الاخبار في حالات كهذه قليلة جدا، كما يكون نصيب الصحيفة بالاستقلال عن الحكومة قليلا جدا. في حين نجد المنافسة في البلدان الديمقراطية بين الصحف شديدة جدا بحيث يصبح هدف كل منها ان تسعى للحصول على احسن الاخبار واكبر نصيب من الصحة والدقة، وبهذه الواسطة تتخلص الصحف من الاخطار التي قد تتعرض لها اذا كان الامر على غير ذلك.

ما تنقله المواصلات

اولا — الدعاية: ان كلمة «دعاية» بمعناها الاصلي تشير الى الطرق المتبعة لبث الدعوة الى العقائد والمبادىء والافكار الدينية او العلمانية، اما اليوم فقد اصبح لهذه الكلمة معنى آخر خاصة بما يتعلق بالرأى العام. ففي عام ١٦٢٢ اسست الكنيسة الكاثولوكية «كلية للدعاية» لتبث الدعوة للكنيسـة المذكورة. ومنذ تأسيس تلك الكلية لبث الدعوة عمدا، تأسست جمعيات لا تحصى لبث الدعوة في الشؤون الدينية والسياسية والاجتماعية. اما كلمة «دعاية» فكانت تعني في البداية بث الاراء والمعلومات ولكنها اصبحت تعني فيما بعد التضليل عن الحقيقة، فان لم يذكر المصدر الذي اخذت منها المعلومات او اذا اغري القارىء ليصدق بان الاخبار اخذت من مصدر غير المصدر الصحيح فذلك يدعى دعاية.

اما الوسائل الرئيسية لبث الدعاية فهي الصحف والراديو ويمكن ارسالها ايضا بواسطة الكتب والاغاني والمسارح وكثيراً ما تكون هذه الدعاية كاذبة لا تتفق مع الحقيقة في شيء، كما يحدث عادة ابان الحروب.

ولقد اثبتت الدعاية على انها قوة جبارة منذ الحرب العالمية الاولى وفي الحرب الثانية، بحيث يخشى ان لا تتمكن الحكومات من السيطرة عليها. ان القوى التي

تكييف الرأي العام بسرعة وبغير حق، هي اعظم القوى الكامنة للتخريب والتدمير التي تجابه البلاد اذا ما نجحت الدعاية في السيطرة على الرأي العام، وقد تكون نتائج تلك السيطرة تدمير البلاد وتخريبها.

ثانياً — حرية القول والمراقبة: وتصبح شبكات الجاسوسية في كثير من البلدان منظمة ودقيقة ايام الحرب بحيث تصبح حرية القول مهددة. وحرية القول هي احد المنابر الاساسية في اية بلاد ديموقراطية، وتمنح هذه الحرية الى كل فرد ما دام قوله مبنيا على الصدق. ولا تخشى الحكومة الشريفة من قول الحق الصادر عن اي مواطن، ولذا لا تتدخل بحرية القول الا نادرا. اما الحكومات التي تولت الحكم بالقوة والتي تضطر ان تستعمل القوة لكي تظل في الحكم، فتجد نفسها مضطرة ان تضغط على حرية القول بواسطة المراقبة الرسمية حتى وان لم تكن البلاد في حالة حرب. هذا قمع للرأي العام الذي يمنع من الظهور والتعبير. وتستطيع الحكومة بما لديها من وسائل الدعاية ان تسيطر على الرأي العام كما تستطيع ان تكوّن الرأي العام حسب رغباتها واهوائها اذا جعلت الشعب جاهلا حقيقة الامور والاحوال. وقد يجد البعض مبرراً لمثل هذا التصرف في ظروف الحرب الطارئة.

قرار الجماعة

يستند مثال الديمقراطية الاعلى، «حكومة الشعب من الشعب ولاجل الشعب» الى قرار الجماعة الذي يفسح المجال بالمساواة امام الجميع، اما الاقلية فتؤخذ مصالحها بعين الاعتبار ايضا. وتتحكم في النظام الديمقراطي الاكثرية مع مراعاة الاقلية، اما في النظام الدكتاتوري فالاقلية تتحكم دون مراعاة مصلحة الاكثرية.

ولكي يتكون الرأي العام بحرية يجب مراعاة الشرطين الاتيين:

اولا — يجب ان تمنح الاكثرية الحرية للاقلية لتعبر عن آرائها وتقنع الشعب بالطرق السلمية، لذلك لا يجوز الضغط على صحف المعارضة او على خطبائها. وهذا يعني حرية القول وحرية النشر. كل دولة — حتى اكثرها حرية وديمقراطية —

تحظر حرية القول بدرجات مختلفة اثناء الحروب والثورات وماشابه من الازمات القومية . ولكننا نستطيع بصورة عامة ان نقول انه عندما تكون حرية القول على اشدها ، تتوفر افضل الظروف لتكوين رأي عام حقيقي يمثل الاكثرية، ولقيام حكومة ديمقراطية .

ثانياً – يجب ان تخضع الاقلية لقرار الاكثرية بروح طيبة مرحة، ثم تصبر الى ان تتمكن من كسب اصوات تجعلها الاكثرية. اما اذا انسحبت الاقلية من الجمعية او البرلمان، فذلك يشير الى فشل الحكم الديمقراطي وافساح المجال للحكم بالقوة، كما هي الحال في البلدان الدكتاتورية في اوروبا اليوم. واذا لم تعمل الاقلية باخلاص في سبيل الخير العام للجميع فذلك يشير الى انها تسعى الى حكم الاقلية بدلا من التعاون في الحكم الديمقراطي. والخلاصة انه في الحكم الديمقراطي مهما اختلفت الاراء حول القضايا الخاصة او الزعماء المتنافسين ، يجب ان يكون هنالك رأي عام موحد جامع يعتقد او يؤمن بحل القضايا بطريقة الاقتراع توصلا الى الاكثرية بعد بحث القضية بحثا عاما مطلقاً وتكوين رأي عام حر . وان الطريقة التي تقوم بها الحكومة بالحكم بعد الوصول الى الرأي العام والاقتراع للاكثرية هي الاساليب البرلمانية التي بحثناها في فصل آخر من هذا الكتاب .

الفصل الثلاثون

علاقة الانسان ببيئته

ان غايتنا من هذا الفصل هي درس علاقات الناس بقدر ما تعتمد هذه على المكان والعوامل الجغرافية الوثيقة الارتباط به .

يدعى الشعب الذي يعيش في قطر واحد وله مؤسسات واحدة مشتركة بيئة قطرية . ويمكن تصنيف هذه البيئات القطرية التي يختلف حجمها من مخيم صغير كمخيم البدو الى مجموعات الامم كما في قارة كبيرة مثلاً، على اساس اتساع المساحة (اي مكان ذي بعدين) بالنسبة الى حجم السكان الذين يعيشون في تلك البقعة. ان الاصناف الثلاثة الاولى من البيئات القطرية تزداد في الكثافة (اي من المخيم الى القرية الى المدينة) بينما تزداد الاصناف الخمسة في معدل حجم السكان المطلق، من المخيم الى القرية الى المدينة الى الامة الى القارة .

وها اننا نوردفيما يلي جدولا يبين حجم كل من هذه الاصناف من البيئات القطرية :

الصنف	اصناف البيئات القطرية بحسب حجم السكان	متوسط عدد السكان ١٠ ×
١ – البيتي	مثل عائلة منفردة في مزرعة	١٠ أو ١٠[١]
٢ – التنقلي	مثل مخيم للبدو	١٠٠ أو ١٠[٢]
٣ – الريفي	مثل القرى	١٠٠٠ أو ١٠[٣]
٤ – المدني	البلدة	١٠٠٠٠ أو ١٠[٤]
	المدينة	١٠٠٠٠٠ أو ١٠[٥]
	المتروبوليس	١٠٠٠٠٠٠ أو ١٠[٦]

٥ – دولي	دولة صغيرة – دولة ثانوية	١٠٠٠٠٠٠٠ أو $١٠^{٧}$
	دولة كبيرة – دولة اولى	١٠٠٠٠٠٠٠٠ أو $١٠^{٨}$
٩ قاري	عدد سكان القارات الست في العالم	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أو $١٠^{٩}$

يبلغ ٢،٢ بليون من الناس

ان الحد الاعلى لكل صنف = ٢ × ١٠

والحد الادنى لكل صنف = ٠،٢ × ١٠

ان هذا تصنيفاً ابتدائياً، وقد جعلنا ارقامه صحيحة اي خالية من الكسر تسهيلاً لحفظها. ويجب الا يغرب عن بالنا ان لكل صنف من البيئات القطرية احجاما مختلفة؛ وانما ذكرنا هنا الحجم التقريبي او المثالي فقط. ثم ان البيئات المتطرفة تتداخل في الصنف الذي يسبقها او الذي يليها. وان القسم الاوسط من هذا الجدول اكثر دقة من القسم الاول (حيث قد يكون معدل افراد العائلة اقل من ١٠ اشخاص) والقسم الاخير (حيث قد يكون معدل القارات الست اقل من بليون شخص بكثير). ونستطيع ان نجد بصورة غير قطعية، الحد الاعلى لكل صنف بضرب معدل ذلك الصنف او عدده المثالي باثنين كما نجد الحد الادنى بضرب المعدل او العدد المثالي بعُشرَين (٠،٢) فيكون حد القرية مثلا ٢٠٠ و ٢٠٠٠ (اي ٠،٢ × ١٠٠٠ و ٢ × ١٠٠٠) وان الاصطلاح الدولي للفصل بين البيئة الريفية والبيئة المدنية هو ٢٠٠٠ شخص.

هنالك توافق كبير بين المساحة التي تستعملها البيئة القطرية وبين عدد الشعب القاطن فيها، بحيث، وان صنفت البيئات القطرية اعلاه على حسب عدد السكان نظراً لسهولة الحصول عليه، انه يطابق التصنيف على حسب المساحة مطابقة كبيرة. ولكن سواء كان التصنيف بحسب عدد السكان او كان بحسب مساحة المكان، فهنالك مبدآن يصدقان على هذا التصنيف. المبدأ الاول هو ان كل بيئة قطرية تشتمل على المؤسسات وتكون منها وحدة كبرى الا وهي المجتمع. والمبدأ الثاني هو انه كلما كبرت البيئات القطرية زادت ثقافتها تعقدا، اذ كلما زاد عدد الناس الذين يعيشون معا او زادت كثافتهم، اصبحت مؤسساتهم اكثر تعقداً. وتختلف كل مؤسسة في قبائل البدو عن زميلاتها في مدينة كبيرة او

في امة مثلا بحيث يستحق كل صنف من البيئة القطرية ان يدرس على حدة. وهذا ما قمنا به في هذا الفصل ، وفي الفصول الستة التي ستليه.

علاقة الارض بالانسان

يجب، عند بحث العلاقة البيئية، ان نعيد باختصار علاقات الانسان بالارض وبالمياه وبالهواء وبالحرارة وبالنبات وبالحيوان، كل بدوره .

وسنذكر تحت كل من هذه العوامل الايكولوجية الخمسة، اولا توزيعها، ثانياً اسبابها، ثالثاً تأثيرها على الانسان، رابعاً سيطرة الانسان عليها اي ضبطه لها .

ان علاقات الانسان بالارض تقسم الى العلاقات الناتجة اولا عن التوبوغرافيا، اي وصف الارض، وثانياً عن تركيب التربة، اي محتويات الارض .

اولا — التوبوغرافيا او وصف الارض : لدرس التوبوغرافيا ثلاث نواح، اولا مساحة الارض، ثانياً ارتفاع الارض فوق سطح البحر، وثالثا اجتماع الاثنين في الانحدار الذي يتراوح بين السهل والجبل . وتقاس المساحة بوحدات الطول المربعة مثل الكيلو متر المربع، كما يقاس الارتفاع بالامتار المرتفعة فوق سطح البحر او المنخفضة تحت سطحه، ويقاس الانحدار بدرجات الزوايا المأخوذة من المساحة الافقية او من مماس تلك الزاوية الذي نعرفه بانه نسبة الارتفاع الى المسافة الافقية . فيكون مثلا انحدار السهل بدرجة الصفر (مماس = ٠) ويكون انحدار طريق منحدرة مترا في الارتفاع لكل ١٦ مترا أفقياً (مماس = ٠،١٦) بينما قد يضطر المرء على تلة يزيد انحدارها على ٤٥ (مماس = ١)، ان يتسلق بيديه ورجليه معاً . وتبين الخرائط توبوغرافيا الارض بذكر المساحات والخطوط القاطعة التي تبين الفروق في الارتفاع . فعندما تكون هذه الخطوط متقاربة يكون الانحدار شديداً وعندما تكون متباعدة يكون الانحدار متدرجاً . وتبين كثرة الخطوط القاطعة على الخريطة، البلاد الجبلية . اما عدم ظهورها على الخريطة فيشير الى ان البلاد سهلية لا جبلية .

ان اسباب التبوغرافيا، اي شكل سطح الارض، تدرس في علم طبقات الارض .

أما هنا فنشير اليها بايجاز. لقد كان برود الارض المائعة بعد ان انسلخت عن الشمس الغازية وتكاثف الرطوبة في الاقسام المنخفضة من قشرة الارض المتجعدة، وتأثير الهزات الارضية والبراكين واغلب العوامل البطيئة المتلفة التي استغرقت اجيالا طويلة لتغني الوديان اولا ثم الجبال بالجليد والثلج والمطر والهواء. وسوى ذلك من العوامل التي جمعت التراب في الاراضي المنخفضة وكونت طبقات الصخور المائية في اعماق البحار؛ وبعبارة موجزة ان جميع العوامل الجيولوجية هذه قد ساهمت في جعل شكل سطح الارض على ما هو عليه الان.

اما تاثير التوبوغرافيا على الانسان فهو في الدرجة الاولى بتحديد عدد السكان الذين يستطيعون ان يعيشوا على سطح الارض. فكلما صغرت مساحة الارض، وتساوت الامور الاخرى، قل عدد السكان؛ وكلما ازداد الانحدار قل عدد السكان ايضا. فيتوافق الشعب اذن توافقا ايجابيا مع المساحة، توافقاً سلبيا مع الارتفاع والانحدار. وهكذا نجد ان اكبر مدن العالم هي الموانى البحرية، وقليلون جدا هم الذين يعيشون على ارتفاع ٣٠٠٠ متر مع ان بعض الاماكن ترتفع عن خط الثلج ٩٠٠٠ متر. وتكون اكثر كثافات السكان في السهول. فينتج عنها التخصص في الاعمال والمهن والتنوع في الثقافة وبالنتيجة التوصل الى مدنية راقية جدا. لقد كانت مراكز المدنية في الصين والهند ومصر وفنيقيا واليونان وروما واوروبا، مدنا قائمة على ضفة نهر او شاطىء بحر في بقعة سهلة من الارض.

ويكيف الانسان نفسه على حسب توبوغرافيا الارض فيؤثر فيها بحيث يسيطر عليها ويضبطها بشتى الطرق. فيتجنب مثلا الاماكن المرتفعة الا حين يبحث عن البرودة اثناء الصيف ويرتدي الملابس الدافئة، ويستعمل الوقود ووسائل التدفئة وينقلها الى الجبال العالية لكي يعيش براحة في الاماكن المرتفعة احسن مما عاش اسلافه. ويتسلط على المنحدرات بتقطيعها الى حفاف وبناء الطرق المتعرجة عليها. ويزيد مساحة الارض باكتشاف الاراضي الجديدة واذلالها او التغلب عليها. ولما كانت عملية اكتشاف الاراضي الجديدة والسيطرة عليها في العالم الجديد، قد قاربت من الانتهاء. فقد اخذ الانسان يكيف نفسه باستخراج

المعادن من اعماق الارض وبتكوين مدنية صناعية تستخدم مواردالارض الى اقصى حدّ بحيث تستطيع كثافة السكان ان تزداد الف ضعف . فكثافة سكان البدو في الصحراء مثلاً لاتتجاوز الشخص الواحد لكل كيلو متر مربع، بينما تستطيع المناطق الصناعية ان تحمل الف شخص في الكيلومتر المربع الواحد .

واليك الجدول الآتي، فهو يساعد على تكوين فكرة أتم عن العلاقة بين كثافة السكان ونوع الثقافة الاقتصادية المنتجة :

نوع الثقافة	الدرجة	الكثافة
الصناعية	٠	٥
الزراعية (كما في شرقي اوروبا)	١	١٥
الزراعية (كما في اواسط اوروبا)	٢	٤٥
الزراعية (كما في البلدان الاستعمارية)	٣	١٣٥
الزراعية (الابتدائية)	٤	٤٠٥
البدو (كما في الجزيرة العربية)	٥	١٢١٥

ان معادلة هذه الكثافات المثالية، حيث تعني الدرجة (د) درجة كل من الثقافات الانتاجية، هي كما يأتي : كثافة = ٥×٣د . وتكون الدرجة والاس الجبري في الزراعة الابتدائيه ٤، فتصبح المعادلة هكذا : ٥×٣×٣×٣×٣= ٥×٨١=٤٠٥ (١)

ان الانسان يستطيع ايضاً ان يستثمر الاراضي المهملة بريّ الصحراء كما في العراق، او بتجفيف المستنقعات، او قلع الصخور وقطع الغابات او ببناء السدود

(١) لاحظ ان عشر دونمات تشكل هكتوراً، وهذا بدوره يشكل واحدا من مائة من الكيلو متر المربع . فاذا اخذنا ثلاث منازل عشرية على الرقم اعلاه يصبح هذا الرقم كيلو مترات مربعة لكل شخص .

في البحر وجر المياه من القسم الذي بني السد فيه لتجفيفه وجعله ارضا صالحة للعمل كما هي الحال في هولاندا . وبالنهاية فان جميع وسائل النقل من حيوانات النقل الى العربات الى البواخر والقطارات والسيارات والطيارات، ومن البريد الى التلفون والراديو، جميعها تساعد الانسان على التغلب على المسافات وتمكنه من معالجة الابعاد الشاسعة .

ثانياً: تركيب الارض : تتكون محتويات الارض من الامور الاتية: اولا : تربة سطح الارض، وعليها تتوقف الزراعة. ثانياً : المعادن، وعليها تتوقف الصناعة. ويمكن قياس التربة ماديا بمعدل حجم الذرة سواء اكانت في الصخر الصلب ام الحصى ام الرمال ام الرواسب الطينية. اما كيماوياً فتقاس بمقدار ما ينبت فيها من النبات تحت ظروف معينة ومقيسة. وتقاس المعادن بمعادلاتها الكيماوية او بكمية الطاقة الفيزيكية التي تصدر عنها كما في الفحم والزيت والغازات المستعملة للوقود، او بواسطة ثقلها او حجمها او قيمتها الاقتصادية.

وينحصر تأثير التربة على الانسان بتحديد نوع الحاصلات الزراعية وكميتها وجودتها . فبعض النباتات تنمو في التربة الرملية وبعضها في التربة الطينية. وتتوفر اكبر كمية من الحاصلات الزراعية واجودها في التربة المترسبة من نهر، كترسبات نهر النيل في مصر. اما في المناطق الصخرية او الحجرية فتكون اعطل ما يكون اذ يضطر الانسان ان يضاعف جهوده لكي يحصل على معيشته. وبتعبير موجز، ان زراعة الانسان وبالتالي طعامه وملبسه تتوقف بعض الشيء على تربة بيئته .

ومن تأثير المعادن على الانسان ان بعضها يجهزه بحجارة صالحة للبناء كما في لبنان، او تحرمه من هذه المادة كما في سهول العراق. اما المعادن المستعملة للوقود مثل الفحم والزيت والغاز فتعد الحرارة للانسان في فصل الشتاء كما تعد الكهرباء والنور والقوة المحركة لجميع آلاته. وهذه هي اساس صناعته الحديثة التي تستطيع ان تنتج بقوتها الهائلة من البضائع ما يعدل انتاج مائة عبد فيما لو عملوا كل ايام حياتهم .

اما المعادن الاخرى ومن اهمها الحديد والفولاذ فهي من الدعائم التي ترتكز اليها الصناعة الحديثة. فالنحاس مثلا ضروري في صنع اشياء كثيرة. وقد اخذ الالومنيوم يزاحم الفولاذ، ولكن على الرغم من وفرة وجوده – لانه جزء من الطين – فان استخراجه يكلف نفقات باهظة. ولا تستطيع الامة ان تصبح صناعية ان لم يتوفر لديها الحديد والفحم. اما الموارد المعدنية الهامة في الشرق، فهي البترول والاملاح المذابة في البحر الميت في فلسطين.

ولاجل السيطرة على التربة يبني الانسان الحفافي والسدود ليمنع الامطار من جرف التربة السطحية، ويغرس الغابات وانواع خاصة من الحشائش والنبات لكي يمنع الرياح من نسف الرمال والغبار. ان حرج الصنوبر الذي يحيط بيروت مثل جيد لحائط غرسه حاكم منذ قرن لكي يقي جنائن بيروت شر الرمال. ويحمل الانسان التراب الى الاماكن التي تحتاج اليه كما يصلح نوع التربة باضافة الاسمدة الطبيعية او الكيماوية، ثم يزرعها بالتناوب، فيجني كل سنة حاصلاً يختلف عن حاصل السنة السابقة، وذلك كي لا يستنفد هذا الزرع جميع المواد المعدنية من التربة فتقل درجة خصبها في السنة المقبلة. وقد تعلم الانسان مؤخراً ان يزرع النباتات في محلول ملحي بدون تربة.

ولكي يسيطر الانسان على الموارد المعدنية في محيطه يحفر المقالع في الصخور لاستخراج الحجارة واستعمالها في بناء البيوت والطرقات. وهو يحفر المناجم ليستخرج الفحم الحجري والمعادن التي تصهر وتكيف في اشكال مختلفة لتصنع منها المواد المختلفة التي تعمر طويلاً. وهو كذلك يحفر الابار ليستخرج منها الزيوت والغازات، ويجرها في الانابيب مسافات بعيدة الى المعامل والبواخر والبيوت في المدن النائية. هذا كله ناهيك عن استخراجه الاملاح المعدنية من المحاليل المركزة كما هي الحال في البحر الميت. ان العلم التطبيقي، وندعوه «تكنولوجيا» يكتشف للانسان دائماً طرقاً جديدة لاستخراج الموارد المعدنية من محيطه. ويتوقف نمو الصناعة الحديثة في بلاد ما على نسبة مواردها المعدنية وعلى مبلغ مقدرتها في التكنولوجيا، ولذلك كان عدم توفر الموارد المعدنية الثمينة (اذا استثنينا الزيوت)

في الشرق العربي سبباً في توجيه مستقبل هذه البلاد الى الزراعة في الدرجة الاولى.

علاقة المياه بالانسان

ان كمية المياه الموجودة في محيط الانسان تشكل عنصراً اساسيا في حياته. والمياه توجد بثلاث حالات في الطبيعة : اولا : حالة الصلابة كالثلج والجليد . ثانياً : حالة السيولة كالمطر والانهار والبحيرات والبحار . ثالثاً : حالة الغازية كالبخار والغيوم والضباب والرطوبة الهوائية . ويقاس توزعها على سطح الارض في حالة الصلابة بمساحة الجليد او عمقه او بمقدار ما يسقط من الثلج مقاساً بالسنتيمتر في الفصل الواحد . كما تقاس في حالة السيولة بمساحة البحيرات والبحار وعمقها ، وبحجم المياه الجارية في الدقيقة ، وبمجموع حجم المياه المخزونة في الاحواض والخزانات وبمقدار ما يسقط من الامطار سنوياً مقاساً بالسنتمتر . فمعدل هطول الامطار في بيروت مثلاً ٩٠ سنتمتراً بينما يبلغ ذلك ادنى حده في الصحراء حيث يبلغ ٥ سنتمترات ، واعلى حده في الاماكن التي يغرس فيها الشاي مثلا كبورما اذ يبلغ ١٠٠٠ سنتمتر في السنة . اما في الحالة الغازية فيقاس البخار مثلا بالحجم وبمقدار ضغطه بالكيلوغرام . وتقدر الغيوم بالنسبة المئوية لايام السنة التي تتلبد فيها الغيوم ؛ وتقاس الرطوبة « بالرطوبة النسبية » وهي النسبة المئوية للحد الاعلى من بخار الماء الموجود في الهواء في احوال الحرارة العادية . وتقوم المراصد الفلكية بهذه القياسات وترفع فيها تقريراً يوميا . فمعدل الرطوبة الكثيرة مثلا تتراوح في بيروت بين ٧٢ ٪ في شهر نيسان و ٦٥ ٪ في شهر تشرين الاول . وتجعل الرطوبة الكثيرة جسم الانسان ، لزجا ، كما تجعل المرء يشعر بعدم الارتياح والانزعاج اكثر مما يشعر به بسبب اشتداد الحرارة .

اما اسباب توزيع المياه فهي اولا الحرارة التي تبعثها الشمس ، حين انعكاسها على سطح الارض . فعندما تنزل درجة حرارة المياه تحت الصفر ، تتجمد المياه وعندما ترتفع فوق ١٠٠ درجة مئوية تصبح غازاً . وتولد اشعة الشمس الضعيفة في القطبين الشمالي والجنوبي حرارة قليلة تجمد المياه في هذين القطبين فتحولها الى جليد تبلغ

كثافته آلاف الامتار . ويزداد انحراف اشعة الشمس في الشتاء بسبب حركة الارض فتتساقط الثلوج في شمالي الكرة الارضية اثناء شهر كانون الثاني ، بينما يأتي فصل الشتاء في نصف الكرة الجنوبية في شهر تموز . وتبخر حرارة الشمس بعض مياه البحار فتتصاعد الى الهواء حيث تتجمع في الغيوم ، ثم تسوق الرياح هذه الغيوم فيتساقط بعضها فوق الارض بشكل امطار . وتجري هذه الامطار المتساقطة الى الاماكن المنحدرة ويتسرب منها البعض الى اعماق التربة ثم يتصاعد مرة ثانية الى سطح الارض في ايام الربيع . ان تفاعل الامطار ومجاري المياه فوق قشرة الارض مدة ملايين من السنين قد حفر الوديان والانهر التي تقرر توزيع المياه الجارية .

اما تأثير المياه على الانسان فانها تعزله عن الاراضي المغطاة بالجليد والثلج حيث يصعب حفر المناجم وتستحيل الزراعة وتضطرب الحياة . وتكون المناطق التي لا يصيبها الا القليل من المطر صحراء لا تعيل الا القليل من الناس . كما ان الامطار والمياه الجارية ، تقرر الاماكن التي يمكن استعمالها للزراعة والتي تستطيع ان تعيش فيها الحيوانات والانسان . واغنى الاراضي الزراعية هي تلك التي يكون نصيبها اوفر من كمية المياه .

ويستخدم سطح المياه للنقل اذ تمخر البواخر والقوارب عباب المياه بسهولة اكثر مما تلاقيه السيارات على اليابسة . لذلك كانت البحار والانهار منذ القدم طرقاً لنقل الناس والبضائع من مكان الى آخر . وان اعظم مدن العالم هي الموانىء البحرية حيث تتساقط المياه من مكان مرتفع الى اماكن منخفضة ينتج عنها قوة لتحريك الآلات وتوليد الكهرباء .

اما الانسان فيسيطر على المياه بتشييد الملاجيء لتقيه من المطر والثلج ، وبارتداء الملابس الدافئة الواقية من المطر ، وبصنع المزالج للسفر فوق المياه ، وبتجهيز آلات لرفع الثلج من على الطرق ، وبجر المياه من مكان الى آخر ، وبحفر القنوات والخنادق وبناء الانابيب . ويخزن الانسان المياه في الخزانات بانشاء السدود والاحواض ، او بغرس الغابات ، وبحفر الآبار العميقة ليستخرج المياه من اعماق الارض .

ويغلي الانسان المياه ليطبخ طعامه ويدفىء نفسه ويغسل جسمه وملابسه ويعقم الاشياء او يجففها او لكي يولد البخار الذي يسير الآلات البخارية.

علاقة الهواء بالانسان

لولا الهواء يتنفسه الانسان لمات باقل من خمس دقائق. على ان هذا وحده ليس كل ما للهواء من منافع. ان الهواء الجاف يتكون من مزيج خُمسهُ او كسجين واربعة اخماسه نيتورجين مع قليل من الغازات النادرة الوجود.

وقد يختلف الهواء في الكثافة، والحركة، والنقاوة. فالكثافة تختلف عكسياً بنسبة الارتفاع، فهي اذن على ساحل البحر اشد ارتفاعاً منها على قمة الجبل. ثم ان الكثافة تتغير قبل العاصفة فتنذر بالطقس الردىء. وهي تقاس بوحدات الملمتر من الضغط بواسطة البرومتر. وتختلف حركة الهواء من نسيم عليل الى رياح وعواصف واعصار. وتقاس هذه جميعها بواسطة آلة خاصة تلتقط الكيلومترات التي يقطعها الهواء في الساعة. وتضع محطات الطقس المنتشرة في مختلف انحاء العالم خرائط الرياح في اوقات مختلفة من النهار، فتتنبأ عن العواصف غير العادية مثلاً، قبل وقوعها بزمن بعيد. اما نقاوة الهواء فتقاس بتحليل الغازات التي توجد فيه تحليلا كيماويا وبالترشيح الفيزيكي الذي يلتقط الرطوبة او الغبار او ذرات الدخان في الهواء. وتقاس الجراثيم الموجودة في الهواء «بزرعها» في زجاجة مملوءه بالهواء وفيها بعض الطعام المعقم.

وتسبب كثافة الهواء كميته الموجودة فوقه والتي تلطفها وقتيا الرياح والعواصف. اما سبب حركة الهواء فهو في الدرجة الاولى الشمس التي تدفىء الارض في النهار بسرعة اكثر من البحر، فتحمل الهواء الساخن فوق الارض على التمدد فيرتفع ويمتص هواء البحر الذي يكون اكثر برودة واشد كثافة؛ وهذا ما يدفع النسيم العليل الى البحر بعد الظهر. اما في الليل فتبرد الارض بسرعة اكثر من البحر، فينقلب اتجاه الهواء العليل الى البحر. وتغير الحواجز الجبلية اتجاه هذه الرياح، كما ان الحالات الكهربائية اثناء الرعد تؤثر فيها ايضا وتنتج قذارة الهواء عن الرياح

التي تحمل اليه الرمال والغبار ولقاح النبات، ومن المعامل والبيوت التي تقذف دخانها فيه، مع بعض الغازات الاخرى .

ما تأثير الهواء على الانسان علاوة على تجهيزه بالاوكسجين، فهو انه يبخر الرطوبة فتبرد السطح الرطب كبشرة جسم الانسان، ويحرك الغيوم والامطار، وينقل اللقاح من نبات الى آخر، ويبعث القوة لتسيير الآلات الصناعية والطائرات، ويزود الانسان بكثير من المنافع اهمها مادتا النيتروجين والاكسوجين. والى ما هنالك مما لا حاجة الى ذكره .

علاقة الحرارة بالانسان

تقيس الحرارة درجة الحماوة ؛ والحماوة نوع من الطاقة ذات موجة اقصر قليلا من موجات الراديو واطول قليلا من الطرف الاحمر في مركب الوان النور . وتقاس الحراره بطول موجتها او بعدد موجاتها في الثانية، وبوحدات خاصة تدعى « الكلوري » ، وبوحدات الحرارة البريطانية، وبموازين الحرارة التي تسجل الدرجة المئوية بتمدد خط من الزئبق .

ان مبعث الحرارة على الارض هي الشمس؛ ولما كانت الارض تدور يومياً وتنحرف سنوياً ، فان اتجاه اشعة الشمس اليها يتغير ويتبدل ، فيسبب ارتفاع الحرارة في النهار وايام الصيف وانخفاضها في الليل وايام الشتاء. اما الاماكن الاكثر حرارة والتي تظهر حرارتها في البراكين والمواد المحترقة على سطح الارض، فتبعث تغيرات محلية ثانوية . وليست هذه سوى حرارة من الشمس مخزونة في الارض لتنطلق بطرق شاذة فيما بعد. اما درجة الحرارة فتتناسب عكسياً مع ارتفاع الارض وطرديا مع عرضها .

ان تأثير الحرارة على الانسان شديد جداً . فهي تكفل له الحياة وتجهزه بالطاقة على الحركة، اذ يحتفظ جسمه بحرارة داخلية دائمة قدرها ٣٧ درجة ان ارتفعت او انخفضت بمقدار خمس درجات سببت له الموت . ولقد ثبت بالاختبار ان الحرارة المتبدلة يوما عن يوم وفصلا عن فصل تنشط المرء وتحركه اكثر من

الحرارة الثابتة . فمدينة نيويورك، بطقسها المتبدل، افعل في بعث النشاط في المرء من طقس ثابت كطقس مصر . وحرارة الشمس هي السبب الاساسي في التبخر واحداث الامطار واعادة توزيع المياه؛ وهي السبب الاساسي ايضا الرياح ونمو النباتات والحيوانات وكثير من الحدوثات في محيطنا . فلن يستطيع الانسان ان يعيش الا موقتا ونادراً حيثما لا تتوفر الحرارة الكافية ، كما هي الحال في المناطق المتجمدة وفوق الثلوج على الجبال . كما ان انواع الحاصلات وانواع الحيوانات تختلف باختلاف الحرارة السنوية .

ولكي يسيطر الانسان على الحرارة يحمي نفسه من البرد بأكل اللحوم والشحوم وغير ذلك من الاطعمة التي تولد الحرارة ، وبارتداء الملابس الدافئة ، وبناء البيوت وايقاد النيران . كما يستطيع ان يرفع درجة الحرارة بالتفاعل الكيماوي او بالمجاري الكهربائية، وان يخفضها باستعمال الثلج الطبيعي او المصطنع . اما ارتفاع درجة الحرارة فينضج الاكل ويقتل الجراثيم ويبعث كثيراً من التفاعلات الكيماوية في الكيمياء الصناعية .

وهنالك انواع اخرى من الطاقة في محيط الانسان غير الحماوة، فتستحضر مثلا بعض انواع الطاقة الاشعاعية بطريقة اصطناعية فقط مثل امواج الراديو واشعة اكس . ولا تزال بعض الاشعة الاخرى مثل الاشعة «الكورية» مجهولة الاثر . وهنالك اشعة اخرى هامة هي امواج النور التي تتراوح بين اطول الامواج التي تكون الطرف الاحمر من مركب الالوان وقوس القزح ، واقصر الامواج الكائنة في الطرف البنفسجي .

وهكذا نرى ما للحرارة من عظيم التأثير في حياة الانسان ، عدا النور الذي تولده هذه الحرارة، والذي لا يخفى تأثيره في اعطاء البصر ونمو النباتات التي تؤلف مادة اساسية لغذاء الانسان .

علاقة النبات والحيوان بالانسان

ولننتقل الان من مظاهر الايكولوجيا الفيزيكية الى المظاهر البيولوجية . ان

علماء البيولوجيا يقسمون الاحياء الى مملكتي النبات والحيوان – والنباتات عادة ذات اوراق خضراء ، وهي ثابتة لا تتنقل وتقتات من املاح الارض التي تذوب في المياه ومن الغازات التي تستمدها من الهواء؛ اما الحيوانات فتتنقل وهي اكثر تعقيداً وتقتات من النباتات او الحيوانات الاخرى . وتصنف كلا المملكتين الى اصناف فرعية متدرجة حتى تبلغ الوف الاجناس من النباتات او الحيوانات . ونستطيع ان نعرف توزع كل جنس وكثافته كما نلاحظ عدد افراد الناس في كل بقعة من الارض . اما في الحاصلات فوحدة القياس هي الحجم او الوزن الحاصل من كل هكتار من الارض .

ان العوامل التي تؤثر في توزيع النبات والحيوان على سطح الارض هي العوامل الايكولوجية التي ذكرناها اعلاه باضافة عاملي النقل والزراعة ، وهما من صنع الانسان . وتحدد محتويات التربة كمية جنس النبات والى حد ما نوعه؛ وتحدد كمية المياه كثافة النمو ووفرته او عدمه كما هي الحال في الصحراء بين الشام وبغداد . ويساعد الهواء على تغذية النباتات والحيوانات كما تساعد الرياح على تلقيح النباتات ونقلها . اما الحرارة والنور فهما عنصران اساسيان للحياة ، والحياة لا توجد الا في نطاق ضيق من الحرارة يتراوح بين حوالي ١٠٠ درجة سنتغريد من بين آلاف الدرجات الممكنة ، مبتدأة من درجة الصفر اي عدم وجود الحرارة البتة ، حتى تبلغ آلاف الدرجات من الحرارة الموجودة داخل النجوم كما في شمسنا . وتتكيف بعض النباتات والحيوانات الى اقصى اطراف هذه الحالات من الحرارة . فالغورا مثلاً لا تعيش الا في الغابات الحارة بينما لا يعيش الدب القطبي الا وسط الثلج والجليد . وينبت الصبير في الصحراء الجافة بينما يحتاج الموز الى المياه الغزيرة؛ اما الحنطة فتنمو في حالة متوسطة بين هذين الطرفين . ونجد ان الكلب هو الحيوان الاليف الوحيد الذي يعيش حتماً مع الانسان على القارات الست . ولم تكن هنالك خيول في الاميركتين عندما اكتشفها كولومبس ، كما انه لم يكن في استراليا عند اكتشافها خيول او قطط او مواشي كالبقر والغنم . وقد اخذ الانسان مؤخراً ينقل اجناس النباتات والحيوانات من بلاد الى اخرى فازداد توزعها ازدياداً واسعاً .

ثم ان النباتات والحيوانات تزود الانسان بالطعام واللباس وشتى المواد كالجلد والقماش والمواد العضوية الاخرى . ومن الحيوانات ما هو مفيد للانسان، كانواع الاليفة، ومنها ما هو ليس بمفيد، كالانواع الشرسة ومن جملتها يمكننا ان نعد الجراد والبعوض والذباب والطفيليات الفتاكة والجراثيم المسببة للامراض .

وقد كان الانسان الابتدائي ضعيف السيطرة على النبات والحيوان . لكنه لم يلبث ان تعلم كيف يزرع بعض النباتات ويدجن بعض الحيوانات ويعتني بها، فاستفاد من صوفها وحليبها ولحمها وعظمها . وقد تعلم حديثاً ان ينمي اجناساً جديدة وان يحسن زراعته بشتى الوسائل الاصطناعية العلمية، كما تعلم ان يسيطر عليها سيطرة قصوى وان يحد من اضرارها .

ولعل اهم ما يسجله الانسان الحديث من ضروب السيطرة على النبات هو اولا، تركيب الاطعمة كيماويا من المواد غير العضوية تركيباً مباشراً . فالسكر مثلا يمكن لنا صنعه من غاز ثاني اوكسيد الكربون والماء ونور الشمس . واذا كانت تكاليف هذا النوع من السكر لا تزال الان باهظة بحيث يستحيل ان يزاحم السكر المستخرج من قصب السكر وسواه، الا ان هذه الصناعة الكيماوية آخذة في النمو . وثانياً زراعة النبات في الماء . وهذا يتم بغرس البذور في محاليل تحتوي عين الاملاح الكيماوية التي يحتاج اليها النبات . وتنمو النباتات بهذه الطريقة نمواً سريعاً، فالحنطة مثلا تنمو من البذرة حتى النضوج بعشرة ايام، وبذلك يمكن اجتناء ٣٦ موسماً من حوض واحد في السنة الواحدة، كما انه من الممكن ايضاً جمع هذه النباتات مزدحمة في حوض واحد ما دامت كمية الغذاء كافية لها، بحيث انه من المستطاع مثلا غرس ما كنا نحتاج الى هكتار من الارض لغرسه، في حوض صغير لا يساوي جزءاً بسيطا من الهكتار . اما نوع الثمار الحاصلة من هذه الاحواض فيفوق النوع العادي بمراحل كثيرة . ان هذه الطريقة الاصطناعية تخول العائلة ان تحصل على معظم مواد طعامها في داخل بيتها . وبذلك تقل الحاجة الى الارض لاجل الزراعة فيزداد سكان المدن وربما بلغ عشرة اضعاف ما هو الآن . وقد تتحول

المزارع اذ ذاك الى معامل تشغل عمالها في اعداد المحاليل الزراعية وجمع الثمار وتوضيبها وشحنها. بيد ان تحقيق هذه الطريقة لا يزال في الوقت الحاضر صعباً، وذلك نظراً لان تكاليفه تفوق تكاليف الزراعة العادية تفوقاً يجعله غير قادر على المزاحمة التجارية الا في احوال خاصة، حيث يمكن الحصول على الاملاح اللازمة باثمان رخيصة كما في البحر الميت. ولذلك فانه من المحتمل ان يصبح هذا المكان مركزاً مزدحماً بالسكان كما اصبحت الحال بالاماكن الغنية بالفحم والحديد. وربما احدثت هذه الثورة الزراعية انقلاباً اجتماعياً اهم مما احدثته الثورة الصناعية في القرنين الماضيين.

خلاصة العلاقات بين الانسان والطبيعة

لقد لخصنا علاقات الانسان بمحيطه الطبيعي فحللنا العوامل الرئيسية، ووصفنا كيف يمكننا قياس توزع كل منها، ثم ذكرنا اسباب كل عامل وتأثيره على الانسان وما تعلمه الانسان حتى الان لكي يسيطر عليه كما يرغب ويتمنى. ويمكننا الان ان ننهي هذا البحث بمبدئين:

المبدأ الاول هو ان المحيط، وان كان يقرر ثقافة الانسان الى حد بعيد، فهو لا يقررها نهائياً. والدليل على ذلك هو اننا كثيراً ما نجد «ثقافات» مختلفة في محيط «واحد». ومما لا ريب فيه كذلك، ان هذا الحد البعيد الذي يساهم به المحيط المادي في تقرير ثقافة الانسان، يفقد أثره كلما اصبح في مقدور الانسان زيادة سيطرته على محيطه هذا، اي كلما تقدم في مضمار العلم. وهكذا يتضاعف أثر المحيط المادي، سواء كان فيزيكيا ام بيولوجياً، في تقرير ثقافة الانسان، لكي يقوى ويشتد أثر الآراء والمثل العليا في تقرير هذه الثقافة. وهذا يوصلنا الى المبدأ الثاني الذي نود استخلاصه من هذا البحث، وهو ان تفوق أثر المحيط الفكري في ثقافة الانسان، على اثر المحيط المادي، دليل لا يقبل الشك على اسبقية الفكر وعلى ان الفكر يسود الاشياء ويوجدها.

الفصل الواحد والثلاثون

البدو

غرضنا من هذا الفصل هو ان نصف ثقافة البدو القديمة ، وان نطرح المشكلة التي تثيرها في العالم المتحضر الحديث ، واخيرا أن نشير الى ما يجب ان تقوم به الحكومات العربية في هذا السبيل .

يصنف العرب الى بـدو وحضر . فالبدو هم سكان البادية ، والحضر هم سكان المدن . ولكل من هؤلاء مزاياه الخاصة وطرق معيشتة وموارده ومشاكله بالنسبة اليه وبالنسبة الى مجموع السكان .

ويقطن البدو الصحراء ، والصحراء متسع من الارض يقل فيه المطر ، وتكثر الرمال التي لا تصلح ، بغير الوسائل الاصطناعية الحديثة ، للزراعة . ولذلك كانت تربية الماشية هي المورد الاساسي الذي يعتمد عليه البدو في سبيل معيشتهم .

على ان تربية الماشية ، في أرض قاحلة كالصحراء ، يدفع البدو على الترحال من مكان الى آخر طلباً للكلأ . وهذا الترحـال اكسبهم بعض المزايا الخاصة ، كالالتفاف حول زعيم واحد ، وكالتمرس بجميع ضروب الفروسية والشجاعة . والى القارىء اهم العادات التي يجري عليها البدو ، واهم المزايا التي يتصفون بها منذ القدم .

الزواج والطلاق

يتزوج البدو وهم في سن مبكرة اي قبل ان يبلغوا العشرين من عمرهم . فكل والد يتوق ان يرى ابنه متزوجاً ، فحالما يبلغ السادس عشرة من عمره يحين اوان زواجه ، وتتجه افكار الشاب نحو اختيار رفيقة حياته . ومن مفـاخر البدو

انهم يسمحون لبناتهم بقبول طالب الزواج او رفضه، وهم يفتخرون بهذه العادة على اهل المدن والقرى .

واصعب ما في طلب الزواج هو كمية المهر الذي سيقدمه العريس، ولا يدفع هذا المهر عادة نقداً وانما يدفع عدداً من المواشي واحياناً بعضاً من الحلى والمجوهرات التي يتميز بتقديمها الاغنياء فقط .

واهم صفة تستحب في المرأة هي قدرتها على انجاز واجباتها البيتية التي تشتمل في الواقع على اعداد جميع حاجيات العائلة . اما اهم ما يتطلب من الرجل، فهو حماية بيته وممتلكاته والدفاع عنها.

ولا حاجة لاقامة المراسيم باحتفال الزواج، بل توجه بعض الاسئلة القليلة بحضور اهل العريسين فيجاب عليها وينتهي العقد. ثم يولم العريس وليمة يوم الزواج بينما تنتقل العروس الى خيمة امه حيث يلتقي بها .

واذا نشأ خلاف بين الزوج والزوجة، فيستطيع الاول ان يطلق زوجته. ومن الاسباب المبررة لذلك عقم الزوجة. واذا كان للزوجة شكوى هامة ضد زوجها، تترك خيمته وتلجأ الى خيمة قريب او صديق فتدخل تحت حماية زوجته ثم يدعى والد الزوجة فيأتي ؛ وهنا اما ان يجبر ابنته على العودة الى بيت زوجها، او ان يحاول الاصلاح والتوفيق بينهما . فاذا فشل واصرت الزوجة على الطلاق، وجب اذ ذاك على اهلها ان يعيدوا الى الزوج جميع المهر الذي اخذوه . وبعد ذلك يحق لها ان تتزوج مرة ثانية اذا لم تكن حاملا .

واذا طلق الزوج زوجته بدون سبب شرعي كسوء السلوك او العقر مثلا، فيحق لها ان تأخذ معها حمل جمل كامل من املاك زوجها وجميع ما حملته له يوم زواجها .

المرض والموت

« الموت والحياة في يد الله » هكذا يقوله البدوي . وهذا الاعتقاد هو الذي يقرر موقفهم تجاه امراض الصحراء .

ويتحمل البدو الآلام بصبر. وقد اعتادوا منذ شبابهم على الآلام الجسمية. اما الملاريا فلا يصابون بها كثيراً، كما ان الاوبئة قليلة في الوقت الحاضر، رغم ان الجدري قد فتك في الماضي بكثير من القبائل. وعندما يظهر الجدري بشكل حاد يعرفه البدو ويعالجونه بطريقة تثبت ان العرب يفهمون ضرورة الانعزال منعاً للعدوى، فينتقل المريض الى مكان بعيد عن المخيم ثم يترك، ومعه كمية من الطعام والشراب وبرفقته بدوي قد اصيب بالجدري. فاذا شفي المريض غسل نفسه والنعجة التي جهزته بالحليب او ربما قتلها محافظة على السلامة، ثم حرق ملابسه او يغسلها بماء غال.

وعندما يشتد المرض على احدهم ويصبح في حالة الخطر يوقظ ذلك في عشيرته رغبة يائسة في معالجته، فيضرمون نارا في الرمال ثم يجرفون الجمر ويضعون المريض مكان النار حتى يعرق فيطرد المرض منه.

وكثيراً ما يأتي «الكي» بجديد حسام او بطرق اخرى مماثلة، بفوائد جلى. وهو شائع الاستعمال بين سكان الصحراء.

ومن حسن الحظ ان البدو شعب حسنو الصحة، فطعامهم البسيط وحياتهم في الفضاء والهواء الطلق، تساعدهم على التغلب على الامراض والاوجاع العادية. اما الجراح الخطرة فتشفى مع الايام دون ما عناية خاصة سوى عناية الحريم والراحة في البيت.

ويبعث موت احد البدو في المخيم غما وحزنا اكثر مما يسببه موته في ساحة الغزو، ويكفن الميت بقماش بسيطة سواء كان اميراً ام رجلا عادياً، ثم يدفن في حفرة ترصف فوقها الحجارة لكي تحفظها من الطيور والحيوانات. ويغرس حجر قرب الرأس ليدل عليه.

الغزو والحرب

تقوم جميع عادات البدو وقوانينهم وانظمتهم في كل قبيلة على فكرة المحافظة

على قواتهم الحربية. وتخضع عقلية البدوي ومواقفه تجاه حريمه وحيواناته والحياة بصورة عامة، لهذه الفكرة الرئيسية. ولما كانت بين بعض القبائل المجاورة المنتشرة في الصحراء صداقات ومحالفات، وبين البعض الاخر عداوات وثارات قديمة جدا، كان من الطبيعي ان تتوقف سلامة القبيلة على قواتها الحربية.

وعندما ينوي البدو القيام بغزوة، تؤخذ الاستعدادات وتوضع الخطط حالا؛ ثم يعين المشتركون في الغارة قائدا لهم يكون عادة من عائلة الشيخ يختارونه لانه عارف بتلك المحلة او لانه قام بخدمات جلى في هذا المضمار.

ان نظام القبائل الاجتماعي في الصحراء مزيج غريب من الاقطاعية والديموقراطية. فالشيخ الحاكم هو عادة من العائلة المتزعمة في القبيلة التي تقرر ان يحكم القبيلة من كانوا من ابنائها. اما العادة المتبعة فهي ان يحكم ابن الشيخ الاكبر فيحل محل والده؛ ولكن ذلك ليس شرطاً. فاذا كان الوارث ضعيفاً محتقراً بين القبيلة انتقل الحكم الى اخيه او احد ابناء اعمامه ويتم ذلك برضى الجميع.

واما الصفات الضرورية لزعيم القبيلة والتي تضمن له النجاح فهي الشجاعة والغنى والكرم والعدالة. ويخاطب الشيخ عادة باسمه الاول، واذا كان المخاطب اكبر منه سناً فيخاطبه بدون لقب شرف، وبشيء من عدم الكلفة منادياً اياه: يا ابا فلان (مسمياً ابنه الاكبر). كقولهم ابو علي للملك حسين.

ويحذر الشيخ دائماً ان لا يسيء الى الرأي العام في القبيلة او الى العادات والتقاليد المعترف بها في الصحراء.

مجلس البدو

على الرغم من ان اهل القبيلة يعيشون في اتفاق ووئام فالبدو شعب «متحزب» والخلافات تنشأ بينهم يومياً، فتحال هذه الخلافات في الصباح الى المجلس، «مجلس الشيوخ» او المحكمة العمومية، حيث يعرض البدي قضيته، فيدافع انصار كل بدوي عن قضية صديقه بكثير من الضجة والحماسة، ولكل من حضر حق اسداء النصح، ومحكمة البدو هي محكمة حرة وملك الجميع. ثم يجتمع الشيخ بعد

استماع القضية، بالشيوخ الاخرين والمتقدمين في القبيلة فيتخذون حكمهم بدون تحيز او رشوة او تأخر وحكمهم مبرم نافذ لا يقبل الاستئناف .

ويدفع البدوي ما يترتب عليه من الغرامات بحسب قرار المجلس والا ينفى من القبيلة ويصادر الشيخ مواشيه .

اما هؤلاء الشيوخ فنادراً ما يخطئون ذلك لان بيئتهم صغيرة وكل منهم يعرف كل شيء عن حياة الاخرين واعمالهم، فيستطيع الشيخ بجلسة واحدة ان يحل اي نزاع الا اذا تغيب احد الشهود فيضطر اذ ذاك الى تأجيل الحكم لجلسة اخرى .

ضيافة البدو

من المميزات الاساسية في حياة الصحراء، حبهم للضيافة، والقول السائد بين البدو هو ان الله قد وهبنا هذه الخيرات فهي للجميع. لقد تبدلت كل ناحية من نواحي الحياة البشرية مع الزمن وتبدلت ظروف الحياة في كل انحاء العالم الا في الصحراء . وها هي الضيافة القديمة لا تزال قائمة وسط الصحراء بين التلال الصخرية والسهول المجدبة، تذكر بضيافة عهد الاباء (البطاركة) القدماء تلك الضيافة الوقورة واليد السخية .

فان جاء الضيف للمفاوضة بشروط صلح او لترتيب فدية عن قتل اثناء الغزو او الاخذ بالثأر، فلا يسأل عن مهمته الا بعد ان يتناول الخبز والملح. فلا تبحث المسائل الهامة قبل العشاء البتة بل تؤجل الى ما بعد تناول الطعام او ربما حتى الصباح على الرغم من تشوق الطرفين الى طرحها على بساط البحث والوصول الى حلها .

اخلاق البدو

تختلف القبائل كثيرا بالاخلاق والسمعة، فبعضها حسن السمعة قوي الشكيمة والبعض الاخر على عكس ذلك.

ولقد قال الاستاذ هنري لامنس المستشرق المشهور، انه يستحيل علينا ان نحسب البدوي متوحشاً بالرغم من مظهره الخشن . فان حزمه وثباته وسرعة خاطره

وقدرته على استقبال الضيف كل ذلك يجعلك تشعر بانه « جنتلمان » بالفطرة. واذا وضعته في ظروف ملائمة فبامكانه ان يقتبس بسرعة فائقة ارقى تطورات المدنية الحديثة. وقد اعد البدو للعالم ملوكاً لبابل، ومتشرعين مثل حمورابي، وامبراطوراً لروما، مثل فيليب العربي، كما أعدوا امثال زنوبيا التي حكمت الشرق العربي برهة من الزمن وقد بنى هذا العربي تدمر والبتراء وسيطر على تجارة داخل آسيا. واذا سلمنا ان اللغة تعكس عقلية الشعب الذي ينطق بها، فتدل اللغة العربية على ان البدوي ليس متوحشاً، فقواعد لغته غاية في الدقة ولغته غنية بالمصطلحات والمفردات المدهشة

ويقول الاستاذ « لامنس » عن اخلاق البدوي، انه يحب الفردية، وذلك طبيعي، لان الصحراء القفرة حيث يعيش تجعله منعزلا عن الغرباء. وهذه الفزلة تزيد في فرديته ولكنها لا تغير بشخصيته.

ان الواجب الاول والاهم عند البدوي هو الاخلاص لعشيرته وفي الواقع ان شعوره القوي بانه احد افراد عشيرة لا يفارقه ابداً.

والواجب الثاني هو امانته لرئيسه، شيخ القبيلة، وغيره من الرؤساء الذين قد يترأسون عليه في غارة او موقعة او مناسبات اخري. وقد يدفعه اخلاصه الى قبيلته الى مناصرة منافس لرئيسه الشيخ، وكثيرا ما تنشق القبيلة في ظروف كهذه ولكن انشقاقها لا يدوم اكثر من بضع سنوات على الاكثر.

ان هذين الواجبين هما اساس حياة القبائل البدوية.

وهنالك واجبات اخرى في الصحراء نستطيع ان نسميها واجبات نحو الانسانية، ويقويها في البدوي شعوره باحترام النفس واعتبار نفسه عضوا محترما في المجتمع.

واول هذه الواجبات العامة هو ضرورة الضيافة والكرم، وحماية كل من يستضاف، وتوطيد روابط الصداقه معه طالما انه قد شاركه في « الخبز والملح ».

التغيرات الحديثة في حياة البدو

لن يقطن الصحراء احد غير البدو، الا اذا انتشر الري واصبحت الصحراء

القاحلة ارضاً، ولكن مما لا ريب فيه ان الاحوال الصحية ستتحسن كثيرا في المستقبل .

واهم من ذلك امكانيات تحسين نظامهم الاقتصادي، فعليهم ان يتعلموا تنظيم تجارتهم على اساس تعاوني، حتى لا يبقوا كما هم الان تحت رحمة التجار الظالمين او المرابين الطماعين .

وفي المستقبل القريب سيستغنون عن نقل منتوجاتهم الى المدينة على ظهور الجمال فينقلونها بواسطة سيارات النقل ويضمنون بذلك السرعة والتوفير، وتنقل الاغنام الان بواسطة هذه السيارات التي تسير في يوم واحد ما كانت تسيره في اسبوعين، والمكان الوحيد الصالح لسير السيارات دون الحاجة الى بناء الطرق هو الصحراء .

وعندما تصبح احوال النقل والسفر تحت سيطرة الحكومة، يصبح في مقدور تجار المدن ان يذهبوا هم انفسهم الى مخيمات البدو ويعقدوا صفقات البيع .

وبقليل من التحسينات الاقتصادية تزداد موارد البدو؛ واذا ما امتدت اليهم الوسائل الحديثه اصبح بامكانهم ان يستثمروا موارد الصحراء الطبيعية، وربما كانت اولى هذه التحسينات الحديثة استثمارهم آبار المياه بطرق علمية اكثر من الآن .

وستكون السكك الحديدية والسيارات والطيارات عوامل مهمة في مستقبل القبائل البدوية ولا يستطيع احد ان يتنبأ بما يخبىء لهم الدهر .

فالسيارات تمكن الجنود وجباة الضرائب وموظفي الحكومة من قطع الصحراء بسرعة فيلحقون بالقبيلة أنى تكون. كما تستطيع الطيارة ان تكتشف مقر اية قبيلة . ويعتقد شيخ قبائل شمر في شمال العراق، وهي من اكبر القبائل العربية، ان الغزو سيبطل ثم يتساءل ما معنى استمرارنا في القتال والقضاء على اخواننا وبني جنسنا؟ ويفتخر ان قبائله لم تشن غزوا منذ عدة سنوات . وقد وافق جلالة ابن السعود على فكرة منع الغزو، فمنعها في بلاده .

والوسيلة الاخرى التي تستطيع بها الحكومة ان تسيطر على البدو هي

تقوية الآبار ومصادر المياه؛ فالبدوي يضطر الى النزول عند رغبة من كان مسيطراً على المياه .

ان السبب الرئيسي للغزو هو قلة الطعام. فاذا ابطل الغزو ماذا يحدث للقبائل عندما تتهددها المجاعة بسبب تزاحم السكان وقلة المياه ؟ ربما اضطروا الى المهاجرة والاقامة باماكن معينة، بل ربما يصبح البدو فلاحين .

ولا ريب في ان النقل بالسيارات قد بدأ يؤثر على البدو، ففي كثير من المناطق كان البدو يؤجرون جمالهم لنقل الحنطة الى اسواق المدن، اما الان فتنقل الحنطة بسيارات الشحن والقطارات. وقد كان البدوي في الماضي لا يعرف الا حياة الصحراء فتكيف على حبها وألفها، اما الان فاصبح بامكانه، بفضل وسائل النقل السريعة الرخيصة ان يزور المدن الكبيرة حيث يتعلم عدم الرضا بشظف العيش ومتاعبه. ويتأثر البدوي البسيط، في اغلب الاحيان، بمفاسد المدينة وشرورها مثل الفسق والشرب والمقامرة والتمادي في الاكل وتناول المخدرات. اما الذين نشأوا في المدينة فهم غالباً اقدر على تجنب هذه التجارب من الذين يرتمون في احضانها دفعة واحدة. ويستطيع التجار اليوم ان يحملوا بضائعهم بسهولة الى مقر القبائل فتزداد حاجة اهل القبائل رجالا ونساء الى مستحدثات المدينة. فاليوم تجد مثلاً ان الاحذية ذات النعال المصنوعة من مطاط السيارات تملأ الصحراء بينما كان سكانها حفاة من قبل. وتجد النظارات السوداء، كما تجد سيارات الشيوخ القوية التي كثيراً مايستعملونها في الغزو بدلا من الخيل العربية الاصيلة. اتكون نتيجة مزج حياة الصحراء بحياة المدن خلق شعب لا يستطيع ان يتكيف تكيفا تاما لاي من الحياتين فيفقد بذلك قسما من سعادته ؟

وها ان اولاد بعض الشيوخ يرسلون غالباً الى المدارس واحيانا كثيرة الى مدارس اجنبية، فيتعلمون لغات جديدة وديانات جديدة، ويتعرفون الى مستويات مختلفة من المعيشة؛ فمن الاستحمام بالدوش، والى الاكل بالشوكة والملعقة، الى النوم على فراش وثير، الى ارتداء الملابس الفرنجية، الى قراءة الجرائد والتمتع بدور

السينما والتحدث الى الناس، ثم الى اكل الفواكه والخضر وما اشبه ذلك من امور المدينة. وعندما يرجعون الى قبائلهم يفضل بعضهم العيش في بيوت المدينة اكثر من العيش في الخيم، واذا ما اجتذب زعماء القبائل الى المدن فماذا تصنع قبائلهم ؟

ولا ريب في انه بازدياد انتشار المدنية وتأثير الفكر الخارجي والاتصالات الخارجية بالبدو، اصبح تطور حياتهم امراً محتماً، ولكن الصحراء نفسها لا تزال كما كانت منذ الوف السنين ولا يزال قاطنها يعيش في خيمته التي صنعها من شعر الماعز والجمال، ولا تزال اغنامه ومواشيه ترعى بالطريقة نفسها وفي الاماكن نفسها، كما كانت دائماً . . . ولكن كم سيدوم ذلك يا ترى ؟

الفصل الثاني والثلاثون

مشاكل الريف

ان الغاية من هذا الفصل هي توجيه اهتمام القارىء العربي الى اهمية الريف في حياة امته، فيفتح عينيه على ما يتخبط فيه من مشاكل .

اهمية الريف

قامت حكومة فلسطين منذ بضع سنوات باجراء احصاء دقيق للسكان فكان مما استنتجناه من ذلك الاحصاء ان سكان الريف هم الاكثرية في البلاد اذ يبلغون حوالى ٧٠ ٪. ويصدق الامر نفسه على شرق الاردن، والعراق، وسوريا، ولبنان .

ان اهمية الريف في الشرق العربي بالغة الاثر في حياة سكانه. ذلك لانه، وهو الذي يضم القسم الاكبر من هؤلاء السكان، قد جعل من بلدان الشرق العربي بلداناً زراعية قبل كل شيء . ومعنى ذلك ان ثروة هذه البلاد تتوقف على الفلاح في الاساس، اما الصناعة فلا يمكن تنشيطها جدا، لان كثيرا من المواد الاولية الضرورية للصناعة الحديثة مفقودة في هذه البلدان. ولا ريب ايضا في ان اعمالنا التجارية وتقدمها يتوقف كليا على نجاح الفلاح، ذلك لان المنتوجات الزراعية هي التي تملأ الاسواق كما ان الفلاح هو الذي يستهلك معظم المنتوجات الصناعية مباشرة او غير مباشرة. ولقد اعتمدت سوريا ولبنان وفلسطين اعتماداً واسعاً خلال الخمسين سنة الماضية على ما ارسل اليها من اموال ابنائها المهاجرين، ولكننا نشك كثيراً فيما اذا كان هذا المورد المالي قد ساعد اكثر مما اعاق نمو الحياة الاقتصادية وتأسيسها

على دعائم قوية راسخة في هذه البلدان . فالنقد الذي ارسل الينا من الغرب قد اغرانا واستهوانا فاوقعنا في التجربة . ان ما يقرب من ثلث سكان الشرق العربي قد هاجروا الان وهم يعملون ويعيشون في بلاد اجنبية . ويمثل هؤلاء نخبة الشعب . اما ما يرسلونه الى بلادهم الان ليس الا جزءا مما تجنيه منهم البلاد التي نزحوا اليها، ومما كانت تجنيه بلادهم لو بقوا فيها . لقد اهملت اراضي هذه البلاد الخصبة ومواردها الطبيعية اهمالا مؤسفاً بسبب هذه الهجرة واقبالنا الجنوني عليها . ونعتقد ان الهجرة ليست الا عاملا مسكناً للمشكلة الاقتصادية في البلاد، فمن الضروري ان نوجه انتباهنا شطر الفلاح والارض لكي نستثمر ثروتنا الدائمة الحقيقية .

ثم ان هنالك اهمية اخرى للحياة الريفية . ان حب الانسان للارض ونزوعه الى الطبيعة غريزة متأصلة في اعماقه، فهي اذن عامل اساسي في تكوين شخصيته وبعث حيويته .

أمن العجب اذن ان نلجأ الى الحياة القروية، وهي اقرب الى الطبيعة، اذا ما شئنا ان نخلق شخصيات قوية جديرة بالحياة؟ أمن العجب ايضاً ان نبعث حياة القرية من جديد اذا ما شئنا خلق امة قوية صحيحة ؟

ان حركة جميلة في سبيل البناء القومي آخذة في التأهب والاستعداد للنمو في مختلف بلدان الشرق العربي . فقد اخذت هذه البلاد تتحسس بالقومية، وتشعر بان لكل منها كياناً مستقلا وثقافة خاصة واهدافاً معينة . وقد قطعت بعض هذه البلدان شوطاً بعيداً بينما لا يزال البعض الآخر في بدء الشوط . الا ان جميع هذه البلدان تجابه مشكلة واحدة وهي انعاش الريف وتجديد بنائه . فهي قد ادركت انه من المستحيل ان نسير بالامة الى الامام ونترك القرية في المؤخرة .

ما هي المشكلة الريفية ؟ وما هي مشاكل الحياة القروية في الشرق العربي ؟ كيف نستطيع ان نحقق التقدم الريفي، بحيث يتسنى له السير في ركاب التقدم القومي ؟

يجدر بنا، قبل ان نبدأ ببحث المشكلة الريفية في الشرق العربي، ان نلقي فوجه ملاحظة عامة على المشكلة الريفية في العالم عامة، اذ بذلك نتحقق اولا ان المشكلة الريفية ليست مشكلة الشرق العربي فحسب بل هي مشكلة عالمية. فقد جابهت معظم بلدان العالم المشكلة الريفية بشكل من الاشكال اثناء نموها وتطورها، فجابهتها الولايات المتحدة الاميركية في القسم الاخير من القرن الماضي حين تفاقم امرها وعمت البلاد. وتجلت هذه المشكلة في زحف اهل القرى والريف الى المدن، وكان السبب الاساسي لذلك تحول البلاد الى الصناعة بسرعة فائقة، هذه الصناعة التي خلقت الحاجة الى اليد العاملة. فاتسعت المدن وانكمشت القرى، مما حمل الحكومة على مجابهة الموقف، اولا بالمسكنات، ثم بالعلاج الاساسي، اذ عمدت الى تحسين حالة الريف وجعل المعيشة فيه رضية هانئة. ولنا في ذلك امثلة عديدة في بلدان زراعية اخرى كالدينمرك وهولندا وسواهما.

ان المشكلة الريفية ليست مشكلة بسيطة بل هي كثيرة التعقيد. فهي تتصل بنواح متشابكة عدة من الحياة الاجتماعية. فالقروية، على العموم، تشكو من العزلة عن مراكز الحركة والنشاط في البلاد، كما تشكو من قلة التعاون والاتفاق بين اهاليها. وهي فوق ذلك تعاني مرارة الهجرة الى الخارج او النزوح الى المدن. ولقد كان في مجابهة هذه المشكلة المتعددة النواحي، حلول عدة؛ منها ما يشدد على ادخال فكرة التعاون وبثها بين القرويين عن طريق التربية؛ ومنها ما يشدد على تعميم الوسائل الصحية التي من شأنها مكافحة الامراض والاوبئة؛ ومنها اخيراً، ما شدد على مساعدة القرويين بالمال لكي لا يزحوا تحت اعباء الفقر والدين اللذين يحملانهم على الهجرة او الاستسلام. والحق، ان المشكلة الريفية تتكون من هذه العوامل وكثير غيرها مجتمعة. وبعبارة موجزة: «ان المشكلة الريفية هي مشكلة رفع مستوى الحياة في القرية من جميع نواحيها بحيث نقضي على الفواصل التي تفرق بين المجتمع الريفي والمجتمع المدني، وذلك عن طريق تحسين احوال المعيشة في القرية من جهة واقامة التوازن العادل بين مستوى المعيشة في المدينة ومستواه في القرية من جهة اخرى». فكيف يتم لنا ذلك؟ انه يتم، كما اشرنا سابقاً، بمعالجة النواحي الاربعة

الرئيسية للمشكلة الريفية، وهي: الصحة، والاقتصاد، والتربية، والاستجمام.

المشكلة الصحية في الريف

ان المشكلة الصحية الريفية هي مشكلة تجهيز الريف بالحاجات المادية، كالمياه النقية الكافية، والبيوت الصحية، والطعام الصحي؛ وهي ايضاً مشكلة تعليم اهل القرية العادات الصحية، وتجهيزهم بالعناية الطبية. ومما يؤسف له ان معظم اطبائنا يتزاحمون في المدن مهملين القرى، حيث الحاجة اليهم أشد.

ان التضحية في سبيل المجموع والشعور بالمسؤولية الاجتماعية ليسا، مع الاسف، على شيء من الاهمية في نظر شبابنا المتعلمين.

المشكلة الاقتصادية في الريف

ان المرء لا يستطيع ان يتمتع بالحياة ما لم تكن صحته جيدة، كما ان المرء لا يستطيع أن يحافظ على مستوى رفيع من الصحة الجيدة والمعيشة الحسنة ما لم يكن يتمتع ببحبوحة من العيش. وهذا يثبت الحقيقة الهامة التي اشرنا اليها آنفاً، وهي ان المشاكل الريفية المختلفة متماسكة ومترابطة بعضها ببعض بحيث يكون كل واحد منها علة ونتيجة في آن واحد.

لقد عينت الحكومة الفلسطينية منذ بضع سنوات لجنة لتدريس الاحوال الاقتصادية في القرى العربية الفلسطينية درساً دقيقاً. فاظهر التقرير النهائي الذي قدمته اللجنة ان الدخل السنوي الصافي للفلاح المتوسط الذي يملك حوالي مئة دنم من الارض يبلغ حوالي ١١٠٥ احدى عشرة ونصف جنيهاً. وعلى الفلاح ان يدفع من هذا الدخل الضئيل نفقات طعام ومأوى وكسوة عائلته التي تتألف من خمسة اوستة افراد... وليس دخل الفلاح في شرق الاردن وسوريا والعراق باكثر من ذلك. وهذا ما يشهد له مستوى الفلاح الصحي الواطي، واحواله العائلية الرديئة، وملابسه، الرثة وغذاؤه الناقص.

ثم ان هنالك مسألة الدين. فالدين، عدا انه يدفع الفلاح الى هوة الافلاس

المادي، فهو يؤثر على معنوياته تأثيراً بعيداً يجعله عبداً للدائن، ويفقده الرجاء و الثقة بالنفس .

وهنالك ايضاً مسألة الضرائب. وليس في وسعنا الان الخوض في بحث هذه المسألة مفصلاً بل نكتفي بذكر النقاط الاساسية. ان الضرائب الرئيسية التي يدفعها الفلاح هي اولا: (العشر) اي ضريبة الانتاج. وثانياً الميرة او ضريبة الاملاك. وثالثاً ضريبة الحيوانات. ورابعاً ضريبة الطرقات. وتختلف قيمة هذه الضرائب في مختلف بلدان الشرق العربي. بيد انها، مهما كانت قيمتها، ترهق الفلاح وتستأثر بجزء كبير من دخله السنوي .

ولعل اهم نواحي المشكلة الاقتصادية عسفاً وجوراً، هي مسألة نظام الاراضي، هذا النظام الذي لا يزال اقطاعياً من جهة، ومشاعاً من جهة اخرى .

ونعني بالمشاع ملكية اهل القرية للاراضي بطريقة مشتركة ليس لاي فرد حق التصرف بها. ان هذا النظام يمثل اسوأ ما في النظام الاشتراكي، واسوأ ما في نظام التملك الفردي، بل انه تشويه لهما . فالفلاح لا يشعر بمسؤولية نحو اراضيه كما لو كانت تلك الاراضي ملكه الخاص. وهو لا يستطيع ان يدرك الحقيقة بانه يعمل لاجل المجموع وانه بالتالي يكسب هو نفسه من نتائج هذا العمل. ولا بد لنا، قبل الانتهاء من المشكلة الاقتصادية في الريف، من الاتيان على ذكر ناحيتين هامتين منها، هي مسألة الصناعات الزراعية والاعمال اليدوية، ومسألة استخدام الآلات الزراعية ووسائلها الحديثة .

ان الاعمال اليدوية والصناعات الزراعية التي يمكن ادخالها الى القرية او تنشيطها اذا كانت موجودة فهي صناعة الحرير، والحياكة والحدادة، والنجارة، وحياكة الحصر والسلال، والبناء، وشغل الصنارة، وحفظ الفاكهة وما الى ذلك. اما الغاية التي نصيبها من وراء هذه الصناعات والاعمال، فهي انها تعين الفلاح على زيادة موارد رزقه، كما تعينه على قضاء اوقات فراغه فيما هو مثمر ومفيد .

المشكلة التربوية في الريف

ان اول ما يسترعي انتباهنا من هذه المشكلة، هو النسبة المئوية العالية للامية

المتفشية بين سكان الريف. فنسبة المتعلمين في فلسطين تبلغ ٨٦٣٪ بين النساء و ٣٠٦٢٪ بين الرجال. اما الحالة في قرى لبنان فهي افضل، لكنها في قرى سوريا والعراق ليست بافضل مما هي عليه في فلسطين. وما يزيد في غرابة الامر ان تقوم حالة كهذه في بلاد لها لغة من اجمل لغات العالم ولها أدب قديم غني بالفن والجمال والثروة. ويحرمان الفلاح من القدرة على القراءة والكتابة تحرمه بلا ريب من اهم وسائل النجاح والتقدم. ولا يستطيع الشرق العربي الذي اخذ الان يمارس حياته الاستقلالية، ان يهمل هذه المشكلة. لذلك نؤكد ان كل فلاح يجب ان يتعلم القراءة والكتابة، لان الفلاح يمثل الاكثرية في بلادنا. وهذه الاكثرية تنقصها الوحدة. ولا ريب ان كثيراً من هذه الوحدة القومية الضرورية تتحقق بواسطة القراءة والكتابة. اني اشك فيما اذا كان زعماء هذه البلدان قد ادركوا كما ادركت باختباري الشخصي ان الفلاح في جنوب فلسطين مثلا لا يعرف شيئاً عن الفلاح في سوريا او العراق او شرق الاردن. ان نظر فلاحنا واختباره لا يتعديان حدود قريته، وهو لا يفهم معنى كلمة بلاد أو امة. وانه ليس من السهل ان نوسع افقه وان نولد فيه شعوراً قومياً، ونبلغ بالشعب الى مستوى ثقافي صحيح، اذا ما بقيت نسبة الامية على ما هي عليه في القرى.

والنقص الثاني في التربية الريفية هو قلة مدارس البنات؛ لقد كانت جهودنا في نشر التربية الريفية حتى الان منحصرة في تربية الرجل مهملين المرأة اهمالا تاما. ففي ريف فلسطين مثلا توجد مدارس للبنات ابتدائية فقط وقليلة جدا. وليست بنات شرق الاردن وسوريا والعراق باوفر حظاً. اما ما يبعث على الامل في هذا الوضع المؤسف، فهو ان الفلاح نفسه اخذ يشعر بهذا النقص ويستاء منه. واننا لا نعني بتأكيدنا على ضرورة زيادة مدارس البنات اغفال مدارس الصبيان والاكتفاء بعددها الحالي، فان نسبة الاميين العالية في الريف تشير بوضوح الى النقص في هذه الناحية. واذا اخذنا الريف الفلسطيني على سبيل المثال فاننا نجد ان ثلاثمائة قرية فقط من اصل ثمانمائة قرية عربية، فيها مدارس حكومية نظامية. واذا امعنا النظر قليلا ولم نجد واحدة من هذه المدارس تتسع لجميع صبيان القرية الذين هم في سن

الدراسة الابتدائية. فهي لا تستطيع ان تستوعب اكثر من نصف طلاب القرية. وهكذا يمكننا بقليل من التفكير ان ندرك بواسطة هذه الحقائق كم نحن بعيدون عن الوضع الامثل: مدرسة في كل قرية، تستوعب كل طالب وطالبة في القرية، على ان يكون التعليم الابتدائي الزامياً.

اما النقص الثالث في التربية الريفية، فهو منهاج الدروس. ولكي يكون هذا المنهاج، في اية بيئة، صالحاً يجب ان يأخذ بعين الاعتبار متطلبات تلك البيئة. ان نظام التعليم الامثل هو ذلك النظام الذي تكون فيه الاعمال المدرسية وحياة البيئة متماثلان، وكلما زادت الشقة بين الاثنين ابتعد ذلك النظام عن الكمال. واذا القينا نظرة على المناهج المختلفة في مدارسنا القروية وجدنا فرقا كبيرا بين مادة التدريس في هذه المناهج وبين حاجات القرية. فهنالك عاملان قويان، يسيطران على هذه المناهج: التقاليد ومناهج المدينة، وهما عاملان خاطئان. فقد جعل العامل الاول من المناهج امرا باليا، رغم اننا نعيش في الزمن الحاضر. ولا يحصل امر كهذا الا حين يجهل القائمون على السياسة التعليمية في بلاد ما، ان المناهج يجب ان تنشأ من البيئة وان تتبدل بتغير حاجاتها وظروفها. فينظرون الى المناهج كشيء قطعي مستقل او هدف بذاته، فلا يلبثون ان يجدوها هيكلا عظميا لا حياة فيه. اما ان نعلم في مدارسنا القروية اليوم ما كنا نعلمه قبل خمسين او عشرين سنة او حتى قبل خمس سنوات فكأننا نعلن افلاس نظامنا التربوي وجموده الذي يدنيه من الموت. اما العامل الثاني، وهو السير على منهاج الدروس في مدارس المدينة، فقد قاد مدرسة القرية وبالتالي شباب القرية الى طريق لا مخرج منها. فلقد وجدنا انفسنا في نهايتها امام الامر الاتي: اما ان يقف الطالب عند تلك المرحلة من الدراسة او ان يكمل تحصيله في مدرسة المدينة. فاذا اختار النهج الاول، كما يفعل ٩٠ ٪ من طلاب القرى، سد السبيل في وجهه حالا فيصبح فلاحا عاديا وعضوا اعتياديا في بيئة القروية، وينسى بعد سنوات قليلة كل ما تعلمه في المدرسة، لان المواضيع التي درسها لا تمت بصلة الى حياته كفلاح، فلا يستفيد منها البتة، ويبدأ حياته كفلاح كما يبدأها اي قروي آخر بفارق واحد وهو قدرته على

القراءة والكتابة. اما اذا اختار النهج الثاني فالتحق بالمدرسة الثانوية فانه في اغلب الاحيان لا يستطيع ان يتابع تحصيله بعد هذه الدراسة، فيجد نفسه في موقف احرج من الموقف الاول، اذ لايعود بامكانه العمل في القرية والعيش فيها كفلاح بسيط لان التحصيل الذي ناله قد أضرّ به بدلا من ان يفيده. وهذا هو العامل الاساسي الذي يفسر هجرة شبابنا من القرية الى المدينة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فان المناهج التربوية في البلاد ونظام تطبيقها ليس موحداً في قرى البلاد، فضلا عن مدنها. وفي الحقيقة ان هذه المشكلة الحيوية لا تتعلق بالقرية فقط بل هي مشكلة البلاد باجمعها. ومن حسن الحظ ان العراق قد اخذ يحل هذه المشكلة. اذ انه تحقق، بعد ان نال استقلاله، انه مسؤول عن مستقبله، كما تحقق ان العمل يجب ان يبدأ في خلق ثقافة موحدة في البلاد.

ولذلك نجد ان في العراق نظاماً للمعارف موحداً يوافق حاجات البلاد ويقود شبانها الى هدف واحد. فما يدرسه طالب القرية في شمال العراق، يدرسه ايضاً ابن القرية في الجنوب، فينشأ هذان، وكل منهما في اقصى طرف من العراق، ولهما طريقة واحدة في التفكير ويعبران عن افكارهما بطريقة واحدة، ولهما آمال واحدة فيفهمان بعضهما بعضا ويتعاونان بسهولة في سبيل مصالح بلادهما. ونجد في قرى فلسطين ايضاً نظاماً موحدا للمعارف. نعم، توجد بعض المدارس الاهلية هنا وهناك ولكنها تشكل اقلية، فالاكثرية الساحقة هي مدارس الحكومة التي تتبع منهاجاً واحداً في كافة انحاء البلاد، كما ان عدد هذه المدارس آخذ في الازدياد ويرجى ان يصبح لكل قرية مدرسة حكومية عما قريب. وقد بدأت دائرة المعارف ايضاً تمد يدها الى المؤسسات التربوية الخاصة حتى في المدن.

ثم ان هنالك نقص رابع في التربية الريفية، هو اهمال تربية الراشدين، اذ ان بعض المسؤولين لا يزالون يعتقدون ان التربية تبدأ بالمدرسة وتنتهي بها. ولقد قام نظام تعليمنا الريفي على اساس هذا الاعتقاد الخاطىء.

ان التربية هي الحياة. وليست مدرسة القرية سوى نقطة الابتداء في عملية

ترافق الحياة وتستمر باستمرارها . اذن لا يجوز التوقف البتة؛ بل علينا ان نتابع تربية الطالب بعد تركه المدرسة بتدريبه على ما يلائمه في حياته القروية ومحيطه الجديد . وفي الحقيقة ان قليلاً جداً مما يتعلمه الطالب في المدرسة يحتفظ به حتى سن الرشد ان لم يتابع تحصيله فيما بعد . خذ مثلاً قضية الكتابة والقراءة وهي اهم ما تجهز به مدارس القرى طلابها، فقد ثبت ان عدداً ضئيلاً جداً من طلاب القرية يحتفظ بالقراءة والكتابة، وان الذين يحتفظون بها لا يستعملونها الا قليلاً، اذ ان الفرص لزيادة المعلومات بواسطة القراءة والكتابة ليست متوفرة في القرية . فقد وجدت اثر تحريات بهذا الصدد قمت بها مع احد مفتشي المعارف في بعض قرى فلسطين ان كثيراً من هذه القرى لا تملك من مواد القراءة والكتابة اكثر من عشرة كتب، وبضع نسخ من القرآن الكريم، ونسختين او ثلاث من قصص عنترة والزير . وفي قليل جداً من القرى كنت اجد مشتركا واحداً في صحيفة . كما ان معظم الطلاب القدماء كانوا يستعملون كتبهم المدرسية القديمة لاجل قراءتهم . وقد اخبرني احدهم انه اعاد قراءة هذه الكتب مراراً متعددة بحيث اصبح يعرفها غيباً . وبالاضافة الى وسائل القراءة والكتابة، هنالك وسائل عديدة لتربية الراشدين، كالوسائل الزراعية التي تحتاج الى اصلاح عظيم والتي يحتاج فيها الفلاح الى الارشاد والنصح، بواسطة المحاضرات والابحاث والمعارض والنماذج الزراعية الخ . كما ان البيت في القرية بحاجة الى عناية من شأنها ان ترشد الفتاة الى كيفية تدبير المنزل وتربية الطفل وغير ذلك من الشؤون البيتية . وبعبارة اوضح نقول ان تربية الراشدين في القرية بالغة في الاهمية اذا شئنا ان نكمل ما بدأته مدرسة القرية ونستفيد منه .

المشكلة الاستجمامية في الريف

تشكو حياة القرى في بلداننا من العزلة والجمود . وعليه فانه من الضروري ان نعير هذه الشكوى اهتماماً جدياً، فنعمد الى تجهيز الفلاح بوسائل الاستجمام . وهذه الوسائل على انواع: منها اللعب . ومهما يكن موقف القرويين، نساء ورجالاً، من هذه الوسيلة الاستجمامية الهامة، فانه بامكاننا تعميمها بينهم . وهذا ما تم في بعض قرى لبنان، اذ اقبل السكان على تنظيم الفرق الرياضية وتشجيعها، فنمت

وازدهرت .

وهنالك ثانياً : تنمية الفن الريفي وتقدير الجمال الريفي الذي يصبح هاماً للاستجمام في القرية . ان محيط القرية الطبيعي مملوء بالجمال، لكن القروي لسوء الحظ لا يقدر هذا الجمال ولا يجد ما فيه من مصدر للمتعة . فعلينا ان نرشده اليه، وان نجعله يحبه ويدخله الى حياته . اما الفن الريفي فلدينا منه الزجل الذي يعبر عن الحياة الريفية تعبيراً جيداً . وبالامكان ان يهذب هذا الشعر، فيصبح ذا اثر عظيم في حياة القرية، اذ به يستطيع الموهوبون ان يعبروا عن مشاعرهم، وبه يجمع احسن ما في الحياة الريفية فينشر ويحفظ للاجيال المقبلة . ويرافق هذا الشعر الذي ينشر عادة، الآلة الموسيقية المعروفة « بالربابة » . ومهما كنا نواقين الى الآلات الموسيقية الحديثة، يجب ان نحافظ على هذه الربابة فهي ملك بيئتنا الريفية . وقد كانت ذات اثر عظيم في الحياة الريفية في الماضي ويمكنها ان تكون ذات اثر عظيم في المستقبل ايضاً . ويمكننا ان نقول الشيء نفسه عن « المجوز » ايضاً . كما ان المسرح الريفي هو عمل فني ايضاً يمكن انماؤه، وعليه يمكن تمثيل نواحي كثيرة من حياة القرية فيتبدل شقاء حياة المزرعة الى جمال وبهجة . فان تمثيل مشهد الفلاحة بلا ريب يحبب الفلاحة الى الفلاح ويزيد ابتهاجه بها . ويمكن بواسطة التمثيل انتقاد نواقص القرية وتحريك القرويين لاصلاحها . وهنا يجب التأكيد ان هذا التمثيل لا يجوز ان يقوم به من هم من غير اهل القرية، بل يجب ان يقوم به اهل القرية انفسهم من بدايته حتى نهايته . اذ انه يجب ان يعبر عن ابداعهم وان يكون جزءاً صحيحاً من ثقافتهم .

ثم ان هنالك الاعياد والاحتفالات الدينية . فهي نوع آخر من الاستجمام الريفي . ويجب ان يكون في كل قرية عطلة اسبوعية، ولكنه من الصعب احياناً ان تقنع الفلاح بضرورة هذه العطلة، ذلك لان جهاد الحياة لا يبقي له وقتاً للتمتع بالراحة . ولكننا نعرف قرى كثيرة تتمتع بهذه العطلة الاسبوعية . ولا ريب في انها كانت بعيدة الاثر في زيادة ثروة حياة الفلاح الاجتماعية، اذ عملت على تخفيف ملل حياته وشقائه . اما الاعياد الدينية فضرورية، اذ انها تساعد على تمكين العلاقات

الاجتماعية بين ابناء القرية الواحدة والقرى المجاورة. على انه ينبغي، الى جانب هذه الاعياد الدينية، تنظيم اعياد فصليه موسمية، كاعياد البرتقال والحنطة، والزيتون وسواها، كما هي الحال في قرى اوروبا واميركا. ولا يخفى ما لهذه الاعياد من الفائدة والاثر في حياة القرويين.

هذه هي اهم المشاكل الريفية، عرضناها بايجاز. ولم يكن قصدنا منها سوى تنبيه المواطنين والمسؤولين ايضاً على زيادة الاهتمام بالريف، لانه العامود الفقري في حياة المجتمع العربي.

الفصل الثالث والثلاثون

تصميم المدن

ان الغرض من هذا الفصل هو جعل المواطنين اكثر تفهما لمشاكل المدن الناشئة.

نشوء المدن

يبعث تزايد السكان مشاكل جديدة تزيد في تعقيد العلاقات الاجتماعية بين الناس. وتعود اسباب هذه المشاكل الى تزايد عدد الناس وتزاحمهم في بقعة معينة.

ولقد اخذت مدن العالم منذ الثورة الصناعية تتضخم في حجمها، فيزداد سكانها خاصة اذا كانت قائمة قرب مناجم الفحم الحجري او الحديد. وقد سبب ذلك تزايد الهجرة الى المدينة حيث الفرص الكثيرة والحياة السريعة النشيطة.

ومما ساعد هذه الهجرة امران: الاول ان نسبة الولادة في المدينة اقل منها في الريف.

والثاني: ان الاراضي الزراعية لم تعد تكفي لاعالة هذا العدد الكبير من السكان.

وفضلاً عن ذلك فان التكنولوجيا قد سهلت وسائل النقل بحيث اصبح بامكان ملايين الناس الحصول على قوتهم اليومي وضروريات حياتهم وهم في مدينة كبيرة.

ان المدن عندما تغص بالسكان يتغير شكلها على اوجه ثلاثة: اولا: تتسع دائرتها فتبنى البيوت في الحدائق والحقول القائمة في ضواحي المدينة. ثانياً: يهدم قلب المدينة ثم يعاد بناؤه في مناطق مستديرة متتابعة مبتدئة من المركز. وتتبدل

بيوت السكن القديمة بالمخازن والابنية التجارية، وتقوم بين هذه الابنية المركزية وبين المنطقة الخارجية، منطقة وسطى تدعى «منطقة الانحلال» حيث تجتمع فيها بيوت السكن القديمة الباليـة. وهذه المنطقة قريبة من منطقة التجارة فلا يرغب فيها لاجل السكن، وهكذا تبقى دون مـا اصلاح ثم تؤجر باثمان بخسة للطبقـات الفقيرة.

ثالثاً: تنمو المدن عموديا اي في الفضاء وتحت الارض.

وحين تنمو المدينة يهتم سكانها بمصالحهم الشخصية اكثر ممـا يفكرون بالمصالح العامة. ولذلك كان على الحكومة ان تضع تعميما لا يسمح للمواطنين بتشييد الابنية الا على اساسه.

اهداف تصميم المدن

ان الهدف من تصميم المدن هو:

١ — تنظيم حركة النقل والتجارة في المستقبل.

٢ — الاقتصاد في الضرائب والنفقات.

٣ — جعل المدينة صحية.

٤ — ضمانة سلامة المواطنين من حوادث الاصطدام.

٥ — تجميل المدينة.

٦ — توفير وسائل الاستجمام للمواطنين.

٧ — المحافظة على الارث التاريخي.

وسنبحث فيما يلي كلا من هذه الاهداف مع ذكر وسائل تحقيقها.

١ — النقل والتجارة: حين تكون المدينة آخذة في النمو، يحتمل ان تصبح شوارعها بعد مدة من الزمن ضيقة. ولهذا وجب أن تجعل الشوارع عريضة، بحيث تظل ملائمة للبناء القائم على جانبيها بعد مدة طويلة. ولتحقيق ذلك يجب ان تقاس حركة النقل في عدة سنوات ويوضع ذلك على خط بياني يساعد على التنبوء عن مستقبل هذه الحركة. فالخطوة الاولى اذن هي قياس حركة النقل في الوقت الحاضر ثم تقديرها في

المستقبل. وبعد ذلك توضع خريطة بالشوارع الجديدة في المناطق التي لم تحتل بعد حول المدينة والشوارع الحالية التي يجب ان توسع او تقدم او تشق من جديد بين الابنية القائمة. ثم يجب ان تخضع جميع الابنية الجديدة لهـذا التصميم. والمألوف ان تبتاع البلدية هذه الابنية ثم تعيد بناءها وتعود فتبيعها بارباح تغطي جميع النفقات التي تكبدتها على التوسيع والاصلاح.

ويجب العمل بموجب الاصول الآتية عند بناء الشوارع الجديدة:

اولا — اما ان تكون الشوارع مستطيلة أو ان تكون مربعة.

ثانياً — ان يطلق على كل شارع اسمه ورقمه؛ فتوضع اشارة بذلك على احدى زواياه لكي يسهل على الناس الاستدلال اليه.

ثالثاً — ان ترقم البيوت ايضاً.

رابعاً — ان تكون الشوارع عريضة، وكذلك ارصفتها المخصصة لسير المارة.

خامساً — ان يسهل سير السيارات والعربات والقطارات دون ما جلبه او ضوضاء او اصطدام.

٢ــ الاقتصاد: والغرض الثاني مـن تصميم المدينة هو تجنب النفقات غير الضرورية في المستقبل؛ وهذا يعني التوفير في الضرائب. لذلك كانت الحاجة شديدة الى مهندسين ماهرين امناء لكي يخططوا الشوارع تخطيطاً حكيما مقتصداً.

ومما يساعد على تحقيق هذا الاقتصاد: «نظام المناطق»؛ فتقسم المدينة على الخريطة الى مناطق تبنى بالنظر الى ما يتم فيها من اعمال. فيكون لنا مثلاً: منطقة الصناعات الثقيلة، ومنطقة الصناعات الخفيفة، والمنطقة التجارية، ومنطقة للسكن درجة اولى، ومناطق للسكن درجة ثانية وثالثة ورابعة، والمناطق العامة حيث تقوم الحدائق والمقابر والحفريات وما الى ذلك. ان هذا التقسيم الى مناطق يمنع التغيرات السريعة والفجائية في اسعار الارض، كما انه ينبىء عن المناطق الصناعية والتجارية ومحلات السكن في المستقبل. وبذلك يمكن ضبط نوع البناء ومقدار ابتعاده عن الطريق ومدى الاتساع بين الابنية.

٣ — الحالة الصحية: وعندما تتوسع المدن وتتزايد في العمران يزداد خطر الامراض المعدية. وفي سبيل منع هذه الامراض يجب ان يأخذ تصميم المدينة الامور الاتية بعين الاعتبار: أولاً — تجهيز المدينة بالمياه النقية. ثانياً — التخلص من الاقذار والنفايات بطريقة صحية. ثالثاً — تنظيف البيوت والشوارع.

٤ — اجتناب الخطر: ومن جملة اغراض تصميم المدن، العمل على تجنب الخطر الناجم عن وقوع الاصطدامات. وللوصول الى هذا الغرض، ينبغي الاهتمام بالملاحظات التالية:

اولاً — ينبغي ان تكون الارصفة واسعة بحيث تستوعب جميع المارة. وفي هذه الحالة تمنع المارة منعا باتا من السير خارج الرصيف، اي في المكان المعد لسير السيارات.

ثانياً — ايقاف شرطي او اقامة اشارات كهربائية لتوجيه السير وضبطه في المنعطفات العامة.

ثالثاً — مد الخطوط الحديدية لسير القاطرات اما فوق الشارع او تحته. ان مد هذه الخطوط على سطح الشارع امر خطر جداً، كما هي الحال في بيروت مثلاً.

رابعاً — ان العمران في المدن الصناعية الكبرى، يقتضي انشاء هذه المدن على اسس حديثة من شأنها ان تسهل المواصلات وتوصلها الى كل بيت. وهذا يتم بتقسيم المدينة الى وحدات تتألف كل منها من مئتين او ثلاثمائة بيت او اكثر. وفي حالة كهذه ينبغي تنظيم السير العام حول هذه الوحدات لا في داخلها. ويشترط في هذه الوحدات ان تحتوي كل ما يحتاج اليه السكان من مخازن ومدارس ومعابد وملاعب، بحيث لا يضطر الاولاد خصوصاً الى التنقل في طريق السير العام.

٥ — الجمال: والغرض الخامس، هو الحرص على جمال المدينة.

وفي سبيل تحقيق هذا الغرض الهام، ينبغي :

اولا — ان تقام الحدائق العامة في انحاء المدينة .

ثانياً — ان تغرس الاشجار على جوانب الطرقات والشوارع .

ثالثاً — ان تخطط الطرقات والشوارع تخطيطاً مستقيما واسعاً .

رابعاً — ان تشيد البنايات تشييداً فنياً قد يفرضه احيانا القسم الفني في البلدية .

خامساً — ان يمنع لصق الاعلانات الا في اماكن معينة .

سادساً — ان تكثر السلطات من اقامة النصب التذكارية الجميلة في الساحات العامة .

وهنالك شروط عديدة اخرى لامجال لذكرها هنا .

٦ — الملاهي . لقد اصبح من الضروري الاهتمام بالملاهي الاستجمامية البريئة التي تساعد المواطنين على تمضية اوقات الفراغ . ان هنالك انواعاً مضرة من الملاهي كسباق الخيل، والقمار، وصيد الحمام، يجب ان لا تشجع على الاطلاق . وعوضاً عنها، يجب على السلطات ان تنشىء انواعاً اخرى من الملاهي، كالحدائق العامة، والاماكن الصالحة للنزهات، والملاعب والمسابح الحديثة للكبار والصغار معاً، والنوادي العامة التي تتسع للمحاضرات والتمثيل والموسيقى والالعاب والمعارض الفنية، والمكتبات المجانية للمطالعة، والرياض المختصة بتسلية الاطفال في غياب امهاتهم .

٧ — الآثار التاريخية . والغرض الاخير الذي يجب ان يهدف اليه تصميم المدينة، هو الاحتفاظ بالآثار التاريخية . ذلك لان هذه الآثار جزء هام من الثروة القومية . فهي تجذب اليها السياح، وتبعث في المواطنين العزة الوطنية والشعور بالولاء لماضي امتهم، وتثير فيهم الحماس لاعمال جليلة قام بها اجدادهم وينبغي عليهم هم القيام بمثلها وباحسن منها . ان الشرق العربي اغنى بقاع الارض بالآثار التاريخية، وكلما ازداد وعي مواطنيه، ازداد معه تقديرهم لما تحتويه من قيم لا يطال اليها ثمن .

فمن واجب السلطات، والحالة هذه، ان يعنوا بهذه الآثار عناية تؤدي الى تعزيزها وحفظها من الاندثار .

الخلاصة

هذه سبعة وسائل هامة ينبغي الاستفادة منها في تصميم المدن الحديثة. ولا ريب في ان بعضها يصعب الاخذ به احيانا. الا انها من الخير ان تكون نصب اعين المسؤولين كمثال اعلى يتطلعون اليه ويعملون على تحقيقه ما وجدوا الى ذلك سبيلا.

الفصل الرابع والثلاثون

الوطنية

غرض هذا الفصل توضيح العلاقات القائمة بين المواطنين والدولة

تعرف الوطنية عادة بأنها « حب المرء لبلاده » ؛ ولكن هذا التعريف مبهم غير صريح . فماذا تعني « بالبلاد » ؟ انقصد بها البلاد التي ولد فيها المرء ام البلاد التي نزح اليها ؟ هل تعني كلمة بلاد في الشرق الادنى البلاد العربية القديمة ام احد اقطار هذه البلاد ؟ ما هي واجبات المرء تجاه بلاده من حيث التضحية والخدمة ؟ ما هو الموقف الاجتماعي الذي ينتج عن الموقف الوطني ؟ اننا نستطيع الاجابة على هذه الاسئلة وامثالها بعد درس نشوء الامم والقومية وتطورهما وفهم معنى الوطنية الحقيقي . ولكن مهما كان شكل الوطنية فهي ميزة عامة من مزايا المجتمع الانساني . فجميع البشر يرغبون في ان يعيشوا مع ابناء جنسهم ويشعرون بشيء من الطمأنينة والرضى حين يكونون في محيط اجتماعي مألوف لديهم .

نهوض البيئات القومية

تعني الوطنية عادة التعلق بالبيئة السياسية والاخلاص لها ، كما تعنى ايضاً الاخلاص الى ثقافة الجماعة وان لم تكن الجماعة منظمة بوحدة سياسية . وقد بلغ هذا النوع من الوطنية درجة رفيعة في عهد الدولة اليونانية والدولة الرومانية ، ولكنها ضعفت في القرون الوسطى . فأصبحت منحصرة في الاخلاص للنظام الاقطاعي والاكليريكي والمهني .

ولقد نشأت الوطنية السياسية بنشوء الامة الحديثة ؛ فكيف تم هذا النشوء ؟ ان الامة تبدأ بالعائلة باعتبارها المجتمع الطبيعي الاول ثم تليها العشيرة ومنها نشأت

القبيلة؛ ثم الشعب، ومنه تكونت الامة. هذا تفسير منطقي بسيط لكيفية نشوء الامة، ولكن هنالك تفسيرات اخرى. وهي ان الامم وحكوماتها نشأت في كثير من الاحوال عن الفتوحات ايضاً. اما مميزات الامة الهامة فهي:

١ — جماعة من الناس، وهي عادة جماعة كبيرة ذات عقلية واحدة وهدف مشترك.

٢ — تعيش في بقعة معينة من الارض،

٣ — ولها نظام حكومي واحد،

٤ — يديره موظفون.

ان لهذا النموذج من التطور القومي اشكالا متنوعة. ففي ايطاليا مثلاً، وهي امة حديثة، يقوم نظام الحكم الحاضر على اساس حكومات المدن، كمدينة فلورنسا، وبيزا، وميلان، وغيرها من المدن الايطالية التي كانت كل واحدة منها مملكة صغيرة تحارب حكومات المدن الاخرى دون ان يكون لها هدف للوحدة القومية، رغم ان الايطاليين كانوا متجانسين ورغم ان جغرافية ايطاليا الطبيعية تساعد كثيراً على الوحدة القومية. فبالقضاء على الدويلات الصغيرة ومجابهة خطر قومي واحد، اصبحت ايطاليا امة واحدة، تقوم عليها دولة واحدة.

والبدعة الحديثة بين الامم هي نظام الانتداب الذي كان القصد منه مساعدة البلدان «التي لا تستطيع ان تحكم نفسها في هذا العالم الحديث.»

لقد كانت النقطة الخامسة من نقاط الرئيس ولسن الاربع عشرة، التي قدمها في مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الاولى، المنبع الرئيسي لفكرة الانتداب؛ ثم وسعت عصبة الامم هذه الفكرة في المادة ٢٢ من ميثاقها، وهذا نص المادة:

«يجب ان تعهد الوصاية على هذه الشعوب (التي كانت تحت سلطة دولة ثم انسلخت عنها)، الى الامم الراقية التي تستطيع بفضل مواردها واختبارها او موقعها الجغرافي ان تتحمل مسؤولية هذه الدول اذا كانت راغبة في ذلك؛ ويجب ان تقوم هذه الدول بهذه الوصاية بصفتها منتدبة من قبل عصبة الامم.» وتنص

المادة السابعة من الميثاق نفسه : « في اي حال من احوال الانتداب ، على الدول المنتدبة ان تقدم تقريراً سنويا الى مجلس العصبة عن شؤون البلاد التي وضعت في عهدتها ».

وقد كان مجموع البلدان التي وضعت تحت الانتداب بعد الحرب العالمية الاولى ، ١٤ دولة تبلغ مساحتها ٢٥٧٨٣١ ميلا مربعاً .

كانت البلدان المنتدبة في الشرق الادنى ، وهي من صنف « A » ، قسما من السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الاولى . وقد انتزعت منها بعد انتهاء الحرب . وقد اتفقت فرنسا وانكلترا في مستهل سنة ١٩١٥ على حصتها من السلطنة العثمانية فسجلت معاهدة سيكس بيكو في ايار عام ١٩١٦ هذا الاتفاق بينهما . وقامت انكلترا ايضاً بمفاوضات مع عرب الحجاز تحت قيادة الملك حسين ، بواسطة السيد هنري مكمهون ، غرضها ان ينضم جلالة الملك الى الحلفاء ضد تركيا . وكانت الممتلكات التركية السابقة عند انتهاء الحرب ، تحت السلطة العسكرية حتى التاسع والعشرين من شهر ايلول عام ١٩٢٣ . فبعد ذلك التاريخ اصبحت فلسطين تحت الانتداب الانكليزي واصبحت سوريا تحت انتداب فرنسا . اما العراق ، فقد انتهى الانتداب الانكليزي عليه بعد اقل من عشر سنوات من ذلك التاريخ واصبحت العراق دولة مستقلة بمعاهدة مصادق عليها من عصبة الامم .

علاقة المواطنين بالدولة

في الفكرة الحديثة عن المواطنة عنصران موروثان عن الحكومات القومية والاقليمية في عهدي البلديات القديم والمتوسط ، وهذان العنصران هما :

ا — فكرة الحرية الشخصية .

ب — الاشتراك في وحدة سياسية ، ويتضمن هذا العنصر ، التعاون في القرارات العامة كحق للمواطن ، والمساهمة في تحمل المسؤوليات العامة كالخدمة العسكرية ودفع الضرائب وما اشبه ذلك من الواجبات .

ويعود الفضل الكبير في فكرة المواطنة الحديثة الى مفكري القرن الثامن

عشر مثل جان جاك روسو الذي وضع المبادىء الديمقراطية الاساسية في كتابه «العقد الاجتماعي»، ومثل «توماس پين» في كتابه «حقوق الانسان»، الذي كان معارضة صريحة لحكم الملك . وقد تم في ذلك الوقت اعلان استقلال الولايات المتحدة الذي قام على المبدأ القائل ان جميع الناس متساوون فى «حق التمتع بالحياة والحرية والسعادة» . وقد كان من جراء هذه الافكار الثورويةان تغيرت المثل العليا المتعلقة بحقوق المواطن وعلاقته بالدولة . فلقد كان على المواطن قبل نشوء الامم الديموقراطية ان يخضع لفرد – الملك؛ وهذه الفكرة، فكرة سيطرة الفرد على الامة فكرة قديمة جداً . ولكن بالرغم من نشؤ الديمقراطية التي تخضع شخصية الفرد للدستور والقانون فان الحكم الفردي عاد الى الظهور في الامم الحديثة تحت ستار الدكتاتوريين الذين يمثلون نوعاً متطرفاً من القومية .

ان الحكومة تخدم المواطنين في النظام الديمقراطي ، وهمها الدائم المحافظة على راحة افراد الشعب وصحتهم وسعادتهم وسلامتهم ونجاحهم وتوفيقهم . وليست الحكومة الديمقراطية سوى واسطة لتحقيق اوفر نصيب من السعادة في الحياة لكل مواطن .

اما موقف النظام الدكتاتوري تجاه المواطنين في الدولة فيختلف تمام الاختلاف . فهو يعتبر المواطنين واسطة ، بينما الغاية هي الدولة ، وهكذا قل عن النظام الشيوعي .

المواطنة

قال ارسطو : «الانسان حيوان سياسي» . والاغريق هم الذين ادخلوا الى تاريخ البشرية مبادىء الديمقراطية ، وان كلمة «ديمقراطية» كلمة يونانية تتألف من كلمتين تعنيان «حكم الشعب». بيد ان هذا التعبير لا يكون ذا معنى واضح ما لم تحدد بوضوح الوسائل والطرق التي تستطيع الحكومة ان تحكم الشعب بها .

ولقد حدث في التاريخ ان قام بين آن وآخر حاكم عرف كيف يتفهم حقوق المواطن العادي . فبين سنة ٢٦٤ – ٢٢٧ ق . م مثلاً ظهر في الهند حاكم اسمه «اسوكا» كتب عنه المؤرخ الانكليزي ويلز الفقرة الآتية في كتابه «ملخص

التاريخ » :

« لقد حكم مملكته الواسعة بسلام وقدرة فائقة، فحفر الآبار في الهند وغرس الاشجار، وقام ضباطه بادارة الاعمال الخيرية، واسس المستشفيات والحدائق العامة. وقد أمر بتعليم شعبه حتى النساء منهم، وادار بلاده مدة ثمان وعشرين سنة بحكمة وتعقل مراعياً فيها حاجات شعبه، ولا يزال اسمه حتى الان مشرقاً من الفولكا الى اليابان . »

ان للمواطن حقوقاً، ما في ذلك ريب . وهذه الحقوق، قد اصبحت معروفة لا تحتمل الجدل. وهي :

١ — حرية الشخص في القضاء على الرق والعبودية .

٢ — حرية الفكر والقول والعمل والنشر .

٣ — حرية اختيار الدستور والموظفين .

وكما ان للمواطن حقوقاً، كذلك فان عليه واجبات . واهم هذه الواجبات :

١ — اطاعة القانون

٢ — دفع الضرائب والخدمة العسكرية اثناء الحرب، وما الى ذلك .

ان العالم اليوم بحاجة ماسة الى الوطنية الواعية التي من شأنها ان تثير في المواطن الرغبة في مساعدة اللاجئين والمحتاجين والمنكوبين، وان تنظم الجماعات تنظيما يسهل حل المشاكل القومية، وان تبعد خطر الدمار عن الجنس البشري .

الفصل الخامس والثلاثون

الشرق والغرب

غاية هذا الفصل هي تحديد الثقافتين الغربية والعربية وتبيان علاقة الواحدة بالاخرى .

قد تتغير العلاقات الاجتماعية بتغير العوامل الطبيعية. بيد ان تغير هذه العلاقات يعود سببه اكثر ما يعود الى العوامل الانسانية؛ سواء كانت هذه العوامل ناشئة عن نهوض النوابغ والمصلحين ام عن الاحتكاك بين الشعوب. ان ما ارمي اليه الآن، في هـذا الفصل، هو ان ابحث باتجاه الاحتكاك بين الغرب والشرق واثره في العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي .

يعود تاريخ هذا الاحتكاك الفعلي الى عهود الحملات الصليبية. ففي تلك العهود، كان اهل الغرب اقل رقياً من اهل الشرق العربي. ولذلك رأيناهم قـد اقتبسوا عنهم اسباب هذا الرقي وجروا في مضماره اشواطاً بعيدة؛ بينما وقف اهل الشرق العربي حيث كانوا. ولم يستيقظوا من سباتهم الا عندما تولى محمد علي باشا الحكم في مصر عام ١٨٣٠ .

وقبل الخوض في تبيان العناصر التي تتكون منها الثقافتين العربية والاوروبية، علينا ان نأتي على ذكر الوسائل التي تم بها الاحتكاك بينهما وهذه الوسائل هي: اولاً الزيارات الدينية التي كان يقوم بها المتدينون الغربيون للاماكن المقدسة. ثانياً، السياح الذين كانوا يطوفون البلاد لاجـل الاصطياف او مشاهدة الآثار التاريخية الرائعة المنتشرة في انحاء الشرق العربي. ثالثاً، المهاجرون الاجانب او المرسلون الدينيون والتجاريون والسياسيون الذين لجأوا الى الاستيطان لبث دعوتهم او ادارة اعمالهم ومصالحهم او تمثيل بلادهم. رابعاً، النفوذ السياسي الذي

فرضته بعض الدول الغربية على بلدان الشرق العربي، والذي كان يتفاوت نوعه وقوته بين بلاد واخرى. خامساً، المواطنون الذين عادوا من المهاجر يحملون معهم ما تأثروا به من العادات والمعارف والعلاقات الاجتماعية الاخرى. ويدخل مع هؤلاء، البعثات العلمية التي كانت تفد الى ديار الغرب طلباً للعلم. سادساً، قراءة الكتب الاوروبية والصحف، ومشاهدة الافلام السينمائية، والاستماع الى محطات الاذاعة وما الى ذلك من وسائل المواصلات.

ولا ريب في ان هذه الوسائل التي تم بواسطتها الاحتكاك بين الشرق والغرب قد اسفرت عن فوائد جمة لا تنكر، على الرغم مما صحبها من مساوىء. ولسوف يستمر بقاء هذه الوسائل وازديادها شئنا ام ابينا. لذلك وجب على العلماء الاجتماعيين والمفكرين المصلحين من ابناء الشرق العربي ان يعملوا على تحذير الشعب وصرف رغبته عن مساوىء المدنية الغربية، وفي الوقت ذاته عليهم ان يعمدوا الى ايضاح فوائد هذه المدنية وتشجيعهم على اقتباسها وتبنيها تبنياً اصيلا. ولعل اهم هذه المساوىء هي: الادمان على المشروبات الروحية، والبغاء الشرعي، وقلة احترام من هم اكبر سناً، وسوء استعمال نظام المعامل، واساليب الاستثمار والاستعمار، وغير ذلك.

اما فوائد المدنية الغربية فعديدة، حسبنا ان نذكر منها اولا — العلم الحديث ومنتجاته كالآلات البخارية والسيارات والبرق وجميع وسائل النقل والمواصلات الحديثة. ثانياً — فكرة التعليم العام للبنات والصبيان، ونظرية المساواة بين الجنسين. ثالثاً — نظام الحكم الديمقراطي والجمهوري وتدرب الاهلين على ممارسته. رابعاً — التساهل الديني او عدم الاكتراث بالفوارق الطائفية في الحياة العامة.

والى جانب هذه الفوائد، هنالك فوائد اخرى متنازع عليها؛ كالزي الغربي في المأكل والمشرب والملبس، والرقص، وضعف الروابط العائلية.

امتزاج الثقافتين

لقد اشرنا في القسم الاول من هذا البحث الى ان ثقافة الشرق والغرب سيمتزجان اكثر فاكثر في المستقبل. وفي الواقع انه يستحيل ان ينقلب الزمن

وتنفصل الثقافتان. فاذا كان هذا هو الحال واجه العرب امر الاختيار بين الثقافتين، فاما ان يحتفظوا بالثقافة القديمة، او ان يبدلوها بالثقافة الجديدة، او ان يختاروا عناصر من هذه واخرى من تلك. ويدلنا تاريخ الثقافات على انه ما لم تكن ثقافة ما متفوقة كل التفوق على الاخرى، كان النهج الاخير، اي الاختيار والمزج بين العناصر هو المعمول به.

وبامكاننا ان نورد قائمة لا نهاية لها من الامثلة حول المزج بين الثقافتين، ولكننا نكتفي بما ذكرنا في هذا الفصل من الحقائق، لاعتقادنا بأنها تكفي القارىء لكي تجعله يشعر بالثغرة العميقة القائمة بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق، هذه التي ينبغي ان تسد عاجلًا بما يلائم الشرق العربي ويساعده على بلوغ المثل العليا التي يتطلع اليها.

الفصل السادس والثلاثون

الامم المتحدة

غرضنا من هذا الفصل ان نظهر للقارىء كيف يمكنه ان يكون مواطناً ليس لوطنه فحسب بل للعالم كله .

ان « الامم المتحدة» هي اكثر من نظام سياسي، هي مبدأ بيئة عالمية منظمة، تجمع كل المؤسسات الرئيسية في قطر يشمل العالم باسره. فدوائر الامم المتحدة لا تحتوي المؤسسات الاقتصادية والتربوية والسياسية والصحية فحسب، بل تهتم بشاكل المؤسسات الاخرى كما سنرى فيما بعد. اذن فكل مواطن في هذا العالم، بصرف النظر عن قوميته، يجب ان يتعرف الى نشأة الامم المتحدة وتنظيمها واهدافها ووظائفها ومشاكلها. وفيما يلي لمحة مختصرة عن ذلك.

نشأة الامم المتحدة

بدأ تنظيم المجتمع البشري بالعائلة كوحدة اساسية، تتألف من الزوجين واولادهما واحيانا بعض اقاربهما. ثم كبرت هذه الوحدة فاصبحت عشيرة او قبيلة. وكانت في الوقت ذاته تتوسع الامارات الاقطاعية في اوروبا بواسطة الملوك لتصبح دولا قومية حديثة كالتي نشأت في القرنين الاخيرين. وقد كسبت بعض هذه الدول، عن طريق الاستعمار او المعاهدات، مستعمرات جديدة. وفي عام ١٩١٤ كان سكان العالم البالغون الفي مليون نسمة، قد انتظموا في حوالى ٦٠ امة مستقلة تختلف بالحجم والقوة، ثم انضمت هذه الامم في كتلتين متنافستين. وقد ادى ذلك التنافس حتما الى حربين كبيرتين في خلال ربع قرن، ادتا الى مقتل عدد غفير من الناس، والى تهديم بعض المنشئات الهامة التي حرص الانسان على انشائها.

وقد اتضح لجميع اذكياء العالم ان هذا الاتجاه المتزايد نحو الحروب الطاحنة الهدامة قد يؤول الى انتحار الجنس البشري اذا لم يوقف عند حد، وان افعل طريقة للحد من قوته هي تنظيم العالم وفق نظام اوسع بثمن نطاق دولي. وقد تعلم الانسان من التاريخ ان النزاع بين الافراد يمكن وقفه بتنظيم السلطة في القبيلة او المملكة، وعليه، اذن، يمكن منع النزاع بين الامم في المستقبل بواسطة تنظيم سلطة دولية عليا يكون لها الحق في معالجة كل الخلافات الناشئة بين الامم.

وهكذا نشأت المحاولة الاولى، بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، لتنظيم عصبة الامم، فوضعت اسسها في معاهدة فرساي عام ١٩١٩، حيث تكون مجلس العصبة من الدول الكبيرة وتكونت جمعيتها من الدول الاخرى، ولكنها كانت تستند الى نقاط ضعيفة مما جعل المحاولة غير ناجحة وحتم القيام باخرى افضل منها. فمن جملة هذه النقاط ان نواقص عصبة الامم لم تكن تشتمل على جميع الامم. كما ان ميثاقها لم يمنح اعضاءها السلطة لمعالجة الخلافات الدولية بقوة وفعالية، ولم يكن باستطاعة مجلسها ان يتخذ قراراً الا بالاجماع. ولم يكن للعصبة قوة عسكرية او شرطة، وكل ما تستطيع ان تقوم به هو اسداء النصح الى اعضائها، وقد كان ذلك النصح ذا فعالية في تسوية كثير من النزاعات البسيطة بين الدول الصغرى، ولكنه لم يتمكن من حسم النزاعات بين الدول الكبرى.

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، قامت محاولة اخرى لتنظيم العالم على اساس ديمقراطي اختباري يحاول ان يمنح اقصى حد ممكن من الحرية والمساواة في الفرص لكل امة من الامم.

وقد اطلقوا على هذه المنظمة العالمية الجديدة اسم « الامم المتحدة ».

ان الامم المتحدة، في الواقع، قد بدأت بالميثاق الاطلسي الذي يتضمن تصريحاً شاملاً للمبادىء والمثل العليا. وقد وقعت كل من الامم المتحدة هذا الميثاق باعتباره هدفاً حربياً رسمياً وتصريحاً عن قصدها في الانضمام الى الامم المتحدة. وعلى

الرغم من ان تفسير الميثاق لا يزال غامضاً في كثير من الاعتبارات وان تطبيقه في كل البلدان، لم يتم بالمساواة التامة حتى الان، فانه يبقى ميثاقاً شاملاً ستبنى عليه الحكومة العالمية، ويتم تحقيقه شيئاً فشيئاً .

ومن الوسائل التي تستعملها الامم المتحدة هي : اولاً — الانرا (دائرة الاغاثة والتعمير) التي قررت بمعاهدة بين الامم المتحدة تنص على ان كل دولة تقدم واحد بالمائة من ميزانيتها لنفقات هذه المؤسسة . وهي منظمة وقتية لمعالجة مشاكل التعمير المستعجلة لما بعد الحرب . وثانياً — اتفاقية (برتون وودس) الدولية التي وفقت الدول فيها الى إقامة « مصرف دولي » لتثبيت اسعار النقد بين مختلف البلدان ، وفي كل ذلك انما وضعت الاسس الاقتصادية للسيطرة على بعض مشاكل العالم الاقتصادية ولمساعدة التجارة العالمية على النمو والازدهار . ثم نظمت بحسب معاهدة اخرى مجالس الامم المتحدة للتربية والتعليم وتنشيط الثقافة ، وربما كانت هذه المجالس بداية « دائرة التربية » في حكومة العالم العتيدة . ولهذه المنظمة منهج واسع حافل بالمشاريع لتسهيل التربية وتشجيعها في مختلف انحاء العالم دون فرض اي نظام تربوي على اية امة . ثم هنالك مؤسسة اخرى تابعة لمنظمة الامم المتحدة تدعى مؤسسة الطعام والزراعة، وهدفها ان تضع التصاميم للانتاج الزراعي وتنظيمه في مختلف البلدان .

وفي سبيل توحيد جميع هذه المؤسسات، تشكلت مؤسسة فوقها جميعاً، في مؤتمر « دمبرتون اوكس » سميت مجلس الامن .

هذه لمحة موجزة عن منظمة الامم المتحدة . وزيادة في الايضاح ، رأينا ان نتوسع في وصفها على طريقة السؤال والجواب .

س — ما هو الميثاق العالمي ؟

ج — هو تصميم لمنظمة الامن العالمية وواجباتها .

س — من اوجد الميثاق العالمي .

ج — الدول العظمى وتسمى الان « الاعضاء الدائمون » — التي وافقت على

س – واذا لم تتمكن هذه المجالس او المحكمة من حل الخلاف فهل تعاد القضايا الى مجلس الامن ؟

ج – نعم اذا كان فيها ما يهدد السلام .

س – ممن يتكون مجلس الامن ؟

ج – من الاعضاء الخمسة الدائمين – الصين وفرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي – ومن ستة اعضاء آخرين تنتخبهم الجمعية العمومية .

س – هل يتبدل اعضاء مجلس الامن بحيث يصيب الاعضاء الاخرين نصيب بالاشتراك فيه ؟

ج – يشترك اعضاء المنظمة في مجلس الامن بالنسبة الى موقعهم الستراتيجي في المحافظة على الامن العالمي، كما ان التوزع الجغرافي يؤخذ بعين الاعتبار .

س – كم هي مدة بقائهم في العضوية

ج – ينتخبون لمده سنتين ولا يجوز اعادة انتخابهم مباشرة بعد انتهاء المدة .

س – كيف يجري التصويت لاجل العمل ؟

ج – يجب ان يجري التصويت باكثرية سبعة اصوات : خمسة منهـا يجب ان تكون للاعضاء الدائمين .

س – اذا نشب خلاف وكان احد الفريقين المختلفين عضواً في مجلس الامن، فهل يستطيع ذلك العضو الاشتراك في البحث ؟

ج – كلا .

س – وهل يستطيع ان ان يقترع عند انتهاء البحث ؟

ج – نعم يستطيع .

س – اذا اقترع احد الاعضاء الدائمين ضد البحث او القرارات المتخذة هل يكون ذلك بمثابة نقض ؟

ج – نعم .

مقترحات دامبرتون اوكس – وهي الصين وبريطانيا العظمى وروسيا والولايات المتحدة، ثم انضمت اليها فيما بعد فرنسا و ٤٥ امة من الامم الصغيرة التي اشتركت في اجتماع الامم المتحدة في سان فرنسيسكوم عام ١٩٤٥ .

س – ما هي الهيئة الاساسية ؟

ج – الجمعية العمومية .

س – ممن تؤلف الجمعية العمومية ؟

ج – كل امة محبة للسلام اذا وافقت على الميثاق تصبح عضوا في الجمعية العمومية .

س – كيف تمثل الامة في المنظمة ؟

ج – العدد الاقصى لممثلي الامة في الجمعية العمومية هو خمسة، ولكن لكل امة صوت واحد فقط عند الاقتراع .

س – ما هي مواعيد اجتماع الجمعية العمومية ؟

ج – تجتمع مرة في السنة .

س – هل تستطيع الجمعية ان تقبل اعضاء جدداً او ان تطرد احد اعضائها ؟

ج – نعم تستطيع ذلك بثلثي اصوات الموجودين والمقترعين على ذلك بعد التوصية من مجلس الامن .

س – هل لها سلطة لتعمل مباشرة على صيانة الامن في العالم ؟

ج – كلا، بل تستطيع ان توصي بذلك الى المجالس المختلفة المنبثقة عنها .

س – ما هي اهم وظائفها ؟

ج – ان اهم وظيفة تقوم بها الجمعية العمومية هي اسماع أصوات الامم الصغيرة ونقل آرائها الى المجالس .

س – ما هي السكرتاريا ؟

ج – هي الهيأة التنفيذية لمنظمة الامم المتحدة .

س – ممن تتألف ؟

ج – تتألف من السكرتير العام وخمسة مندوبين آخرين .

س – هل يختار هؤلاء من الاعضاء الدائمين للمنظمة ؟

ج – ليس ذلك ضروريا. ان شروط الاختيار لهذه المراكز هي الكفاءة والقابلية على القيام بالعمل . وانما يؤخذ بعين الاعتبار التوزع الجغرافي عند القيام بذلك.

س – أمام من يكون هؤلاء الاشخاص مسؤولين ؟

ج – أمام المنظمة بواسطة الجمعية العمومية والمجالس المختلفة .

س – وما هي علاقتهم بالامة التي يمثلونها ؟

ج – ليست لهم اية علاقة بها، اكثر من اعتبارهم مواطنين فرديين فقط، اما ولاؤهم فيجب ان يحصر في المنظمة الدولية .

س – ما هو مجلس الامن؟

ج – هو هيأة تجتمع باستمرار لاجراء اللازم عند التهديد بالعدوان او عند وجود الظروف التي قد تسبب الحرب .

س – كيف يقوم بالعمل ؟

ج – قد يقوم بالمفاوضات بين الفريقين المختلفين، او قد يطلب قطع العلاقات الدبلوماسية وغيرها مع الدولة المعتدية، واخيراً اذا فشلت جميع الوسائل السلمية لتسوية الخلاف، قد يلجأ الى استعمال القوة .

س – هل يتدخل مجلس الامن في جميع الخلافات ؟

ج – يستطيع ان يرفع بعض القضايا الى المجالس الاخرى اذا شاء ذلك .

س – ما هي القضايا التي يرفعها الى هذه المجالس ؟

ج – يرفع القضايا الشرعية الى محكمة العدل الدولية، ويرفع الخلافات الاقتصادية او الاجتماعية الى المجالس الاقتصادية والاجتماعية. اما القضايا المتعلقة بالمناطق غير المستقلة فترفع الى مجلس الوصاية .

س – هل للمنظمة قوة عسكرية تلجأ اليها عند الحاجة ؟

ج – تستطيع ان تلجأ الى القوات العسكرية التابعة لاعضائها .

س – هل يستطيع مجلس الامن ان يأمر احد الاعضاء بتجهيز قوات مسلحة دون استشارته سابقاً ؟

ج – اذا كانت الامة التي يمثلها مشتبكة في الاعمال العسكرية فانها تدعى الى بسط موقفها امام مجلس الامن .

س – هل لمجلس الامن مستشارون عسكريون في حالات كهذه ؟

ج – له لجنة عسكرية تتكون من الرؤساء العسكريين في الامم الخمس الدائمة في المنظمة .

س – هل تضع هذه اللجنة الخطة العسكرية التي يجب ان تتبع ؟

ج – نعم تضعها بالاشتراك مع الرؤساء العسكريين من الاعضاء الاخرين المشتركين في الاعمال العسكرية .

س – على اية امم تستطيع محكمة العدل الدولية ان تصدر الاحكام ؟

ج – على جميع اعضاء المنظمة العالمية واية امة ترفع اليها قضيتها .

س – هل يجب ان يحل الخلاف الدولي بواسطة محكمة العدل الدولية لا سواها من المحاكم ؟

ج – لا تجبر اية امة على رفع قضيتها الى محكمة العدل الدولية ما لم يحتم ذلك مجلس الامن .

س – ما هو مجلس الوصاية ؟

ج – هو هيئة لمعالجة المشاكل الناشئة عن البلدان غير المستقلة والتي تعتمد في حكمها على غيرها من الدول .

س – ما هو غرض هذه المجلس ؟

ج – غرضه ان يحافظ على السلام في العالم وذلك بالعناية باحوال هذه الشعوب

من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعيـة والتربوية، وان يسعى لايصالها الى الحكم الذاتي والاستقلال .

س – من يقوم بهذه المهمة ؟

ج – ممثل خاص كفء من كل من الدول الخمس الدائمة، وممثل من كل من الاعضاء الاخرين الذين يحكمون هذه البلدان غير المستقلة، وعدد مماثل لذلك ينتخبه اعضاء الجمعية العمومية، من بين الامم التي ليست لها وصاية على دول اخرى .

س – اية بلدان او مناطق تعتبر تحت الوصاية ؟

ج – كل البلدان التي هي الان تحت الانتداب، وكل البلدان التي سلخت عن الدول المعادية بنتيجة الحرب العالميـة الثانية، والبلدان التي وضعت طوعا تحت الوصاية من قبل الدول المسؤولة الان عن ادارتها وحكمها .

س – ما هو مجلس الشؤون الاقتصادية والاجتماعية؟

ج – هو مجلس لدرس الشؤون الاقتصادية والاجتماعيـة والثقافية والتربوية والصحية الدولية، وتقديم المقترحات والتوصيات لرفع شأن هذه الامور وزيادة الامن في العالم .

س – ممن يتألف هذا المجلس ؟

ج – يتألف من ١٨ عضواً تنتخبهم الجمعية العمومية لمدة ثلاث سنوات . ويمكن اعادة انتخابهم .

س – كيف يعمل هذا المجلس ؟

ج – يقوم هذا المجلس بعمله بواسطة سلسلة من اللجان، في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وحقوق الانسان وغير ذلك من الشؤون التي تدعو اليها الحاجة .

س – هـل يستطيع المجلس ان يسترشد بآراء الثقاة الاخصائين في هذه المواضيـع ؟

ج – يستطيع ان يطلب من ممثلي بعض الهيئات الاخصائية ان يساهموا في اعمال اللجان دون ان يشتركوا بالتصويت . كما يستطيع ان يسترشد بآراء الهيئات غير

الحكومية التي لها علاقة بالامور التي يجري البحث فيها .

س – هل يمكن تعديل الميثاق ؟

ج – يمكن ان يدخل على الميثاق بعض التعديلات اذا اقترع عليها ثلثا اعضاء الجمعية، ثم وافق على ذلك ثلثا اعضاء المنظمة العالمية، كل على حسب نظمه الدستورية، على ان يكون من جملتهم الاعضاء الخمسة الدائمين .

مشاكل منظمة الامم المتحدة

هنالك، ولا ريب، مشاكل عدة على غاية من الاهمية، تجابه منظمة الامم المتحدة الناشئة . ولعل اهم هذه المشاكل هي :

اولا – مشكلة الوحدة الروحية . ان امم الارض تدين باديان مختلفة . فمن مشاكل منظمة الامم المتحدة ان تعمل على تقوية الروابط بين هذه الاديان على صعيد مثالي واحد تلتقي عليه .

ثانياً – مشكلة السكان . وهذه المشكلة ناجمة عن تزايد سكان العالم يوماً فيوماً . ان هذا التزايد يؤدي ببعض البلدان الى السعي وراء الفتح والتوسع . فعلى الامم المتحدة ان تضع حلاً لهذه المشكلة، من شأنه ان لا ينزل الضرر بالبلدان الضعيفة التي هي عادة الهدف الرئيسي لمساوىء هذا التوسع .

ثالثاً – مشكلة الثروة . ان البلدان تختلف من حيث توزع مواردها القومية ومستوى صناعتها ووفرة اسواقها . فتنشيط التجارة الدولية وغيرها من العوامل التي ترفع مستوى المعيشة في جميع بلدان العالم على السواء، يتطلب من منظمة الامم المتحدة انشاء مؤسسة اقتصادية دولية .

رابعاً – مشكلة السلطة السياسية . ان هذه المشكلة تتخذ وجوهاً متعددة . فهنالك مشكلة التنافس بين الدول العظيمة ثم بين هذه الدول والدول الصغرى، ثم بين الشعوب المستقلة والشعوب المستعمرة، واخيراً بين الاكثرية والاقلية في بلاد ما . فالامم المتحدة، كما نرى، امام تجربة قاسية ان لم تمر فيها بسلام فقدت

كثيراً من ثقة الشعوب بها.

خامساً – مشكلة التربية. وهنالك مشكلة تعليم جميع شعوب العالم من احطها الى ارقاها. يجب ان تقضي التربية العالمية على العداوات الناشئة عن الحروب السابقة، وعلى الجهل والانعزالية، وتعمل على توجيه الاجيال المقبلة نحو الايمان بالتعاون الدولي التام عن طريق حكومة عالمية واحدة هدفها تحقيق الخير للبشرية جمعاء.

الفصل السابع والثلاثون

التاريخ

غرض هذا الفصل هو درس الماضي بالاشارة الى التطورات الهامة التي طمستها التفاصيل في كتب التاريخ.

يطلق عادة مصطلح التاريخ على الحوادث الماضية واعمال البشر المدونة والمسجلة؛ اما المصطلح « ما قبل التاريخ » فيتوغل في تاريخ الانسان الى ابعد من الحقائق التي سجلها التاريخ.

وفيما يلي نورد التصنيف الاتي الذي يساعد القارىء على تفهم الطول النسبي لتلك الادوار الغابرة. ويقسم هذا التصنيف الزمان الى ستة ادوار، تزداد مدتها طولا كلما ابتعدنا عن الحاضر وتوغلنا في الماضي، فكل دور يزيد مائة ضعف عن الدور الذي يليه. وقد ذكرنا في الجدول المدرج ادناه مقابل كل دور الحوادث الرئيسية التي حدثت فيه والتي ميزته بقدر ما يتعلق منه بتاريخ الانسانية.

ويمكننا تلخيص هذه الادوار بمعادلة جبرية يرمز فيها حرف « ز » الى درجة الدور ويرمز حرف « ز » مكبراً الى الزمن بالسنوات من اول الدور الى الوقت الحاضر :

$$ز = ١٠٠^{ز}$$

وسنراجع كلا من هذه الادوار ونعلق عليه باختصار مبتدئين بأقدمها :

ادوار الماضي (اقرأ من الاسفل الى الاعلى)

الدرجة : ز	مبدأ كل دور . عدد السنوات الماضية : ز	الحوادث التي تميز بها كل دور
٠	١ او ١٠٠	السنة الحاضرة
١	١٠٠ او ١٠٠	وُلد الاشخاص الاحياء.
٢	١٠٠٠ او ١٠٠	يبدأ ظهور المدنية في سجلات تاريخية من مصر والعراق والهند.
٣	١٠٠٠٠٠٠ او ١٠٠	الانسان يتطور من الحيوانات
٤	٠٠٠٠٠٠٠٠٠ او ١٠٠	بدء الحياة على الارض
٥	٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ او ١٠٠	بدء النظام الشمسي بولادة شمسنا وسياراتها.

ان هذه التعميمات الست تبين حقائق هامة عن تطور المجتمع الماضي، وقد تكون هذه الحقائق واضحة للبعض ولكننا يجب ان نتأكد ان الانسان لم يتوصل اليها الا بعد جهاد طويل.

الكون يتغير

لقد خمن الانسان الكثير عن مبدأ الاشياء، فقد تخيل ان آلهاً خلق الارض والشمس بلحظة واحدة. وتخيل انهما لم يخلقا بل كانا دائما موجودين. واخيراً، توصل علماء الفلك الحديثين الى براهين علمية تثبت ان سيارتنا (الارض) والسيارات الاخرى وشمسنا جميعها ذات بداية. فشمسنا هي نجم وحياة والنجوم تمر في ادوار من النمو حيث تزداد حرارة وشروقا الى ان تبلغ حداً اقصى ثم تأخذ بالاضمحلال تدريجيا. ويقدر علماء الفلك بان ارضنا قد ولدت منذ ٧ بلايين سنة (٧×١٠^{٩}). ثم بعد مرور ثلاثة او اربعة بلايين سنة انسلخ عن الشمس جسم غازي على شكل السيجارة؛ وربما تمت عملية الانفصال هذه بقوة الجاذبية المتأتية من نجم آخر مر بقربه.

ثم انقسمت هذه الكتلة الغازيـة الى اجرام بردت وتكاثفت فيما بعد فاصبحت الكواكب التي نراها اليوم. وعندما بردت هذه السيارات كونت قشرة صلبة حول كل منها، ثم تكاثف بخار الماء وتساقط بشكل مطر فملأ المنخفضات في هذه القشرة الصلبة، فكانت البحار. وهكذا نجد ان لكل شيء على هذه الارض بداية، ولم يكن هنالك عليها شيء لم يتغير منذ «بداية الزمن» — اذا كان للزمن بداية. وهكذا يظهر لنا ان التغير هو قاعدة عامة شاملة وان الحركة او التغير امر عام دائم مستمر.

وعندما نأتي الى المخلوقات البشرية نقول عن البعض منها انها لم تتغير بذلك لاننا نراقبها في مدة قصيرة من الزمان، اما اذا راقبناها في مدة كافية فاننا نرى انهـا تتغير.

ولقد كان الاعتقاد السائد حتى بضع قرون خلت ان الكون جامـد والكواكب ثابتة والمادة عديمة الحركة الداخلية وان العلاقات البشرية ثابتة. وليست فكرة الحركة في العالم الطبيعي والتقدم في العالم الاجتماعي قديمة العهد. وان هذه النظرة الى التغير باعتباره امراً طبيعياً تعطي المواطنين الفرصة والمسؤولية لتوجيه التغير الى النواحي المرغوب فيها اجتماعياً. ولما كان التغير امراً لا بد منه، فمن الافضل السعي لتوجيهه نحو التقدم. وليس هذا الكتاب الا محاولة لمساعدة القارىء على التفكير بالتغيرات المرغوب فيها في الشرق العربي، وبالتغيرات غير المرغوب فيها.

بدء الحياة

اما الدور الثاني، وهو بدء الحياة على الارض، فانه يتميز بظهور الحياة عـلى ارضنا. وقد كان ظهور هذه الحياة، على ما يعتقد العلماء، في البحر.

ومما يدل على ذلـك، حركة الاشياء التي توجد فيه. فاننا نجد ان الذرات الكيماوية تتجمع وتتفكك بكميات كبيرة في مياه البحر قرب المجاري التي تحمل الاملاح المذابة عند مرورها فوق الارض. وهكذا نجد ان الذرات تجمعت وتجمعت مراراً متوالية. فمن الطبيعي اذن ان نفترض ان حجيرة حية بدأت حياتها عندما

تكونت احدى التجمعات الثابتة التي كانت لها ميزة الاختيار من الذرات المحيطة بها، تلك الذرات التي كانت شبيهة بذراتها والتي تساعدها على زيادة حجمها. اما كيف نشأت هذه الميزة على الاختيار في تجمعات الذرات فلا تزال حقيقة غامضة لم يتوصل الى سبر غورها علماء الحياة.

ويعتقد بعض العلماء ان الحياة نظام معقد مركب من الذرات فقط. بينما يعتقد البعض الاخر ان في الحياة عنصراً غير منظور لا تزال ماهيته سراً مستتراً تحت اسماء متعددة مثل « الروح » « والنفس ». وتتميز المخلوقات الحية عن الجمادات باستطاعتها على التكاثر والحركة والتنفس والاكل. بيد ان هذه الميزات جميعها تستخرج من المخلوقات الحية استخراجاً فردياً كما تستخرج مجتمعة في المختبر من الجمادات.

وحالما تكتسب الجبيرة الحية خاصة الاختيار والتمثيل من محيطها تأخذ بالنمو والتكاثر. واذا ما تغير المحيط يظهر التنوع في الجبيرة، فما كان من هذا التنوع ملائماً للمحيط يستمر، وما كان غير ملائم يضمحل، ثم يأخذ الاول بالتكاثر ناقلا مميزاته الى الانسان. وهكذا قامت عمليات النشوء الثلاثة: التنوع والاختيار والوراثة، خلال ملايين السنين، بتوليد الاجناس الكثيرة التي تعيش في العالم اليوم. اما الدليل على هذه العملية الثلاثيـــة للنشوء والارتقاء فليس من خصائص بحثنا.

اما هذه الحقائق والعوامل التي ذكرناها عن النشوء والارتقاء في هذا الفصل فهي محاولة تظهر للقارىء ان المجتمع اليوم وثقافته المعقدة وشخصياته الممتازة، هي عملية مستمرة من النمو والتطور يبدأ بالهيولى وينتهي بالانسان.

نشوء الانسان

يمتد الدور الثالث من العهد الماضي من مليون سنة الى عشرة آلاف سنة خلت (١٠٠ ٢ — ١٠٠ ٢). وفي هذا الدور نشأ الانسان. ولا تشير العظام المتحجرة التي تعود الى مليون سنة خلت الى اية مميزات بشرية تتميز عن مميزات القردة. اما في آخر هذا الدور فقد ظهرت آثار الانسان الكامل النمو مثل سكان الكهوف في جنوب فرنسا حيث تركوا صور مواقع الصيد في كهوفهم. اما الدليل على نشوء

الانسان من انواع الحياة الحيوانية المنحطة، فنترك تفصيله لكتب العلوم .

ان الانسان مخلوق يتم سلوكه كرجع للحوافز الخارجية من جهة ، وللحوافز الداخلية من جهة ثانية . اما الحوافز الداخلية فهي الحالات الفيزيولوجية كالجوع والتعب والبرد والمرض والحالات العصبية التي تنشأ عن الاختبارات السابقة . فيتقرر سلوك الانسان (س)، اذن، بثلاثة انواع من العوامل : الحوافز الخارجية (م) والحالات الجسمية (خ) والاقتران السابق (ق) . ونرمز الى هذه الحقيقة بالمعادلة الاتية :

س = (م، خ، ق)

ان هذه المعادلة تساعدنا على تحليل سلوك البشر، ولكن ما دامت هذه العوامل الثلاثة لا تزال حتى الان في مرحلة الملاحظة النوعية اكثر منها في مرحلتي الملاحظة الكمية والتوافقية (راجع الفصل الثاني) فانها لا تساعدنا على التنبوء عن سلوك البشر والسيطرة عليه الا بصورة عامة .

وتظهر هذه الحقائق في العبارة التي مؤداها أن « الانسان يسلك »؛ بيد ان رجاعه للمنبهات متغير في كافة انحاء الكون. وقد اخذ رجاعه للمنبه خلال هذا الدور ومن بعده يتحرر تدريجياً من سلطة المنبهات الخارجية ويقرر اكثر فاكثر بعامل الاقتران الناشيء من الاختبار السابق (التعلم) . فان رجع الانسان اليوم لحافز البرد والحرارة والجوع والخطر اقل مما كان عليه في الماضي . ففي سلوكه كثير من الاختيار، وذلك يتوقف على ما سبق له أن تعلمه؛ وهذا التعلم يتعقد باطراد، كما انه يمكن الانسان ان يسلك بدراية وحكمة فتصبح افكاره ومثله العليا اهم نسبيا من محيطه الخارجي . فان العوامل الفكرية والروحية في تقرير سلوك الانسان ورجاعه تتزايد مع الزمان بينما تتناقص العوامل الطبيعية المادية .

تراكم الثقافة

اما الدور الرابع في تصنيفنا للعهود الماضية، فهو الدور التاريخي الذي يبدأ منذ عشرة آلاف سنة (٨٠٠٠ ق . م تقريبا) وينتهي حوالي (١٩٠٠ ب م) ففي هذا

الدور ظهرت المدنيات الاولى في وادي النيل والفرات وانهر الهند. وقد تعلم الانسان في هذا الدور ان يكتب اختباراته ويسجلها، فاستطاع بذلك ان ينقل معلوماته وعاداته ومعداته — وهذه جميعها تكون ثقافته — الى الاجيال التي تليه، فكان كل جيل يضيف الى هذه الثقافة التي كانت تتراكم مع مرور الزمن.

ولقد ظن اليونانيون القدامى ان المدنية قد انحدرت من «عصر ذهبي» سابق، لكنهم جهلوا، كما اثبت علماء السلالات البشرية، ان الثقافة تنشأ من الثقافات الابتدائية البسيطة.

ان رغبة الانسان وسلوكه الناشيء عنها هما اللذان يقرران تراكم الثقافة. اما الانسان فانه يحتفظ بالمعلومات والعادات والمعدات التي يرغب فيها ويضيفها الى مجموع ثقافته، بينما يهمل تلك التي يرغب عنها. وهذه الرغبات الايجابية والسلبية هي التي تقرر ثقافتنا مع مرور الزمن. ثم تنظم هذه القيم في انظمة ترتب بتدرج، فتبتدء باسمى القيم وتنتهي بأدناها. ولكل شخص او شعب نظام للقيم، يحكم به بين الخير والشر ويختار من بينهما ما يرغب فيه. ان هذا النظام للقيم هو اهم مظاهر ثقافتنا المتراكمة. فهو، بتعبير آخر، فلسفتنا في الحياة.

نمو الشخصية

اما الدور الخامس في التاريخ فهو القرن الماضي. ولقد ولد معظم الاحياء اليوم في هذا القرن، انه الدور الذي نعيش فيه، ويسميه المؤرخون عادة دور «التاريخ الحديث».

ما هو التعميم الهام الذي يجب ان نستخلصه من بين التعاميم الكثيرة الممكنة عند بحث هذا الدور؟ أترانا نقول انه الدور الذي تكونت فيه شخصية كل حي في العالم اليوم؟ وما هي الشخصية؟ اليست هي مجموع صفات الانسان: جسمه ومظهره، اخلاقه وطباعه، معلوماته وذكاؤه وفنه ومثله العليا؟ ان بعض الناس يعتبرون ان الشخصية هي اثمن شيء في عالمنا، وربما كانت اهمية لفظة «الشخصية» في لغة العلم الحديث كاهمية لفظة «الروح» او «النفس» في لغة الدين.

فالدين يهتم بتكوين ما نسميه الشخصية المثلى في حين ان علم النفس يهتم بالشخصية كما هي وكيف تنشأ من لا شي عند الولادة حتى تبلغ اكتمال النمو والنضوج. ان التربية علم تطبيقي يأخذ نتائج علم النفس ونتائج علم الانثروبولوجيا او علم درس الانسان، فيختار افضل ما فيهـا ويؤلف بينها في مؤسسة المدرسة. وهكذا تنشأ الشخصية بواسطة المدرسة والبيت اللذين يعلمان الطفل ويقوران عامل السيطرة على السلوك فيما بعد.

وتختلف هذه الفكرة، التي ترى ان الشخصية تنمو وتتباين بتباين الافراد، اختلافاً بيناً عن فكرة الروح القائلة بأن الروح تولد في لحظة وتكون كاملة تامة واحدة في كل فرد.

بداية الخلف

والدور السادس في تصنيفنا للزمان هو الوقت الحاضر.

أما التعميم الذي نختاره له من بين التعاميم الممكن الوصول اليها، فهو مدار بحث هذا الكتاب: بداية الخلف؛ ونعني بذلك ان المجتمع — وهو الناس الذين يعيشون معاً — يقرر حياته الاجتماعية، وان علاقات الناس الاجتماعية، يقررها اناس آخرون لا قوى خارجية. ان الناس يحاولون ان يعملوا ما يرغبون فيه وان يكونوا كما يودون ان يكونوا؛ وما المجتمع الا الناس كما هم وكما يعملون. واذا ما رأينا المجتمع آخذ بالازدياد في الحكم الذاتي الاستقلالي فما ذلك الا لان علاقات البشر بعضهم مع بعض هي اقوى بكثير من علاقاتهم مع الطبيعة.

الفصل الثامن والثلاثون

التصميم الاجتماعي

غرضنا من هذا الفصل ان نثير القارىء على التفكير بمستقبل بيئته ومجتمعه وان يعمل في سبيلها .

يتضمن التصميم الاجتماعي ثلاث مراحل ، اولا : تقرير المثل العليا؛ ثانياً : تقرير انجع الوسائل لتحقيق هذه المثل؛ وثالثاً : ادارة هذين المبدأين . ولكننا قبل ان نبحث هذه المراحل، سنمر بالحركة المتزايدة اليوم في العالم لوضع التصاميم الاجتماعية .

ان التصميم الاجتماعي الشامل حديث النشأة . فقد نشأ جزئياً من فكرة التقدم التي ظهرت في القرون الاخيرة . ويمكننا ان نعرف مصطلح « التقدم » بكونه اي تدبير مرغوب فيه . فاي تغيير هو تقدم بالنسبة الى بعض الناس والى زمن معين، ما دام مرغوبا فيه . فالتغير قد يكون تقدماً بنظر بعض الناس وتأخراً بنظر البعض الاخر، ومثال ذلك : الحرب . فهي تقدم للظافر وتأخر للمقهور . « فالتقدم » اذن هو شيء نسبي للذين يعرفونه، يمتد الى زمن معين، ذلك لان رغبات الناس قد تتغير . ولقد ظن الناس سابقا ان التقدم امر « مطلق »، اي انه واحد لجميع الناس وثابت في كل وقت . ولكن ذلك خطأ اذ ان للناس رغبات مختلفة في الثقافات وفي الادوار المختلفة التي مرت بها هذه الثقافات في تاريخ الحضارة الواحدة .

وبكلمة موجزة، ان هنالك انواعاً كثيرة ودرجات متعددة من « التقدم » الا انه، على العموم، يتركب من الامور التي يرغب فيها الناس اكثر من سواها والتي تكون رغبتهم فيها على اشدها في كل مكان وفي اغلب الازمنة .

ان اليونان قد وجهوا انظارهم نحو عصر ذهبي غابر ولم يتوقعوا التقدم الى حالة

افضل منه في المستقبل. اما في القرون الوسطى فقد ساد الاعتقاد بان المجتمع سيظل جامداً حتى ينهي الله العالم فجأة. وظل الامر كذلك حتى العصر الحديث، اذ اخذ الاعتقاد بامكانية استمرار التقدم نحو ما يرغب فيه الانسان ينتشر ويعم اثره. فاذا كان التقدم ممكناً كانت الرغبة في توجيهه او تصميمه امرا طبيعيا.

والجذر الثاني لفكرة التصميم نشأ من فكرة التطور. فمنذ ان قبلت فكرة التطور البيولوجي والاجتماعي بعد ايام دارون، لم تنشأ فكرة الاعتقاد بان المجتمع سيستمر في التطور فحسب، بل رافقتها الفكرة القائلة بان هذا التطور سيكون تطورا قصديا وشعوريا.

والجذر الثالث لفكرة التصميم نشأ من البحث العلمي؛ ذلك ان البحث العلمي من شأنه ان يعزز قدرة الانسان على التنبؤ عن حوادث المستقبل، هذا التنبؤ الذي يحاول الانسان به ان يغير مجاري الحوادث بحيث يتسنى له ضبطها. ويسمى هذا: التنبؤ المشترك، اي التنبؤ عما يرجح وقوعه اذا سعينا لوقوعه.

اما الجذر الرابع لفكرة التصميم فكان في زيادة نضوج التفكير الديني. فلقد بقي الانسان الوفاً من السنين يعتبر نفسه معتمدا على الالهة او على الله، وانه عاجز قاصر هو بنفسه. وكثيرا ما يتكلم الناس عن انفسهم «كاولاد الله» ويتوسلون الى الله لكي يعتني بهم كما يعتني الاهل باطفالهم. وطفق بعض المفكرين الدينيين يعتقدون ان الله يريد ان يشرك الانسان بمسؤولية العناية بنفسه فترك له حرية التميز والاختيار بين الخير والشر كما اخذ بعضهم ايضاً يعتقدون ان الجنس البشري يجب ان يتطور من الطفولة الدينية الى سن الرشد والنضوج الديني.

ان هذا النوع من التفكير الديني يشدد على واجبات التربية وعلم تحسين النسل والاحتفاظ بالموارد الطبيعية، واعادة بناء نظامنا الاجتماعي، والعمل على تحسين هذا العالم وجعله اصلح لاولادنا.

امثلة عن التصاميم الاجتماعية

لقد نشأت التصاميم الاجتماعية من اتجاهات في التفكير كهذه التي ذكرناها سابقاً. وهنالك عدد كبير من الوسائل التي تشتمل على فكرة التصميم؛ فكل ميزانية هي تصميم بالدخل والمصاريف، وكل دستور او مجموعة من الانظمة، وكل عقد تجاري هو تصميم يبين ما على كل فريق من المتعاقدين من الواجبات والمسؤوليات التي يحتمها القانون. وكل منهاج لحزب سياسي، من شأنه ان يساعد على التنبؤ عن المستقبل القريب، وعلى بسط الحقائق الاولية الاساسية، ان هي كلها الا تصاميم تدخل في نطاق التصميم الاجتماعي العام.

أبعاد التصميم

وانه لمن الخير ان نعمد الان الى تحليل مميزات التصاميم الاجتماعية وابعادها؛ وهذا يعني استقراء مميزات عامة يشترك فيها اي تصميم او مشروع اجتماعي كبيراً كان ام صغيراً.

للتصميم ثمانية ابعاد رئيسية، اي ثماني مميزات. ويختلف كل تصميم او مشروع في الكمية التي يملكها من هذه المميزات. اما هذه الابعاد فهي الآتية:

١ — التقييم — تعيين الاهداف
٢ — وضع المنهاج — تعيين جدول للاعمال
٣ — تعيين المناطق — تعيين المساحات
٤ — تعيين الموظفين — تعيين القائمين بالمشروع
٥ — التوقيت — تعيين جدول الاوقات
٦ — التمويل — تقرير الميزانية
٧ — التسجيل — حفظ السجلات والتقارير
٨ — النشر — تقرير التوتر

وانه لمن الواجب عند التصميم، تعيين كل من هذه الابعاد، اي من الواجب ذكرها

دقة وبطريقة موضوعية مع ذكر تفاصيلها والتعبير عنها عدديا. ومن الواجب كذلك ان تعين بوضوح وبتفصيل كافيين، الاشخاص الذين سيقومون بها، الاعمال التي ينتظر ان يقوموا بها والمعدات التي يستعملونها لذلك. فالمشروع او التصميم، اذن، يعرّف الاهداف الاجتماعية، وهذا ما يسميه العلماء « بالتعريف العملي » للاهداف الاجتماعية، لانه يحدد كيفية العمل والعدة الواجب استعمالها لكي نحصل على الشيء المعرف اي لكي نحصل على اكبر عدد من الاهداف.

تقييم القيم ـ تعيين الاهداف

انه من الضروري ان يتناول اي بحث في التصميم الاجتماعي المثل الاجتماعية العليا او الاهداف التي يرغب الشعب في تحقيقها بواسطة المشروع. واننا بهذه المناسبة سنشير الى بعض الاقوال المشهورة في المثل العليا الاجتماعية، خلال الاجيال. فوصايا موسى العشر التي تشابه مجموعة انظمة حمورابي، هي مثل عليا اجتماعية قديمة صيغت بقالب قوانين للفرد. وقد لخص المسيح هذه الوصايا بقوله « احب الله واحب قريبك ». وان القاعدة الذهبية للاداب والسلوك القائلة: « عامل الغير كما تريدهم ان يعاملوك » هي قاعدة للسلوك الشخصي اوصى بها قادة الدين مثل بوذا وكونفوشيوس والمسيح. وفي جمهورية افلاطون نجد بياناً مفصلاً بالمثل الاجتماعية العليا.

وقد اصبح مثال الاشتراكية الذي ينص هكذا « من كل حسب قابليته لكل حسب حاجته » مثالا اقتصاديا اعلى لتوزيع الثروة. ويعبر الفلاسفة عادة عن مثل الحياة العليا بمصطلحات مثل « الحق والخير والجمال ».

على ان الكشف العلمي الحديث لرغبات الناس، يزيح النقاب عن مثل اجتماعية عليا غير هذه، هي: الصحة، والثروة، والعائلة، والتربية. وقد تختلف هذه المثل باختلاف مكونات المجتمع الاربعة، اي الزمان والمكان والشعب وعلاقات افراده المتبادلة.

وما النزاع القائم بين مثل الديموقراطية والفاشية والشيوعية الا جزء من عملية تمحيص المثل الاجتماعية العليا بواسطة اختبار الانسان في الحياة.

وضع المنهاج — تعيين جدول الاعمال

والخطوة الثانية في التصميم الاجتماعي بعد تعيين الاهداف وتقريرها، هي تعيين منهاج مفصل للخطوات التي يجب ان تتخذ لبلوغ تلك الاهداف. أي يجب ان يكون المنهاج جدولا شاملا لخطوات معينة من العمل.

ان الهدف الرئيسي في وضع منهاج ما هو « خير البشرية ». ويمكننا من اجل ذلك ان نستخدم المؤسسات الاجتماعية. ذلك لان هذه المؤسسات هي اولا عملية كلية وضرورية وشاملة لجميع الثقافات. وثانياً لان هذه المؤسسات ضرورية لحياة الانسان، اذ يظهر ان تبادل العلاقات بين الشعوب في كل مكان يحتم وجود هيئة تعتني بالعائلات وتلبي الحاجات الاقتصادية وتقوم باعباء الحكم وتنظم تعليم الصغار.. الخ. فكل مؤسسة تسد حاجة اساسية في حياة الانسان. وثالثاً لانها تساعدنا على جعل تعريفنا للاهداف تعريفا عمليا.

تعيين المناطق

يجب ان يعين التصميم المنطقة او المساحة التي سيتناولها، مع ذكر تقسيم هذه المنطقة حسب ما هو ضروري للقيام بالمشروع. ان هذه المنطقة قد تكون بيئة واحدة مثل « تصميم مدينة » او قد تكون امة مثل مشروع السنوات الخمس الروسي، او قد تكون العالم بكامله مثل ميثاق منظمة الامم المتحدة. وقد يتطلب هذا التعيين اعادة التقسيم الى مراحل متعددة — مثل البلاد والمنطقة والمدينة والقرية — كما قد يحتاج الى هيئة من الموظفين لتقوم بالمشروع قياماً يشمل كل جزئياته.

تعيين الموظفين

اذا لم يتوفر وجود من يقوم بالمشروع فانه يظل على الورق الى الابد. اما المشاكل المتعلقة باختيار الموظفين والطرق المستعملة لذلك ولقياس كفاءتهم وامانتهم فقد بحثناها في فصل سابق من هذا الكتاب. بيد اننا نحتاج بالاضافة الى الموظفين الذين يقومون بالمشروع الى ثلاثة انواع من « الموظفين » يشكلون :

اولا دوائر البحث، وثانيا لجان التصميم، وثالثا الشعب المساهم.

اننا نحتاج الى دوائر البحث لاجل جمع المعلومات ووضع التقارير.

ونحتاج الى لجان التصميم لاجل وضع التصاميم على ضوء المعلومات التي قدمتها دوائر البحث؛ على ان يكون اعضاء هـذه اللجان من اقدر السياسيين في البلاد، اذ انهم يقررون الاهداف الرئيسية والثانوية واهميتها النسبية، ويقررون مصير الامة، ويعينون سرعة نموها، وقد يلجأون الى استفتاء الرأي العام. ان نجاح التصميم يتوقف، الى درجة كبيرة، على حكمتهم وقوة فهمهم في تقدير امكانيات المستقبل.

اما الشعب فنحتاج اليه لانه اذا اتخذ موقفاً سلبياً، فانه يعمل على فشل التصميم فشلا ذريعاً.

التوقيت ـ تعيين جدول الاوقات

يرتبط تعيين المنهاج بتوقيته ارتباطاً وثيقاً. فمن الواجب تفصيل الوضعية القائمة عند البداية بالمشروع، ومقارنتها تفصيلياً بالهدف او الوضعية التي ينوي بلوغها في آخر المدة المعينة وفي تواريخ خاصة.

ان التصميم الاقل وضوحاً يذكر عملاً دون ان يعين الكمية التي يجب ان تنجز منه سنويا. اما اذا حفظنا سجلات باختباراتنا المتراكمة فاننا نستطيع ان نعين الاتجاهات الجديدة للمستقبل القريب، هذه الاتجاهات التي تنبىء عن سرعة اسباب التغير ونتائجه.

وهكذا فان كل جزء من التصميم الاجتماعي يحتاج الى ادوات ووسائل للقيام به، وبعض هذه الادوات تحتاج الى اصلاح وتحسين قبل ان نتمكن من استعمالها في مشروع كبير. ففي تعيين الوقت مثلاً لمدة اطول من يوم نستعمل التقويم كوسيلة لذلك. والتقويم الذي يسود استعماله معظم اقسام العالم اليوم هو التقويم الغرغوري على الرغم مما فيه من شذوذ.

تعيين الميزانية

يتطلب التصميم الاجتماعي الشامل نفقات باهظة: انه لا يمكن ان يقوم على المتطوعين او الموظفين الحاليين كواجب اضافي يلقى على عواتقهم. فقبل القيام بالمشروع اذن يجب التفكير بالميزانية ومنهاج الاعمال معاً. اما المال فيجب ان يتوفر من مصدر ما. ففي روسيا الشيوعية مثلا امتلكت الحكومة كل وسائل الصناعة والزراعة وقامت بادارتها لحسابها الخاص. ولذلك استطاعت ان تخصص منها قسما لادارة مشروع السنوات الخمس. واذن، لابد لكل مشروع تام من ميزانية تبين كمية المال المخصص لكل خطوة من خطوات العمل المبينة في المنهاج، كما تبين الدخل الذي ينتظر ان يغطي المصاريف.

التسجيل: حفظ السجلات والتقارير

ويجب ان نسجل بوضوح وتفصيل، الوضعية القائمة قبل البداية بتنفيذ المشروع. ثم يجب بعد ذلك تسجيل جميع خطوات العمل في المنهاج مع عدها وتحليلها وتلخيصها احصائيا، كما يجب ان يكون هذا التسجيل بتقارير نثرية وخطوط بيانية. ولما كانت هذه الاعمال اسباباً للتغير الاجتماعي، كان من الضروري تسجيل نتائجها ايضا اي التغير نفسه. وفي المرحلة الاخيرة يجب المقارنة بدقه بين التغيرات المتنبأ عنها بالمشروع، وبين التغيرات التي وقعت فعلا؛ وبذلك تعرف درجة نجاح المشروع.

النشر والدعاية

يجب ان يهتم الشعب كثيرا بالمشروع. فكل عامل او فلاح او مهندس او معلم او محرر جريدة او مذيع يجب ان يقوم بنصيبه ليس من العمل كما وضعت خطته فقط، بل في حث الشعب على مناصرة المشروع. ان حملة من الدعاية البارعة من شأنها ان تثير الشعب وتقنعه بان يعمل بنشاط لتحقيق المشروع. على افراد الشعب ان يشعروا بان المشروع لهم لا للحكومة فقط.

الخلاصة

نستطيع ان نخلق بواسطة التصميم قانونا ونظاما في المجتمع. والقوانين الاجتماعية او الانتظام في سلوك الجماعة تخلقها المشاريع التي وضعها الانسان لنفسه. ولم تكتشف القوانين الاجتماعية كما اكتشف اميركا «كولومبوس»، او كما اكتشف «غاليليو» قانون «تسارع الجاذبية». فليس السلوك المنتظم الا نتيجة التصميم الاجتماعي، هذا التصميم الذي انما هو محاولة يقوم بها الانسان لضبط مستقبله، وطريقة معينة محددة لاختيار المثل الاجتماعية العليا والمنهاج العملي لبلوغ تلك المثل. فعلى كل مواطن ان يفكر بافضل المثل الاجتماعية العليا ويدرس الوسائل العلمية لبلوغها. ولم يكن غرض هذا الكتاب الا مساعدة المواطن على القيام بهذه الامور الهامة جميعاً.

أطبع هذا الكتاب في مطابع صادر ريحاني
بيروت : تلفون ٦٢ — ٦٨

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00347446

الدكتور ستيورت ضود

A.U.B. LIBRARY

دكتور في الفلسفة من جامعة برنستون، ولد في تركيا حيث ترح جده من الولايات المتحدة منذ مائة سنة. وهو منذ ١٨ سنة مدير « قسم الابحاث الاجتماعية » في الجامعة الاميركية في بيروت. ويقوم قسم الابحاث هذا بدرس مشاكل الشرق العربي، فاصدر حتى الان عشرين كتابا علميا، عدا مجلة « الابحاث الاجتماعية ». ونشر الدكتور ضود ثلاثين مقالة في مجلات علمية، وعشرين مقالة اخرى في مجلات عادية، انكليزية وعربية. واهم مؤلفاته كتاب عنوانه : « ابعاد المجتمع » الذي قال فيه بعض النقاد انه قد يقلب عالم علم الاجتماع كما قلب مؤلف « نيوتون » « برنسيبيا » عالم علم الفيزياء.

اما من حيث اهتمامه بمشاكل الشرق العربي فان درسه الشامل الوافي للاحوال الصحية في قرى محافظة اللاذقية الذي جمعه في كتاب سمّاه « تجربة علمية لقياس الاحوال الصحية في ريف سوريا » فيعد الاول من نوعه. وقد استعملت هذه التجربة كنموذج في الصين والهند

وقد اضطر مؤخرا الى ترك الجامعة الاميركية وقبول مركز استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة واشنطون وسافر الى اميركا خلال صيف ١٩٤٧. وفي اثناء الحرب، نظم الدكتور ضود بالتعاون مع الحكومات اللبنانية والسورية والفلسطينية، اول استفتاء علمي في الشرق العربي دار حول الاستماع الى محطات الاذاعة. ثم كلفه مركز قيادة الجنرال « ايزنهور » في شمالي افريقيا وفي لندن القيام بتنظيم استفتاءات في ايطاليا وفي المانيا تساعد الحلفاء على اقامة حكومات من الشعب. وهو الان منصرف الى هذا « الهدف العلمي »، وهو تجهيز الديمقراطية بأداة لقياس رغبة الشعب، تكون بمثابة « بروميتر لقياس الامن الدولي »

دار الكتاب مؤسسة ثقافية، غرضها المساهمة الفعالة في تعزيز المعرفة والحق والحرية عن طريق التأليف والترجمة والنشر؛ ورسالتها الدعوة لعودة التراث العربي الأصيل الى خومة التفاعل الصميم الخلاق في التاريخ الإنساني؛ ومبدأها الإيمان الذي لا يتزعزع بالإنسان، وبقدرته على تحقيق الكيان السامي المنبثق من اشراق روحه وعقله

CA
AUB
965.6
M36A
v.1